توحش الضمير الليبرالي

وسقوط الهيمنة الأمريكية

دراسة تتناول كشف القناع المزيف عن أكذوبة الليبرالية

وتفضح وجهها القبيح بالصوت والصورة

المؤلف بسام المشاقبة



دار المأمون للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٣٣
هـ - ٢٠١٢م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١١/١١/٤١٥٣)

الجرايدة، بسام عبد الرحمن
توحش الضمير الليبرالي وسقوط الهيمنة الأمريكية/ بسام عبد الرحمن الجرايدة ._ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٢.
(٣٠٠) ص
ر.أ.: (٢٠١١/١١/٤١٥٣).

❖أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.



الاهداء

اهدي هذا الكتاب إلى الأصوات التي تناضل بالقلم والفكر لفضح وكشف زيف كهنة الليبرالية الجديدة المتوحشة، اعترافا بفضلهم وتحقيقا للنبوءة القائلة " اما عدالة اجتماعية للانسانية أو فوضى عارمة، واهدي هذا العمل إلى التيار الوطني الاردني المقاوم لنهج الليبرالية الجديدة والاسرلة والتـــــــــــــوطين.

المؤلف بسام المشاقبة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

جاء هذا الكتاب على ضوء تنامي وتصاعد تطبيق الليبرالية المتوحشة في معظم دول العالم، حيث ابهر المجتمع الانساني على واقع هذه التجربة، بعد إن تم تبليعه طعم الليبرالية معتقدا انها الدواء الشافي لكل ازمات البشرية، والحقيقة كانت غير ذلك فهذا الطعم تبين للعقلاء انه طعم سام وقاتل ومفتت للانسانية بل بعبارة أخرى إن هذا الفيروس نشر الجراثيم الفتاكة والامراض الخطيرة، وما زالت البشرية تدفع ثمنه، وهذا الكتاب يجيب على كافة الاسئلة التي تدور حول الليبرالية من حيث المفهوم والايدولوجية وكيفية مقاومتها واستئصالها .

وقبل إن استعرض الابواب الرئيسية لهذا الكتاب، اود إن اوضح إن الاسباب الموجبة التي دفعتني لسبر غور هذا الموضوع الشائك والمعقد والذي يحتاج إلى المراجع والمصادر العلمية التي تساعد للاطلاع على مبادئ الليبرالية بشقيها الكلاسيكي والنيوليبرالي، المهم إن الذي حرضني للكتابة في هذا الموضوع هو ما قاله جلالة الملك عبدالله الثاني بن الحسين في المقابلة الشهيرة التي بثتها وكالة الانباء الاردنية خلال السجال الفكري العنيف الذي دار على الساحة الاردنية وعبر وسائل الاعلام ما بين انصار تيار الدولة الذين يمثلون اغلبية المجتمع الاردني، وتيار انصار الليبرالية الجديدة الذين يمثلون الاقلية القليلة الحاكمة والممثلة في السلطة التنفيذية، حيث تساءل جلالته خلال المقابلة موجها كلامه للتيار المناوئ لليبرالية الجديدة قائلا " انني اسمع باستمرار عبارة الليبرالية الجديدة أو الليبراليين الجدد، ويتم تناقلها، وانا شخصيا اعتقد إن بعض الناس يستعملون كلمات كبيرة لا يفهمون معناها "، ومن هنا فقد جاء هذا الكتاب ليملئ الفراغ عن مفهوم الليبرالية بشقيها الكلاسيكي والنيوليبرالي من جهة، ويفضح هذه العقيدة الاقتصادية التي ساهمت في افقار البشرية من خلال اللجؤ إلى الوسائل المتوحشة والقذرة لاذلال الشعوب وتصفية المجتمع الانساني برمته تحت بند ما يستجد وهو الربحية أي النهب لمقدرات الشعوب الفقيرة .

وللتدليل على ما نقول فقد شاهد العالم والمجتمع الانساني آخر فصل من فصول مسرحيات الليبرالية الجديدة، وقد تابع العالمباكمله مسلسل تصدعات الرأسمالية المتوحشة، وشاهد بام عينيه ماذا جرى في اسواق المال العالمية وخاصة في منظومة مراكز الرأسمالية، وسيطلع القارئ في هذا الكتاب على حقائق مذهلة ومرعبة، ولا اخفيكم الحقيقة فاثناء اطلاعي على محنة الشعوب التي تضررت من وقع الليبرالية المتوحشة وخاصة شعوب الهند الصينية والافارقة قد جمدت الدماء في عروقي خاصة عندما اطلعت على تاريخ الليبرالية المتوحشة، ولذا جاء هذا الكتاب من خضم هذه المأساة الانسانية، واخترت له العنوان التالي " الوجه القبيح لليبرالية بشقيها الكلاسيكي والنيوليبرالي "،

إن المجتمع هذه الايام بأمس الحاجة لمقاومة الجرثيم الليبرالية، ويجب إن تتكاتف البشرية لمحاربة هذا الخطر والذي اعتبره اخطر من انفلونزا الخنازير، وان مقاومة هذا المرض لن تتأتى من منطلق فردي بل لا بد من مواجهة كل الليبراليين وعقيدتهم العفنة ومحاصرتها، واذا تمكنا منها فلا بد من طمرها وحرقها ومحاصرة كل انصارها واستئصالهم من كافة المؤسسات الرسمية والاهلية، فهم خطر يهدد كيان المجتمع البشري برمته .

هذا وقد اشتمل الكتاب على خمسة ابواب، فالباب الاول ناقشنا من خلاله نشاءة الليبرالية الكلاسيكية، وفي الباب الثاني تحدثنا عن الليبرالية النيوكلاسيكية، بينما الباب الثالث تحثنا عن الليبرالية العربية الجديدة، وفي الباب الرابع استعرضنا الأزمة الاقتصادية العالمية الحالية، وتطرقنا إلى أزمة الاقتصاد الأمريكي الذي هو عنوان أزمة الليبرالية المتوحشة، فيما تطرقنا في الباب الخامس إلى موقف الدين من الرأسمالية من جهة، ومقاومتها من ناحية أخرى، وقدقدمنا اسهامات فكرية لعدد من رجالات الفكر الإسلامي والمسيحي، ثم استعرضنا الخطاب الإسلامي وموقفه من الرأسمالية، ثم اختتمنا الكتاب على شكل برنامج عمل نضالي لمقاومة الليبرالية الجديدة، آملا إن يكون هذا الكتاب كجهد ثقافي لمقاومة خطر الليبرالية المتوحشة، وخاصة ونحن في الاردن ادمتنا جراحات الليبرالية المتوحشة، واكتشفنا إن نتائجها كانت مدمرة وفاشلة بل يمكننا القول انها لم تتجاوز الظاهرة الصوتية، وان نتائجها المأساوية على الاقتصاد الوطني لمسها القاصي والداني، والادهى إن التيار الليبرالي ما زال يقود مسيرة الاقتصاد الوطني الاردني وما زال يهيمن على الحياة الاجتماعيةوالسياسية، والايام اثبتت إن المسيرة الاقتصادية تراجعت إلى مرحلةما قبل عام ١٩٨٨ أي قبل اشتعال انتفاضة نيسان المجيدة، ولذلك فان الدولة الاردنية مضطرة في هذا المنعطف إن تعلن انتفاضة بيضاء لتطهير اجهزة الدولة ومؤسساتها من رجس الليبرالية والليبراليين حتى نتمكن من التعاطي مع المشهدين الاقتصادي والاجتماعي الاردني للخروج من انياب الليبرالية المتوحشة وانقاذ ملايين الفقراء وانقاذ الدولة واعادتها إلى القها من اجل المحافظة على مسيرة بلدنا قبل فوات الاوان، والحل لن يكون إلا بالعودة إلى الخيار الكنزي أي العودة إلى عقل الدولة الوطنية، والا فاننا مقبلون على كمشهد دامي اما الدولة الديمقراطية الوطنية واما الانفلات والفوضى والدمار .

المؤلف : بسام المشاقبه

الباب الأول

الليبرالية ما بين الايدولوجيا والفلسفة

الفصل الأول: الليبرالية مفهومها ونشأتها

تعريف الليبرالية ومفهومها: هناك عدة تعريفات لليبرالية حيث أن كل تعريف يختلف عن الأخر لكنها تلتقي في المضمون وتختلف في الشكل حيث سنقف على مجمل التعاريف التي تحدثت عن الليبرالية، ونضع تعريفا واضحا محدد الأطر، والسؤال المطروح ماذا تعني الليبرالية؟

الليبرالية: هي مصطلح سياسي واقتصادي برز في أوروبا منذ القرن السابع عشر، واقترن بالثورة الصناعية، وظهور الطبقة البرجوازية الوسطى في المجتمع الأوروبي، ويقصد بها الليبرالية التحررية، وهي تمثل صراع الطبقة الصناعية والتجارية الجديدة ضد القوى التقليدية التي كانت تجمع ما بين الملكية الاستبدادية والكنسية وطبقة الإقطاع، فالليبرالية السياسية كانت تهدف إلى إقامة حكومة برلمانية والى تأكيد حرية الصحافة، والكلمة وحرية العبادة، وإلغاء الامتيازات الطبقية، وهي من الناحية الاقتصادية تعني حرية التجارة الخارجية،وعدم تدخل الدولة في شؤون الاقتصاد إلا في أضيق الحدود باعتبار هذا التدخل يقضي على ازدهار النشاط الاقتصادي،وقد تطورت هذه الأهداف مع الزمن، ومع قيام الأحزاب الليبرالية في بريطانية، وأصبحت تشمل من الناحية السياسية منح حق التمثيل السياسي لجميع المواطنين، ومن الناحية الاقتصادية عدم الاعتراض على تدخل الدولة في تنظيم الاقتصاد الوطني ما دام هذا التدخل في الحدود التي تؤمن حدا أدنى كريما لحياة جميع المواطنين وهو الاتجاه الاشتراكي الديمقراطي(١).

الليبرالية:الليبرالية مذهب فكري وسياسي ينادي بالحرية المطلقة في الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ويقوم على مبدءا الاستقلالية للأفراد والمجتمعات والدول، ومعناه الحقيقي التحرر التام من كل أنواع الإكراه الخارجي،أو الداخلي سواء أكان دولة أم جماعة أم فردا ثم التصرف وفق ما يمليه قانون النفس ورغباتها والانطلاق نحو تكريس الحريات ضمن عقد اجتماعي تتفق عليه الأغلبية بكل صوره المادية والمعنوية بين الدولة والمجتمع،إن الليبرالية وراء إنتاج الظواهر التاريخية الكبرى الحديثة (٢).

_إن الليبرالية هي تلك الأسلوب الذي يعد حصيلة لصراع الإنسان إزاء اضطهاده بعد كسبه لتجارب لا تحصى كي يصل إلى هذا المستوى من التفكير بعيدا عن إي قيود تعيق تقدمه وازدهاره وانطلاقه (٣).

الليبرالية تعني : مجموعة من القيم والأفكار تدور حول الفرد والسلطة ترمي إلى تحرير الفرد من كل القيود التي تكبله، فالليبرالية من حيث اصلها جاءت كرد فعل

ضد تحكم كل سلطة مطلقة تستهدف القضاء على كل امتياز موروث يتعارض ومبدءا المساواة بين الأفراد(٤).

الليبرالية : هي نظام السوق الحر، ونظام المبادرة، وحرية العمل، والتجارة، والاقتصاد الحر، وكل هذه المسميات لا تخرج من مدلولها عن المضمون العام للرأسمالية كونها نظام اقتصادي يقوم على فلسفة اجتماعية وسياسية تعتمد على إطلاق حرية الأفراد، والشركات في امتلاك وسائل النتاج، وتحقيق الربح الخاص، وإدارة اغلب الموارد المستخدمة في إنتاج السلع والخدمات في ظل منافسة حرة، وحرية اقتصادية تامة بعيدة عن تدخل الحكومات بدرجة كبيرة، وضمن آليات كالعرض والطلب تفضي إلى تحقيق المنفعة المتبادلة بين الفرد والمجتمع (٥).

بعد هذا العرض عن الليبرالية يمكننا القول أن نخرج بتعريف لليبرالية بمفهومها العام يرتكز بالدرجة الأولى على إطلاق حرية السوق والاقتصاد ومنع تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي لتحقيق الهدف الأول والغاية الأولى لليبرالية وهو الربح.

نشأة الليبرالية

ظهر الفيروس الليبرالي لاول مرة في التاريخ في القرن السادس عشر داخل المثلث المحدود(باريس، لندن،أمستردام)(٦).فقد انبثقت فكرة الليبرالية بين معسكر الاستبداد والإقطاع ورجال الكنيسة من جهة، وأحرار أوروبا والغرب من جهة أخرى.فقد جاءت من رحم فقهاء العقد الاجتماعي وعلى رأسهم المفكر (روسو)الذي اعتبر الحرية الحقة التي اشتر عناها لانفسنا وهي بحسب هذا المفهوم عملية انكفاء على الداخل أي النفس، وعملية انفتاح تجاه القوانين التي تشرعها النفس فالانكفاء على الداخل تمرد وهروب من كل ما هو خارجي، والانفتاح طاعة القوانين التي تشرعها النفس من الداخل ويمكن أن تمثل الليبرالية حالة انكفاء على استقلالية النفس مع الانفتاح على إتباع قوانين الدولة واحترام طقوس المجتمع.

إن الليبرالية انبثقت كما اشرنا من آراء فقهاء العقد الاجتماعي وخاصا إسهامات (جون لوك،جون ميل)، هذا ما يطلق عليه بالليبرالية السياسية،اما الليبرالية الاقتصادية فجآءت من خلال اسهامات (آدم سميث)، هذا وتشير المصادر التاريخية الى ان الافكار الليبرالية ظهرت مع بدايات عصر التنوير، وحتى بزوغ الثورة الصناعية (١٧٥٠ـ١٨٥٠)، وقد اعتبر المؤرخون ان هذه البدايات كانت البدايات الذهبية للافكار الليبرالية، فقد جاءت الليبرالية آنذاك بعد الانتصار الباهر على النظام الاقطاعي الذي ساد العصور الوسطى، وهو النظام الذي كان يرتكز على الاستبداد والعبودية وقهر حرية الفرد وحقوق الانسان وشكل آنذاك سدا منيعا في ولادة الرأسمالية وتطورها فيما بعد منذ بزوغ فجرها، هذا وقد تجلت الافكار الليبرالية بان تم اعادة تعريف او اكتشاف الفرد، وحقوقه، وقدرته على التغير والسيطرة على الطبيعة، ولهذا ففي اللحظة التي ظهرت فيها الافكار الليبرالية كمنظومة ايدولوجية كاملة تعبر عن مصلحة الرأسمالية الوليدة حتى انتشرت بسرعة فائقة في مختلف انحاء اوروبا وغيرها من بلدان العالم، ولم يكن من الممكن لسرعة هذا الانتشار ان

يتحقق لو لم تكن متفقة الى ابعد الحدود واحتياجات النظام الرأسمالى، هذ ويرجع الفضل الى انتشار هذا المصطلح الى تكوين حزب سياسي في اسبانيا اطلق عليه الحزب الليبرالي اعتنق اعضآؤه المبادئ الدستورية البريطانية التي هدفت الى تقييد سلطة الحاكم وكفالة حقوق الفراد، وسعوا عام ١٨١٠ الى تطبيقها في الحياة السياسية الاسبانية، وسرعان ما اشاع استخدام هذا المصطلح في جميع انحاء العالم وخاصة اوروبا وقصد آنذاك انصار النظام الليبرالي البرلماني ودعاة حرية الفكر وحرية التجارة وحرية الملكية الخاصة، واطلق على وصف الليبرالية على التنظيم السياسي الذي يتبنى هذه المبادئ ويشيد بنيانه الدستوري على قاعدتها، وقد تبلور هيكل هذا البنيان في القرن التاسع عشر، وقامت فلسفته على الايمان المطلق بامكانية تحقيق الرضى العالمي نتيجة اطلاق القوى الطبيعية وتحريرها من القيود وذلك تعبيرا عن الثقة في قدرة الفرد واهليته في التنسيق بين سعادته الخاصة وسعادة مجتمعه وتحقيقها في آن واحد(٧).

ان الكثيرين من المفكرين اعتقدوا ان الديموقراطية الليبرالية تشكل نهاية التاريخ خاصة بعد ان فشلت تنبؤات وحتميات (كارل ماركس)في التفسير المادي للتاريخ فها هي الرأسمالية تتقدم وتتطور قبل وبعد قيام الاشتراكية العلمية، وتمكنت خلال قرون ثلاث ان تصحح من مسيرتها وتعالج العديد من عيوبها وأخطاءها. هذا وقد اشرنا استنادا الى المصادر التاريخية الى ان الافكار الليبرالية ظهرت خلال الفترة الممتدة ما بين عصر التنوير،والنهوض الاوروبي وحتى اعلان قيام الثورة الصناعية(١٧٥٠ـ١٨٥٠) اي انها جاءت كحركة تنويرية من خلال انتصارها الكاسح والماسح على النظام الاقطاعي الذي حكم اوروبا في العصور الوسطى، وهذا النظام الذي شوه سمعة تاريخ اوروبا والذي استند على الاستبداد والقهر والتسلط والعبودية وحبس واعتقال الحرية الفردية، والاهم انه شكل سدا منيعا في ولادة تطور الرأسمالية منذ فجر ظهورها بمؤسساته وقيمه وعلاقاته الاجتماعية، ولذلك فقد تنبه الفلاسفة التنويريون الليبراليرن لاحقا واستخلصوا العبر من انهيار النظام الاقطاعي، وادركوا ملامح المرحلة القادمة بولادة جديدة وزمن اجتماعي جديد للتطور، وقد انصبت آراء هؤلاء المفكرين والفلاسفة الليبراليين التنويريين من خلال برنامج العمل التالي"يجب العمل على تحطيم الافكار التي ساهمت في تغذية النظام الاقطاعي من خلال العمل على تسليح العقلية الرأسمالية الوليدة بنظرة مختلفة من خلال اعادة اكتشاف الانسان وحقوقه وقدرته على الاصلاح والتغيير والعمل للسيطرة على الطبيعة وبالفعل وما ان ظهرت افكار التنويريين كمنظومة ايدولوجية كاملة تعبر عن مصلحة الفرد الا وتلقفتها الرأسمالية الوليدة حتى انتشرت في المجتمع الاوروبي كانتشار النار في الهشيم. والسؤال الذي يطرح نفسه كيف انتشرت افكار الليبرالية التنويرية بهذه السرعة؟، لقد انتشرت الافكار الليبرالية بهذه السرعة للاسباب التالية:

١) تطابق الافكار التنويرية الليبرالية مع عقيدة الرأسمالية الصناعية من خلال فتح اسواق جديدة.

٢) ظهرت الافكار الليبرالية في اللحظة التي طالب رجال الصناعة الرأسمالية بازالة كل العوائق امام الرأسمالية الصناعية اي اطلاق حرية المنافسة من كل قيد اي ابعاد الدولة عن النشاط الاقتصادي وتحديد وظائفها في الامن الداخلي والخارجي.

٣) تتكفل حرية المنافسة والمبادرات الفردية وآليات السوق بتحقيق مصالح المجتمع، هذا وقد عبر الاب الروحي لليبرالية (آدم سميث) عن هذه الفكرة من خلال اليد الخفية حيث كان مفهوم الليبرالية ينصب على تمكين الفرد من ممارسة اقصى درجات الحرية اي من خلال مبدأي الصراع والمنافسة اي البقاء للاصلح والاقوى وانه لكي يتحقق مبدأالتوافق ما بين المصلحة الفردية والمصلحة العامة لابد من تطبيق سياسة عدم التدخل اي توفير الحد الادنى من الحريات الاساسية للانسان وهي :"حرية العمل، وحرية التعاقد، وحرية التجارة وحرية التنافس "، ولذلك فان افضل السبل لاستمرار ديمومة هذه الحريات فلا بد من عدم تدخل الحكومات والمنظمات الاجتماعية في عمل هذه القوانين والا ازدادت الامور سوءا وتعقيدا .

ومن هنا يمكننا القول ان الرأسمالية الصناعية ساهمت مساهمة كبيرة في اختطاف الليبرالية والافكار التنويرية وشنت عمليات صاعقة وخاصة في انجلترا لمقاومة التشريعات المتعلقة بالعمل والعملات والحد من مساعدة الفقراء والغاء قوانين الحبوب والملاحة واطلاق حرية التجارة عبر البحار وتحجيم نطاق النشاط الحكومي وان تكون الضرائب قليلة جدا ."٨"ولذاك لابد من التأكيد الى ان الافكار والنزعات الليبرالية التي ظهرت خلال مرحلة الرأسمالية الميركنتيلية ركزت على الحقوق الفردية كحق التعبير والعقيدة والتمثيل النيابي والمشاركة في القرار السياسي ولم يقتصر نشاطها على الجانب الاقتصادي مع ان هذا الجانب يعتبر لب فلسفة الليبرالية، والسبب في تسليط الليبرالية على الجانب الاقتصادي على حساب السياسي يعود الى النزعة البرجوازية الصاعدة والتي تمسكت بالخيار الاقتصادي لتحقيق اكبر حجم من الارباح والاستثمارات وجني الثروات، وان هذا الانجاز من وجهة نظر البرجوازية الليبرالية يعود الى نضالها الفردي وحسن تدبيرها واقدامها على المغامرة، ومن هنا يشير الباحثون في الاقتصاد السياسي الى ان الطبقة البرجوازية وقفت في البداية ضد اي جهة كانت تحاول المساس بحريتها الاقتصادية اي الحد من زيادة الارباح والثروات واحتكارها للسلطة .

ووجدنا من الباحثين من يشكك تشكيك نسبي من ان الليبرالية الاقتصادية هي الوجه الآخر لليبرالية السياسية والتي تشتمل على مبداء التعددية السياسية وحرية تكوين الاحزاب السياسية والنقابات ومؤسسات المجتمع المدني وانشاء البرلمانات وحرية الصحافة، ومن هنا فقد اشارت الدراسات التاريخية الى انه قد يجري خلف ضباب الليبرالية معارك طاحنة كان يقودها الليبرالين الحقيقون الذين يدافعون عن مشروعية الديمقراطية في مواجهة الليبرالية المزيفة حيث جرت معارك ضارية وقدمت تضحيات كبيرة جدا عبر العشرات بل والمئات من السنين لكي يتم ارضاخ الرأسمالية للمطالب الديمقراطية من جانب القوى الشعبية المناضلة والمناهضة للرأسمالية للمطالبة بحقوقها السياسية وخاصة تأسيس الاحزاب وحرية الاجتماع والتظاهر والمشاركة في العملية الانتخابية، والتاريخ اثبت ان الرأسمالية عندما تعيش في اجواء الازمات فان اول ما تضحي به هي الديمقراطية وتريق دمها امام الاشهاد كما حدث ذلك في منتصف القرن الماضي كما جرى في المانيا النازية وايطاليا الفاشية وابان مرحلة الماكرثية في امريكا، ومن هنا يمكننا القول بالرغم من الانجازات العظيمة التي حققتها الرأسمالية الصناعية وربيبتها الليبرالية الاقتصادية

من تقدم هائل وعظيم في قوى الانتاج والتدخل والتراكم الرأسمالي، الا ان الخبرة التاريخية تشير الى ان هذه الليبرالية سرعان ما كشف عن عيوبها الاجتماعية وعلى النحو التالي:

١- استغلال العمال والنساء والاطفال ابشع اشكال الاستغلال خاصة في المراحل الاولى للرأسمالية الصناعية.

٢- انتشار البطالة وبروز التباين والفوارق الاجتماعية والآزمات الاقتصادية.

٣- التطاحن الضاري على الاسواق الخارجية ومنابع انتاج المواد الخام (٩).

كل ذلك هياء الاجواء لانشاء وتكوين المستعمرات والعمل على نهب الموارد الطبيعية في الدول الفقيرة اي في دول العالم الثالث،

ولذلك فان الليبرالية تستند الى العقلانية وليس الى الفوضى فالافراد يخضعون لحكم عقلهم المستنير الذي يلقنهم ضرورة الامتناع عن الحاق الاذى بالغير سواء في ماله او روحة وذلك حفاضا على حريتهم وسعادتهم الفطرية، لاحظ معي ان هذة المبادئ الرائعة تنافت مع التطبيق الواقعي لليبرالية فلقد تآذت البشرية على يد شراذم الليبرالية المتوحشة ومن خلال شقيها الكلاسيكي والنيوكلاسيكي وسيرى القارىء فجائع ومآسي الليبرالية المتوحشة في الفصول القادمة.

ان الليبرالية السياسية ركزت على حقوق الافراد الطبيعية بمعنى ان الافراد يحوزون حقوقا طبيعة تدركها عقولهم وتستخلصها من قانون الطبيعة مثل الملكية والحرية والمساواة والليبراليةالسياسية دولة تحكمها العدالة الخاصة القائمة على حق كل فرد في ان يصون نفسه وماله ولذلك لا بد من طرق النشأة الاولى لليبرالية السياسية للتعرف على نشأة الافكار الليبرالية الأولى .

نشأت الافكار التنويرية لليبرالية السياسية

اشرنا في ما سبق الى انه مع نمو رأس المال التجاري ودخول الاقطاع مرحلة التفكيك والتفكك بدأعصر التنوير والنهضة وهو العصر الذي تميز بالثورة على جمود العصور الوسطى والدعوة لتقديس العقل والفردية والحرية ومحاولة فهم العالم بمنطق يختلف عن آباء الكنيسة والفكر الاغريقي . ان زيادة مستوى الدخول وارتفاع مستوى المعيشة نسبيا الناجم عن حركة التجارة الواسعة سواء عبر البحار او داخل المجتمعات الاوروبية، وما واكب ذلك من حركة كبيرة للمخترعات والاكتشافات في مجال الاسلحة وبناء السفن واختراع الطباعة وساهمت في بزوغ الافكار التنويرية التي تدعوا الى الحرية والايمان بقدرة الفرد على التغيير والتطور، وكان واضحا الى ان البرجوازية وصلت الى قناعة مطلقة بان سلطة الكنيسة والافكار الدينية وفلاسفة العصور الوسطى اصبحت تشكل عبئا عليها، ولذلك اتجهت نحو الوصول الى معرفة اسرار المادة لتمكن الانسان من السيطرة على الطبيعة وتفتح امامه امكانات واسعة لاستغلالها والسيطرة عليها فاخذت تميل الى تشجيع المذهب العلمي

والاكتشافات الجديدة وتتحمس للسلطة والعقل والتجريب وخاصة وانها توقعت ذلك كله يمكن ان يزيد من ارباحها كل ذلك ادى الى تفجر الوعي الفكري والثقافي وقلب مجتمع العصور الوسطى والاهم من ذلك ان العقائد الجامدة قد تم تحطيمها حيث تمكن الفنان ليونارد دافنشي وهو المخترع والعالم من القيام بتشريح جسم الانسان وسطوح الاجسام واشكالها ويجعل من الفن علما، فيما كوبرينكس حيث تمكن من تغيير نظرة الانسان الى الكون معتبرا ان الشمس لا الارض هي مركز الكون، فيما رحلات ماجلان وفاسكوديجاما وكريستفركولمبوس والتي اثبتت كروية الارض وفتحت المجال امام الاكتشافات الجديدة للطرق البحرية .

كل ذلك ساهم في ولادة جيش ضخم من العمال المهرة والتكنولوجيين المهتمين بصناعة السفن وآلآت البحرية نتج عنه تقدم علم الجغرافيا ورسم الخرائط وعلم الفلك وهو جاليلو الذي اعتمد على التلسكوب بفتح آفاقا واسعة في اكتشاف الاجرام السماوية والافلاك المختلفة وتمكن من تحليل حركة البندول وسقوط الاجسام، ومن هنا يمكننا القول ان التقدم الذي احرزته الرأسمالية التجارية انذاك هو الثمرة الواضحة للتقدم الذي احرزه هؤلأ وتحول هدف الكيمياء من خرافة اكتشاف الذهب وحجر الفلاسفة الى البحث عن المعادن والمواد وخواصها وطرق تحولها وتغييرها، وكان البارميتر الذي اكتشفه تورشللي اثر كبير في قياس ومعرفة الضغط والفراغ والهواء ومكوناته، كما وحدثت قفزة في عالم النباتات والكائنات الحية بفضل اكتشافات المكروسكوبات واصبح الطب علما بعد ان كان شعوذة ثم جاء اسحاق نيوتن في كتابه المبادىء ليضع نهاية لسيطرة العلوم الاغريقية التي سادت في العصور الوسطى واكتشاف طرائق حسابات التفاضل والتكامل واستخدامها في تحويل النظريات الفيزيائية الى نتائج محسوبة تؤكدها المشاهدات ويتوصل لقوانين الحركة والجاذبية التي اصبحت فيما بعد اساسيات علم المكانيكا وغيره من العلوم، وعلى صعيد المعرفة فقد تم السيطرة على الطبيعة وكان من الطبيعي ان يواكب ذلك ثورة في عالم الفلسفة فقد بداء عصر عبادة العقل حيث حمل فرانسيس بيكون في انجلترا اول من حمل لواء الدعوة لهذا العصر وراية التمرد على العصور الوسطى المعتمدة على المعرفة الميتافيزيقية والمنطق الارسطى فقد اعتمد بيكون على ضرورة فهم ضواهر الكون والحياة على اساس الاختبار العملي والمقارنة والتحليل والقياس العقلي معتمدا على التجربة والحواس، فقد دعا الى قيام العقل البشري برحلة في الكون ليس لها من نهاية سوى حدود الكون نفسه فقد رأى في العلم وسيلة لبناء حياة فضلى لأن العلم قوة ومن خلاله يستطيع سيد الطبيعة اذا استطاع فهم اسرار هذه القوة فقد ركزت دعوته في الاساس على تفسير ما نجهله من خلال الاستقراء الارسطى الذي ينتقل من الكليات الى الجزئيات وغاية هذا الانتقال ليس هو المعرفة ذاتها كما اعتقد فلاسفة اليونان بل استخدام هذه المعرفة للسيطرة على الطبيعة، ومن هنا فقد انطلقت شرارة الفلسفة وانتقلت الى معظم الدول الاوروبية واصبحت دعوة بيكون عنوانا للثورة العقلية التي اتت على البنيان الفكري للعصور الوسطى فاجهزت عليه واحالته الى تراث عتيق، هذا وجاءت افكار الفيلسوف اسبينوزا تصب في ذات المسار حيث ذهب الى القول بان الخير الاسمى هو معرفة الاتحاد ما بين العقل والطبيعة وانه كلما زاد العقل كلما ازداد فهما لقواه ولنظام الطبيعة.

كما وجاءت افكار رينيه ديكارت لتصب في نفس الباب حيث دعا الى اعلان فلسفة الشك واعتبر وسيلة المعرفة الرئيسة هي العقل وان اي شئ قابل للادراك وقسم العالم الى عالمين عالم الطبيعة القابل للتجربة والقياس، وعالم الروح والاخلاق الذي لايقاس، وبذلك يكون ديكارت قدم ما يشبه تقسيما للعمل فالعالم الاول سيختص به العلماء دون ان يزاحمهم رجال الدين، كما وقدم جون لوك جهودا كبيرة في مؤلفاته حيث هاجم التمسك بالتقاليد القديمة ودعى الى اطلاق حرية العقل واكد ان عقل البشر عندا تولد تكون اشبه بالصفحات البيضاء وان الحواس هي وسيلتهم للادراك وان الاشياء المادية وحدها هي التي تنتقل الى العقل عن طريق الحواس ومن ثم فكل معارفنا مستمدة من المادة.

فيما جاءت افكار ليتنز حيث اشار ان في الكون حقائق فردية لا نهاية لها وليست حقيقة واحدة وانم ادراك هذه الحقائق والذرات تمكننا من فهم الكونكله وانه رغم تعددية هذه الحقائق الا انها متصلة بنظام او قانون يجعلها تستمر دون اضطراب . اما ديفيد هيوم وهو من ابرز المفكرين التجريبيين فقد دعا الى فلسفة الشك وانكر نظرية السببية فقد رأى ان المصدر الاول للافكار هو الحواس الا ان الترابط الموجود بين افكارنا يعود لتكرار التجربة وكان يرى ان الفضيلة هي ما يبعث على اللذة والرضى وان المنفعة هي ما يعود بالخير على اكبر عدد من الناس، هذا وقد ازداد تدفق هاؤلاء المفكرين التنويريين كما لو كان تيار عارم يتدفق باستمرار فيظهر عصر الموسوعيين العظام الذين جسدوا هذا التيار العارم على شكل (انسكلوبيدات) اي موسوعات تضم الثمار الناضجة لفلاسفة وعلماء عصر التنوير والنهضة وها هو ديدرو ينشر اول موسوعة علمية في "٢٨" مجلدا والتي اشتملت على ثمار العلم والمعرفة التي تجمعت في ذلك العصر، وكانت تعتمد على وجهة النظر المادية والعقلية وفي تلك الموسوعة التي يعتبرها البعض بمثابة انجيل الليبرالية حيث وردت لاول مرة مسطلحات حرية التجارة والتعاقد "دعه يعمل، دعه يمر ".

عصر تنوير الليبرالية

لم يكن عصر التنوير منصبا على الانجازات العلمية والفلسفية كما لاحظنا لاحقا سابقا وانما تجاوز الى الفكر السياسي والقانوني وانظمة الحكم حيث ظهر جيل من المفكرين العظام الذين نددو بالطغاة والطغيان في العصور الوسطى ودعوا الى تحرير الانسان من العبودية والتسلط كما واكدوا على ان المجتمع يتالف من احرار متساويين ومستقلين تحركهم مصالحهم الخاصة ومن اشهر هاؤلاء المفكرين مونتيسيكيو حيث اصل في كتابه روح القوانين فكرة الديموقراطية النيابية وشرح مبدأ الفصل ما بين السلطات معتقدا ان الديموقراطية هي الفضيلة وان الملكية هي الشرف وان الاستبداد هو الخوف ونادى بان هنالك روحا تسير الجماعة على هذه المبادئ في اي امة من الامم، وان مهمة القوانين هي ان تعكس هذه الروح بل ان قيمة القوانين في النهاية بل يجب ان تكمن في درجة الانسجام مع الميول والمواقف الفكرية للاشخاص الذين يخضعون لها، وكان مونتيسيكيو من اشد المؤمنين بسلطة العقل التي يمكنها ان تصنع مثل هذه القوانين .فيما جآءت افكار فولتير في الدعوة الى الصلاح

السياسي ونادى بانه ما من امة تحكمها قوانين صالحة مطلقة فجميع هذه القوانين املتها مصلحة المشرع وهي مصلحة مؤقتة صاغها الجهلة في ظل حكومات همجية وانتصر فولتير للاخلاق حيث اعتبرها قيمة سامية وخاصة عند صياغة القوانين الجديدة لان هناك بين البشر تضافرا اخلاقيا اتجاه قضايا الحرية والعدالة والظلم .

كما وتناول التنويري جان جاك روسو حقوق الامة في العقد الاجتماعي واكد ان هذه الحقوق نابعة من حقوق الفرد وان الامة باعتبارها تجسيدا للارادة العامة وافراد الشعب هم مصدر السلطات وليس هناك شيء يسبق وجودها او يعلوها سوى الحق الطبيعي والامة تكون بهذا المعنى قد تكونت بموجب التزام طوعي متبادل بين اعضاءها اي بموجب عقد اجتماعي عقدته مع نفسها وفي حرية متكاملة، والامة في ممارستها المشروعة لسياديتها تصدر دستورا وتقيم حكومة تكون مهمتها خدمة افراد المجتمع اي خدمة حقوقهم الطبيعية واذ اخلت بذلك تكون قد اخلت بذلك تكون قد خرجت عن العقد الاجتماعي ويجب تغيرها وفي هذه الاجواء كانت الصورة الاخرى مغايرة لدى الاقطاع ورجال الدين والكنيسة فقد تعرضت هذه الافكار الى الحرب من قبل الاقطاع والكنيسة بكل ما اتيت من قوة وسلطان من خلال فرض الضرائب المرتفعة على الناس وممارسة سلطة قديمة في تفسير الحياة والكون وكل شيء بنظرة دينية بحته تحقر الكسب المادي وترفض التطور، ولذلك جاءت حركات الاصلاح الديني تستهدف اصلاح علاقة الكنيسة بالافرادوالمجتمع، وتتصدى لكثير من المعتقدات البالية في العصور الوسطى وتعترض على تدخل رجال الدين في الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومن هنا ظهر ابرز المصلحين التنويرين وعلى رأسهم مارتن لوثر الذي انتقد فساد البابوية وسيطرة رجال الدين وفضح صكوك الغفران التي كانت تبيعها الكنيسة وقام بترجمة الانجيل لاول مرة ليتعرف الناس على تعاليم الدين دون وساطة رجال الدين، كما وجاءت اراء كلفن الذي اعتبر ان تجميع الثروة هو حق مشروع ولا يتعارض مع مبادىء المسيحية وقد لاقت افكار الاصلاح الديني آنذاك آذانا صاغية على يد البروتستانت في مختلف انحاء اوروبا .

بعد هذا العرض كان عصر النهضة الاوروبية هو عصر اليقضة الذي اطلق سلطان العقل والايمان بالحريات الفردية وبقدرات الفرد على التغيير والسيطرة على الطبيعة وكان هذا العصر هو المقدمة التاريخية لظهور الليبرالية الاقتصادية والتي استندت عليها الرأسمالية الصناعية "١٠"

جوهر الليبرالية السياسية

اعتبر الفلاسفة كما لاحظنا سابقا بان جوهر الليبرالية يكمن في الانسان ويجب العمل على تحرره من كل انواع السيطرة والاستبداد والعبودية وان الليبرالي الحقيقي هو ذلك الليبرالي الذي يكافح ويناضل كل اشكال الاستبداد السياسي والاقتصادي والاجتماعي وكما لاحظنا ان الليبرالية لم تاتي من جهد وفكر عالم واحد او فيلسوف او عقل واحد وانما هي جهود مفكرين وفلاسفة عظماء ولذلك فان الذي مهد لولادة الليبرالية هو المناخ الديمقراطي وبدونه فلن يكون للقيم الليبرالية اي وجود.

ان الليبرالية الحقيقية هي البنت الشرعي للديموقراطية وان الليبرالية المزيفة ستنهار لانها لا تتوافق مع الليبرالية فمثلا الليبرالية لا يمكن ان تعيش في اجواء مسممة ومكممة واجواء قمع وانتهاك لحقوق الانسان وللحريات العامة ولذلك فقد انكشف امر الاحزاب السياسية التي تدعي انها احزاب ديموقراطية فمن خلال الممارسة انكشف امرالاحزاب بسبب انتهاكها الفاضح لابسط حقوق الانسان، ولذلك فقد اتسمت الليبرالية السياسية الحقيقية بالمحاورين التاليين:

المحور الاول: فقد جاءت الليبرالية من رحم الاقطاع والنظام الطبقي الذي يهدف الى استغلال الانسان وسحق آدميته من خلال الحاق الاذى بالشعوب من استعمار واضطهاد واستغلال لخيرات الدول والامصار والشعوب وما اثارته الليبرالية المزيفة من تناقضات حادة نجم عنها حروب طاحنه كالحربين العالميتين الاولى والثانية .

المحور الثاني: اتسمت الليبرالية بانها المفجر الاول في اشعال الثورات العالمية الكبرى كالثورة الانجليزية ١٦٨٨،والثورة الفرنسية ١٧٨٩، والثورة الاميريكية ١٧٧٥، تلك الثورات التي اعتبرها المؤرخون بانها تمكنت من تحرير الانسان في الغرب بصفة اساسية ورفع الظلم عنه وعملت على تخفيف الفقر والمجاعات والامراض والاوبئة المستفحلة وتحسين مستوى معيشة الناس على الاقل في المجتمعات الغربية "١٢".

ولكي لا نخلط ما بين الديموقراطية والليبرالية الرأسمالية يقول المفكر الاميركي دي توكفيل في دراسته الكلاسيكية عن الديموقراطية الغربية الاميريكية عام ١٨٢٥ "ان الديموقراطية تستثني بطبيعتها اعطاء اي دور رئيسي للفرد، وتنفي فكرة القائد والبطل،ولهذا فان مؤرخي المراحل الديموقراطية لا يعطون اي فضيلة لاثر الفرد عند مقابلته مع قدر الامة او لدور المواطنين على دور الشعب بل يعطون العكس اسبابا جامعة وكبيرة لكل نوع من انواع الاحداث الصغيرة التافهة، ولكن في الانظمة الارستقراطية نجد بعض افراد يحتلون المكان الاول في مسرح التاريخ يستوقفون النظر ويركزونة عليهم، فيما الديمقراطيات يكون فيها المواطنون مستقلين الواحد عن الاخر، وكل واحد منهم ضعيف بمفرده ولذلك لا يرجعون الى اي فرد منهم اي اثر كبير او دائم في المجتمع "١٣"، فيما المؤرخ الاميريكي بيترسون اوضح ان المفهوم الديموقراطي الليبرالي الذي قامت عليه الجمهورية الاميريكية ينفي الدور الذي عادة يعطى للقائد الكبير في صنع التاريخ ان الديوقراطية تختلف عن الليبرالية من مفهوم جماعي اي الشعب وهي بالاصل تعني سيادة الشعب او الامة، واكدت على حرية الفرد بينما الليبرالية ترتكز على الفرد، وترى ان التطور العضوي لكافة امكاناتة وقواة الطبيعية هو جوهر الحرية، وتعمل في سبيل وضع لايغير مجراه الطبيعي كبير ويترك له اثرا واكبر قدر ممكن من الحرية، ان الديموقراطية تنطلق من المساواة بين الشعب بينما الليبرالية الرأسمالية ترتكزعلى انعاش طبقة على حساب طبقة اخرى، ان الليبرالية هي تلك الاسلوب الذي يعد حصيلة لصراع ازاء اضطراره بعد كسبه لتجارب لا تحصى كي يصل الى هذا المستوى من التفكير بعيدا عن اي قيود تعيق تقدمة وانطلاقة وهذا عكس الديمقراطية فالاخيرة قد تضطر الى تقيد الانسان "١٤".

في ضوء ما سبق فأن الليبرالية هي حصيلة تجارب الانسان عبر القرون الماضية والتي توصلت الى سن التشريعات والقوانين التي تراعي الضروف التي انتهى اليها الانسان وخاصة منذ تراكم حصيلة الظواهر البشرية الكبرى سواء اكانت في مرحلة الاكتشافات الجغرافية في القرن الخامس عشر او مرحلة الاصلاح الديني لمارتن لوثر وكالفن في القرن السادس عشر او في الثورة الاقتصادية الميركنتيلية التي سنتحدث عنها لاحقا لدول المدن في القرن السابع عشر او في الثورة الفكرية والبحث عن روح القوانين والحريات في القرن الثامن عشر والتي توجت في الثورة الفرنسية او في حركات التنوير الفلسفية ويوتيبيا التفكير والثورة الصناعية في القرن التاسع عشر واتي اوصلت الدول الاستعمارية الى اوج قوتها وهذا في الحقيقة هراء كما يزعم الليبراليون وسيرى القارىء لاحقا كيف ساهمت الليبرالية في شقاء الانسان وتعاسته، كما اننا يجب ان نعترف بان التطور العلمي والتكنولوجي الهائل الذي تعيشه البشرية ما كان ليكون لولا جهاد ونضال المفكرين والفلاسفة وانه لولا مناخ الحرية وحرية التعبير والتي هيأت السياسي الذي نتج عنه النضال الديمقراطي، وليس كما يزعم كهنة الليبرالية فهم نتاج طموحات رأس المال والذي سندرسه بالتفصيل عند الحديث عن الليبرالية الاقتصادية والتي استغلت الليبرالية السياسية وسارت على نهجها ولكن ليس لتحرير الانسان بل لتحرير الاسعار وكسب الارباح على حساب الانسان .

فلسفة الليبرالية الاقتصادية

خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر كانت التطورات كلها تصب في صالح البرجوازية الصاعدة حيث تعاظم الدور الدي اصبح يلعبه الانتاج السلعي الرأسمالي واصبحت الصناعة لا الزراعة او التجارة هي المجال الرئيسي للنشاط الاقتصادي وتحقيق الارباح حيث حقق راس المال الصناعي توسعا كبيرا وزيادة في الناتج الاجتماعي بعد الاستخدام الموسع لوسائل النقل والاتصال بيد ان الضروف الموضوعية الجديدة التي خلقتها الثورة الصناعية، وما ترتب عليها من مشكلات اقتصادية واجتماعية وكانت في الواقع بحاجة الى فكر جديد يتناسب مع هدا الواقع المحتدم بالغليان والمليئ بالتنافسات ويستجيب في نفس الوقت لمتطلبات نحو ويكون عاملا من عوامل تعضيد حركته على التطور ذلك ان مشكلات الطرح مع علاقات الانتاج الاقطاعية والامتيازات التي كانت مقررة لرجال الدين والاقطاع، والتغلب على القيود التي فرضتها الرأسمالية التجارية على حرية التجارة ومزاولة النشاط الاقتصادي، والبحث عن سياسات جديدة لتأمين نمو الانتاج السلعي الرأسمالي واكتشاف قوانينه الموضوعية في النمو ومواجهة القضايا التي ترتبت على عملية التحول الى المجتمع الصناعي وما عكسته هده القضايا بين صراع اجتمعي وتناقضات طبيعية كل هده القضايا والمشكلات وغيرها طرحت عديد من التحديات التي كانت لابد من التصدي لها على مستوى الفكر وايجاد الحلول حتى يمكن حماية وضمان مسيرة المجتمع الراسمالي الوليد .

ان الليبراليــة الرأســمالية الصــناعية حطمــت المنافســة وســاهمت فــي ولادة الاحتكـارات الكبـرى وفتحـت شـهوتها للصـراع الـدامي مـا بـين الـدول الرأسـمالية الصناعية حيث ساهمت في اندلاع الحربين العالميتين الاولى والثانية خلال القرن الماضي، ونتيجة للدمار الدي خلفته الرأسمالية الصناعية بسبب هاتين الحربين غيرت من اساليبها وادواتها، والتراجع من الليبرالية المطلقة الى الليبرالية المعتدلة وساهمت في تهذيب قواعد اللعبة من خلال الدور الدي لعبته الدولة في المجال الاقتصادي، الاجتماعي، هذا وقد وصف جون ماينرد كينز في نظريته العامة للنقود والفائدة والتوظيف عام ١٩٣٦ انه يستحيل ان يتجنب النظام الرأسمالي الانزلاق في الازمات على قرار ما جرى خلال ازمة الكساد الكبيرة ١٩٢٩-١٩٣٣ الا اذا لعبت الدولة دور الوزن الموضوعي ما بين تقلبات قوى الطلب الكلي وقوى العرض الكلي، ومنذ ذلك الوقت تزايد تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي، وتزايد الانفاق الحكومي وتنوعت مجالاته وبالذات في مجال الخدمات والضمانات الاجتماعية وكانت الفترة المحددة ما بين ١٩٤٥ -١٩٧٠ تعبر عن مرحلة ما سمي بدولة الرفاه التي تميزت بارتفاع معدلات النمو والتوظيف والاستقرار النقدي النسبي وزيادة مستوى المعيشة، وترسيخ اشكال الديموقراطية وبروز دور الدولة الاقتصادي والاجتماعي "١٥".

كيف بدأالاقتصاد الرأسمالي الليبرالي

اشرنا في الصفحات السابقة الى ان النظام الاقطاعي كان يدير دفة المجتمع الاوروبي وبعد الانتصار الدي تحقق على على يد الحركات التنويرية الليبرالية دخل المجتمع الرأسمالي الاوروبي مرحلة الرأسمالية التجارية "الميركنتيلية "في منتصف القرن الخامس عشر حيث كان رأس المال التجاري يتفجر قوة وعنفوانا ويبحث بنهم شديد عن الربح والذهب من خلال التوسع والسيطرة على طرق التجارة والاسواق الخارجية وسرعان ما دخل دلك في صراع عنيف مع قيم وفكر وقوانين ومؤسسات العصور الوسطى وهي العصور التي اتسمت بالجمود والطغيان والاستبداد والحذر، من كل تغير نظرا لحالة الغلق التي سيطرت على الامرأ والاقطاعيين من الهجمات البربرية الخارجية وانذاك اتجه فكرالعصور الوسطى ابان عصر المدرسيين الى اقامة نظام عقلي واخلاقي في المجتمع والفكر والفلسفة والدين يقوم على تعاليم ابأ الكنيسة والفكر الاغريقي وهو نظام لم يكن يعبأ بالمادة وبالكون الروحي والميتافيزيقيا "١٦"، وكان المنطق الارسطي الشكلي الذي ساد يحصر الفكر الانساني في مجموعة من المقدمات الكلية ليستخرج منها بعض النتائج الشكلية المتسقة مع هذه المقدمات وكان المهم هو اتساق الفكر مع نفسه بغض النظر عن الاتساق مع العالم الخارجي حيث لم يكن مطروحا تحديد علاقة الانسان بالكون والطبيعة وكان الفكر يفسر ما يفعله البشر لكنه لا يكشف ما يجهلون، ومع طغيان العصور الوسطى ومع محاكم التفتيش لم يكن في امكان اي فرد ان يناقش او سيد حض المسلمات والفروض التي قام عليها البنيان الفكري دون ان يعرض نفسه للهلاك كما حدث للفيلسوف برونو الذي تجاسر ودعا الى وجود عوالم متعددة غير

عالمنا فاحرقته محاكم التفتيش في البندقية بتهمة الكفر وكما حدث للراهب الايطالي الثائر سافونارولا الذي اعدم عام ١٤٩٨ .

فلسفة الليبرالية الاقتصادية

انطلقت فلسفة الفكر الاقتصادي الليبرالي من الايمان المطلق بالحرية من اطلاق الرغبات الانسانية الطبيعية المشتركة بين الافراد اعمالا للنظام الطبيعي ذلك النظام الذي يلتقي في اطار الصالح الخاص والصالح العام في انسجام واتساق ."١٧"، وفي هذا المقام اعتبر آدم سميث ابرز المفكرين الاقتصاديين بل ويعتبر الاب الروحي لليبرالية الاقتصادية ان السعي ورأ المصلحة الخاصة يكون شرطا لنمو الحياة الاقتصادية وعملا من عوامل توازنها وانطلاقا من هذا فقد تنبه الاقتصاديون الليبراليون لا بل دعوا إلى اعادة النظر في العلاقة ما بين الدولة والمجتمع من خلال اعتبار المجتمع بانه الحقيقة الجوهرية الاولى في حين طالبوا بسحب كل غاية ذاتية للانسان عن الدولة وبتعبير آخر اعتبروا وجود الدولة ما تقدمه من خدمات للمواطنين وطالب هؤلأ المفكرون بحضر تدخل الدولة في الظواهر الطبيعية للحياة الاجتماعية مثل رأس المال او حق الملكية فان اهدرت الدولة هذا الحظر تكون قد اقترفت فعلا يتعارض مع سبب وجودها لما يحدثه من اخلال بنظام الجماعة الذي يستند انسجامه الى اطلاق المبادرات الفردية " ١٨"

ومن جهة اخرى واثنأ استعراضنا لليبرالية الاقتصادية لا بد وان نتوقف قليلا على ابرز النظريات الاقتصادية التي سادت خلال القرون الثلاثة الماضية وابرز هذه النظريات الاقتصاد الكلاسيكي فقد ظهرت ادبياتها في بريطانيا من حيث الافكار والرؤى التي عالجت القضايا الاقتصادية والاجتماعية ولكن في اطار ليبرالي بحت، وكان لاسهامات آدم سميث، ريكاردو، مالتوس دور كبير في الفكر الاقتصادي الكلاسيكي، هذا وقد اعتبر النقاد الكلاسيكيون ان الاقتصاد الكلاسيكي قد ساهم في حدود منجزاته العلمية ونتائجة النظرية وما يترتب عليها من سياسات ليبرالية من خلال ما يلي :

اولا– تعضيد بدايات حركة التقدم للمجتمع الرأسمالي حيث تمكن الاقتصاد الكلاسيكي من تعضيد بدايات التقدم للمجتمع الرأسمالي لانه حاول جاهدا اكتشاف القوانين والقوى الاجتماعية التي تحكم مسيرة الانتاج الرأسمالي وافاق نموه وقد تحقق بالفعل ذلك حيث تم العديد من هذه القوانين، هذا ان دل فانما يدل على ما يتميز به الاطار الفكري والمضمون الاجتماعي والايدولجي للاقتصاد الكلاسيكي والذي ينعكس انعكاسا حقيقيا وصريحا لوعي الطبقة الرأسمالية الجديدة .

ثانيا - ان ما توصل اليه الاقتصاد الكلاسيك لم يات عن طريق الصدفة بان العلاقات الاقتصادية والسياسية التي كانت سائدة في عهدهم هي من بقايا النظام الاقطاعي بل كانت هذه الرؤية هي قناعة تامة من قناعاتهم بان تؤخر وتعيق نمو قوى الانتاج، والكلاسيك يقصدون بكل العلاقات والروابط والقوانين التي تحد من نمو وتراكم رأس المال كجهود ونظام الطوائف الحرفية التي كانت سائدة في مرحلة

الرأسمالية التجارية والتدخلات الواسعة التي تمارسها الكنيسة وبلاط الامراء في مجال حرية العمل والفكر والابداع "١٩".

ومن هنا فقد خرج من معطف الكلاسيكيون الاقتصاديون ثلاث مبادىء واركان رئيسة رسمت خطة طريق لليبرالية الاقتصادية وانصبت على على محاور ثلاث :

١- الايمان المطلق بالقوانين الطبيعية الخالدة .

٢- الايمان المطلق بالحرية الاقتصادية المطلقة وعدم تدخل الدولة .

٣- المنافسة الكاملة وتمجيد آليات العرض والطلب ان هذه المحاور الرئيسية يعتبرها الليبراليون الجدد هي النوتا التي من خلالها يتم عزف الحانهم واحلامهم الوردية، علما باننا سنفرد بابا كاملا لليبرالية الجديدة في الصفحات القادمة .

هذا وسنتحدث عن كل محور من هذه المحاور بالتفصيل

١- القوانين الطبيعية الخالدة :اعتقد الكلاسيك بان امور الطبيعة والكون والمجتمع تتحكم في تسييرها قوانين طبيعية خاالدة وقد تناول هذا المحور مدرسة الطبيعيين او "الفيزوقراط "وهي قوانين ذات طابع مطلق، وصارم لا يتمكن الفرد، او الدولة ان يغيرها او تغييرها، ويخرج عن منطق الاذعان لها، وفي حال تجاهل هذه القوانين، او تحديها، او الخروج عنها، او تغييرها فان الطبيعة ستقف له بالمرصاد امام ذلك، وما تلبث انم تولد من ذاتها قوى مضادة تعيد تصحيح الاوضاع على النحو الذي يعيد سريان القوانين، ومن الجديد بالذكر ان الكلاسيك اصبغو على هذه القوانين صفة الموضوعية بمعنى انهم نظروا اليها على انها تحدث مفعولها في النشاط الاقتصادي بصورة مستقلة عن وعي الناس وارادتهم .

النقاد المناوئين لافكار آدم سميث اعترفوا ان هذا يشكل كسبا علميا هاما في مجال العلوم الاجتماعية التي كانت عليها الافكار الميتافيزيغية، والعبثية في العصورالوسطى، لكن النقاد اعتبروا تغير الكلاسيك بان نظريتهم هي نظرية مثالية اي انهم يرون في في هذه القوانين نتيجة لتأثير قوى اعظم من البشر، وهي قوانين الطبيعة الخالدة والقوى الخارقة منها والاصل ان يكون نظرة الكلاسيك لهذه القوانين نتيجة غير مقصودة ومترتبة على افعال البشر خلال نشاطهم الاقتصادي .

٢- الحرية الاقتصادية :والتي اعتبرها الكلاسيك بانها تشمل حرية التجارة الداخلية، والخارجية،وحرية العمل وحرية التعاقد، وحرية ممارسة اي مهنة او نشاط اقتصادي، وبالفعل فقد بلور هؤلاء المفكرون الكلاسيك الافكار الاقتصادية القائلة "دعه يعمل دعه يمر " كصرخة مدوية في وجه اي نوع من التدخل الحكومي .

ان النقاد الذين تصدوا هذه النظرية اعتبروا انها كانت اعظم سند للبرجوازية الصناعية الصاعدة اي ان الحرية الاقتصادية بالنسبة للبرجوازية الصناعية جاءت من فم السماء وخاصة حرية التعاقد والاخيرة كانت تعني لهم حرية البرجوازية الرأسمالي في استخدام العمال من الرجال والنساء والاطفال، وان يدفع لهم من الاجور ما يتماشى مع قوانين العرض والطلب في سوق العمالة دون ان يتقيد بما تفرضه عليه الحكومة او نقابات العمال، ان الكلاسيك رفعوا الحرية الاقتصادية الى

مستوى عال جدا حيث وضعوها بمستوى القانون الطبيعي، ومن هنا فأن البرجوازية الصناعية قد وجدت من هذا المحور المبرر النظري الذي انتظروا طويلا ليقفوا امام المحاولات الاولى التي قامت بها الحكومات بهدف علاج الاحوال الاجتماعية المتدهورة في بداية مرحلة نشاءة الرأسمالية الصناعية تدهور الاجور الحقيقية وزيادة ساعات عمل الاطفال، واستغلال النساء .

ما يريده الكلاسيك والبرجوازية الصناعية هو حرية العمل، والتملك، والتعامد، والتجارة، والوقوف سدا منيعا في كل اشكال تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي اي معارضة الدولة بوضع اي قيود او تنظيمات او ترتيبات بشأن الارباح، والاسعار، والجودة، الاجور، بل وصل بهم الامر اكثر من ذلك بأنه لا يجوز للدولة ان تمتلك اي مشروع اقتصادي يستطيع الافراد اقامته لكن الكلاسيك حددوا مسؤولية الدولة فقط بمنع الاعتدأ الخارجي وتنظيم الامن الداخلي والقيام بالمشروعات العامة التي لايرغب الافراد القيام بها لعدم ربحيتها كانشأ الجسور والطرق والموانىء فالدولة يجب ان تكون حارسة لنشاط الافراد وبعيدة عن التدخل في شؤونهم .

٣ـ المنافسة الكاملة : افترض الكلاسيك المنافسة الكاملة بانه الاطار الذي يجب ان يسود في السوق واعتبروها نقيضا للاحتكار اي انها جهاز يتمتع بخاصية التنظيم الذاتي دون حاجة لتدخل الحكومة او الافراد وقد عدد الكلاسيك حسنات المنافسة الكاملة اذا طبقت بشروط وهي :

١ـ انها تعمل على زيادة عدد المنتجين والمشتريين وعدم الاتفاق بينهم .

٢ـمعرفة تامة بالسوق .

٣ـ حرية وخروج المنتجين من الصناعة.

والاهم من ذلك فان المنافسة الكاملة سترسم اطارا لآليات اقتصادية يتحقق من خلالها التوزيع الامثل للموارد والدخلوالسبب في ذلك لان اسعار السوق الحرة سوف تعكس التكلفة الحقيقية للسلع وسينعكس ذلك على انتاجية عوامل الانتاج .

ايجابيات المنافسة الكاملة

اجمع الكلاسيكيون الى ان المنافسة الكاملة تحقق ما يلي :

١ـ تخصيص وتوزيع الموارد الاقتصادية على مختلف المجالات على النحو الذي يوفر للمجتمع السلع التي يحتاجها بالكميات الملائمة وبالاثمان التي يستطيع دفعها .

٢ـ تلقي المنتجون طلبات المستهلكون والعمل على تنفيذها .

٣ـ تسود السوق اسعار تنافسية تعكس مستوى الانتاجية والتكلفة الحقيقية ومعنى ذلك انه عن طريق جهاز السوق القائم على المنافسة الكاملة يكون المجتمع قد وزع موارده الاقتصادية على النحو الذي يتناسب مع حهجة المستهلكين فالمستهلك له

السيادة والسوق عليها الاستجابة كما وتنظم السوق الكميات المثلى التي تعكس مستوى الانتاجية والتكلفة الحقيقية .

٤ـ تنظيم وتوزيع الدخول على الافراد الذين اشتركوا في العمليات الانتاجية اي اذا كانت الارباح والاجور في صناعة ما تزيد عن المستوى العادي والطبيعي فسوف يغري ذلك رجال الاعمال والعمال على ولوج هذه الصناعة الى ان يزيد الانتاج وتنخفض الاسعار والارباح والاجور وتعود للستقرار عند مستواها الطبيعي او العادي في الفروع الصناعية الاخرى فسوف يؤدي ذلك الى خروج رأس المال والعمال من تلك الصناعة فينخفض الانتاج وترتفع الاسعار والاجور الى مستواها . "٢٠"

كيف نظرت الليبرالية الكلاسيكية إلى السوق ؟؟

لقد اعتبرت الكلاسيكية الليبرالية السوق بانه الساحر العجيب الذي ينظم نفسه بنفسه وانه في ضوء فاعلية السوق يتم توزيع وتخصيص الموارد وتتحدد كميات الانتاج وتعيين الاسعار والدخول بطريقة مثلى وان أي اضطراب يحدث في هذا النظام فان ثمة قوى طبيعية مضادة ما تلبث ان يعززها السوق لتعيد الامور الى نصابها الطبيعي قد يستطيع الفرد ان يفعل ما يريد في السوق ولكن عليه ان يتحمل العواقب بيد انه لما كان الرجل الاقتصادي الذي افترض الاقتصاديون الكلاسيك وجوده في تحليلهم هو رجل رشيد عاقل فان المنطق يجعلنا نتصور انه سوف يتصرف طبقا لما تمليه قواعد الرشد والسوق التنافسية، والواقع ان ايمان انصار الليبرالية آنذاك بفعالية المنافسة الكاملة كان يتمشى آنذاك مع مصلحة رأس المال في العمل دون فرض أي قيود عليه، وكان افتراض المنافسة يتمشى ايضا مع طبيعة النظام الراسمالي في مراحله الاولى حينما كان المصنع الصغير هو نموذج الوحدات الانتاجية وكانت العناصر الاحتكارية لم تظهر بعد، ولذلك اعتبر نقاد الليبرالية ان الليبراليين واهمون ان ضنوا ان المبادئ التي رسموها عن الحرية الاقتصادية والمنافسة الكاملة القائمة على الملكية الخاصة لادوات الانتاج هي قواعد السلوك المثلى التي سيسير عليها دوما النظام الرأسمالي لانها قواعد قد تدفع النظام الى النقطة التي يحصل عندها المجتمع على افضل ما يمكن .

هذا وقد توصلت الليبرالية الكلاسيكية في بداية نشأتها انه لا يوجد تعارض ما بين مصلحة الفرد والجماعة أي ان الفرد عندما يدخل المنافسة ضمن مبداء ليبرالية الحرية الاقتصادية فانه سوف يحقق اهداف ومصلحة المجتمع، وفي هذا السياق توصل الليبراليون الى القاعدة التالية "ان المصلحة الجماعية ليست الا حاصل الجمع الحسابي للمصالح الفردية وضربوا مثلا على ذلك فالفرد المستهلك يحصل على الخبز من الخباز وعلى القماش من التاجر والفواكة من الفلاح ليس لان هؤلاء يفكرون بالمصلحة العامة، وانما المصلحة العامة هي حاصل تحصيل سعي هؤلاء لتحصيل المصلحة الفردية، ومن هنا جاءت فكرت آدم سميث ابو الليبرالية

الكلاسيكية بوجود ما سماه اليد الخفية التي ترتب شؤون المجتمع الراسمالي وتدير شؤونه بشكل متوازن ومنسجم .

ان هذا الايمان الليبرالي المطلق باهمية الفرد جعل البرجوازية الرأسمالية تتلقى هذه المقولة لكي تبرر موقفها المناهض لمطالب العمال والنقابات والحكومات لتصحيح التناقضات الحادة التي شهدتها الدول الاوروبية انذاك في خضم التحول الى الرأسمالية الصناعية اذا اعتبر هؤلاء الليبراليون هذه التناقضات بانها مجرد الآم تصاحب عمليات الولادة وانها الآم عابرة ولا سبيل لتجنبها وستعطي ثمارها، أي ان خطابهم يجب ان يصل الى كافة الناس" دع السوق يمشي وحده وهو القادر لوحده على تحديد مساره أي ان قافلة الليبرالية تسير والكلاب تنبح أي ان عرقلة السوق من قبل انصار الدولة غير مسموح به ومع ذلك فان السوق لن يكترث بنباحهم ويجب منع هذه العرقلة لكي تبقى اللعبة، ولهذا اعتبروا ان مصلحة المال فوق أي مصلحة حتى لو كان مصلحة الجماعة

الرأسمالية

ماذا نعني بالرأسمالية ؟

فقد عرفتها بياتروس .و.ب: بانها المرحلة الخاصة في تطوير الصناعة التي يجد فيها جمهرة من الناس او العمال انفسهم مسوقين لأن يعملوا لقاء اجور يومية لدى ملاك ادوات الانتاج سواء اكانت ارضا ام رأسمال.

فيما عرفها موريس دوب : بانها نظام اقتصادي او نظام المشروع الفردي الخاص الذي تسوده المنافسة الحرة بين الافراد في كسب معاشهم .

كما وعرفها بيرين : بانها الاتجاه الثابت لمراكمة الثروة .

فيما عرفها كارل ماركس : بانها نظام يجعل قوة العمل سلعة ككل السلع تباع وتشترى في السوق وان الشرط التاريخي لذلك هو تجميع وسائل الانتاج في ايدي الاقلية واضطرار من لا يملكون هذه الوسائل الى بيع قوة عملهم لمالكيها فالانتاج في هذا النظام يجعل عقد العمل اساسا له.

مراحل تطور الرأسمالية

تنقسم الرأسمالية الليبرالية الى قسمين اولهما الرأسمالية التجارية"الميركنتيلية" وثانيهما الرأسمالية الصناعية، وسنتحث الآن عن :

الرأسمالية التجارية.

مراحل تطورها : لغاية القرن الرابع عشر كان يحكم اوروبا الاقطاع الكلاسيكي الموروث عن الامبريالية الرومانية والذي اخذ يتراجع امام سطوة الملوك الذين لقوا

سندا قويا من الطبقة الوسطى التي ظهرت في المدن في الوقت الذي اخذت تشتد فيه النزاعات الدينية المسيحية والتي انتهت بضعف الكنيسة الكاثوليكية وكانت اوروبا قد دخلت عصر الاكتشافات الجغرافية العظمى التي ادت الى قيام القوى العظمى الاوروبية بانشاء المستعمرات في افريقيا وآسيا والامريكيتين، واضحت بسببها اكثر ثرا وقوة مما كانت عليه، ولذلك ظهرت الرأسمالية التجارية، وبدأت تنمو بصورة وتوازنه مع نمو الفكر السياسي الذي انطلق من التأكيد على اهمية دور العقل وانسانية الانسان وقدرته على التحكم في الطبيعة والتأكيد على قيم المشاعر والاحاسيس للافراد والاهتمام بالنزعة الفردية وبذلك ظهرت الدعوة الى الحرية والى ظهور القوميات اللادينية وتقليص ظل البابا الروحي، وكان لهذه التطورات مجتمعة دورها الفاعل في احداث تحولات اقتصادية وثقافية وسياسية ولم تعد الشعوب تطيق تحمل النظم الاستبدادية التقليدية المطلقة، وقد انجبت تلك المرحلة نخبا من المفكرين والكتاب وقفوا في وجه فكر السلطة المطلقة وذهبوا الى الاهتمام بالفرد في نطاق السلطة المطلقة ومثل هذا الاتجاه كل من غريتموس وهوبز ومن جاء من بعدهما ممن ساعدوا على بلورة نظرية الرأسمالية التجارية الرامية الى تنظيم دور الحكومة الفعال والقيام بمهمة الحماية للصناعة والتجارة التي ازدهرت وبات ينظر الى الشركات التجارية المنبثقة منها على انها جيوش الملك والمصانع احتياطته والتجارةتنفسها حرب نقود "٢١"

مرتكزات الرأسمالية التجارية

انطلقت مرتكزات الرأسمالية التجارية من المحاور التالية

١- ان زيادة القوة الاقتصادية للدولة يعتمد على زيادة السكان

٢- ان ثراء الدولة وتقدمها الاقتصادي يعتمد على مقدار ما تملكه من ثروات ثمينة وخاصة الذهب والفضة.

٣- ضرورة الاهتمام بالتجارة الخارجية لأن الفائض الذي يتكون منها يزيد من ثراء الدولة ويعوضها افتقارها الى مناجم المعادن النفيسة .

٤- الصناعة والتجارة اهم من الزراعة للاقتصاد القومي .

ومن خلال ما تقدم فقد تمكنت الميركنتيلية ان تيسيطر وتهيمن على تاريخ الافكار السياسية الاوروبية في تلك الفترة باعتبار ان التجارة هي عنصر الثروة والاخيرة هي اكسير الحرية والأخيرة تشجع التجارة والتجارة تعمل من اجل عظمة الدولة.

ومن جهة اخرى اعتبر المؤرخون انه في اوائل القرن السابع عشر اشتدت المعارضة للسياسة الميركنتيلية التي طغت ارآئها التعسفية التي اتبعتها الدولة لتحقيق الاصلاح في ميزانها التجاري، ومن هنا ظهر بعض المثقفين في فرنسا وفي بريطانيا يتزعمهم "ديفيد هيوم" ثم ما لبثت حدة النقد ان اشتدت على نظام السلطة المطلقة التي انتهت في القرن الثامن عشر ببروز اتجاه يدعو الى قيام سلطة مطلقة متحررة ومثل

هذا الاتجاه مجموعة من الفلاسفة وفي مقدمتهم "فولتير" الذي فرض في رسائله البرجوازية قائلا: التجارة اغنت مواطني انجلترا وساعدت على جعلهم احرارا وهذه الحرية ساعدت بدورها على توسيع التجارة ومن هنا تكونت عظمة الدولة "

ومن الجدير بالذكر انه خلال هذه المرحلة ظهر ما يسمى بمجموعة " الفيزوقراط الطبيعين " والتي مثلت المدرسة الفرنسية في الاقتصاد برئاسة" كسناوي" الطبيب الذي اشتهر باصدار الجداول الاقتصادية، والذي شبه فيه تداول المال داخل الجماعة بالدورة الدوية، وتذهب مدرسة الطبيعين الى القول بان الثروة القومية مثل المشروع الفردي ينبغي ان يسير في طريقه الخاص دون تدخل أي تشريع من شأنه ان يعيق او يعطل المشروع معتبرة ان الملكية الخاصة وحرية التعاقد اشد ظواهر المجتمع المنظم وضوحا وجوهريا فسياستها تقوم على فكرة دعم الفرد وحده، هذا وقد تعارضت هذه الفكرة مع فكرة الاقتصاديين الكلاسيك وخاصة اراء آدم سميث وخاصة عبارته المشهورة " دعه يمر دعه يعمل" والذي دعا في كتابه ثروة الامم عام ١٧٧٦ الى الاخذ بالمبادىء الاقتصادية الطبيعية والى اعتبار الى ان كلا من الملكية الخاصة والمنافسة الحرة هي اهم الخصائص الجوهرية للنظام الاقتصادي المساير للعقل، والى اعتبار ان نظريته كانت على وفاق مع مذهب المنفعة السائدة عند ائذن وبذلك يمكن اعتبار آدم سميث الاب الروحي لنظرية الحرية الاقتصادية التي قامت عليها الرأسمالية الحديثة .

ومن هنات فقد اضحت نظرية حرية العمل مبداء ذو سلطان اكبر وانتشرت في جميع انحاء العالم وظهرت النزعة النفعية التي تخلط ما بين الاخلاق والفائدة وتلحق الشأن السياسي بالاقتصادي وسادت الفكر السياسي والاقتصادي الغربي في القرن الثامن عشر في توافق ملفت بين مؤلفات فولتير والموسوعيين والفيزوقراطيين ومؤسسة الاقتصاد الليبرالي ودعاة الاستبداد ومحركي الثورة الامريكية وان بدرجات متفاوتة .

هذا وقد اعتبرت اراء "هربرت سبنسر الذي دافع عن المبداء الفردي والحرية الفردية وعارض تدخل الدولة معتبرا تدخلهاهو في الغالب ضد مصلحة النشاط الاقتصادي ولكي لاتحد من حرية الفراد فقد انطلق سبنسر دفاعه من الايمان بان الحقوق الطبيعية تحتاج الى حريات فردية لصيانتها وان الاخلال بهذه القاعدة سيؤدي الى فرض الانسان ارادته على الآخرين بالقوة .

هذا الكلام كله هراء حيث استخدم اسبنسر التضليل واعتبر ان النشاط اهم عناصر الرأسمالية وهو يريد ان يقول بالبنط العريض ان المال اهم من الفرد والجماعة واهم ما في المال هو الربح أي ان ما تريده الرأسمالية الليبرالية زيادة التراكم الرأسمالي وسيطرة الفئة القليلة على مقدرات المجتمع ككل، كما وطالب جون استيوارت ميل بالوقوف خلف الافكار الليبرالية الرأسمالية وخاصة الحرية الفردية ومعارضا تدخل الدولة .

ثانيا الرأسمالية الصناعية :

ادى تطور الثورة الصناعية الى الدخول في الرأسمالية الصناعية والتي شهد فيها المجتمع الرأسمالي ما يلي :

١ـ استغلال الانسان لاخيه الانسان بصورة لم تعهد من قبل ومن خلال تدفق سكان الريف نحو المدن للعمل بالمصانع حيث نتج عنه اضعاف المجتمع الريفي وحدوث نمو صناعي ادى الى حدوث تحولات اجتماعية هائلة ظهرت في الطبقة الوسطى من وجهاء رجال الاعمال والصناعيين الذين امتلكوا معظم المصانع وتوظيف العمال وادارة البنوك والمناجم والاسواق والسكك الحديدية والمؤسسة التجارية .

٢ـ اصبحت وسائل الانتاج الحديثة تمثل تهديدا لاصحاب الحرف اليدوية الماهرة .

٣ـ خروج الطفل والمرأة للعمل خارج المنزل تحت طائلة الحاجة وبأجور متدنية، وظل تدفق العمال الغير مهرة الى المدن بالعمال، وقاد التنافس بين المصانع الى فرض ساعات العمل الطوال التي يعمل اثناءها الرجال الرجال والنساء والاطفال دون انقطاع في ظل نظام قاسي داخلي ورفض ديكتتاوري لحق العمال في التجمع من اجل الدفاع عن انفسهم واتهمت المصانع بتخفيض الاجور وتدني مستوى المعيشة والخدمات الصحية والاجتماعية في تلك الفترة .

٤ـ كل ذلك ساهم في ولادة الرأسمالية نظاما ديكتاتوريا قاسيا حيث يملك رؤوسا المؤسسات الاقتصادية الكبرى والبنوك القوى الاقتصادية في المجتمع الرأسمالي وهم يحتلون مواقعهم المتحكمة بنفوذ اموالهم وليس بالانتخاب الحر لهم وهم غير مسؤولين امام احد ويتسببون في نشر البطالة في مدينة كاملة وهدفهم الربح الشخصي لمصانعهم وليس رفاهية المجتمع وجمهور العمال وهيئاته النقابية يقفون في خط الدفاع وليس في موقع العمل التعاوني لبناء المشروعات الاقتصادية العامه ناهيك عن تردي الاحوال المعيشية والصحية للعمال في المدن بداء بتلوث البيئة والى تفشي الرذيلة الاجتماعية الى ظهور مفارقات صارخة بين الطبقات تميز فيها المجتمع الرأسمالي انذاك الى فقراء واغنياء الامر الذي ادى الى ظهور مذاهب مناهضة للرأسمالية بقيادة كارل ماركس وانجلز" البيان الشيوعي" عام ١٨٤٨ دعوا فيه الى اعلان دولة العمال وعلى ضوء ذلك تحركت الكنيسة البروتستانتية والكنيسة الكاثوليكية على وجه الخصوص في شجب الاوضاع الاجتماعية المزرية واقتراح علاجات تتعارض مع الماركسية ودعت الى التعاون مابين رأس المال والعمل وليس الصراع الطبقي .

هذا وقد اعتبر المؤرخين في القرن التاسع عشر بقرن الايدولوجيات وقد شملت الاتجاهات الليبرالية المعتدلة منها والمتطرفة وتلك التي اتجهت نحو الديمقراطية او التي اخذت بالمذهب الوضعي التي كانت منبت القومية والعقل القائد، والتي دعت الى الثورة الاجتماعية وآمنت بالاشتراكية بدون دولة، واتجاهات تؤيد الاشتراكية التطورية.

وبالرغم من التحذيرات التي اطلقها مفكرون من خطر الليبرالية المتطرفة الى ان العالم لم يكن حينذاك صاغيا لهذه الدعوات وعلى رأسها دعوة فرانسوا بيرو"كل مجتمع رأسمالي يعمل بشكل منتظم بفضل قطاعات اجتماعية لا تحركها او تدفعا عقلية الكسب، والسعي الى تحقيق اكبر ربح، وعندما تيسيطر تلك العقلية على الموظف الكبير والجندي والقاضي والفنان والعالم تنهار او ينهار المجتمع وتصبح كل اشكال الاقتصاد مهددة ويجب الا تنتقل الى السوق اثمن وانبل القيم في حياة الانسان الشرف والبهجة والعواطف واحترام الاخرين والا تزعزعت اسس أي جماعة اجتماعية فهناك مفاهيم سابقة على الرأسمالية وغريبة عنها تساندها لفترات متفاوتة الاطر التي يعمل الاقتصاد الرأسمالي في حدودها، غير ان هذا الاقتصاد وبقدر ما يزدهر يفرض التقدير لدوره واعتراف الجماهير به وينمي التمتع باسباب الراحة بقدر ما يلحق الضرر بالمؤسسات التقليدية والمفاهيم التي لا يقوم بدونها أي نظام اجتماعي . ويخلص بيرو الى ان الرأسمالية تنتهك القيم وتفسدها وهي تستهلك كما هائلا من الحيوية التي لاتتحكم هي نفسه في تصاعدها٢٢ وللتدليل على صحة ما يقوله بيرو في العقد الاخير من القرن التاسع عشر شهدت عمليات تركيز الانتاج وتركز رأس المال تسارعا حادا تمثل في نشؤ غلبة الاحتكارات ترافقت مع اعادة شاملة للصناعة وكذلك نمو السوق العالمية وتسارع وتيرة تصدير رأس المال الى الخارج ونهب المستعمرات .

وقد ادى ذلك الى حدوث زيادة في معدلات الارباح اعطت اكلها في حال من الرواج والازدهار الرأسمالي طيلةعقدين من الزمن لكنها لم تلبث بعدها ان انقلبت الى تنافس محموم بين ضواري الرأسمالية في دول المركز على مناطق النفوذ العالمية والتي انتهت بالحرب العالمية الاولى واعادة اقتسام المستعمرات.، وهنا بدأت تناقضات الرأسمالية وبذلك بدأت ملامح انحطاطها والتي استمرت حتى ظهور ما يسمى بالكساد العالمي الكبير الذي استمر من ١٩٢٩ - ١٩٣٣، وفي هذا الاثناء ظهرت النظرية الكنزية للورد كينز الذي نسب حدوث الكساد الى ترك القطاع الخاص يعمل لوحده دون تدخل من الدولة التي تعمل على حفظ التوازن الاقتصادي وقد هاجم نظرية اقتصاد السوق والتي تقول ان الاسواق الحرة تقود دائما الى الرخاء والتوظف الكامل مستفيدا في نقده الى صياغة نظريته لحماية النظام الرأسمالي في آن واحد فكان كتابه" النظرية العامة للتشغيل والفائدة والمال" فقد عبر عن مذهب تدخل الدولة وذلك من خلال الانفاق العام والموازنة العامة، وقد اكد كينز انه لا بد للدولة من خلال سياسة النفقات العامه وسياسة الايرادات العامة التدخل لتصحيح الخلل الاقتصادي الذي اوجدته قوى العرض والطلب الفعال، وذلك لما من شأنه ان يضمن مستوى معينا من التشغيل للقوى العاملة، ومستوى معينا من الطلب الفعال الذي يلطف من مفعول آزمات فيض الانتاج ويخلق حافزا لتنشيط الاستثمار عبر زيادة الطلب بتوسيع الانفاق وقد حضيت نظرية كينز باهتمام الاقتصاد الرأسمالي منذ ١٩٣٠-١٩٨٠ .

ومع ذلك لم تفلح النظرية الكنزية في تجنب العالم آزمة ١٩٣٧-١٩٣٨ عندما اصرت دول المحور النازي والفاشي على اعادة انقسام مناطق النفوذ في العالم لنيل حصتها العادلة من مغانم النهب الاستعماري التي كانت الديموقراطيات الغربية فتنفرد

بحصة الاسد، وادى هذا التوحش اى احتدام الصراع وتعرض العالم ببركة النظام الرأسمالي للحرب العالمية الثانية التي كانت اكثر تدميرا من الحرب العالمية الاولى اضعاف مضاعفة فقد تحولت مدن ودول بكاملها الى ركام ناهيك عن حصاد الملايين من ارواح البشر وتدمير نتائج جهد وعمل اجيال بكاملها من البشر .، وعلى ضوء هذا الدمار الهائل فقد لعب الاقتصاد الكنيزي الدور الكبير في عملية الهيكلة الذاتية للنظام الرأسمالي فيما بعد الحرب العالمية الثانية وكأنه الشرط والقاعدة والمناخ المواتي للتوسع الذاتي للرأسمال الاحتكاري وخروجه من ازمته الطاحنة والانطلاق في موجة جديدة من التراكم والنمو طويلة الامد تمحورت فيه الرأسمالية الصناعية الى ثلاث قوى رأسمالية هائلة القوة والثروة بدت كجزر مرفهة في كل من الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد الاوروبي واليابان.

مصادر المذهب الليبرالي

اشرنا سابقا الى ان المذهب الليبرالي لا ينتسب الى فيلسوف او مدرسة فلسفية معينة او الى حدث بذاته وانما كان ثمرة تفاعل عدة عوامل فكرية ومادية معا افرزت في النهاية ما يسمى في النهاية ما يسمى بالمذهب الليبرالي والذي ينتسب كما اشرنا الى تيار فكري شامل بزغ فجره منذ عصر النهضة وساد اوروبا طوال العصور السالفة .

انطلقت مصادر الليبرالية اولا - من مبداء العقلانية والاخيرة جاءت من خلال الايمان المطلق بالفرد وقدرته بوصفه كائنا عاقلا على ان يستخدم عقله فيما يواجهه من قوى الطبيعة وسبر غورها والوقوف على سننها ونواميسها توطئة لتسخيرها لخدمة اهدافه، وانبثق هذا التيار من عصر النهضة الاوروبية بما حواه من بعث فكري صاحبته انجازات ضخمة حققها الانسان على الصعيد المادي تمثلت في الكشوفات الجغرافية والاختراعات الفنية في والتقدم في اساليب الانتاج " ٢٣".

ونتيجة لتأثير العقلانية التنويرية بزغت فلسفة تنادي بالاهتمام بالفرد، واكدت على ان العقل الانساني هو الذي يصنع القانون والدولة أي نظام الحياة الاجتماعية باسرها حيث دعا مفكرو العقلانية الغربية الى الغاء النظام الكلاسيكي بنظام مستحدث يرتكز على العقل والطبيعة ويستحدث حقوقا تناهض حقوق الهيئات الحاكمة السابقة وتنتج عن هذه الدعوات ان ارتفعت شعارات الحرية والمساواة الطبيعية وانزوت المفاهيم القديمة حول سلطة الملك بكل ما صاحبتها من امتيازات طبقية وتفسير ذلك ان الفرد حينما استمد من العقل والطبيعة حقوقا جديدة فانه يكون قد حصل في نفس الوقت على سند لشرعية حكمه وبالتالي جرد الحكم الملكي المطلق دعامة لشرعيته فالسلطة الملكية المطلقة التي كانت تستند الى زعم الملك بانه يعكس ارادة الله لم تعد مقبولة واضحت السلطة ترفع شعار سيادة الشعب .

لاحظنا فيما سبق ان الخطاب الليبرالي الرأسمالي الكلاسيكي سلط الضوء على انهاء او الغاء دور الدولة وتفكيك سلطات الحكومة انطلاقا من مقولتهم الشهيرة "دعه يعمل دعه يمر" وانطلاقا من ذلك يطرح السؤال التالي هل فعلا كانت الرأسمالية

الليبرالية تطبق هذا الشعار ام انه مرحليا وان الغاء فكرة تدخل الدولة كانت فكرة عابرة وتنظير مفضوح تاريخا عبر مسيرة الرأسمالية الليبرالية ؟

وانه من خلال نظرة عابرة للتاريخ الليبرالي الرأسمالي عبر مسيرته الطويلة منذ بدايات القرن الخامس عشر توصلنا الى أنه من الخطاء الفادح الاعتقاد ان النظام الرأسمالي الذي نشاء بعيدا عن تدخل الدولة ورعايتها فمنذ النشاءة الاولى للرأسمالية التجارية خلال القرنين الخامس والسادس عشر، وخلال هذه الفترة الزمنية تشكلت البدايات الاولى للرأسمالية التجارية ونمت فيه حركة الكشوفات الجغرافية وتوحد السوق العالمية، وهنا نقف قليلا لنرى كيف كانت الدولة تسير وتوجه الرأسمالية من خلال دعمها لرأس المال التجاري من خلال التدخل المباشر في منح التمويل والامتيازات والمراسم والاحتكارات للتجلر المغامرين وللشركات الضخمة عبر البحار وعلى سبيل المثال شركة الهند الشرقية وشركة الهند الغربية بل ان المؤرخين الاقتصاديين اعتبروا ان الفكر الرأسمالي الميركنتيلي الذي عكس خلال تلك المرحلة مصلحة التجار ورأس المال التجاري كان نصيرا وسندا قويا لتدخل الدولة في دعم الرأسمالية التجارية حيث برر هذا الفكر كافة الوسائل التي يمكن ان تلجاء اليها الدولة لفرض الهيمنة على البلاد الاقل قوة ودعوا الى ضرورة التدخل الحكومي لتحقيق الفائض في الميزان التجاري وهذا الفائض الذي يبلور في شكل تدفقات للمعادن النفيسة وانه لتحقيق ذلك لا بد من تشجيع ودعم كافة الانشطة الاقتصادية المشتغلة بالتصدير والرقابة على المواد الخام وعلى الواردات وتوسيع الأسواق الخارجية "٢٤"

اما في ما يتعلق بمرحلة الراسمالية الصناعية وهذه الفترة امتدت من ١٧٥٠ـ ١٨٥٠ وما تلاها حتى بدايات الحرب لعالمية الاولى وهي المرحلة الذهبية للفكر الراسمالي الكلاسيكي الذي عبر عن مرحلة الراسمالية المنافسة وسوف نلحظ ان هذا الفكر كان متناقضا مع نفسه فهو في نفس الوقت يطالب بابعاد الدولة عن التدخل في المجال الانتاجي وفي علاقات السوق، ومطالبا بان تكون وظيفة الدولة هي الحراسة فقط او الدولة الحارسة الا ان الحقيقة الدامغة ان البرجوازية الصناعية استخدمت جهاز الدولة في صراعها ضد كل قوانين ومؤسسات وروابط المجتمع الاقطاعي وبقايا العهد الميركنتيلي من اجل ترسيخ مواقعها اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وعلى سبيل المثال وكما نعلم فان المجتمع الراسمالي الصناعي ظهر في بريطانيا حيث كان لصناعة الغسيل والنسيج دورا كبيرا في ذلك وانه لولا سياسة الحماية التي طبقتها الحكومة البريطانية لدعم هذه الصناعة الوليدة من المنافسة وبالذات مع الصناعة الهندية وتشير المصادر الى ان البرلمان البريطاني سنة ١٧٠٠منع استيراد المنتوجات القطنية من الهند حيث اصدر تشريعات قاسية لتطبيق هذا المناع منعا مطلقا، وفي المانيا لعبت الدولة دورا كبيرا في حماية صناعاتها الناشئة بفضل قوة الاقناع التي اتسمت بها افكار "فريد ريك ليست "حول نظرية الصناعات الوليدة في اربعينيات القرن التاسع عشر، كذلك نادى "الكسندر هاملتون " بنفس الافكار في اميريكا في بداية ثورتها الصناعية "٢٥".

ثانياـ منع تدخل الدولة :ان اخطر مراحل تدخل الدولة في المرحلة الصناعية الليبرالية وذلك الدور الذي لعبه هذا التدخل في دعم علاقات الاستغلال لصالح الطبقة

البرجوازية فمثلا خلال تطبيق مبدأ حرية التعاقد كان من المعتقد في بداية الثورة الصناعية ان ذلك الحق يعني "حق راس المال في استخدام العمال وفصلهم وتحديد وقت العمل، وان يدفع للعامل اجورا تتناسب مع حالة سوق العمل أي العرض والطلب دون ان يكون هناك قيد تفرضه الدولة او النقابات ".

وفي ضوء ذلك ساءت احوال الطبقة العاملة في انجلترا وارتفع معدل الاستغلال وزادت عدد ساعات العمل حيث وصلت من ١٤ـ ١٦ ساعة يوميا والاجور لا تكفي العمال والمصانع تعج بالنساء والاطفال دون أي شروط صحية فضلا عن تردي السكن والخدمات العامة وكان من الطبيعي ان يناضل العمال ضد هذا الاستغلال المتوحش سواء من خلال تجمعاتهم وعملهم المشترك او من خلال مطالبة الحكومة بالوقوف معهم لتحسين احوالهم وسن تشريعات لاوقات العمل والحد من تدني الاجور .

لكن ماذا جرى ؟؟؟

فقد تمكنت الليبرالية الراسمالية من تجميع صفوفها ووقفت بكل ضراوة ورعونة ضد هذه المحاولات والمطالب الرامية الى تحسين احوال الطبقة العامة وتمكنت البرجوازية البريطانية سنة ١٧٩٩من استصدار تشريع من البرلمان ينص على ما يلي "محرم على العمال في كافة الصناعات التجمع والتجمهر من اجل الحصول على اجور اعلى او ساعات عمل اقل هذا من جهة ومن جهة اخرى فقد حرم كذلك اصحاب الاعمال على استخدام بعض العمال وعدم استخدام البعض الاخر او اجبارهم على تنظيم اخر للعمل مهما كان والا عوقبوا بالسجن لمدة ثلاثة اشهر او شهرين مع الاشغال الشاقة كحد ادنى "٢٦".

لاحضنا من التشريع السابق كيف لجأت الراسمالية الليبرالية الى العودة الى خيار الدولة وكيف جندت الدولة في تبرير سلوكها المتوحش ضد مصلحة العمال وقهر مطالبهم من اجل ان تترسخ علاقات الاستغلال لصالح راس المال لكن الامور تغيرت حيث تمكن العمال عبر نضالهم المرير ومطالبتهم الدائمة والستمرة باصدار تشريعات تسمح للعمال في انشآء النقابات لكي تدافع عنهم ويساهم العمل بانتخاب مجالسها، وان تسمح هذه التشريعات باجراء الاضرابات لتحقيق اهدافهم وتطلعاتهم العليا لكن هذا لم ياتي بجرة قلم وانما بنضال وكفاح طويلين حيث قدم العمال تضحيات ضخمة وقدموا قوافل الشهداء دفاعا عن حريتهم .

المؤشر الاخر الذي لجأت اليه البرجوازية الصناعية في تبرير العودة الى خيار الدولة حيث استخدمت جهاز الحكومة وجيشها في تامين سيطرتها الخارجية لضمان الحصول على المواد الخام والمواد الغذائية وتامين الاسواق التي تمتص فائض الانتاج وفائض راس المال وهو ما مكنها من فرض هيمنتها على البلاد الواقعة في آسيا وافريقيا واميريكا اللاتينية كما سنلاحظ فيما بعدومن هنا ظهرت ما يسمى بالكولونية التي استندت الى القهر والعنف والاستغلال المباشر لشعوب المستعمرات هذا وقد اعتبرت الكولونية آنذاك نفيا جزئيا للتناقضات الراسمالية الصناعية،

وساعدت على تخفيف حدة التوتر والصراع الطبقي من خلال ما وفرته من زيادة في الاجور الحقيقية لعمال مراكز النظام الراسمالي عن طريق تحويل تلك الزيادة من فائض الارباح المنزوحة من المستعمرات، وخلال ذلك كان هناك دور فاعل وقاهر لجهاز الدولة بالمركز الراسمالية لتامين عملية استغلال المستعمرات والبلاد التابعة لها وهذا بحد ذاته يثبت مزاعم واكاذيب الليبرالية الرأسمالية ودهاقنتها .

اما بعد مرحلة الحرب العالمية الاولى وقبل الحرب العالمية الثانية وهي المرحلةالتي زاد فيها تركز وتمركز راس المال حيث برزت فيها الاحتكارات الصناعية الضخمة تعرض النظام الراسمالي لكثير من الاضطرابات وعلى راسها ازمة الديون والتعويضات الالمانية عقب معاهدة فرساي ١٩١٩ وثورة العمال في المانيا ١٩١٨ وازمة الكساد العالمي ١٩٢٩ـ١٩٣٣ او بروز ما يسمى الحروب النقدية والكتل التجارية وانهيار قاعدة صرف الذهب، وفي ضوء ذلك ظهر تدخل لحكومة على نحو واضح وفاضح لمواجهة ازمات النظام الراسمالي ولعل ابرز الملامح لهذا التدخل عقب مرحلة الحرب العالمية الاولى في المانيا، وتجربة روزفلت اثناء سني الكساد الكبير في اميريكا، وخلال فترة حكم النازية ايام هتلر، والفاشية الايطالية في عهد موسوليني بل وصلت الى بعض الدول النامية حيث تدخلت الحكومات فيها للحد من تردي الاحوال الاقتصادية اثناء سنوات الكساد .

ان المرحلة الحاسمة التي طبقت بها الرأسمالية العودة الى خيار الدولة تجلى في اعقاب الحرب العالمية الثانية من خلال تبني الكينزية فقد اثبت كينز في نظريته ان هناك ميلا متأصلا في عدم التوازن وهو ميل نابع من آلياته الداخلية وبسبب آلازمات الاقتصادية بشكل دوري من جرأ عدم التناسب ما بين العرض والطلب ونظرا لان النظام يعجز على ان يولد من ذاته وبطريقة تلقائية طريقة انعاشه والقضاء على البطالة وهو يمر بمرحلة الكساد الدوري او سبل تجنبه لمخاطر التضخم وهو يمر بمرحلة التوظف الكامل، فقد نادى بان الدولة هي الجهاز الوحيد القادر على ان يلعب دور المعامل الموازن او التعويض في الطلب هذا وقد قدم كينز وصفة كاملة لمواجهة الازمات الدورية والتي يلعب التدخل الحكومي فيها دور الطبيب المعالج، هذا وسنعرض في الصفحات القادمة عن ابرز النظريات الاقتصادية التي سادت الرأسمالية التي سادت الرأسمالية الكلاسيكية ومنها نظرية اللورد كينيز .

بعد هذا العرض عن الليبرالية الرأسمالية بشقيها السياسي والاقتصادي يطرح السؤال نفسه ما سر هذا الغرام الذي حفز الطبقة البرجوازية الرأسمالية بالليبرالية ؟

من خلال ما سبق تم التوصل الى جملة من المحاور والاعتبارات التي ساهمت في احياء هذا الغرام وهذا العشق واهم هذه الاعتبارات ما يلي :

١ـ ان البرجوازية الرأسمالية انجزت مهمتها الثورية بكل اقتدار لانها عبرت عن مصالح الطبقة الصاعدة التي قادت عملية التحول من الاقطاع الى المجتمع الراسمالي .

٢ـ ان هذه الاستجابة التاريخية السريعة تعني ان التاريخ راض عنها وانها جديرة بذلك وتستجيب لحالة التطور الانساني

٣ـ ونتيجة لهذه الانتصارات التي حققتها البرجوازية الراسمالية فقد تحول علم الاقتصاد السياسي الكلاسيكي الليبرالي الذي هو علم الراسمالية الى علم مستقل بحد ذاته وهو المرجعية الفكرية للمثقفين الرأسماليين المرتبطين بهذه البرجوازية واصبحت تعاليم وطقوس الليبرالية طقوس وتعاليم مقدسة للاسباب التالية:

١- ان العلوم الطبيعية هي التي زودت الرأسمالية لتنمية القوى الانتاجية التي يعتمد عليها دخلها ومركزها الاجتماعي .

٢- الاقتصاد الكلاسيكي اصبح سلاحا استخدمتة الرأسمالية في تضالها من اجل فصم الروابط القديمة التي قيدت مبادراتها ونشاطها الاقتصادي .

هوامش الفصل الاول : - الباب الاول

١- القاموس السياسي، احمد عطية الله، ص ١٠٧٨ .

٢- الليبراليون الجدد، سيار الجميل، منقولا عن كتاب الليبراليون الجدد، شاكر النابلسي ص ٤٣ .

٣- الليبرالون الجدد، د . شاكر النابلسي، ص ٤٤ .

٤- تطور الفكر السياسي، مراجعة عبد السلام المزوغي، ود. حبيب وراعة، المركز العالمي لدراسات والابحاث الكتاب الاخضر ص ١٨٩ .

٥- تطور الفكر السياسي، د.احمد محمد الاصبحي، ج٣ ص١٧٨٥ – ١٧٨٦.

٦- الفيروس الليبرالي، د . سمير امين ص ٥ .

٧- مرجع سابق ص ١٩٠.

٨- الليبرالية المتوحشة، د. رمزي زكي ص ٢٠ .

٩- مرجع سابق ص ٢١ .

١٠- مرجع سابق ص ٢١ .

١١- مرجع سابق ص ٣٢ -٣٩ .

١٢- مرجع سابق ص ١٧٨٥ -١٧٨٦ .

١٣- من التجزئة الى الوحدة، د .نديم البيطار ص ٢٣٢ -٢٣٣ .

١٤- مرجع سابق ص ٤٤ .

١٥- مرجع سابق ص ١٧٨٦ -١٧٨٧ .

١٦- مرجع سابق ص ١٩٢ -١٩٣ .

١٧- مرجع سابق ص ١٩٣ .

١٨- مرجع سابق ص ٣٩ -٤٠ .

١٩- مرجع سابق ص ٤٠ – ٤٣ .

٢٠- مرجع سابق ص ١٧٨٦ -١٨٨٧ .

٢١- مرجع سابق ص ١٧٩٠ -١٧٩١ .

٢٢- مرجع سابق ص ١٧٩٢ -١٧٩٨ .

٢٣- مرجع سابق ص ١٩٠ – ١٩١ .

٢٤- التاريخ النقدي للتخلف د.رمزي زكي ص١٩٠– ٤٨ س عالم المعرفة عام١٩٨٧.

٢٥- مرجع سابق ص ٤٦ .
٢٦- الرأسمالية الناشئة، د. احمد جامع، ص ١٨١ .

الفصل الثاني / الباب الاول

الوجه القبيح والبشع لليبرالية الرأسمالية الصناعية

او النهب المتوحش لخيرات العالم الفقير

مقدمة تاريخية عن العلاقات الاقتصادية ما بين الشرق والغرب

لاحظنا في الصفحات السابقة انه خلال القرن الخامس عشر أي قرن ولادة الرأسمالية التجارية الميركنتيلية وافول شمس الاقطاع في العصور الوسطى وخلال هذه المرحلة استغلت الرأسمالية التجارية الاجواء التي ساهمت في تحرير الانسان من الكهانة والجهل والتخلف وبروز الحركات التنويرية والعقلية والفلسفية، والاهم انه في ظل الرأسمالية الصناعية اصبح التركيز العالمي لليبرالية الرأسمالية ينصب على فتح اسواق جديدة، والمطالبة برفع يد الدولة عن النشاط الاقتصادي وتحرير التجارة العالمية كل ذلك هيا المناخ لاكتشاف العالم الجديد، وغزو الدول الفقيرة لتكون ملاذا امنا واسواقا جديدة للاقتصاديات الرأسمالية هذا وسنسلط الضوء على اثر الاكتشافات الجغرافية التي تمت في القرن الخامس عشر ودورها الحقيقي في نهب مقدرات دول العالم الثالث .

ان الكشوفات الجغرافية التي جرت خلال القرن الخامس عشر كانت تهدف ليس الى اكتشاف عالم جديد وثقافات جديدة فحسب بل ان الهدف الحقيقي لهذه الاكتشافات يكمن في الحاق العالم الجديد الذي اكتشف في اسيا وافريقيا وامريكا بالنظام الرأسمالي العالمي ليكون ملحقا وتابعا له ليتم فيما بعد ذلك لحاجة المراكز الراسمالية العالمية الصناعية سواء في مجال التخصص وتقسيم العمل او في مجال تصريف المنتجات واستثمار رؤوس الاموال، وقد اجمع علماء الاجتماع والتاريخ السياسي والاقتصادي لا يمكن فهم الوضع المأزوم حاليا لدول العالم الثالث دون ان نقف امام هذه الاحداث التاريخية التي عصفت بالكرة الارضية منذ بدايات القرن الخامس عشر .

صورة اقتصاديات الشرق خلال تلك الحقبة

اشارت المصادر التاريخية الى ان دول العالم الثالث قبل بزوغ مرحلة الكشوفات الجغرافية كان يوجد بها مجتمعات على مستوى عال من المرونة والتنظيم والكفاية الاقتصادية فقد عرفت هذه المجتمعات الزراعة المستقرة ذات المحاصيل المتنوعة والمعتمدة على نظم راقية جدا في الري والصرف الصحي، وكان الكثير منها مكتفي اقتصاديا في مجال الغذاء بل ويمتلك فوائض غذائية كانت تستخدم في تبادل منتجات المناطق المجاورة حيث كان انتاجها الصافي ارقى بكثير من انتاج الدول الاوربية

كما كانت بها اشكال متقدمة من التنظيم الاجتماعي لعلاقات الناس كالتعاون والتخصص وتقسيم العمل وتنظيم التبادل وتوزيع الناتج وتقاليد الحكم وفض المنازعات كما ان مجتمعات هذه البلدان قد عرفت الكثير من الاكتشافات العلمية التي استخدمت في مجال التعدين وتشكيل المعادن والمصنوعات " ١" .

ولماذا نستغرب ذلك فحضارة وادي النيلا والرافدين هي من اعرق الحضارات الانسانية وكذلك الحضارة الصينية والبابلية والاشورية والحضارة الهندية وحضارة بلاد فارس والحضارة الاسلامية وحضارة الهنود الحمر في امريكا اللاتنية والانكا والازتيك، وكل هذا يؤكد لنا ان التخلف الذي ران على شعوب العالم الثالث ليس حتميا بل مرحلة من مراحل التاريخ، ولذلك كانت حركة الكشوفات الجغرافية بداية لاقتحام وحوش وضواري اوروبا جنات العالم الثالث .

كما وتشير المصادر الى ان العلاقات الاقتصادية ما بين اوروبا ودول الشرق خلال القرن الثالث عشر هي علاقات اقتصادية قوية جدا، وها ما اثبته الرحالة " ماركو بولو" عندما قام برحلته الشهيرة الى الصين وعن طريق حركة التجارة في البحر المتوسط التي نشأت بين بعض المدن التجارية مثل جنوة والبندقية والعام الاسلامي خللا الفترة ما بين القرن العاشر والرابع عشر وهي التجارة التي يسيطر عليها العرب في تلك الفترة بسبب ما تهيأ لهم من اكتفأ ذاتي وتنوع كبير في منتوجاتهم الزراعية والحرفية وبسبب العلاقات الوثيقة التجارية التي كانت تربطهم بالدول الافريقية وبعض مناطق آسيا كالهند والصين واندونيسيا نتيجة لتطور فنون الملاحة العربية وسيطرة البحارة العرب على الطرق المائية واعالي البحار فالتاريخ يشير الى ان السفن العربية كانت تنطلق من الخليج الى السواحل الافريقية والى جزر القمر ومدغشقر وهي محملة بالمنتجات العربية كالاقمشة والسجاجيد والسلع الزراعية، وقد اقام التجار العرب محطات تجارية لهم داخل بعض المناطق الافريقية، وازدهرت نتيجة ذلك بعض المدن مثل ممباسا،ومقديشو، وزنجبار، وكتنوا يحملون في طريق عودتهم صنوفا عديدة من السلع الافريقية مثل العاج والعنبر والريش والمنتوجات الاستوائية فضلا عن الرقيق الاسود، كما ان السفن العربية كانت تنطلق من سواحل الخليج العربي الى الهند والصين وسيلان واندونيسيا وتعود محملة بالتوابل والكافور والمسك والبخور والمنسوجات الحريرية، وكان جزء من المنتجات الافريقية وآلاسيوية التي يجلبها العرب تذهب الى اوروبا وكان الذهب يتسرب من العالم الاسلامي لتمويل شراء الواردات من البلاد الافريقية وآلاسيوية يعوض باكثر من خلال الذهب التي كانت تدفعه اوروبا لتمويل مشترياتها من العالم الاسلامي، وانذاك كان ثلاث طرق تجارية تسير فيها قوافل اوروبا، اولها الطريق الذي ينساب من الاسواق الكبرى في ايران والعراق وارمينيا ويتجه نحو بحر قزوين والانهار الروسية ثم ينحرف الى الغرب الجرماني عن طريق بولندا وبحر الشمال، والطريق الثاني حيث يتم انتقال السلع الى مصر وعن طريق السويس حيث كانت تصل القوافل البحر المتوسط ثم الى دول اوروبا، اما الطريق الثالث فكان يتجه الى شمال افريقيا وصقلية والاندلس ثم الى ايطاليا وشمال اسبانيا وجنوب فرنسا، وضفاف الراين، وقد تمتعت عكا والاسكندرية وطرابلس وانطاكيا وكريت وقبرص وجنوة والبندقية بمكانة هامة باعتبارها مراكز اتصال بين الشرق والغرب.

وعلى اية حال فقد سيطر تجار جنوة والبندقية على تجارة المنتجات الشرقية وبالذات التوابل داخل اوروبا وحققوا نتيجة لذلك ارباحا طائلة وهو الامر الذي كان مزعجا لتجار المدن الاخرى وخاصة لدى البرتقال واسبانيا وهولندا وانجلترا وفرنسا .

ومن هنا فقد سيطر العرب على التجارة العالمية في العصور الوسطى وحتى القرن الرابع عشر بل يمكننا القول ان المنطقة العربية هي مركز الاقتصاد العالمي القديم، فقد كان القسم الاكبر من ذهب العالم موجود في العالم الاسلامي بفضل ما تهيأ من فائض اقتصادي كبير ومن سيطرة على اعالي البحار ومن ارباح وثروات ضخمة من التجارة مع البلاد الافريقية وآلاسيوية والاوروبية ناهيك عن المكوس المرتفعة التي كان العرب يفرضونها على حركة التجارة العابرة في اراضيهم بل استطاع العرب من خلال ازدهار تجارتهم ان يستردوا الذهب الذي كان قد سلبه منهم الرومان من قبل، ولذلك ليس صدفة ان كان الدينار الذهبي الاسلامي المعروف باسم المنقوش متدالا في الاسواق الافريقية والاوروبية، وكانت الاسعار تقدر به في ايطاليا وشمال اسبانيا وانجلترا والمانيا لانها كانت بمثابة العملةالدولية ومن هنا أعتقد ان العالم الاسلامي في تلك الحقبة كان يعيش في مرحلة مبكرة من الميركنتيلية أي الرأسمالية التجارية قبل ان تدخلها دول القارة الاوروبية في مرحلة لاحقة وكانت هذه اكبر فرصة تاريخية امتلكها العرب وكانت كفيلة بان تجعل المنطقة العربية من اسبق مناطق العالم في ظهور الثورة الصناعية والسؤال المطروح لماذا؟

لقد تم الاجهاز على الميركنتيلية العربية لنها لم تتطور الى رأسمالية صناعية بسبب العقل العربي المتحجر انذاك والنظم الشمولية التي تفشت في المنطقة حيث حاربت أي تقدم فكري وعلمي وصناعي بخلاف التجارة ناهيك عن تأثير الغزوات الاجنبية الاستعمارية .

صورة الاقتصاديات الاوروبية خلال تلك الحقبة

في ضوء هذا الواقع التاريخي لحقبة القرن الرابع عشر والخامس عشر كانت الاقتصاديات الاوروبية لم تكن سوى تجارة استيراد فقط اذ لم يكن لديها سلع ثمينة وغالية او منتجات خاصة اشتهرت بها لكي تقايض بها ما تستورده، ولهذا كان يتعين ان تدفع بالذهب في مقابل ما تشتريه من سلع الشرق الغالية كالاقمشة والتوابل، والسؤال المطروح من اين ياتي الذهب لاوروبا او بعبارة اخرى من اين جاء الذهب للاوروبين؟ حيث سيلمس ويرى القارىء ان هذا الذهب هو احد اشكال نهب خيرات العالم الثالث"٢" وفي هذا الصدد يقول المؤرخ " لويس لومبار" ان دول القارة الاوروبية كانت في الواقع منجم للذهب يستغله اهل الشرق حتى ينضب، وبالفعل نجد انه مع استمرار تجارة الاستيراد وجمود النشاط الاقتصادي في اوروبا في العصور الوسطى تسرب الذهب الاوروبي الى العالم الاسلامي ومع قلة الذهب وانعدام مصادر انتاجه قلت تجارة الواردات وضعفت مع بلاد الشرق، واصبح التعامل مع اوروبا يتم بالفضة وتشكل هذه الحقائق في الدراسات التاريخية ما عرف بمشكلة

الذهب في العصور الوسطى "٣"، وتزامن ظهور مشكلة الذهب في دول القارة الاوروبية في القرن الخامس عشر تحول نظام الاقطاع في اوروبا مرحلة تفسخه وانحلاله، وهناك بدأت ولادة نظام عالمي اجتماعي جديد هو نظام الرأسمالية التجارية الذي شكل منذ البداية التفوق الاوروبي الغربي لمراحل التطور التالية :

١- اشتداد الظلم الاقطاعي وتفتت الجماعات

٢- انخفاض عدد سكان الريف وتفشي الامراض بهم

٣- تراجع حجم الانتاج الزراعي

٤- تزايد حاجات الامراء والنبلأ والاقطاعيين للنقود لشرأ المزيد من السلع الترفيهية والمنتجات الحربية لتمويل الحروب وتحت ضغط الحاجة للنقود اضطر رجال الاقطاع لتحرير الاقنان وتحويل الريع من الانتاج الى شكله النقدي "الايجار" وواكب ذلك ضعف سلطة رجال الاقطاع والكنيسة معا امام دور الاثرياء كما ظهرت ظاهرة الاقراض مقابل الفائدة وهي الظاهرة التي كانت تحاربها الكنيسة في العصور الوسطى باعتبارها محرمة من رجال الدين، وتولى التجار والصيارفة اليهود في بادىء الامر عمليات الاتجار في النقود لمواجهة ظاهرة التعطش للمال "٤"

ومن هنا بدأ شعاع التغيير والتحرير في المجتمع الغربي ببروز حركات التنوير، والذي استهل اعماله بالثورة على الجمود والتخلف في العصور الوسطى ومحاربة الفكر الديني واعلأ شأن العقل وحرية التفكير والابداع واحترام حقوق الافراد الطبيعية والايمان بقدرته على التغيير، وكان من الواضح ان البرجوازية الرأسمالية الجديدة وهي تشق طريقها نحو الامام وتريد نوعا من المعرفة الجديدة عن اسرار المادة والكون لتمكين الانسان للسيطرة على الطبيعة فاخذت تميل الى تشجيع حرية الفكر والبحث العلمي والاكتشافات الجديدة وتتحمس لسلطة العقل والتجريب وليس حبامن اجل المعرفة ولكن من اجل الربح، وعلى المستوى التكنولوجي والصناعي حدثت تطورات مذهلة فتقدمت صناعة المعادن وبنأ السفن وادوات الانتاج المستخدمة في الصناعات الحرفية وزادت المعرفة باحوال الفلك وعلوم البحار واكتشفت البوصلة والتلسكوب وتقدم علم الجغرافيا وزادت المعارف حول الطرق المائية، وقبل ذلك عرف الاوروبين صناعة البارود والاسلحة وهو الامر الذي سيلعب دورا هاما في السيطرة على العالم الجديد المكتشف ويثبت فيه الاوروبي تفوقه ويحقق فيه وسيلة لقهر الآخرين في عصر الكشوفات الجغرافية، وهنا يمكننا القول ان الكشوفات الجغرافية حققت عنصرين اثنين اولهما البحث عن الذهب ومنابع انتاجه ما وراء البحار، وثانيهما الوصول مباشرة الى مناطق الشرق لكسر احتكار العرب لطرق التجارة .

ولذلك تم تجهيز السفن بالمدافع والبارود وهي تحمل جحافل التجار والقراصنة والملاحين والرجال الاشداء المتمرسين بالمعارك وبامور البلطجة، وكانت اسبانيا اول دولة تدشن عن جدارة هذه المرحلة، ففي ٣ اغسطس ١٤٩٢ ابحر الملاح كريستوفر كولمبس تحمل اعلام اسبانيا للوصول الى الهند والصين ولكن عن طريق الغرب بعد ان ساد الاعتقاد ان الارض كروية وكان على ظهر السفينة ١٢٠ رجلا

وقد مولت الحملة من الملك فريدينلد ملك اسبانيا وزوجه ايزابلا بعد ان فشل في اقناع ملك البرتغال وفرنسا وبريطانيا بمشروع رحلته وتمويلها، هذا وقد استمرت الرحلة ٣٣ يوما الى ان وصل الى اراضي جزر البهاما "جزر الهند الصينية " وقد كتب الملاحضات التالية :

ثراء هذه المنطقة، وتنوع منتجاتها الاستوائية، وجمال نباتاتها وغناها بالمعادن النفسة كالذهب والفضة، كما شاهد حياة سكانها وهم الهنود الحمر يعيشون حياة طيبة وفي صحة جيدة وفي وئام مع الطبيعة الرغدة حيث يزرعون وياكلون دون صراعات، ويقضون اوقات فراغهم في الرقص والغناء كما بهرته مدى دقة طرقاتهم ومنازلهم ومعابدهم .

هذا وقد تكررت رحلة كولمبس ثلاث مرات الى هذا العالم كان كل مرة يعود محملا بالمنتجات الزراعية والتحف والذهب وبعض الهنود الحمر، واهملت فكرت الذهاب الى الهند حيث اتضح ان بهذا العالم الجديد كنوزا طائلة ومغانم ضخمة تغري على النهب والسلب وسرعان ما دخل البرتغال الساحة فارسل الملك جون الثاني بعثة بحرية وصلت الى شواطئ البرازيل وقررت تبعية هذا الجزء لملك البرتغال كما ارسل فيما بعد الى "امريجوفسبوتشي "الذي تسمت اميركا باسمه فيما بعد وعندها نشأ الصراع ما بين الاسبان والبرتغال، وهو الخلاف الذي يحسم فيما بعد باعلان اول تقسيم استعماري للعالم يباركه البابا اسكندر السادس حيث عقدت اتفاقية "نورد سيلاس في شهر يونيو ١٤٩٤ بين ملك البرتغال وملك اسبانيا وفيها تم رسم خط وهمي بين القطبين على بعد ١١١٠ ميلا غربي جزائر اوراس بحيث يكون ما يقع شرقه للبرتغال وما يقع غربه للاسبان .

ثم اشتد الصراع الضاري بين المكتشفين حيث ما لبثت بريطانيا وفرنسا لارسال حملاتها ليكون لهما موطئ قدم في العالم الجديد خاصة بعد ان شاهد البريطانيون والفرنسيون السفن الاسبانية وهي تعود محملة بكنوز هائلة من منهوبات هذا العالم "٥" .

كيف تعامل الراسماليون مع دول العالم الجديد ؟

تشير المصادر التاريخية على وجه الخصوص ان معاملة المحتلين الرأسماليين الاسبان كانت معاملة وحشية وغير إنسانية مع سكان البلاد الاصلية التي وصلوا اليها حيث لجاءوا الى وسائل متوحشة ومرعبة في نفس الوقت والتي ادت الى تدمير حضارة "الازتيك" "والانكا والمايا " وابادة سكان هذه الحضارات ونهب ما يملكون من معادن نفيسة علما بان سكان هذه المناطق هم اصلا مسالمون ويمتازون بالطيبة والسماحة لا عهد لهم بها في اوروبا، وفي هذا الصدد يقول كولمبس في مذكراته بتاريخ ١٦ -١٢-١٤٩٢ " انهم افضل ناس في العالم كما انهم اكثر مسالمة بل انهم من فرط مودتهم تخال اليهم بانهم سيسلمونك قلوبهم "، ويصور لنا عن مدى سذاجتهم وطيبتهم قائلا ان كل ما لديهم يعطونه مقابل أي شيء تافه تقدمه لهم بحيث انهم ياخذون في مقابل ذلك كسرا من الاواني وكسرا من الاقداح . "٦"

وفي ضوء هذا التسامح والسذاجة التي اتسم بها الهنود الحمر مضى الاسبان بممارسة وحشيتهم من خلال استغلالهم واخضاعهم لسيطرتهم خاصة اذا علمنا ان اسلحة الهنود لا تتعدى السهام والتي لايمكن ان تصمد امام المدافع والبنادق حيث صمم الغزاة المحتلين من الاسبان والبرتقال على نهب كميات هائلة من الذهب والفضة التي كانت تذخر بها هذه البلاد الآمنة حيث لجاءوا في بادىء الامر الى خطف ونهب كافة اشكال الحلي التي كانت تتزين بها الهنود الحمر ثم لجاءوا للهجوم على معابدهم الجميلة وسرقة ما بها من كنوز وتحف ذهبية وتدميرها بوحشية مرعبة، ونفذوا في ذلك مذابح همجية تتواضع امامها بخجل وسائل النازية حيث كان القتل والحرق وتقطيع اجساد الرجال وذبح الاطفال وتقطيع اثداء النساء من المعالم الدامية لترويع الهنود الحمر عند نهبهم، ومع نشوة الترهيب بهذه الوسائل الوحشية كتب كولمبس في رسالة بعث بها من جاميكا عام ١٥٠٣ يقول فيها " ان الذهب شيء ساحر ومن يمتلكه فقد امتلك كل شيء بل يستطيع المرء بالذهب ادخال الارواح الى الجنة " .

وعندما جفت امكانات نهب الذهب الموجود لدى الهنود في معابدهم راح الغزاة يبحثون عن منابع انتاج الذهب وعملوا الى تسخير الهنود في تنقية الطمي الذهبي في الجداول والانهار واستخراج ذرات الذهب الدقيقة منه لجاءوا في ذلك الى طرق جهنمية حيث كان الهنود يعملون طوال اليوم في الجداول لتنظيف مسحوق الذهب في خروق قاسية دفعت بالكثير منهم الى الانتحار خلاصا من العذاب "٧"، وحينما نضبت الجداول من الطمي الذهبي لم تكن شهية الغزاة للغنائم قد اشبعت بعد، فراحوا يبحثون عن المناطق التي تتواجد فيها مناجم الذهب والفضة وعثروا عليها في المكسيك والبيرو وتشيلي ونيوجرينادا، وتميزت الفترة الممتدة من ١٦٠٠ـ ١٨٠٠ بالنهب الوحشي لهذه الناجم حيث يستخدم الغزاة تقنية الالغام للوصول الى اعماق تلك المناجم، هذا وقد نجم عن هذه الاعمال الوحشية موت عدد ضخم من الهنود في هذه المناجم في اسواء ضروف عرفتها البشرية ومن الجدير بالذكر ان مناجم الذهب والفضة تبعد عدة اميال عن اماكن معيشة الهنود، ولهذا كان يجبرون على السير في شكل قوافل بشرية تتراوح ما بين ٥٠٠٠ـ ٧٠٠٠ نسمة للاتجاه نحو هذه المناجم، وكانت قوافل الهنود المسكونة من الرجال والاطفال وانساء وحتى المواشي المحملة باغذيتهم تقطع هذه الاميال سيرا على الاقدام ويتعرض الكثير منهم للموت قبل الوصول الى المناجم وكانت الرحلة تستغرق شهرين .

ويصف الكاتب " تزفيتان تودوروف" وحشية ملاحظي عمال المناجم في معاملتهم للهنود الحمر

" وقد اعتاد ملاحظي عمال المناجم على مضاجعة الهنديات اللاتي يتبعنه ان رقن له سواء اكن متزوجات او عذارى وبينما كان ملاحظ العمال يمكث في الكوخ او الحصن مع الهندية وكان يرسل الزوج لاستخراج الذهب من المناجم وفي المساء عندما كان المسكين يعود لم يكن يوسعه ضربا ويجلده فحسب بل لانه لم يحضر الكثير من الذهب بل انه في اغلب الاحيات يقيده ايضا من رجليه ويديه ويلقيه تحت السرير قبل ان يرقد فوقه تماما مع زوجته.

هذه هي صورة الاطار الدامي والوحشي الذي تمت فيه عملية النهب للذهب والفضة من امريكا اللاتينية بعد نجاح حركة الكشوفات الجغرافية وهي تمثل في الحقيقة اكبر عملية سرقة وقرصنة في التاريخ الانساني وهي تعطي الصورة الحقيقية للرأسمالية الليبرالية المتوحشة .

هذا وتشير المصادر التاريخية الى ان كميات الذهب التي نهبت من امريكا الجنوبية قدرت ب ٦٢٢٨ مليون مارك ذهبي حسب تقديرات الاقتصادي الالماني "ارنست كيميل" اضافة الى ٨١٠ مليون مارك الماني من افريقيا و٧٠٠ مليون من اسيا، فيما تشير تقديرات اخرى الى ان كمية الذهب الذي كان في اوروبا خلال الفترة من ١٥٠٠ـ ١٨٠٠ تقدر ١٠٤ بليون مارك ذهبي بينما كمية الذهب الذي كان في اوروبا في بداية القرن الخامس عشر يقدر ببليون مارك الماني وهذا يعني ان ٩٠ %من ذهب اوروبا انساب اليها من المستعمرات الجديدة وراء البحار من خلال عمليات النهب الشديدة "٨" .

الرأسمالية الليبرالية وتجارة الرقيق

يعترف المؤرخون بان تجارة الرقيق ارتبطت بحركة الكشوفات الجغرافية التي تمت في القرن الخامس عشر باحتقار تجارة عرفتها البشرية وهي الاتجار بالبشر باعتبارهم سلعا تباع وتشتري في الاسواق طبقا لاسعار تحددها قوى العرض والطلب، وفي هذه التجارة تساوى الانسان مع الجماد والحيوان حيث هدرت كرامته وحريته وانسانيته لحساب مجموعة من البشر المتوحشين الذين لعبوا ادوارا همجية في قنص العبيد وبيعهم حيث جنوا من وراء ذلك ثروات هائلة على حساب الملايين من البشر الذين شاء حضهم ان يكونوا ضحايا سلوكيات الليبرالية الراسمالية لزيادة تراكماتها المالية على حساب ادمية الانسان، وهذه الجريمة هي اكبر جريمة ارتكبتها الراسمالية التجارية، وقد استمرت هذه التجارة لمدة اربعة قرون أي الى بداية القرن الماضي .

وكانت تجارة العبيد قبل مجيئ البرتغال محدودا للغاية وتميزت ببعدها عن النزعة التجارية، وكان العبيد يستخدمون كعمال او كجنود في الجيوش، وكانت النساء يعملن كعاملات وخادمات، وقد نشطت تجارة العبيد في القرن الخامس عشر ونشطت بشكل متوحش ومسعور بعد حركة الكشوفات الجغرافية حتى القرن التاسع عشر، فكانت ذات طابع مختلف سواء في الدافع اليها او حجمها او في طريقة معاملة العبيد او فيما يتمخض عنها من نتائج، وتشير المصادر الى انه خلال القرن السادس عشر هبط عدد الهنود الحمر الى مستويات خطيرة تحت تأثير ثلاث عوامل اهمها :

١ـ الابادة والقتل من قبل الاوروبيون

٢- الوفيات التاريخية الضخمة حيث تم نقل الامراض للهنود الحمر مثل الجدري والحصبة والزهري

٣- الابادة التي حدثت للهنود الحمر في مناجم الذهب والفضة بسبب الاستغلال الوحشي والمميت لهم

هذا وتشير المصادر الى انه عدد سكان المكسيك على سبيل المثال عشية الفتح الاسباني بحوالي ٢٥ مليون نسمة بينما بلغ عددهم عام ١٦٠٠ نحو مليون " ٩"، ويذكر ان اول شحنة للعبيد الافارقة وصلت الى جزر الهند الغربية عام ١٥٠١ أي بعد تسع سنوات من اول رحلة قام بهاكريستوفر كولمبوس، ثم توالت الشحنات بعدذلك بشكل هائل خاصة بعد ان دخل على خط هذه التجارة الفرنسيون والانكليز والاسبان والهولنديون وقد تكونت شركات كبرى للعمل في هذا المجال مثل شركة جزر الهند الغربية الهولندية التي تأسست عام ١٦٢١، وشركة السنغال الفرنسة.في غرب افريقيا، ونظرا لشدة التنافس الذي نشاء بين هذه الشركات فان اصحاب كل شركة لجاءوا اى وسم رقيقها بعلامات خاصة عن طريق الكي في مكان ما من الجسم تماما مثل الماشية ويعتقد ان هذه العلامة هي الاصل في فكرة العلامة التجارية في النظام الرأسمالي، وهنا يخرج علينا بعض الباحثين الاقتصاديين ان تجارة الرقيق كانت في الحقيقة اول استثمار دولي لرأس المال على نطاق واسع "١٠" حيث كانت معدل الارباح فيها هائلا قدره الاقتصادي البريطاني " موريس دوب" ما بين ١٠٠% - ٣٠٠% "١١"، حيث اثرى كثير مكن تجار الرقيق الاوروبين من استثمار اموالهم في شراء السفن المستخدمة في نقل العبيد بل ان الارباح التي تحققت من هذه التجارة القذرة كانت تفوق بكثير معدلات الارباح التي تحققت من تجارة التوابل.

كيف كان يتم صيد العبيد من قبل دهاقنة الرأسمالية؟

تشير المصادر التاريخية الى ان البرتقاليين لجاءوا الى الاسلوب المباشر من داخل افريقيا وتولوا بانفسهم مهمة قيادتهم وجلبهم وتخزينهم في الحصون والقلاع الى ان يتم نقلهم بالسفن عبر مستعمراتهم بالعالم الجديد وقد مارسوا ابشع اشكال ووسائل العنف المتوحش وخاصة في انجولا والكنغو وغينيا وغانا وموزامبيق لكن البرتقاليين واجهوا مقاومة عنيفة ليس من العبيد فحسب بل من تجار النخاسة الافارقة والعرب الذين كانوا يخشون ان ينافسهم النخاسة الاجانب في ارباحهم باعتبارهم وسطاء في هذه التجارة،

ولهذا فقد تفاوض هولأ النخاسة مع الاوروبيين للتعاون عن طريق ان يقوم الاوروبيين بامداد هولأ النخاسين بالسلع والبنادق والذخيرة والخمور مقابل قبامهم بجلب العبيد المتفق عليهم على عددهم ونوعيتهم على ان يتم تسليمهم وايداعهم بالحصون الى ان تاتي السفن لشحنهم، وقد اعجب الاوروبيون بهذه الوسائل خاصة وانها تجنبهم مشقة القنص والتعرض للرطوبة والحرارة الشديدة والحشرات

الاستوائية والامراض المتواطنه داخل القارة الافريقية، ولهذا السبب كانت سياسة انتظار قوافل العبيد هي السمة المميزة للحصول على العبيد في القرن السابع عشر والتاسع عشر .

هكذ بدأت تجارة العبيد في افريقيا واشعلت الحروب داخل هذه القارة بسبب الطلب المتزايد على العبيد فقد ساهم زعمأ القبائل في هذه التجارة وبتمويل من النخاسين في شن الغارات المستمرة على جيرانهم لأسر اكبر عدد من الاطفال والنساء والرجال وتسليمهم للنخاسين وقبض الثمن الذي لا يتعدى قارورة خمر او تحف ثمينة والادهى من ذلك انه اثناء عملية القنص يحدث سقوط لآلاف الضحايا وفي بعض الاحوال يهرب العبيد ويلجئون الى الكهوف والمغاور حيث كان النخاسون يوقدون النار عند مداخلهات بالقش واغصان الشجر فيرتفع الدخان الكثيف حتى يجبرهم الخوف على الخروج خوفا من الاختناق، وقد اشار باحثون إلى الطرق الوحشية التي يلجاء اليهاداخل القارة الافريقية ولنقراء ما يقوله كل من المؤرخين " جون هنري كلارك ومانيت هاردونج" في هذا المجال" كانت طريقة اقتناص الرقيق تتم بالوحشية والقسوة وكانت الوسيلة المتبعة هي حرق القرى باكملها وقت السحر والعبيد نيام، ثم يقوم القناصة بعد ذلك بجمع الصيد الثمين حيث يربط بالحبال كل اثنين معا ويشكلون صفا طويلا يجمعهم عمود خشبي كبير يربط في اعناقهم وبعد ذلك تبدأ رحلة الاتجاه نحو الساحل وكان خط القافلة يمتد لعدة مئات من الامتار يقودها فرد او اكثر حاملا سوط يضرب به بقسوة كل من يتباطىء في السير "١٢" .

كما ويشير الدكتور زاهر رياض فان الضعفاء يسقطون اعياء فيقتلون او يلقى مصيرهم، وقد ظلت عظام هولأ المساكين الذين لقوا حتفهم في الطريق علامات توضح الطرق التي سلكوها هولأ التعساء حتى القرن التاسع عشر كما وصف ذلك الرحالة " ليفجستون " في كتاباته عن اكتشاف منابع النيل، وبشكل تقشعر له الابدان ان حالة القهر والقسوة والعذاب التي كان يعاني منها الرقيق وهم في رحلة التوجه الى مصيرهم المجهول في السواحل وما ان تصل القافلة للسواحل حتى يتسلمهم الاوروبيون ويقوموا بفحص العبيد، ووشمهم بعلامات مميزة بسيخ محمي بالنار ثم يودعون الحصون والقلاع انتظارا لرحلة العبور نحو العالم الجديد .

مشهد العبيد اثناء صعودهم السفن

كشف لنا المؤرخون عن طبيعة هذا المشهد من خلال قذف العبيد داخل السفن بقسوة وهم حفاة عراة، ونظرا لا رتفاع تكلفة الرحلة التي تستغرق عدة اسابيع حيث يحرص ملاك السفن على صناعتهاعلى هيئة مخازن ذات رفوف يرص فيها العبيد وهم مصفدون بالاغلال بعد فصل النساء عن الرحال، وكان شكل السفينة بعد شحنها اشبه بعلب السردين " ١٣"

وكانت رحلة العبور مرعبة ووحشية حيث يشير الكاتب ط.ك. ستافريونس" على لسات احد العبيد قائلا : كانت رحلة العبور نظرا لقسوتها تشهد كثيرا من حالات التمرد والهياج التي كاتن تقع فورا اما بالضرب المبرح او بالضرب المفضي الى

الموت، وكثيرا ماكان الزنوج يحاولون الانتحار هربا من العذاب بالقاء انفسهم بالبحر ولهذا كانت السفن تحاط بشبك تمنع مثل هذه الحالات، وكانت نسبة الوفيات بين العبيد من ١٠% - ٢٠% للرحلة الواحدة واحيانا كان يترك الموتى بجانب الاحياء الى ان تنتهي الحلة ولكن في الغالب كان يقذف بالموتى في عرض البحر "١٤" .

من خلال ما سبق نصل الى هذه الصورة البشعة المتوحشة والسوداء في تاريخ الرأسمالية التجارية والتي هيأت الارضية لولادة الرأسمالية الصناعية التي يتشدق بها الليبراليون الرأسماليون بانها الطريق المعبد الذي سيوصل البشرية الى الجنة وهي الوسيلة الوحيدة للخلاص من الظلم والاقطاع والاستبداد والعذاب، كما لاحظنا كيف ان تجارة العبيد كانت هي الوسيلة المهمة لتجميع الثروة وكانت هذه الثروة هي المصدر الاساسي من مصادر التراكم البدائي لعصر الثورة الصناعية، وبهذا الشكل نصل الى ان الرقيق والنخاسة تعتبر واحدة من اهم عوامل تطور الرأسمالية، ولناخذ مثالا على انكلترا باعتبارها منبت الرأسمالية وهي التي تبوأت تجارة الرقيق في القرن الثامن عشر حيث كانت تمتلك اكثر من ٢٠٠ سفينة يعمل عليها عشرات الآف من البحارة والعمال، وذلك خلال الفترة ١٧٨٠- ١٧٨٦ وكانت مدن ليفربول ولندن وبرستول ولانكستر نقاط الحركة الدائبة لهذه التجارة الرائجة وابان هذه الفترة دارت عجلة الانتاج في بريطانيا بسرعة هائلة لتوفر السلع الرائجة التي ستعطي للنخاسة الافارقة لشراء العبيد منهم .

كان هذا هو حال الازدهار الذي شهدته صناعة البنادق والبارود وصناعة السفن ومسابك الحديد التي وفرت السلاسل والقضبان الحديدية، وكذلك صناعة الخمور والمنسوجات، ولقاء هذه السلع كان العبيد يقتلعون من افريقيا ليغرسوا في امريكا للعمل الشاق في المزارع الكبرى التي سرعان ما ترسل خيراتها الى بريطانيا من سكر وقطن وتبغ فيزداد دخلها وقدرتها علىاستيراد العبيد ومن ثم زيادة الرخاء الاقتصادي لبريطانيا وتسريع مرحلة الثورة الصناعية .

ويؤكد هذا الكلام ما قالته كاترين ساندينج" لقد اسهمت تجارة الرقيق في تحقيق الرخاء البريطاني بصورة بالغة وكان ميناً ليفربول وبريستول يثريان على حساب تجارة الرقيق افريقيا الغربية حيث كانت مصانع لانكشير تغزل القطن الوارد من المزارع الامريكية وكانت هذه المنتوجات كالسكر تستورد بكميات كبيرة من جزر الهند الغربية البريطانية كل هذا الانتاج كان ثمرة العمل الذي يؤديه العبيد، لقد شحن التجار الانجليز عبيدا وحققوا ارباحا اكثر من أي شعب "، فيما رسم، ميشال دوفير" صورة مرعبة عن هذا الواقع قائلا " افريقيا تفقد كل عام الكثير من مواردها لصالح القارات الاخرى فامريكا تنال اليد العاملة واوربا تنال ريع هذه التجارة المخجلة وما ان تتم الصفقة الا ويقوم المشترى باعادة وشم وجوه عبيده بعلامات مميزة وغالبا ما تكون حروف من اسمه بسيخ محمي بالنار وكانت هذه العملية تتكرر دائما حينما يعاد بيعهم لمالك اخر .

هذا وقد وصف " باسكودي كيروجا" هذه العملية المتوحشة بالاتي يجري وسمهم بالحديد المحمي على الوجه وتحفر في بشرتهم الحروف الاولى لسماء اولئك الذين يتعاقبون على امتلاكهم فهم يتنقلون من يد الى اخرى والبعض يحمل ثلاثة واربعة

اسماء بحيث ان وجه هولأ البشر الذين خلقوا على صورة الرب قد تحول عن طريق خطايانا الى ورق"

كما ان وسائل الاعلام كانت تعلن اعلانات عن بيع العبيد فقد اشارت تيريزا هايتر الى احد هذه الاعلانات " اسرة قيمة للغاية للبيع مكونة من طباخة عمرها ٣٥ سنة وابنتها ١٤ سنة وابنها وعمره ٨ سنوات، سيباع الجميع معا او فرادى حسب رغبة المشتري "١٥".

وفي نهاية المطاف مع هذا الملف البشع والسوداوي والظلامي والارهابي القذر والذي بنته الرأسمالية التجارية والصناعية على اكتاف العبيد في افريقيا، وهذا الاستنزاف البشري الذي ستسأل عنه الرأسمالية الليبرالية المتوحشة التي خدعت العالم بانها جاءت لاخراجه من الظلمات الى النور وهي في حقيقتها تهدف الى الربح من خلال امتصاص مقدرات الشعوب واذلالهم بشتى اصناف القهر وبالفعل جاءت اللحظة السانحة لمحاسبة الرأسمالية المتوحشة خلال انعقاد القمة الامريكية مابين الرئيس الامريكي باراك اوباما وزعما امريكا الجنوبية احفاد ضحايا الليبرالية المتوحشة بما فيهم اوباما حيث قدم الرئيس الفينزويلي تشافيز مجموعة من المجلدات التي تحكي قصة نهب خيرات امريكا الجنوبية على يد المستعمرين الاوروبين والامريكين.

كيف تعامل العبيد مع هذا الواقع الظالم ؟

ان العبيد لم يقفوا عند هذ الحد القذر المظلم حيث رفضوا التعايش مع هذا الواقع المؤلم والمظلم ففي عام ١٥٣٣ اشتعلت ثورة الزنوج في المستعمرات الاسبانية حيث ناضل الزنوج من اجل حريتهم وحينما انطلقت الثورة الفرنسية عام ١٧٩٨ وهي تبشر بحقوق الانسان والاخاء والمساواة والعدالةواحترام الانسان لاخيه الانسان لم نجد فرنسا تطبق هذا المبداء على مستعمراتها، والسؤال المطروح كيف توقفت تجارة الرقيق في اوروبا ؟

في ضؤ انتشار الافكار التي تدعو الى محاربة الظلم والاستبداد وانتشار افكار الحريات التي نادت بها الثورة الفرنسية تحركت بعض الضمائر الحية وبعض الاصوات الانسانية الاوروبية الرأسمالية والاستعمارية خاصة المآسي الوحشية والجرائم التي ارتكبت بحق الافارقة السود لكن الذي ساهم في توقف ظاهرة المتاجرة بالرقيق هو ان الرأسمالية الصناعية كانت في حاجة ماسة لتحرير سوق العمل في ضؤ ما رافقته من شعارات ليبرالية كحرية التعاقد والعمل وحرية التجارة والاستثمار وغيرها، فتحرير هذا السوق وتمكين العمال من بيع السلعة الواحدة التي يملكونها وهي قوة العمل وبشكل اختياري كان هو الاساس الذي اعتمدت عليه الرأسمالية الصناعية في تامين حاجاتها من عنصر العمل البشري طبقا لمبداء السوق " العرض والطلب" ولهذا توالت القوانين والمراسيم التي تحرم هذه التجارة فقد حرمتها الدنمارك ١٧٩٢ وبريطانيا ١٨٠٧ وامريكا ١٨٠٨ والسويد ١٨١٣ وهولندا ١٨١٤

والبرتقال ١٨١٥ وفرنسا ١٨٦٠ كما عقد مؤتمر فيننا ١٨١٥ لاتخاذ اجرءات دولية لتحريم هذه التجارة القذره

هل هذه التشريعات واجهت مقاومة "

مما لاشك فيه ان أي تشريع سيكون له انصار ومعارضين فقد واجهت حركة مناهضة تجارة العبيد مقاومة ضارية ليس فقط من اصحاب السفن وانما من اصحاب المزارع في الامريكيتين ومن قبل النخاسه الافارقة والعرب، ولهذا ظلت تجارة العبيد تمارس في الخفاء بسبب استمرار معدلات الارباح بل وتمارس تحت سمع وبصر الحكومات التي اصدرت قوانين التحريم وكان واضحافي دول مناطق شرق افريقيا في ظل الحماية التي كفلتها سلطات زنجبار وموزمبيق والسودان وحوض الكونغو وشمال افريقيا ونيجيريا واستمرت السفن في المحيط الهندي والاطلسي تمخر عباب البحار وهي تحمل المزيد من شحنات العبيد التعساء .

ان مصدر الثراء للرأسمالية العالمية ليس من خلال الكفاح والنضال المشرف بل على اكتاف العبيد والبشر والانسانية حيث ان هذا الثراء جاء بسبب امتصاص دماء البشر وليس بفعل جهد بشري رائع وكفاح مشرف .

الوجه الاخر البشع للرأسمالية الليبرالية

هذا المحور الثاني الذي نتناوله من محاور الشر الذي استخدمته الليبرالية واعتبرته اهم اسلحتها لتحقيق افكار آدم سميث دعه يمشي دعه يمر لكي تبقى حرية التجارة العالمية مقدسة وان هذا الوجه القبيح يكمن في حرب الافيون والمتاجرة بالمخدرات، وقبل ان نتطرق لهذا المحور يتبادر الى الذهن طرح الاسئلة التاليه على ارض الواقع، هل يحق لدولة ما ان تستخدم ترسانتها الحربية وفيالقها الحربية لفرض حرية التجارة وعلى بلد ما؟

وهل يمكن ان نتخيل ان بلدا يقوم بحضر استيراد مادة محرمة دوليا كالمخدرات نظرا لخطورتها الجسدية والعقلية على الانسانية فتقوم الدولة المصدرة لتلك المخدرات بمعاقبة هذا البلد وتشن عليه حربا ضروسا لكي يفتح ابابه لاستيراد تلك السموم تحت شعارات زائفة كحرية التجارة واقتصاد السوق ؟

ومن هنا فان خلال الاعوام ١٨٣٩ـ ١٨٤٢ انطلقت حرب الافيون حرب اطلق عليها المؤرخون حرب المتاجرة بالافيون قادتها الرأسمالية الليبرالية ضد الصين، وهذه الفترة كانت الراسمالية تعيش اقوى تجلياتها وانطلاقاتها حيث انطلقت مدافع وابواق الليبرالية المتوحشة للتبشير بالشعارات الرنانة والطنانة وبالدين الرأسمالي الجديد الذي سيجلب للناس السعادة والحب والغرام

ان تسليط الضؤ على هذه الحرب يهدف بالدرجة الاولى اعطاء صورة حقيقة عن تجربة الرأسمالية الليبرالية حتى نقنع القارىء الى ان الشعارات الكاذبة والخادعة التي اطلقتها ابواق الليبرالية ما هي الا قناع تختفي خلفه اليبرالية الرأسمالية المتوحشة والهدف كما اسلفنا في حديثنا عن المتاجرة بارواح البشر هدفه المزيد من الارباح الفاحشة على حساب الانسان والقيم الانسانية، لقد كانت حرب الافيون من ابرز انجازات الرأسمالية المتوحشة وهي تمثل ابشع النماذج الصارخة التي تكشف قناع الليبرالية التي مارسها الاوروبيون وهم يطبقون الرأسمالية الليبرالية على الصعيد العالمي وكانت من نتيجتها اجبار الصين بالقوة على فتح ابوابها امام الراسمالية العالمية وافقارها وتحويلها من بلد يتمتع بميزان تجاري فائض ويشتهر بمنتوجاته الحريرية الراقية وبالمجوهرات والخزف الصيني والتحف والشاي الى بلد فقير يستورد معظم حاجاته من الخارج ويعاني من عجز ضخم في معاملاته التجاريه ويكابد معظم سكانه من ادمان الافيون، وهذه الحرب برهنت بشكل قاطع كيف توظف شعارات الليبرالية بشكل ديموغوجي لصالح طرف يزداد غنى وقوة على حساب طرف آخر يزداد فقرا وضعفا، والنتائج التي تمخضت عنها هذه الحرب بالنسبة للصين تتشابه مع النتائج التي تمخضت عنها حركة الكشوفات الجغرافية الاوروبية بالنسبة لافريقيا وامريكا اللاتينية رغم التباعد الزمني الكبير بين الحدثين ففي جميع هذه الحالات كان الخراب والدمار والنهب والإفقار الذي لحق بشعوب هذه المنطقة هو المرادف او المعادل لجزء كبير من جبال الربح والثروة التي ارتفعت في المتروبولات الاستعمارية .

كيف اندلعت هذه الحرب ؟ وماذا نتج عنها بالنسبة للصين والغزاة المنتصرين؟ وما هي دلالاتها اليوم في عالم مصاب بفيروس الهوس الليبرالي وتجبر دول العالم الثالث الانصياع الى آلهة العولمة وحرية السوق ؟

تشير المصادر التاريخية انه بالرغم من اكتشاف رأس الرجاء الصالح ووصول الاوروبين الى آسيا بعد نجاح حركة الكشوفات الجغرافية في القرن الخامس عشر الا ان منطقة آسيا ظلت بعيدة عن التأثير الاقتصادي وغير الاقتصادي للنظام الرأسمالي العالمي للحضارة الاوروبية "١٦"، ان قارة اسيا لم تكن شريكا فاعلا في حركة التجارة بين اقاليم العالم المختلفة فقد كانت هذه المنطقة شبه مكتفية ذاتيا في ضؤ التطور الحضاري والثقافي والاجتماعي من القرن الخامس عشر الى القرن التاسع عشر حيث كانت التجارة مركزة في منطقة المحيط الهمدي يغلب عليها طابع العلاقات الاسيوية- الاسيوية.

ورغم تعاظم اهمية تجارة التوابل خلال القرن السادس عشر الا ان هذه التجارة كانت ضئيلة جدا بالقياس على مجمل التجارة في المحيط الهندي فقد كانت التجارة ما بين الصين والخليج العربي وسواحل افريقيا الشرقية وبين جزر الهند الشرقيةوبين الصين ضخمة جدا وجزء من هذه التجارة اغلبه من التوابل وهو الذي ينساب الى اوروبا عبر الوسطاء العرب والمسلمين فقد كان طابع العلاقات الاوروبية الاسيوية خلال تلك الفترة بانعدام الطلب الاسيوي على السلع الاوروبية ويزايد الطلب

الاوروبي على المنتجات الاسيوية كالبهارات والقهوة والقماش والشاي ماذا يعني هذا؟

يعني وضع ترتيبات مالية من خلال المعادن النفيسة كالذهب والفضة، وكما اشرنا سابقا فقد حصلت اوروبا على هذين المعدنين النفيسين من خلال عمليات النهب والقرصنة من أمريكا اللاتينية أي ان الاوروبين قاموا باستخدام الثروات المنهوبة من العالم الجديد لتسديد قيمة مشترياتهم المتزايدة من آسيا وكان هذا الامر مزعجا للأوروبيين ويتناقض مع مبادئ الليبرالية الراسمالية الميركنتيلية التي ساوت هذه الدول في تلك الفترة وكانت ترى ان الثروة الحقيقية لاي بلد انما تتجسد فيما تملكه من ذهب وفضة، وانه لتعظيم هذه الثروة يجب ان ان يحقق البلد فائضا مستمرا في ميزانه التجاري.

وتشير المصادر التاريخية الى ان موارد شركة الهند الشرقية البيريطانية كانت معضمها من المعادن النفيسة ومن ناحية اخرى وبالرغم من النمو الهائل الذي طرأ على المصنوعات الاوروبية خلال القرن الثامن عشر طلق المنسوجات الاوروبية عاجزة عن منافسة الاقمشة الهندية والمنسوجات الصينية الفاخرة التي كانت تتميز بطول الخبرة وبمهارة صناعها لمئات السنين بل من الثابت تاريخيا ان بريطانيا اخظرت لكي تسير ثورتها الصناعية التي حدثت في صناعة المنسوجات بشكل آمن وطبيعي ان تتخذ في نهاية القرن الثامن عشر قرار منعت بموجبه دخول الاقمشة الهندية الى بريطانيا كما وتشير المصادر بان مصانع مانشتر لم تتمكن من مزاحمة المنتوجات الهنديةحتى في تلك السوق الصغيرة كسوق افريقيا الاستوائية .

وقبل مجيئ فاسكوديجاما الى المحيط الهندي في الفترة الممتدة من ١٤٩٧ـ ١٤٩٩ فان المصادر تشير الى ان الصين استطاعت ان تكون قوى عظمى في المحيط الهندي وكانت سفنها تمثل اسطولا بحريا شديد الباس حيث كانت تلك السفن من حيث دقة الصنع والتكنولوجيا والسرعة افضل بكثير من السفن العربية والاسلامية والاوروبية في ذلك الوقت ولهذا لم يكن مصادفة ان استطاع ان يقدموا اكبر الحملات البحرية، واخطرها في المحيط الهندي خلال الفترة ١٤٠٥ـ١٤٣٣ .

حيث ان الحملة الاولى كانت تتكون متن ٦٢ سفينة من نوع JYNKS وعليها ٨٢ الف رجل ووصلت الى مسافات بعيدة " جاوة وسيلان وكاليكتا " اما الحملة الثانية فقد وصلت مسافات ابعد إذ أرسلت تلك السفن عند مداخل الخليج العربي والبحر الاحمر ووصلت الى السواحل الشرقية لافريقيا ثم توقفت فجأة بامر الامبراطور في عام ١٤٣٣ لاسباب غامضة وغير معروفة على وجه اليقين حتى الان، ولم يكن الهدف الرئيسي من تلك الحملات هو الابحار وجني الارباح، وهي في ذلك تختلف عن هدف الحملات التي كانت تقودها الشركات التجارية الكبرى التي ظهرت فيما بعد مثل شركة الهند الشرقية البريطانية ووشركة جزر الهند الشرقية الهولندية حيث كان الربح هو لدافع الرئيسي لها بل كان هدف هذه الحملة هو تأمين الاعتراف بسلطة الامبراطور الصيني وقد تمكن الصينيون ان يجعلوا مناطق شاسعة في آسيا مثل الهند الصينية وبورما وكوريا تدين بالولاء للامبراطور الصيني، وكانت

السفن الصينية وهي في رحلة العودة تحمل الهدايا والتحف اللازمة لرفاهية البلاط الامبراطوري اكثر مما تحمل من السلع لتباع في السوق المحلي "١٧".

هذا وتشير الدراسات المتخصصة في العلاقات الاقتصادية ما بين اوروبا والصين انه منذ مجيئ الاوروبيين الى المحيط الهندي بعد اكتشاف راس الرجاء الصالح تطلعت الدول الاوروبية الى الابحار مع الصين هو من اجل احتواء السياسة الصينية بعد ما تم الاطلاع على حجم الاقتصاد الصيني آنذاك من المنتوجات الصناعية والزراعية والتي كثر الطلب عليها في دول القارة الاوروبية كالشاي والمنسوجات الحريرية والاواني والخزف والمنتجات الخشبية الفنية والمنتجات الجلدية، وهذا ما يذكرنا بالصراع الخفي الان مابين الصين ومنظومة الرأسمالية العالمية بقيادة امريكا لمنع الصين من تحقيق ارقام تنافسية في النمو الاقتصادي، كما وتشير المصادر الى ان البرتقاليين هم اول من وصل الى الصين الى ميناء كانتون الصيني عام ١٥١٣ وتمكنوا في عام ١٥٥٧ على حق اقامة محطة تجارية في مدينة " ماكو" وكان البرتقاليون يستوردون السلع الصينية ويدفعون مقابلها سلعا هندية مثل العقاقير والاصباغ وخشب الصندل والقرفة والفلفل ولم يكن لدى البرتقاليين سلع اوروبية ذات قيمة يمكن ان تكون محل اعجاب الطلب الصيني .

ولم تكتف الحلقة الغربية حيث جاء دور الاسبان الى الصين قادمين من الفلبين التي احتلوها عام ١٥٧١ ثم جاء دور الهولنديون في تايوان حيث انشاءوا قلعة تجارية للاتجار مع الصين واليابان ومكث الهولنديين في تايوان من عام ١٦٢٤ الى عام ١٦٦٢ الى ان تمكن الامبراطور الصيني تشينج كوينج من طردهم وجاء دور الانكليز وسعت الى الصين وحاولت اقامة علاقات تجارية ودبلوماسية ففي ١٦٨٥ حصلت شركة الهند الشرقية البريطانية التي كانت تحتكر تجارة بريطانيا في المحيط الهندي على ترخيص باقامة محطة تجارية في كانتون تحت اشراف نقابة تجار هونج، وكان الشاي الصيني وقد عرف طريقه الى اذواق الانكليز وواصبح مشروبا يوميا، ولهذا كان استيراد الشاي الصيني اهم سلعة استوردتها بريطانيا وبالمقابل لم تكن هناك مستوردات بريطانية الى الصين، ولذلك كانت بريطانية تدفع بالعملة الصعبة من الذهب والفضة الذي نهبته من امريكا اللاتينية .

وفي عام ١٧٩٣ حاول الانكليز اقامة علاقات مع الصين فارسل جورج الثالث ملك بريطانيا رسالة الى الامبراطور الصيني يطلب فيها اقامة علاقات اقتصادي لكن امبراطور الصين رفض ذلك وجاء في رده ما يلي :"لا اضع نصب عيني الاصدقاء واحدا الاوهو الحفاظ على السيادة التامة وآداء لواجبات تجاه الولايات، ان الاشياء الغربية لا تروق لناظري وكما بامكان سفيركم ان يرى بام عينيه فاننا نملك الاشياء كافة وانني لا اعير ثمة اهتمام للاشياء الغربية او البدع الفنية كما انني لست بحاجة الى مصنعات بلادكم "١٨".

وهذا الرد ينم عن عقلية اقتصادية تعبر عن ان اقتصاد الصين ينعم بالاكتفاء الذاتي والاهم من ذلك ان القيادة الصينية تعالت على المنتجات الاوروبية، وهكذا تمكن الصينيون خلال ثلاثة قرون من المحافظة على سيادة البلاد بعد مجيئ الاوروبيين الى المحيط الهندي، وفي ضوء سعيهم للمحافظة على كل هذه السيادة فقد

حصروا علاقاتهم التجارية الخارجة في عدد من الموانئ الصينية حتى يسهل مراقبتها واحكام السيطرة عليها وعلى ما يدخل او يخرج منها من بضائع، وبالرغم من كل ما ذكر من نمو العلاقات الاوروبية الصينية فان الصين تمكنت من تحقيق فائض مستمر في ميزانها التجاري أي زيادة الصادرات على الواردات وان يتدفق لها باستمرار كميات ضخمة من الذهب والفضة .

وتشير مصادر التاريخ النقدي والمالي انه خلال الفترة الممتدة من ١٧٨١ـ ١٧٩٣ بلغت قيمة السلع البريطانية التي استوردتها الصين من بريطانيا ما يعادل ٩٦,٩ مليون دولار فضة وهذا يعادل قيمة الشاي الذي صدرته الصين لبريطايا، كما وتشير بعض المصادر الى انه في بداية القرن التاسع عشر تدفق الى الصين نحو ١ـ ٤ ليانج من الفضة كل سنة فكانت السفن الصينية القادمة الى مقاطعة "قوانفذونج "من اجل التجارة تضطر الى جلب دولارات فضية اكثر مما تجلب البضائع "١٩"، ولكن مع بدايات القرن الثامن عشر تغيرت موازين القوى ما بين منطقة آسيا واوروبا فمنذ ذلك التاريخ انتقلت اوروبا من الراسمالية التجارية الى الصناعية وبفضل الاخيرة، والتي تمكنت من تحطيم بنية الاقتصاد الاقطاعي وتثويرها لقوى الانتاج ان تغرق بالسلع الصناعية الرخيصة وكانت بريطانيا كما هو معلوم هي اسبق دول القارة الاوروبية الى هذه الثورة، ومن هنا نلاحظ كما تشير المصادر التاريخية فقد خرجت البرتغال من الملعب الدولي ودخلت بريطانيا لتفرض سيطرتها على شبه القارة الهندية من خلال شركة الهند الشرقية البريطانيه فهي اخطبوط اقتصادي ضخم، فقدكانت بريطانية بعد الثورة الصناعية تبحث عن اسواق متنامية لتصريف انتاجها الفائض، كماكانت بأمس الحاجة لتامين تدفق المواد الخام والغذائية لضمان ديمومة تراكم راس مال، ومنذ ان احتلت بريطانيا الهند تحولت الاخيرة الى سوق لتصريف البضائع البريطانية فانهارت الحرف والصناعات الهندية واجبرت الهند على التحول لزراعة القطن والجوت والنيلة وبذور الزيوت لتشحن الى بريطانيا، ومن هنا اطلقت على منطقة الهند لؤلؤة التاج البريطاني .

ان العرض السابق سيساعدنا للاجابة على التساؤل التالي هل اثر احتلال بريطانيا للهند على الاقتصاد الصيني ؟

لا يمكن معرفة الاجابة على هذا السؤال ال اذا عرفنا المؤشرات الاقتصادية لبريطانيا وحينها نعرف الاجابة الدقيقة، اذ تشير المؤشرات الاقتصادية خلال تلك المرحلة بان بريطانيا استمرت باستيراد الشاي والحرير اخام والعقاقير من الصين، ولكن بكميات كبيرة وخاصة الشاي لكن المشكلة التي واجهت بريطانيا التي مازالت موجودة والمتمثلة في ان السوق الصيني ما زال مغلقا امام البضائع البريطانية، ولهذا كان الميزان التجاري الصيني متفوقا على البريطاني بسبب تدفق المعادن النفيسة من بريطانيا ولذلك بداء العقل الاقتصادي البريطاني يفكر كثيرا بكيفية اختراق السوق الصيني، وهذا يعني ان نبحث عن اجابات اخرى كما أن السوق الصيني مغلقا امام البضائع البريطانية" هل بسبب الموقف الحاد للسياسة الصينية تجاه الرأسمالية البريطانية ؟ فقد اجمعت المصادر الى الاسباب التالية :

اولا ـ ان طبيعة الاقتصاد الصيني انذاك هو اقتصاد يمتاز بالطابع الاقطاعي الشرقي الذي يعتمد على الاقتصاد الطبقي والانتاج الاستهلاكي .

ثانيا . استيلأ معظم ملاك الاراضي ورجال البلاط الامبراطوري والادارة على الفائض الزراعي واستغلال الفلاحين ابشع استغلال .

ثالثا ـ اتسم الاقتصاد الصيني بضعف العلاقات النقدية السلعية فمعظم حاجات الفلاحين من غذاء وكساء كانت تنتج داخل اطار الاسرة، ولم يكن لدى الفلاحين دخول نقدية تمكنهم من شراء البضائع المصنعة المستوردة من الخارج، وكانوا من اجل دفع ايجارات الاراضي الباهضة والضرائب المتنوعة الفاحشة يضطرون الى بيع منتجاتهم الجانبية على نحو دوري لذلك كان من الصعب على الرأسماليين البريطانيين ان يغرقوا الصين بالبضائع الصناعية " ٢٠" .

الانكليز لم ييأسوا من قلب موازيين العلاقات الاقتصادية مع الصين واكتشفوا ان اللعبة يجب ان تتغير، وبالسرعة الممكنة، وذلك من خلال حروب قذرة لا تخطر على بال احد وافضل وسيلة هي المتاجرة بالافيون والمخدرات وذلك من خلال خلق سوق رائجة للافيون داخل المجتمع الصيني .

ان الافيون الذي تنتجه الهند يستهلك بكميات محدودة داخل الصين من قبل كبار ملاك الاراضي والطبقة الارستقراطية ورجال الادارة الحكومية، لكن الحكومة الصينية كانت تسمح باستيراده كمادة طبية ولذلك اتجهت السياسة البريطانية ابتداء من ١٧٣٣ الى اغراق الصين بالافيون حيث كانت شركة الهند الشرقية البريطانية هي التي تهربه الى الصين عن طريق تفريغ شحناته بالقرب من المياه الاقليمية للصين ثم يقوم المهربون بنقله وبيعه داخل الصين، وفي ١٨٩٧ قامت الحكومة البريطانية بمنح هذه الشركة حق احتكار وتصنيع وتجارة هذه المادة، وقصرها عليها واجبرت الشركة المزارعين الهنود على زراعة الخشخاش وهو النبات الذي يستخرج منه الافيون، كما قامت ببناء مصنع لها في مدينة كاليكوت لتنقية وتصنيع هذه المادة واصبحت الشركة تبيع الافيون بالمزاد العلني للتجار الذين يتولون تهريبه للصين وبدأت روافد الافيون تتساقط على الشعب الصيني، وتشير المصادر الى انه في عام ١٧٦٧ لم يتجاوز ما استوردته الصين من الافيون ٢٠٠ صندوق بينما في عام ١٨٠٠ "٢٠٠٠" صندوق .

الجدوى الاقتصادية للافيون .

ان ارباح هذه التجارةمجدية جدا سواء بالنسبة للبريطانين او للحكومة البريطانية او المهربين انفسهم فتكلفة الصندوق الواحد من الافيون ذو النوع الممتاز كانت في الهند ٢٣٧ روبية لكن سعره في سوق المزاد العلني ٢٤٢٨ وكان متوسط حجم الربح الذي يحققه التاجر بعد تهريبه يصل الى ١٠٠ دولار عن الصندوق الواحد ولهذا

تمكن التجار الانجليز ان يتحولوا الى اثرياء ويصبحون من لوردات بريطانيا، وكانت الضريبة التي تفرضها حكومة الهند البريطانية الاستعمارية تصل الى ٣٠٠% على قيمة الافيون ولهذا اصبحت حصيلة هذه الضريبة مليون جنيه استرليني في عام واحد أي خلال ١٨٢٩ـ ١٨٣٠ اضافة الى ان ترويج زراعة الافيون في الهند ساهم في زيادة القدرة الشرائية للهنود لشراء المنتجات البريطانية المصنعة وفي مقدمتها المنسوجات البريطانية

وهكذا تمكنت شركة الهند البريطانية ان تحل مشكلة الميزان التجاري الغير متوازن ما بين بريطانيا والصين من خلال هذه التجارة القذرة وليس من خلال مبداء المنافسة فبعد ان كانت الشركة تضطر لدفع كميات هائلة من الدولارات الفضية للصين لتمويل واردات الشاي والحرير الخام منها اصبحت بعد الحصول على حق احتكار وتصنيع تجارة الافيون في الهند ان تمول الشطر الاعظم من وارداتها من الصين وانذاك نشاء مثلث عجيب للتعامل اذا اصبح ثمن الشاي والحرير الذي تشتريه بريطانيا من الصين يدفع من خلال صادرات الهند من الافيون الى الصين بل وتمكنت بريطانيا من خلال المثلث الجهنمي ان تحول عجزها التجاري الى فائض، وتشير الاحصائيات الى ان بريطانيا تمكنت من ان تجعل ميزانها التجاري مع الصين يحقق فائضا لصالحها بمقدار٨و٧٨الف جنيه استرليني خلال ١٧٩٢ ـ١٧٩٥، والاخطر من ذلك يؤشر الى ان تزايد تصدير الافيون الهندي الى الصين مرتبطا بتزايد عدد المدمنين فلم يعد الادمان قاصرا على فئة الاغنياء ورجال البلاط والادارة وانما وصل الامر الى عامة الشعب، وما ان جاء عام ١٨٣٥ حتى وصل عدد المدمنين من الشعب الصيني اكثر من مليوني فرد صيني، وارتفع حجم الاستيراد السنوي من ٥٠٠٠ صندوق عام ١٨٨١ الى اكثر من ١٠٠٠٠ صندوق عام ١٨٣١، وقد ترتب على ذلك نتائج مدمرة للصين وشعبها "٢١" .

وبذلك تمكنت بريطانيا من قلب الميزان التجاري مع الصين لصالحها ولكن بوسائل قذرة حيث ان ما تصدره الصين لبريطانيا من الشاي والحرير الخام والعقاقير لا يكفي لدفع تكلفة الافيون، وبذلك بدأت الفضه تنساب من الصين الى بريطانيا وبدأت الصين تعاني من شح النقود الفضية التي ارتفعت اسعارها بشكل كبير بالمقارنة مع النقود النحاسية، وتشير المصادر الى ان الصين فقدت ما قيمته ٢و٢٥ مليون دولار خلال ١٨٢٣ ـ١٨٣٤وذا بالطبع ادى الى نزيف الخزانة الصينية واحتيلطاتها من العملة الصعبة.

اما من ناحية اخرى فان الدمار النفسي والاجتماعي والعقلي الذي لحق بالشعب الصيني من جراء الادمان وصل الامر الى المؤسسة العسكرية والادارية للدولة الصينية، ومن جهة اخرى فقد عمدت الحكومة البريطانية لكي تتمكن شركة الهند الشرقية البريطانية من تسهيل عمليات تهريب الافيون للداخل فقد ساهمت في افساد رجال الادارة الحكومية من خلال الرشاوى والهدايا .

هذه فلسفة الرأسمالية الليبرالية لا يهمها عدد الضحايا المهم ان ياتي الربح اولا من خلال هذه التجار ة القذرة التي تهدف الى تدمير القيم الانسانية ولو كان ذلك على حساب الشعوب، وازاء انهار الارباح المتدفقة من هذه التجارة القذرة زادت قنوات

التهريب وجشع المهربين واغرى ذلك فرنسا والامريكيين للدخول في تلك التجارة وزادت قنوات التهريب وعدد السفن المحملة بالافيون وزادت عمليات الرشوة والافساد لرجال الادارة الصينية .

اين الحكومة الصينية؟

لقد= تنبهت الحكومة الصينية الى هذه الفاجعة وهذه الامراض الخطيرة على الدولة، فاصدرت الدولة تشريعا يحرم هذه التجارة في عام ١٨٣٨ حيث قرر " تشه شيوه" احد ابرز رجالات الادارة في الصين، وبناء على اوامر الامبراطور قام بزيارة الى ميناء "قوانجتشو" في اذار ١٨٣٨ ترافقه قوة مسلحة للقبض على تجار الافيون وامر باتلاف طرود الافيون وسط احتفال شعبي مؤيد واعلن بكل حزم على على تصميمه على محاربة هذه التجارة، واغلق متاجر الافيون ودمر المخازن التي تخزن فيها الافيون كما امر بتعزيز قوة السواحل، وتشديد نقاط المراقبة لافشال محاولات التهريب كما طالب قبطان كل سفينة تجارية تدخل ميناء " قوانجتشو" بتوقيع تعهد بعدم احضار الافيون للصين مرة اخرى وانه في حالة التعهد تصادر البضاعة وتوقع عقوبة الاعدام

كيف تصرفت بريطانيا ازاء الموقف الصيني ؟

لقد رفضت بريطانيا هذا القرار وما ترتب عليه من اجراءات ونظرت الى انه يتعارض مع مبادىء الليبرالية الاقتصادية أي مع حرية التجارة العالمية تلك الحرية التي نادى بها آدم سميث ومعسكر الليبرالية، وان هذا يشكل اختراقا مقدسا لليبرالية، ومن حق بريطانيا ان تتاجر باي سلعة فلا يوجد تابو على حرية التجارة، ولذلك فقد عبر ممثل الحكومة البريطانية لدى الصين عن موقف حكومته الرافض لهذا القرار وطالب حكومته، وطالب قباطنة السفن بالا يوقعوا على القرار لكنه في ضؤ تصاعد الازمة امر التجار البريطانين بتسليم ما لديهم من افيون ووعدهم بالتعويض وطلب منهم مغادرة الميناء الصيني

لم يتوقف الموقف البريطاني الى هنا فقد صعّدت بريطانيا القضية وصورتها على انها انتهاك صارخ وفاضح بحق التجارة الدولية من جانب الصين، فقد سارع المعتمد البريطاني "تشارلس اليوت" بالصين الى الاتصال بالتجار والمهربين الامريكيين الذين دخلوا حلبة تجارة الافيون للحصول على دعمهم، كما ناشد الحكومة البريطانية ان تعلن الحرب على الصين واستجابت الحكومة لذلك وقامت مئات من البرجوازية الصناعية والتجارية والمالية بحملة لجمع الاموال لتمويل العمليات العسكرية وحث الحكومة البريطانية على توجيه عدوانها العسكري للصين وقرر مجلس الوزراء البريطاني في تشرين اول ١٨٤٠ اعلان الحرب وعبأت الحكومة قوة عسكرية بقيادة " اليوت جورج" قوامها ١٦ سفينة ضخمة عليها ٥٤٠ مدفعا و٢٠سفينة نقل و٤سفن

بخارية مسلحة، واربعة الآف مقاتل، وفي اوائل حزيران ١٨٤٠ وصلت القوة الى عرض البحر قبالة سواحل الصين " ساحل قوافداونج" .

هذا وقد بدأت العمليات العسكرية وان نتائج المعركة لم تكن في صالح الصين بسبب عم التوازن العسكري ما بين بريطانيا والصين رغم المقاومة البطولية التي ابداها الشعب الصيني ضد العدوان الاجنبي الغاشم، هذا وقد استولى الانجليز على كثير من الموانىء الصينية وكذلك المواقع الحيوية مثل مدن شنغهاي وهونج كونج وطالبوا بتنازل الصين عنها، من جهة اخرى كانت هزيمة الصين دليل فاضح على تفسخ وفساد النظام الامبراطوري وعدم قدرته على حماية امن البلاد في ظل حكومة " تشنج" التي اثبتت فشلها وعجزها وعدم استعدادها للحرب رغم الاموال الطائلة التي ابتزتها من الشعب الصيني.

لم يكتفي الانجليز المحتلين بذلك بل مارسوا كل اشكال القرصنة والسلب فاخذوا يسرقون المنازل والمعابد كما واجبروا الشعب الصيني بدفع تعويضات باهضة عن الحرب على نحو ما جاء في معاهدة " قوانجتشو" للسلام التي وقعت في مايو ١٨٤٠ "٢٢"، اما الافيون فلم يكن حاضرا في هذه الاتفاقية علما بانه السبب المباشر للحرب ومن هنا اصبحت تجارة الافيون مباحة واضطرت الصين ان تعلن انها لن تستجوب أي سفينة تجارية بشأن ما تحمله من سلع وازدهرت تجارة الافيون في الصين بعد ذلك ووصل الاستيراد الى ٧٠ الف صندوق في الخمسينات من القرن الماضي ووصلت قيمة الافيون في السنوات العشر التي تلت الحرب ما بين ٣٠٠ـ ٤٠٠ مليون دولار فضي وبذلك تمكن الانكليز من امتصاص المعادن النفيسة في الصين، هذا وقد تمخضت سياسة حرية التجارة التي فرضت بالقوة عن فتح اسواق الصين امام الصناعات الاجنبية نجم عنها تدهور الصناعة الصينية والاقتصاد الصيني وزاد الفقر والاستغلال وتفشى الافيون .

الاتفاقية الصينية الانجليزية

بعد سقوط الصين على ايدي الجيش البريطاني وقع الامبراطور الصيني على ظهر السفينة البريطانية " كورنو لوز" الاستسلام وهذه الاتفاقية اطلق عليها " نانيننج" والتي سلبت الصين جانبا شديدا من سيادتها والحقت ضررا بمصلحة الشعب الصيني وقد نصت على ما يلي :

١ـ ان تحتل بريطانيا جزيرة هونج كونج .

٢ـ ان تدفع الصين تعويضات لبريطانيا على النحو التالي" ست ملايين دولار فضي عن الافيون المصادر واثنا عشر مليون نفقات الحرب وثلاثة عشر مليون دولار فضي ديونا مستحقة للرعايا البريطانيين على بعض تجار الصين وثلاثة ملايين دولار فضي مستحقة للرعايا البريطانيين على بعض تجار الصين " وبذلك يصبح ما هو مستحق من الصين لبريطانيا ٣٤ مليون دولار فضي .

٣ـ ان تفتح الصين خمسة موانىء للرعايا البريطانيين وهي الموانىء الهامه التي تعتبر كمنافذ لجميع المقاطعات الساحلية في جنوب شرق الصين والسماح للبريطانيين بالاقامة مع عائلاتهم في هذه الموانىء في مناطق سميت بمناطق الامتيازات الاجنبية على ان تكون مستقلة عن النظام والقانون الصيني .

٤ـ تخفيض التعرفة الجمركية في حدود ٥% على تجارة الاستيراد والتصدير ولا يجوز تعديل التعرفة الا بالاتفاق ما بين الطرفين، وبذلك فقدت الصين موردا هام وفقدت حقها في حماية الانتاج الصناعي والزراعي والحرفي المحلي .

٥ـ وضع نظام للحماية الاجنبية يتسنى بمقتضاه عدم خضوع البريطانيون للقوانيين والمحاكم الصينية وبذلك انتهكت سلطة الصين القضائية وسمحت للبريطانيين ارتكاب افضع الجرائم والاعمال دون محاسبة من الجانب الصيني .

٦ـ منح بريطانيا شروط الدولة الاولى في الرعاية .

تأثير المعاهدة على الامن القومي الصيني

حققت المعاهدة الجائرة والظالمة بحق الصين لبريطانيا ما يلي :

١ـ اذكاء شهوة الدولة الاستعمارية لليبرالية للحصول على نفس الامتيازات التي حصلت عليها بريطانيا حيث شنت فرنساالحرب الثانية على الصين حرب الافيون ١٨٥٦ـ ١٨٦٠ حيث تلا ذلك سيل من المعاهدات والامتيازات لكثير من الدول الغربية مثل المانيا وايطاليا وهولندا والنمسا وبلجيكا وامريكا والدنمارك والمجر .

٢ـ ازدياد التدخل الاجنبي في الشؤون الصينية حتى اصبح للاجانب حق التنقل داخل الصين وعدم خضوعهم للقوانين الصينية وفتح المزيد من الموانىء امام السفن الاجنبية .

٣ـ بروز شريحة كمبرادورية محلية ارتبطت بمصالح الرأسمالية الليبرالية ونفوذها بالتعاون مع الشركات الاجنبية والتجار الاجانب ووضعت نفسها في خدمة الرأسمالية الاجنبية .

وفي ضؤ ذلك اصبح الشعب الصيني يعاني من الاستغلال المزدوج فهو تارة تحت مطرقة الاستغلال الاقطاعي الكلاسيكي وسنديانة الاستغلال الرأسمالي الجديد وبذلك فان الصين اصبحت تحت رحمة المجتمع شبه الاقطاعي وشبه المستعمر وبذلك تعرض المجتمع الصيني المليىء بالتناقضات الحادة والتي افضت الى اعلان مزيد من الانتفاضات والمظاهرات والثورات التي انتهت باعلان الاشتراكية عم ١٩٤٨ وهذا الصبر الصيني له ما يبرره فمليون خطوة تبداء بخطوة وما احرانا نحن العرب حيث سقطت الدولة العراقية في يد الامريكان والمعاهدة الامريكية شبيه بالبريطانية وان المقاومة العراقية بهرت العالم فما علينا الا الاستمرار لتحقيق دحر الامريكان وتحقيق النصر .

هوامش الباب الأول. الفصل الثاني

١ـ انظر المجتمع الشرقي القرسطوي كنمط تاريخي، مجموعة من الباحثين السوفيت، ترجمة حسان ميخائيل دار الاهالي دمشق ١٩٨٨، الليبرالية المتوحشة رمزي زكي، ص ٢٧٠
٢ـ مرجع سابق ص
٣ـ مرجع سابق ص ٢٧١ـ ٢٧٢.
٤ـ مرجع سابق ص
٥ـ التاريخ النقدي للتخلف، رمزي زكي ص
٦ـ فتح امريكا، مسألة الآخر، تزفيتان تودوروف ترجمة بشير السباعي ص ٢٠ ـ ٥٧
٧ـ مرجع سابق ص٢٧٦
٨ـ انظر مرجع سابق ٢٧٦ـ ٢٨١
٩ـ مرجع سابق ٢٩٢
١٠ـ تجارة الارق والرقيق، هنري كلارك وفينسنت هاردونج، ترجمة مصطفى الشهابي، ص١٢
١١ ـ الرأسمالية الناشئة، د. احمد جامع، ص٣١
١٢ـ مرجع سابق ص ٢٩٣ ـ٢٩٤
١٣ـ اوروبا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر، ميشيل دومنير، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة بيروت، ص ٢٥٧
١٤ـ لمزيد من الاطلاع انظر الليبرالية المتوحشة د. رمزي زكي ص ٢٩٥ ـ ٢٩٨
١٥ـ صناعة الفقر العالمي، تيرزا هاستر، ترجمة مجدي ناصيف ص ٨٤
١٦ـ مرجع سابق
١٧ـ التصدع العالمي المجلد الاول ك. س. ستافريانوس ترجمة موسى الزعبي وعبدالكريم محفوظ ص٤٣
١٨ـ مرجع سابق ص١٦٣
١٩ـ مرجع سابق
٢٠ـ مرجع سابق ص ٣١٢
٢١ـ مرجع سابق ٣١٤
٢٢ـ لمزيد من الاطلاع انظر مرجع سابق من ص ٣١٤ ـ ٣١٨

الفصل الثالث- الباب الأول

الافكار الليبرالية الكلاسيكية

تشير الدراسات المتخصصة في التاريخ السياسي الاقتصادي انه جرى عدة محاولات من المفكرين منذ القرون الماضية ارساء بعض القواعد النظرية للتطور الاقتصادي، هذا ما تشير اليه الكتابات والدراسات التي كتبها عدد من انصار الرأسمالية التجارية والفيزوقراط " الطبيعين "، والذي تضمن لاول مرة عناصر مختلفة للنمو الاقتصادي، مع التأكيد ان بعض الكتابات ناقشت في القرن الرابع عشر العوامل التي اعتقدت انها تدفع الى تحسين الرفاهية المادية للانسان .

لكن الاقتصاديين اشاروا الى ان الادب الاقتصادي لم يتضمن عناصر اساسية

ديناميكية للتطور الاقتصادي لا في مرحلة العصور الوسطى ولا في الكتابات الواردة ما بين العصور الوسطى ولا في عصر الرأسمالية التجارية والسبب في ذلك كما يراه هولأ الاقتصاديين الى ان الافكار التي تدور حول تحسين المستوى المادي للانسان كانت محدودة وغائبة، مع التأكيد ان المشكلة الاقتصادية ولدت منذ ان خلق الله الانسان على ظهر الكوكب .

ويتفق الباحثون الاقتصاديون الى ان التنظير لعلم الاقتصاد والمال لم يتبلور الا مع ظهور كتابات المفكر الاقتصادي آدم سميث وكتابه ثروة الامم والذي خرج الى النور مع بداية عام ١٧٧٦.

ما هي الاسباب التي حالت دون ظهور الدراسات الاقتصادية قبل آدم سميث ؟

يجيب على هذا التسؤل " روبرت هيلبر ونر"الذي قال بما ان المجتمعات اعتمدت في حل مشكلة البقاء على التقاليد او اصدار الاوامر فان المشكلة الاقتصادية ستتأزم وهي تحتاج الى اقتصاديين بالمفهوم الحديث، وطالما سارت المجتمعات على هدى العادات او طاعة السلطة فانها لم تستشعر الحاجة للاقتصاديين لكي يوضحوا لها ما يدور من حولهم من ازمات بالرغم من توفر الفلاسفة ورجال الدين والسياسة اما ااقتصاديين فلم يكن لهم وجود "١".

لذلك كان لا بد من الانتظار حتى يولد نظام السوق والذي تباع فيه وتشترى السلع والخدمات وعوامل الإنتاج وتسود روح الكسب وتترسخ مفاهيم الربح والابتكار .

نشأة الافكار الاقتصادية

النشأة الاولى للدراسات الاقتصادية بدأت في القرن الثالث عشر، ولكنها لم تتبلور الا في القرن التاسع عشر أي ان هذه الافكار ولدت مع الرأسمالية التجارية والتي بدورها قامت بخطوات جبارة من خلال تقديم الافكار والانفتاح على عوامل جديدة في ظل المنافسة من اجل المزيد من الكسب، وقد تحقق هذا التطور بفضل الحركات التنويرية التي قادها المفكرون الكلاسيك والفلاسفة ضد الاقطاع ورجال الدين

وتوجت بضهور الثورة الصناعية او الرأسمالية الصناعية، وخلال عام ١٧٠٠ ظهر ما يسمى بالرجل الاقتصادي والمضاربة والاسواق، وهكذا نصل الى انه خلال عصر الرأسمالية التجارية الميركنتيلية فقد تم ارساء قواعد النظام الاقتصادي المبني على السوق بعد ان كان نظاما اقطاعيا راكدا على مر العصور السابقة، وقبل ان نستعرض اهم النظريات والافكار الاقتصادية التي سادت العالم منذ عهد الرأسمالية التجارية ولغاية الان، ولذلك لابد وان نستعرض اهم الاتجاهات التي شكلت ملامح هذه الافكار وتطورها والتي تندرج على المحاور التالية :

١-اكدت هذه النظريات منذ آدم سميث والى نظرية كينز على اهميت التراكم الرأسمالي في عملية التنمية باعتبارها المحدد الرئيسي لمعدل حجم النمو الاقتصادي .

٢-ركزت هذه الافكار الاقتصادية على الزيادة في اجمالي الدخل القومي على اعتبار انه جوهر العملية الاقتصادية برمتها وخاصة في ضوء نظريات الاقتصاد الرأسمالي، كما اعتبرت الزيادة في الانتاجية هي المحور الرئيس للرأسمالية الصناعية .

٣ـ كما ان للمدرسة الماركسية دور كبير في اثارة الاهتمام الى تطوير العدالة الاجتماعية في توزيع الدخول بين الفئات والطبقات المشتركة في انتاج الدخل القومي، وهكذا تطور الهدف التنموي من النمو العمالة الى اعادة توزيع الدخل، واخيرا بعد ان اتضح زيادة عدد الفقراء في العالم في اواخر القرن الماضي، ولذلك اصبح الاهتمام منصبا على الربط ما بين جهود التنمية وبين اشباع الحاجات للفئات الاكثر فقرا في المجتمعات النامية .

٤ـ برزت بين الحين والاخر بعض الاراء التي تنفرد بتقديم وجهة نظر خاصة، ولكنها استطاعت ان تعكس الى حد بعيد بعض العلاقات والمتغيرات ذات الاهمية في تحليل النمو الاقتصادي كنظرية " شومبيتر " والتي سنعرضا في الصفحات القادمة وكذلك نظرية كارل ماركس والذي لفت الانتباه الى دور ملكية عوامل الانتاج والتناقض بينهما وبين اسلوب الانتاج او الفن التكنولوجي المستخدم وما يفرزه ذلك من عوامل اقتصادية واجتماعية قد تطيح بالنظام القائم وكذلك افكار " ارثر لويس" من خلال تحويل العمالة من الزراعةالى الصناعة .

النظريات الاقتصادية الكلاسيكية

سلط الكلاسيك الضؤ على اسباب النمو الاقتصادي وكيفية حدوثه، هذا وقد عاصر هؤلاء المفكرون فترة بروز الثورة الصناعية او الرأسمالية الصناعية في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر .

النموذج الكلاسيكي للنمو الاقتصادي: اعتبر الفكر الاقتصادي الكلاسيكي بوجود صراع ما بين النمو الاقتصادي والنمو السكاني وتظهر فترة النمو عندما يسبق النمو الاقتصادي النمو السكاني حيث يترتب على ذلك زيادة التشغيل والانتاج والاجور أي

خلق حالة من الانتعاش الاقتصادي والتي حتما ستؤدي الى الزيادة في السكان وهذا يعني ظهور موجة من الركود، ويعتمد النمو الاقتصادي على التراكم الرأسمالي الذي يسمح بزيادة التشغيل الآلي وتقسيم العمل، ويعتمد معدل التراكم الرأسمالي على مستوى الربح واتجاهه، هذا وتنطلق اركان العملية الاقتصادية في النموذج الكلاسيكي على ما يلي :

١- الانتاج
٢- التراكم الرأسمالي
٣- الاستثمار يعتمد على الارباح
٤- معدل الارباح يعتمد مستوى التكنولوجيا وعرض العمل
٥- حجم قوة العمل تعتمد على حجم الاجور
٦- الاجور تعتمد على مستوى الاستثمار

هذا وقد توصلت النظرية الكلاسيكية وبناء على الاستمرار في زيادة السكان وانخفاض ناتج العمل بالنسبة للارض أي انطباق وقانون تناقص الغلة فان النظام الاقتصادي الكلاسيكي سيصل الى حالة الركود .

ابرز مفكري النظرية الليبرالية الكلاسيكية

آدم سميث : جاءت اسهامات سميث في حقل الافكار الاقتصادية من خلال تحليله للنمو الاقتصادي من خلال المبادىء العامه التي تحكم تكوين الثروة والدخول، ويسجل له بانه الاب الروحي الذي وضع اسس الحرية الاقتصادية حيث قدم افكاره من خلال كتابه الذي نشر عام ١٧٧٦" دراسة في طبيعة ثروات الامم " وقد ترجم الى عشرات اللغات .

لقد سلط سميث الضؤ على تقسيم العمل حيث ان تخصص العمال في انشطة محددة يرفع مستويات الانتاج كما ونوعا وكذلك فان التخصص وتقسيم العمل لايمكن ان ياخذ بحالة على نطاق واسع الا اذا توفرللعمال امكانية استخدام المعدات وآلآلات المتخصصة، واعتبر سميث ان الادخار هو اساس النمو الاقتصادي، المهم في نظرية سميث هي حجم السوق الذي بدوره سيساهم في استيعاب الانتاج وبخلافه كلما انخفض حجم السوق فان ذلك يشكل عائقا امام النمو الاقتصادي، ولا بد من فتحه بشتى الطرق ولذلك نادى بحرية التجارة من اجل تصريف الانتاج في السوق العالمي ويقصد سميث بذلك زيادة معدلات النمو الاقتصادي أي زيادة الارباح.

ان سميث ركز على اللحظة التي تبداء فيها عملية النمو فانها تصبح متجددة ذاتيا فتقسيم العمل يرفع من الانتاجية التي تزيد بها الارباح والدخول فتمكين الافراد من تخفيض جزء من دخولهم للادخار والاستثمار أي للتراكم الرأسمالي فمزيد من التخصص وتقسيم العمل حيث تعمل التكنولوجيا علىظهور الحديث من آلآت التي ترفع من مستويات الانتاج فمزيد من الارباح .

لكن سميث وضع حدودا لهذه العملية التراكمية للنمو وقد عبر عن تشاءومه عندما يصل الاقتصاد القومي الى مرحلة حدة التراكم الراسمالي حين يتكالب الراسماليون على الاستثمار في مجالات معينة مم يؤدي الى هبوط معدلات الارباح"٢"

هذا واعتبر النقاد الاقتصاديون والمحللين الماليين تحليل آدم سميث لم يتسم بالدقة والترابط في شرح الكيفية التي يصل اليها الاقتصاد الراسمالي الى حالة الركود الا ان العامل الذي يوقف النمو في رأي سميث هوندرة الموارد الطبيعية أي انه عندما يتقدم الاقتصاد يزداد التركم الرأسمالي فيزداد الطلب على عرض شبه ثابت للموارد الطبيعية فتتناقص الدخول وتقل الارباح ويضمحل الحافز على الاستثمار .

ديفيد ريكاردو: تأثر ريكاردو بآدم سميث ثم تشكلت افكاره محاولا وضع نظرية اقتصادية مستقلة لتخليص النظرية الكلاسيكية للنمو من الشوائب، هذا وقد ركزت نظريته على الزراعة على اعتبار انها تشكل اللبنة الاساسية في النشاط الاقتصادي نظرا لدور الزراعة في امداد السكان بالموارد الغذائية أي ان نظريته تركز على الغذاء الذي تتيحه الموارد الطبيعية من جهة والسكان من جهة اخرى، أي ان ريكاردو يتوافق مع افكار نظرية مالتوس للسكان وقانون تناقص الغلة، ويذكر ان ريكاردو كان من كبار الملاكين الزراعيين وأحد سماسرة بورصة الاوراق المالية وعضو برلماني بارز وهذا هو سر اهتمامه بعدل النمو .

المبادىء الرئيسة لنظرية ريكاردو : انطلقت نظريته من خلال عناصر السكان، والذي يكون صغيرا بمقارنته بالموارد الطبيعية وهذا يجعل الفرصة المربحة متوفرة، فعندما يقوم الرأسماليون باستثمار اموالهم في الميادين التي تتهياء لهم فيها مثل الفرصة السانحة خاصة في مجال الزراعة فتزداد ارباحهم، وبالتالي تزداد معدلات تراكم رأس المال كما ترتفع الاجور، وتؤدي زيادة تراكم رأس المال الى زيادة الانتاج والريع، ويتزايد الطلب على عنصر العمل فترتفع الاجور، وهذا من شأنه زيادة النمو السكاني وتشتد المنافسة على استغلال الاراضي الخصبة المرتفعة، ولما كان عرض الاراضي من وجهة النظر " الريكارديه" محدودة نسبيا فانه باستمرار النمو السكاني يتم استغلالهل جميعا بما فيها الاراضي الاقل خصوبة، وهذا يجعل من ظهور تناقص الغلة، وارتفاع اسعار المواد الاولية والغذائية، ويؤدي ذلك الى مطالبة العمال برفع اجورهم، واذا ما نجحوا في تحقيق مطلبهم من ذلك يؤدي الى تناقص الارباح، وبالتالي نقص التراكم الرأسمالي نظرا لأن كل من الاجور والريع ستلتهم الحزء الاعظم من الناتج القومي، ومن ثم تأخذ الارباح في التضاؤل، وهذ من شأنه تقليل الحافز على الاستثمارات الجديدة وبالتالي انخفاض الطلب على الايدي العاملة فتتجه الاجور الى الانخفاض حتى تصل الى حد الكفاف مايعمل على ثبات حجم السكان وظهور حالة من الركود يصبح النمو عملية عسيرة "٣".

لاحظنا ان نظرية " ريكاردو" ركزت على المتغيرات التي تنتاب السكان والاجور والارباحوتكوين رأس المال والريع واثارهما المحتملة، وهو يقدم نظربية حركية للنمو " وان كان يتم بطابع تجريدي الى حد كبير وعلى رأى احد المفكرين

الاقتصاديين فان " ريكاردو ركز على القيمة والتوزيع اكثر من النمو الاقتصادي كما ان ريكاردو ركز على الارض باعتبارها محددا للنمو، كما انه لم يأخذ بالتقدم التكنولوجي ولا امكانية احلال عنصر رأس المال والعمل محل الارض كما وحبذ حرية التجارة وقدم نظريته عن اختلاف النفقات النسبية وأثر التجارة الدولية في جني الثمار وتقسيم العمل والتخصص على نطاق عالمي حيث يؤدي ذلك الى زيادة دخل الشعب .

وندد " ريكاردو في فرض التعرفة الجمركية حيث انها تشكل اضرارا بالصالح العام للنمو كما ان فرض الضرائب على السلع الضرورية والدخول والارباح تعتبر في نظره معوقة لمعدل التكوين الرأسمالي والاستثمار لكنه لم يعارض فرض ضرائب على الريع والسلع الكمالية "٤" .

نظرية مالتوس : انطلقت نظرية مالتوس من خلال الفرق الناتج القومي الكلي المحتمل، والناتج القومي الكلي الفعلي اذا ما اريد تحقيق معدلات للنمو في الدول المتقدمة، ودفع عملية التنمية للامام، كما ان لمالتوس اراء في النمو السكاني، وانه يرى ان السكان يتزايدون بمتوالية هندسية بينما المواد الغذائية او الغلة تتزايد بمتوالية حسابية، وهنا تحدث المشكلة أي بعدم المؤامة ما بين الطرفين الا اذا صاحب ذلك زيادة في الطلب على الايدي العاملة بغرض زيادة الانتاج، بعبارة اخرى ان نمو طبقة العمال يعني نمو الطلب الفعّال على السلع والخدمات ومن ثم دفع عملية التنمية والتطور لكن مالتوس اشترط زيادة الطلب على العمال بغرض زيادة الانتاج الذي يعتمد من ناحية على مقدار المتاح من رأس المال العيني، ولذلك يقترح زيادة معدلات الادخار بمقادير تناسب حجم الاستثمار المطلوب حتى لا يحدث اختناقات، هذا وقد ادخل مالتوس الميل الامثل للادخار حتى يتمكن من تحقيق المدخرات اللازمة بالقدر المطلوب او المعقول للاستثمارات المتاحة المرية حتى لا تطغى او تكون زيادة الادخار على حساب الانفاق الاستهلاكي فيقل الاخير مما يوقف تيار الاستثمار ويحبط من واقعية المستثمرين كما وتناول مالتوس التقدم الفني وتقسيم العمل والاسواق فهو يرى ان التقدم الفني" النمو" يزيد من العمالة والانتاج خاصة في القطاع الصناعي حيث تتوفر فرص الاستثمار المريح، والذي يتسم بزيادة الغلة، اما بالنسبة لتقسيم العمل فقد اشار الى مسألة ضيق الاسواق وانخفاض الطلب الفعال في الدول الاقل تقدما .

مالتوس انتقد قانون " ساي" للاسواق والذي ينص على ان كل عرض يخلق دائما الطلب عليه، وقد اعتقد في امكانية حدوث اختلافات بين مستويات الادخار والاستثمارومن ثم اعتقد في وجود حالات التشغيل الغير كامل لعوامل الانتاج، كما وتناول مالتوس ظاهرة الازدواج في البلاد المتخلفة خاصة ما بين قطاع الصناعة والزراعة وتتطلب فكرة مالتوس في ذلك الخلاص من ظاهرة الازدواج من خلال اتباع اصلاحات زراعية لتحقيق زيادة الانتاج الزراعي حتى تتوافر فرص الاستثمار المربحة فيه وبذلك يمكن توجيه رأس المال نحو قطاع الصناعة التي تزداد بها الغلة ويظهر فيها التقدم التكنولوجي وبدوران عجلة التنمية تزداد اهمية القطاع الصناعي .

لكن مالتوس اكد ان هذا الازدواج لا يعني اهمال قطاع على آخر بل لا بد من تقدم القطاعين معا ذلك ان تأخر احدهما يعرقل ألاخر بسبب تشابك العلاقات فيما بينهما ايان مالتوس يريد تحقيق توازن من النمو بينهما حتى يتم التوصل الى التطور.

المآخذ على نظرية مالتوس

هناك مآخذ على نظرية مالتوس وخاصة الحل الذي قدمه لحل المشكلة السكانية حيث بنى افكاره من خلال الواقع البريطاني بسبب ان بريطانيا لم تشهد تقدم تكنولوجي، واغفل مالتوس هذا العنصر العام في مضاعفة الانتاجية وبذلك اصبحت نظريته محط انتقادات لاذعة من المفكرين الاقتصاديين وعلماء السكان حيث بقدور التقدم التكنولوجي زيادة اضعاف مضاعفة من الانتاج الغذائي أي ان الايام اثبتت نجاعة الثورة الخضراءفي امداد العالم بشتى اصناف المأكولات والمواد الغذائية .

بعدهذا الاستعراض لابرز المفكرين الاقتصاديين الذين نظروا الى الليبرالية الكلاسيكية لاحظنا كيف ركزت هذه النظريات الثلاثة على اهمية رأس المال والتراكم الرأسمالي وتحويل جزء من الفائض المحتمل الى الاستثمار، لكن هولأ المفكرين اجمعوا الى ان الركود الاقتصادي سيكون حتمي في النهاية وسبب هذا التشاؤم يعود لسببين اولهما زيادة السكان وثانيهما تناقص الغلة، لكن المفكرين الاقتصاديين اعتبروا ان هذه المدرسة قد بالغت كثيرا في اطروحاتها خاصة زيادة السكان حيث اتبعت الدول الاوروبية سياسات سكانية تدعو فيما بعد الى زيادة النسل لتحقيق زيادة مطردة في الانتاج ومعدلات النمو في الدول المتقدمة، لكن نظرية مالتوس تكون هي الحل من وجهة نظر الليبرالية للعالم الثالث، ام بالنسبة لتناقص الغلة فان التقدم التكنولوجي قد بدد قانون تناقص الغلة وزاد الانتاج الزراعي بارقام خيالية بعبارة اخرى " الصوامع ملأ بالحبوب"

ان النتائج الواقعية للنظرية الكلاسيكية قد اثبتت فشلها كما يقول المفكرين الاقتصاديين لأن النمو الاقتصادي لم يتوقف بالرغم من حالات الركود بين والآخر خلال القرن السابق، هذا فقد بقيت نظرية آدم سميث ورفاقه مطبقة الى ان وقعت الفأس بالرأس وحدث ما لم يكن متوقعا فقد انفجرت ازمة الكساد العالمي ١٩٢٩ـ ١٩٣٣ وكانت هذه الازمة عبارة عن بطالة عالمية شملت معظم القطاعات والاسواق من سلع وخدمات وعوامل انتاج، وكانت نسبة البطالة عالية كما انها استمرت لفترة طويلة دامت اربع سنوات حيث انخفضت فيها الاسعار انخفاضا شديدا وقلت القوة الشرائية وانعدام الاقبال على الاستثمار وتفشي الانكماش الاقتصادي حيث اصابت الاقتصاديين بصدمة فكرية بسبب الركود والايمان المطلق بنظريات الكلاسيك السائدة والتي نفت نفيا قاطعا احتمال ظهور بطالة طويلة الاجل في النظام الاقتصادي الذي ينطلق من فلسفة السوق بالرغم من توافق الاقتصاديين التقليديين على احتمال ظهور بطالة ضخمة في المدى القصير غير ان ذلك يعتبر من سمات الدورات الاقتصادية

في نموذج النمو الرأسمالي والذي يتسم بانه على المدى الطويل تسود العمالة الكاملة ويتحقق التخصص الامثل للموارد والذي جاءت نتائجه مخالفة لذلك .

ولتفسير ما جرى ظهر تياران على الساحة الاقتصادية، الأول على مستوى التحليل الجزئي وقدمه الانكليزي " جون روبنسون " والامريكي " ادوارد تشمبرلين" حيث انطلق تفسيرهما المبني على فكرة غياب المنافسة وفشل السوق وظهور الاشكال المتعددة لاحتكار الغلة المشترية او القائمة البائعة وتوصلوا الى ان الموارد ستبقى على حالها وستتعطل عوامل الانتاج جزئيا ويصبح الانتاج الكلي اقل من الحجم الممكن اذا ما توفرت ضروف المنافسة الكاملة وتوصلا الى ان التدخل الحكومي لا غنى عنه لالغاء الآثار السيئة للاحتكار في اسواق السلع وعوامل الانتاج وللحيلولة دون تدهور الاوضاع الاقتصادية لحد الكساد، وهذا يعني تحديا واقرارا بان النظرية الكلاسيكة التي نادت بحرية السوق قد اثبتت فشلها، ان نظرية كل من روبنسون وتشامبرلين تنص على أي نظام اقتصادي حر مع تدخل حكومي لحماية المنافسة الكاملة ومنع الاحتكارات .

اما التيار الثاني والذي يركز على التحليل الكلي وتزعمه اللورد جون ماير كينيز حيث سلط الضوء على التوظف والدخل، وقد اعترض كينيز على سياسات النظام الاقتصادي الكلاسيكي القائم على حرية السوق وقد اعتبرها حالة خاصة تطبق في ضروف محددة، ويرى ان التوازن يتحقق عند مستوى دون مستوى التشغيل الكامل "٥"

منطلقات نظرية كينيز

تعتبر منطلقات النظرية الكنزية بانها جاءت كنقيض لنظرية آدم سميث أي السماح لتدخل الحكومة في اعادة التوازن للاقتصاد أي ان كينيز قرر اذا ما اريد زيادة الطلب الكلي والدخل القومي فان على الحكومة القيام بما يلي

١- رفع مستوى الانفاق الكلي على السلع الاستهلاكية والاستثمار. لان الافراد لا يمكن زيادة انفاقهم على كلى المجالين السابقين باكثر مما يتيحه لهم الدخل القومي أي باكثر مما يملكون من دخل تم توزيعه بالفعل .

٢- وهكذا تتحول عملية الانفاق الحكومي عن طريق التمويل بالعجز الى سياسة ضرورية لرفع مستوى الدخل الى اقصى حدوده ولتحقيق مستوى التشغيل الكامل واستئصال البطالة .

ان فلسفة النظرية الكنيزية لعلاج الكساد والبطالة تنحصر في جدول الاعمال التالي" على الحكومة ان ترفع مباشرة من مستوى الانفاق بغرض زيادة الطلب على سلع الاستهلاك والاستثمار أي انها تقوم بهذا الدور بطريقة غير مباشرة عن طريق تشجيع القطاع العائلي على زيادة الطلب على الاستهلاك والاستثمار أي تقوم بهذه العملية لوحدها عن طريق تشجيع القطاع العائلي على زيادة انفاقهم من خلال تخفيض اسعار الفائدة على القروض ومنح مزايا ضريبية ومنح اعانات اجتماعية

وتسهيلات استثمارية وبقدر ما يوجد في المجتمع بطالة او طاقة انتاجية معطلة فان عرض السلع والخدمات ستستجيب الآيام مع زيادة الطلب الكلي على السلع والخدمات وسوف يتحقق للاقتصاد القومي مركزا متوازنا جديدا عند مستوى اعلى للدخل القومي والعمالة "٦"، هذا وقد اثبتت الكينزية نجاعتها في معالجة المشكلة الاقتصادية في معظم الدول الرأسمالية وبقيت صامدة الى بداية السبعينات من القرن الماضي .

كيف استقبلت الاوساط الرأسمالية الصناعية نظرية كينز؟

لقد اقبل الصناعيون على تطبيق هذه النظرية بعد الحرب العالمية الثانية وفي كافة مراكز الرأسمالية الصناعية ولكن على مضض وخاصة في بند تدخل الدولة والسبب في ذلك ادراكها ان مصلحتها تكمن في تدخل الدولة والحكومة، لكن كينيز كان هدفه فقط حماية النظام الرأسمالي وتأمينه ضد الاضطرابات الاجتماعية ومنع زحف الاشتراكية وفيالقها عليه، ومنذ ذلك الوقت زاد تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي في الدول الرأسمالية الصناعية وامتلكت الدولة بعض الصناعات الهامه التي تعرضت لتدهور واضح في معدلات ارباحها كصناعة الحديد والصلب والفحم والطاقة وكلما زاد انفاقها العام الجاري الموجه للخدمات الاجتماعية كالتعليم والصحة والاسكان والضمانات الاجتماعية ودعم المواد التنموية للفقراء والمحرومين، وزاد الانفاق الاستثماري في مجال الاشغال العامة، كما دخلت الدولة في مجال الاسلحة الثقيلة والحربية وزاد انفاقها العسكري حيث نتج عن ذلك ما يلي :" ازدياد نسبة الانفاق الحكومي حيث سجل الناتج المحلي والاجمالي قفزات كبيرة ففي المانيا وصلت نسبة الانفاق في عام ١٩٧٥ الى ٤٧% وبريطانيا ٩و٤٦% وفي ايطاليا ٣و٤٣% وكندا ٨و٤٠% وفي امريكا ٤و٣٥% واليابان ٣و٥٧% "٧" .

هل يمكن تطبيق نظرية كينز على دول العالم الثالث ؟

الكنزية جاءت لتعالج ازمات اقتصادية في المجتمعات الرأسمالية وهذه الاقتصاديات متوفر فيها صروح اقتصادية يوجد فيها طاقات مستعدة للانتاج لكنها معطلة لقصور في الطلب على السلع والخدمات المعروضة، وكذلك توفر سوق منظمة للنقود والاسهم ورأس المال وامكانيات الشركات والخدمات والمؤسسات المنتجة للاستجابة لزيادة العرض في حالة الطلب النقدي على منتجاتها وذلك عن طريق زيادة التشغيل والعمالة بعدلات سريعة.

ومن هنا يمكننا القول ان تجربة الكينزية لم تكن مطبقة في الدول الرأسمالية ومراكزها بل كانت مطبقة في العالم الثالث حيث زحفت الكينزية وخاصة بعد اعقاب الحرب العالمية الثانية بعد ان حصلت هذه الدول على استقلالها السياسي وجاءت

على شكل نظريات للتنمية والتي اعطت مشروعية لتدخل الدولة، وان يكون دور الاخيرة قياديا في مواجهة التخلف، وتحقيق النمو الاقتصادي وهي ما تعرف بمصطلح استراتيجات التنمية "٨"، اما واقع الاقتصاديات في الدول المتخلفة فمشكلتها تنحصر في العرض ويسيطر عليها الانتاج الزراعي ونقص في الاموال والمواد الخام والمواد الغذائية، والسلع نصفها مصنع وضعف كفاءة الانتاج وعناصر العمل وندرة المنظمين والعمال المهرة وافتقار البلاد لاسواق النقد والمال وهبوط مستوى خدمات البنية التحتية وسيادة نماذج استهلاكية غير رشيدة بين الفئة الفنية فيها كل هذه السمات الهيكلية سوف تفرز آثارها العكسية والتي تمحوا أي نتيجة ايجابية لسياسة الانفاق الحكومي بالعجز اذا ما حاول بعض واضعي السياسة الاقتصادية وتطبيقها بالبلاد المتخلفة ففي ظل ضروف كهذه والتي تتسم بعدم مرونة العرض بالنسبة للطلب لا يتوقع مع أي زيادة في الانفاق النقدي الحكومي غير ارتفاع عام في الاسعار وتفشي التضخم ."٩"

النظرية الشومبيترية

ظهرت هذه النظرية عام ١٩١١ نسبة الى المفكر الالماني " جون شومبيتر" والذي يسجل له اول من ناقش قضايا التنمية في بدايات القرن العشرين حيث اعتبرها فرعا مستقلا قائما بذاته في علم الاقتصاد كما وقدم شومبيتر كتابا اخر سنة ١٩٣٩ عن الدورات الاقتصادية، هذا وقد عاش شومبيتر في اربعة دول وفي ثلاث قارات مما اكسبه خبرة كبيرة كما تقلد وزير المالية في النمسا وعمل استاذا للاقتصاد في الجامعات الالمانية واليابانية ودرّس في جامعة هارفرد من ١٩٢٧ - ١٩٥٠ أي حتى وفاته.

لقد تأثر بافكار كارل ماركس غير انه كان يكره الشيوعية والافكار الاقتصادية كما انه عاش في البلاد الرأسمالية لكنه لم ينحاز للرأسمالية وخاصة وانه تنبأ بسقوط النظام الرأسمالي وانهياره معتبرا ان البديل الآخر بعد سقوطه هو النظام الاشتراكي، شومبيتر اعترف بان تطور الرأسمالية جاء على شكل قفزات متقطعة واندفاعات غير متسقة ومتناسقة تصحبها فترات من الرواج والكساد قصير الآمد متعاقبة او قل انها تطور غير مستقر وتتم هذه القفزات بسبب التقدم التكنولوجي او التجديدات التي يستحدثها المنظمون للاقتصاد والتي من شأنها زيادة الانتاج ودفع التطور الى الامام "١٠".

لقد ركز شومبيتر على فاعلية الادارة الاقتصادية او المنظم لها فهو يعتبر مفتاح التنمية او الدينمو الذي يدفع التطور للامام، والابتكارات تشكل اهمية كبيرة في رأي شومبيتر فهي بمثابة البنية التحتية التي يستند اليهاالتطور، وطالب الادارة الاقتصادية بان تمتلك مواهب فذة وعديدة ومقدرة فائقة على ركوب المخاطر في عالم دائب الحركة يكتنفه الغموض فهي ترصد حركة الاستثمارات الجديدة مما يؤدي الى خلق موجة واسعة من الاستثمارات الجديدة تساهم في زيادة الدخل والانتاج القومي وبالتالي تساهم في دفع عملية التطور والتنمية

ما سر اهتمام شومبيتر بالادارة الاقتصادية اوالمنظم للعملية الاقتصادية؟

توصل شومبيتر الى ان سر اهتمامه بالمنظم يعود الى قدرة المنظم الفائقة في التأثير على العادات والتقاليد السائدة في المجتمع وبالتالي التأثير على اتجاهات المستهلكين، حيث يؤدي ذلك الى احداث تغيرات هيكلية في طلبهم على السلع الجديدة وهذا بحد ذاتة يغذي قطار التطور، كذلك ركز شومبير على العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية التي تسود البيئة التي يتواجد بها المنظمون كما اهتم بنظرة المجتمع الى المنظم او الادارة الاقتصادية، ومن ابرز التجديدات التي يجب ان يركز عليها المنظمون ما يلي :

١- استقلال موارد جديدة .
٢- استحداث سلع جديدة
٣- استحداث اساليب انتاج جديدة .
٤- فتح اسواق جديدة .
٥- اعادة تنظيم بعض الصناعات.

ولتنفيذ هذه التجديدات على الادارة الاقتصادية او المنظم لا بد من توفير السيولة المادية لتمويل الاستثمارات الجديدة ويتضح من كلام شومبيتر ان لايكون المنظم مالكا لرأس المال ولا لاي عنصر من عناصر الانتاج ذلك لان العبرة بالقيادة وليس بالتملك كما ان دور المنظم ليس بالادارة فقط وانما بالابتكار والتجديد.

مكونات نظرية شومبيتر

اولا - الانتاج: وهنا توافق شومبيتر مع الكلاسيك والماركسية

ثانيا- المدخرات تعتمد على الاجور والارباح وسعر الفائدة حيث عرف الادخار بانه تجنيب جزء من الدخل بغرض الاستهلاك في المستقبل من اجل الاستثمار.

ثالثا- الاستثمار يتكون من جزءين محفوز وتلقائي فالاول ياتي نتيجة الزيادة في الانتاج او الدخل او المبيعات والارباح، والثاني يأتي من اعتبارات طويلة المدى اهمها التغيير التكنولوجي .

رابعا - الاستثمار المحفوز يعتمد على مستوى الارباح وسعر الفائدة أي انه يزيد كلما زادت الارباح الجارية من ناحية وكلما انخفض سعر الفائدة من ناحية اخرى وذلك لان المنظم يقتطع من ارباحه الاجمالية الفائدة على القروض التي حصل عليها من البنوك وهنا مايهمنا ان يكون الفرق بين الارباح والفائدة كبيرا.

خامسا- الاستثمار التلقائي يعتمد على اكتشاف موارد جديدة، والتقدم التكنولوجي، كما ان شومبيتر لم يعر النمو السكاني أي تأثير على عوامل النمو الخارجية .

سادسا - اعتبر شومبيتر التقدم التكنولوجي ومعدل اكتشاف الموارد على معرفة وخبرة المنظم فالاخير هو العامل الحاسم الذي يقرر معدل النمو الاقتصادي وعلينا ان نوليه اهمية خاصة .

سابعا- يعتمد عرض المنظم على معدل الارباح والبيئة الاجتماعية او الجو الاجتماعي .

ثامنا- يعتمد الناتج القومي غير الصافي علىالعلاقة ما بين الادخار والاستثمار، ومن الجدير بالذكر ان هناك مفكرين اقتصاديين اعتبروا ان الثغرة ما بين الاستثمار والادخار الناشيء اصلا عن الادخار الاختياري والتي تحد من طريق الائتمان المصرفي وتعمل على زيادة الناتج القومي بعد اضعاف الثغرة الاصلية .

تاسعا- تعتمد الاجور على مستوى الاستثمار وهنا نلاحظ انه اتفق مع الكلاسيك والماركسيين.

عاشرا- ينعكس الطقس الاحتماعي للمنظم من خلال توزيع الدخل حيث يعتبر شومبيتر توزيع الدخل بمثابة مقياس للطقس او المجال الاجتماعي العام فاي ضغط على الارباح كفيل باضطراب الطقس الاجتماعي أي ان النسبة ما بين الارباح والاجور تكون بمثابة تعبير مختزل يشير الى العوامل التي تؤثر بالطقس الاجتماعي العام .

حادي عشر : الناتج القومي غير الصافي يساوي الارباح والاجور معا"١١"

مكيانيكية نظرية شومبيتر

يقوم تحليل شومبيتر للنمو الاقتصادي من خلال اقتصاد تسوده المنافسة والعمالة الكاملة في حالة توازن ساكن يكرر نفسه دون وجود استثمار صافي او زيادة في السكان كل هذا ينعكس على الحياة الاقتصادية التي تأتي على شكل تدفق دوري يكرر نفسه وينحصر دور المنظم هنا في احداث تغيرات في مجرى هذا التدفق قد يؤدي الى اضطراب يلحق بالتوازن السابق فيحقق توازن آخر ويتم هذا التغيير نتيجة الابتكار الذي يحدثه المنظم، ويغتنم المنظم مثل هذه اللحظة المرية فيبحث عن تمويل الاستثمارات الجديدة نتيجة الابتكارات ويتسع النشاط الاقتصادي عندما يتم انشاء مصانع جديدة ويتم تشغيلها تجد السلع الاستهلاكية طريقها للاسواق وتبداء موجة جديدة من الازدهار تغذيها زيادة الائتمان المصرفي الذي يمول التوسع العام في النشاط الاقتصادي بما يعمل على زيادة الموجة الاستثمارية وزيادة السلع المتدفقة على الاسواق فيزداد الانتاج والدخل القومي والفردي وبالتالي يستفيد الجميع بما في ذلك اصحاب رأس المال والعمال ويعم الرفاه، الا ان زيادة السلع المتدفقة للاسواق تعمل على انخفاض الاسعار الذي يغذيه انكماش عرض النقود وتصبح المنشآت

القديمة غير قادرة على منافسة الصناعات المتكرة ذات التكاليف المنخفضة فتلحق بالاول خسائر فادحه، وبذلك تحدث عملية تعديل او موائمة تضر ببعض المصانع والمنشآت مما يضطرها في النهاية التصفيتها واغلاقها، ولا يتوقف الامر الى هنا بل تستمر موجة تدهور الاسعار ممايحدث طقس متشائم فتتعثر حركة التجديد وما يلبث ان يسود الكساد على نطاق واسع، وبهذا يتحول الرواج الى كساد، لكن بعد فترة وجيزة تتحسن توقعات المنظمين بالنسبة للمستقبل ويبداء بعضهم في احداث ابتكارات جديدة تتفتق عنها اذهانهم فيعيدون توليفة عناصر الانتاج ويستحثون اساليب جديدة للانتاج وتبداء موجة استثمارات تعكس توسع النشاط الاقتصادي من جديد ويزداد الإنتاج، وهكذا تبدءا عملية الدوران من جديد غير ان نقطة التوازن الجديدة تكون افضل من السابقة .

وهكذا تتم عملية النمو في النظام الرأسمالي في صورة قفزات غير منسقة تصحب فترات قصيرة الأجل من الرواج والكساد وبعبارة اخرى فان نظرية شوم بيتر للنمو هي قفزات تصحب تقلبات وما التقلبات وفق شوم بيتر الا نتيجة للنمو في ظل الرأسمالية "١٢"

ابرز الانتقادات التي وجهت لنظرية شوم بيتر

اعتبر بعض المفكرين الاقتصاديين ان أفكار شوم بيتر لا تصل الى ما يطلق عليه بالمنظر الاقتصادي او بصاحب النظرية الاقتصادية بالرغم من إسهاماته الكبيرة في في حقول اقتصاديات التنمية هذا وتنحصر الانتقادات التي وجهت لنظريته في المحاور التالية :

المحور الأول : المبالغة الزائدة بأنه لولا المنظم لما حدث تنمية اقتصادية حيث أصبح المنظم ليس هو العنصر الرئيسي في زيادة النمو الاقتصادي.

المحور الثاني : اثر الابتكار في العصور الحالية يختلف عن اثر الابتكار في العصور السابقة، إذ ان التجديدات الحديثة لا تخلق هزات او صدمات عنيفة للاقتصاد حيث ان المشروعات الكبرى تتمكن من استيعاب هذه التجديدات وقدرتها على التكيف .

المحور الثالث : اعتبر ان سعر الفائدة هو اهم العوامل المقررة للادخار الا ان الأيام اثبتت ان هناك غموضا في العلاقة مابين.

المحور الرابع: اعتبر ان تمويل الاستثمارات الجديدة يتم بالاقتراض من البنوك، غير ان هذا لا يتم الا في حالات نادرة وخاصة ألمانيا في بدايتها، حيث ان البنوك في الدول الرأسمالية لا تمنح قروض طويلة الأمد، اما الاستثمارات الطويلة فإنما يتم تمويلها من خلال الارباح الغير موزعة وإصدار الأسهم والسندات

المحور الخامس: لم يسلط الضوء على عوامل اخرى لها دور في إعاقة النمو الاقتصادي كزيادة النمو السكاني وتنافس الغلة

يخلص المنظرين الاقتصاديين الى ان تحليل شيمبوتر لا يتجاوز تحليل للدورات الاقتصادية اكثر منه كنظرية اقتصادية تساعد على النمو، وهذا ما يؤشر إليه من خلال كتابه الثاني الذي صدر عام ١٩٢٩ تحت عنوان " الورشة التجارية " حيث ناقش أفكاره والتي صدرت عام ١٩١١، وبذلك اجمع الخبراء الاقتصاديين ان كتاباته المتفرعة عن النمو لا تصلح ان تكون نظرية عامة متكاملة عن التطور الاقتصادي .

ايجابيات نظرية شوم بيتر

بالرغم من الانتقادات التي وجهت الى شوم بيتر فان بعض المحللين من سجل لإسهاماته في الفكر الاقتصادي وتنبع هذه الايجابيات من ما يلي:

أولا - كان شوم بيتر من السباقين للإشارة للازمات التي تعاني منها الرأسمالية خاصة من مرحلة الرواج الى مرحلة الكساد.

ثانيا - تميز تنظيره من خلال تركيزه على عملية التنظيم في النمو، وهذا ما تميز بت تنظيره عن المنظرين الآخرين بالرغم من المبالغة الزائدة بالمنظم مع الإقرار بأهميته وخاصة في الدول الأقل تقدما والتي تفتقر الى التنظيم .

ثالثا - يسجل لشوم بيتر تفريقه ما بين الاستثمار المحفوز والاستثمار التلقائي، وكذلك تركيزه على اهمية الابتكار واثره على الاستثمار التلقائي.

رابعا - تنبئه بانهيار وسقوط الرأسمالية وان الاشتراكية سترثها والايام أثبتت تفكك الاشتراكية قبل الرأسمالية لكن نجاح بعض الدول كالصين والهند مثل دليل صدقه"١٣".

نظرية مراحل النمو

تنطلق ابجيات هذه النظرية بانها تشرح وتفسر لنا حلقات السلسلة الزمنية التي مرت بها الاقتصاديات المتقدمة في الماضي والحاضر، وتربط ما بين تطورها وملامح التطور على كل حلقة لتصل في النهاية الى ان أي بلد يمكنه ان يصنف نفسه ضمن مرحلة من هذه المراحل، وانه بالتالي سوف يمر مستقبلا بالمراحل التالية كما كان الشأن من الدول التي سبقته في مضمار النمو.

وهذه النظرية تختلف عن منهج النظريات السابقة حيث استند منهجا على اسس رياضية وعلمية ومعادلاتية، وياتي التاريخ الاقتصادي للنمو ومحدداته ليكون بمثابة المنهج الشامل على كثير من الدقائق، في وصف وتحليل وتصنيف التاريخ مستخدمة في ذلك الاسلوب اللفظي بكل ما يتضمنه من مرونة وثراء في القدرة على التعبير تفوق بلا شك الاسلوب الرياضي، والسؤال الذي يطرح نفسه هل يرقى تفكير المؤرخين الى تفكير المفكرين والعلماء ؟ بمعنى هل يمكن لهم ان يقدموا لنا نظرية علمية ام ان اكثر ما يقدمونه لنا عرض احداث تاريخية غابرة؟

ان الاجابة على هذا السؤال قد يكون بنعم ولكن ليس من منطلق سردي وروائي للاحداث بل يمكن للمؤرخين ان يكون لهم اسهامات في ذلك فمثلا التجربة الالمانية اعتمدت على قرءات التاريخ وفلسفته أي انه يمكن القول ان بامكان المؤرخ الاقتصادي من خلال اسلوب الادراك والملاحظة اعطاءنا اجابات عن السؤال الذي طرحناه ليس فقط كيف يتطور وينمو الاقتصاد بل لماذا يتطور الاقتصاد؟

بالرغم من كثرة الكتاب وعلماء الاقتصاد الذين اعتقدوا في فكرة مراحل النمو فانه لا يوجد اتفاق ما بين اثنين على نفس المراحل، واول اسهامات هولأ المفكرين عن نظرية النمو هو " فريدريك ليست، وبرونو هيلد، وكارل بوخر، وجستاف شمولو، وفارنر سومبارت" الا ان اكثر المفكرين الذين اثّروا في الفكر الاقتصادي في فكرة مراحل النمو هما كارل ماركس والامريكي وليم ولت روستو، وقد انطلقت أفكار كارل ماركس من ان التاريخ دورة طابعها الصراع من اجل ان تملك ادوات الإنتاج، ومن أي مجتمع لا بد وان يمر في التطور التاريخي من أي زمان ومكان بمراحل معينية تتدرج تحت المحاور التالية:

أولا : الشيوعية البدائية
ثانيا: الرق والعبودية
ثالثا : الاقطاع
رابعا : الراسمالية التجارية والصناعية
خامسا: ديكتاتوريا البرولوتاريا
سادسا : الاشتراكية
سابعا : الشيوعية

وقد سلط ماركس الضوء على العنصر الاقتصادي المادي في تحليله باعتباره المفسر والمحرك لكافة المتغيرات الاقتصادية وغير الاقتصادية في أي مجتمع .

بينما ركز روستو على ادخال جميع العوامل الثقافية والاجتماعية والسياسية بالاضافة الى البعد الاقتصادي في تفسيره لتطور الالمجتمعات، لكن روستو ركز على عامل الاختيار بخلاف ماركس على مبدأ الحتمية التاريخية على اساس ان الانسان حرفي اختيار يدل بديل من البدائل وهذا هو الفرق ما بين هذين المفكرين في نظرية مراحل النمو .

" مراحل النمو لدى روستو "

افترض روستوان المجتمعات البشرية تمر بخمسة مراحل وهي :

١- المجتمع الكلاسيكي .
٢- التهيئ للانطلاق نحو النمو الذاتي .
٣- مرحلة الانطلاق .
٤- السير نحو النضوج .
٥- الاستهلاك الوفير .

هذا وقد اعتبرت هذه النظرية بانها ليست مجرد تقدير لحقائق عن تطور المجتمعات المعاصرة بل انها تحمل في حد ذاتها منطقها وقدرتها على الاستمرار، وهي في النهاية نظرية اقتصادية وهي كذلك نظرية للتاريخ الحديث باكمله، والان سندرس هذه المراحل مرحلة مرحلة :

أولا : المجتمع الكلاسيكي او التقليدي : اثناء تقليب صفحات التاريخ نجد ان شعوبا عاشت على الارض دون ان تشعر انها مرت بعملية التغير الاجتماعي والاقتصادي، وان أي تغير يصيبها يكون بسبب عوامل خارجية كالاحتلال الاجنبي او الغزو الذي ينقل انماط حيلتيه معه، ويؤثر بالدولة المحتله حيث يأتي معه اسلوب جديد للزراعة والصيد او لصهر المعادن او لتصنيع العربات او الكتابه او الحساب، واشار روستو للوسائل الفنية المحدودة الإنتاج والتي هي المسؤولة عن النقص الذي تمر بت المجتمعات أي ان هذه الوسائل المتخلفة في الإنتاج هي السبب في تخلف هذه المجتمعات، وقرر روستو ان هذه المرحلة ظهرت ما قبل نيوتن وشملت حضارات اليونان والرافدين والصين ومصر والدول المحيطة بالمتوسط واوروبا الوسطى اضافة الى المجتمعات التي لم يصلها المجد الحضاري وما زالت بعيدة عنه ومن اهم مميزات هذه المرحلة" الزراعة والصيد والرعي" أي الجانب الاقتصادي بينما الاجتماعي يشمل سيطرة الكنيسة ورجال الدين وملاك الاراضي وتسود الطبقية والجمود والجهل والدخل الاقتصادي الزراعي للعامه واما بالنسبة للنبلأ والفرسان فهم يعتمدون علىما يملكون من اراضي.

ثانيا ـ التهيىء للانطلاق: أي الاعتماد على الذات أي توفر اقتصاد قومي أي المرحلة التي سبقت الثورة الصناعية وجاءت هذه المرحلة للاسباب التالية:

١ـ انهيار النظام الطبقي

٢ـ بروز الدولة القومية

٣ـ انتعاش وازدهار البرجوازية" التجار والاثرياء"

٤ـ الغاء القيود المكبلة للنشاط التجاري

٥ـ التحلل من الفكر الكنسي وتحرير العقل البشري بفعل الحركات التنويرية

٦ـ انتقال السلطة من القيادات التقليدية" الاقطاعيين، رجال الدين،" الى طبقة الفلاسفة والمفكرين وتحول الاقتصاد من زراعي عيني الى امتلاك النقود والمعادن النفيسة كالذهب والفضة.

كما ناقش روستو العوامل المهيئة للصناعة وهي زيادة معدلات الاستثمار في رأس المال الاجتماعي خاصة قطاع النقل، وقيام ثورة صناعية والتوسع في الصادرات والواردات من والى العالم الخارجي، ام المجتمعات المتخلفة فيلعب التقليد والمحاكاة دورا في تغيير الانماط الاستهلاكية والاذواق والقيم المحلية التراثية وهذه المرحلة تختلف من مجتمع لاخر، وقسم روستو المجتمعات والدول على النحو التالي:

١ـ البلدان التي بدأت بالتقدم " ألمانيا، فرنسا، انجلترا"

٢ـ البلدان الجديدة الشاسعة المساحة التي دخلتها الرأسمالية مثل" استراليا كندا، مصر، المكسيك،الهند، الارجنتين"

ثالثاـ مرحلة الانطلاق : وهي من اهم المراحل لانها قصيرة حيث يتهياء المجتمع لتحقيق تنمية اقتصادية حقيقية واشترط روسو عدة متطلبات للوصول الى هذه النتيجة:

١ـ ارتفاع مستوى الاستثمار من اقل من٥% الى اكثر من١٠% من صافي الناتج المحلي.

٢ـ تطور صناعة اوقطاع معين ينمو بعدلات مرتفعة

٣ـ ظهور الاطار السياسي الاجتماعي الذي يدفع بالمتغيرات الجديدة نحو النمو الذاتي

رابعا ـ مرحلة السير نحو النضوج: أي تنظيم المعدلات المرتفعة للنمو والتراكم الرأسمالي وفيها تحل قطاعات رائدة جديدة محل القديمة وينطبق التقدم التكنولوجي على كافة المجالات الانتاجية ويصبح الاقتصاد القومي قادرا على مواجهة أي صدمات او مفاجآت او ضغوط ويتحول التركيز من اغراض مادية الى خدمية .

محددات النضج للاقتصاد كما جاء في رأي روسو

١ـ التحول من الريف الى الحضر وتحول الريف الى شكل حضاري
٢ـ ارتفاع نسبة الفنيين والعمال المهرة
٣ـ انتقال القيادة من ايدي اصحاب المشروعات الرأسمالية الى المديرين التنفيذين
٤ـ النظر الى الدولة في ظل سيادة درجة من الرفاهية المادية وكذلك الفردية على انها المسؤولة عن تحقيق اكبر قدر من التأمين الاجتماعي والاقتصادي.

خامسا ـ مرحلة الاستهلاك الوفير: أي الانتقال من استهلاك الملبس والمأكل والمشرب الى الاستهلاك الكمالي كالسيارات وتكنولوجيا الاتصالت أي تحقيق مجتمع الرفاهية ويصبح الجوع او الفقر من مخلفات التاريخ"١٤".

تقييم نظرية روسو

اجمع المفكرون الاقتصاديون ان نظرية روسو نالت شهرة اسوة بآدم سميث وكينز وماركس خلال المائة عام الماضية لكن هذا لايعني ان لايتم توجيه النقد اليها حيث اجمع الاقتصاديون الى ان هذه النظرية فشلت لسببين اولهما في مدى اثبات صحة هذه المراحل تاريخا، وثانيهما امكانية تطبيقها فقط على دول العالم الثالث"١٦".

نظرية آرثر لويس

هذه النظرية اول نظرية تنموية عالجت قضايا التحول من الريف الى المدن ومن الزراعة الى الصناعة بشكل منطقي وصاحبها حصل على جائزة نوبل في الاقتصاد سنة ١٩٧٩ وقد نالت نظريته قبولا لدى دول العالم الثالث من اواخر الخمسينات حتى الستينات وقد اهتمت بها الدول ذات الزيادة السكانية العالمية، وركزت هذه النظرية على قطاعين، اولهما قطاع اقتصاد الكفاف وهو تقليدي، وثانيهما قطاع صناعي حديث ترتفع فيه انتاجية العامل .

والفكرة الرئيسة لهذا النموذج تقوم على دعامتين هما عملية التحول للعمالة من القطاع التقليدي الصناعي، ونمو وزيادة حجم العمالة في القطاع الصناعي، العنصر الاهم في هذه النظرية او النموذج يستند على نمو القطاع الصناعي في الحضر فهو الرائد الذي يتحقق فيه النمو بعدلات كبيرة، وهو القطاع الديناميكي ومنه وبه تنجذب باقي القطاعات في توليد نمو القطاع "١٧".

تقييم نموذج آرثر لويس

اجمع الخبراء ان هذا النموذج قد تأثر بالكلاسيك حيث انصبت انتقادات آرثر لويس على نهج الكينزيين وخاصة على اقتصاديات الدول المتخلفة فكينيز اهتم بدورات الاقتصاد من بطالة وتضخم وكساد، وان العالم الثالث من وجهة نظر آرثر يناسبه الاقتصاد الكلاسيكي ومع ذلك فقد حلل المفكرين الاقتصاديين هذا النموذج ووجدوا فيه فروض مجروحة وهي

١ـ يجب ان تناسب الزيادة في تحول العمال غير المهرة في القطاعات التقليدية الى القطاعات الصناعية مع معدل التراكم الرأسمالي في هذا القطاع فكلما زاد نمو التراكم الرأسمالي زاد نمو القطاع الصناعي، وزاد الطلب على العمال ولكن ماذا لو استثمرت الارباح في شراء الآلآت .

٢ـ يتطلب النموذج وجود فائض مستمر للعمالة في القطاع الريفي بينما يوجد طلب زائد في القطاع الحضري الصناعي والعكس هو الصحيح ففي العالم الثالث تكون البطالة في القطاع الصناعي وليس في القطاع الزراعي.

٣ـ مستوى القروض الغير واقعية: أي بقاء مستوى الاجور في القطاع الصناعي ثابتا بقدر ما يستمر فائض العمالة في القطاع التقليدي، ان تطبيق هذا النموذج للعالم الثالث بوجود التكنولوجيا المتطورة كما يقول خصوم هذا النموذج اعلن فشلها، وذلك ان تزايد استخدام التكنولوجيا الموفرة لعنصر العمل وتزايد ندرة العمالة العاطلة في قطاع الزراعة واستمرار ارتفاع معدلات الاجور في القطاعات الصناعية الحضرية ولهذاه الاسباب يعتبر هذا النموذج كما يؤكد خصومه محدود الفعالية .

هوامش الفصل الثالث. الباب الأول

١ـ التنمية الاقتصادية، رمزي سلامه، ص٣١٠، دار الفكر العربي، سنة ١٩٨٥
٢ـ مرجع سابق، ص ٣٢٧ـ ٣٢٨
٣ـ مرجع سابق، ص ٣٣٠
٤ـ مرجع سابق، ص٣٣٠
٥ـ مرجع سابق، ٣٨٧
٦ مرجع سابق، ص٣٩١
٧ـ الليبرالية المتوحشة، د. رمزي زكي، ص٤٩
٨ـ مرجع سابق، ص٥٠
٩ـ مرجع سابق،ص ٣٩٢
١٠ـ مرجع سابق، ص٣٤٦ـ٣٤٨
١١ـ مرجع سابق، ص ٣٤٨ـ٣٥٢
١٢ـ مرجع سابق، ٣٥٣ـ ٣٥٦
١٣ـ مرجع سابق٣٥٨ـ ٣٥٩
١٤ـ انظر التنمية الاقتصادية، د. رمزي سلامة، ص ٣٦٧
١٥ مرجع سابق، ص ٣٧٣
١٦ـ مرجع سابق، ص ٣٧٥ـ٣٧٧
١٧ـ مرجع سابق، ص ٣٩٦ـ ٣٩٩

الفصل الرابع. الباب الأول

اعتبر المفكرون الاقتصاديون ان العنصر الحاسم لحركة النظام الرأسمالي على المدى الطويل يكمن في التغير الذي يطراء على معدل الربح أي انه كلما زاد هذا المعدل استمرت عمليات التراكم والتوسع الانتاجي، واشاروا الى ان هناك مجموعة من الاعتبارات التي تتحكم بهذا المعدل وهي :

١- معدل استغلال العمال
٢- العلاقة ما بين رأس المال الثابت والمتغير
٣- مدى اتساع الاسواق
٤- معدل دوران رأس المال
٥ - معدل نمو الانتاجية
٦- التغير في الفنون الانتاجية
٧- معدلات الضرائب المفروضة على ارباح الشركات "١".

موقف الفكر الاقتصادي من اتجاه الربح

اجمعت كل من الماركسية والكينزية والاقتصاد الكلاسيكي على وجود ميل كامن وطويل الأمد لمعدل الربح نحو التناقص في النظام الرأسمالي فقد اجمعت هذه المدارس على هذه الحقيقة بالرغم من الاشكاليات الجوهرية ما بينهما في تبرير هذا الميل بالرغم من الاختلافات المنهجية الحادة التي تحول الى تلافي هذه الافكار وخاصة الماركسية مع الكينزية والكلاسيكية لنرى ذلك.

ففي الفكر الكلاسيكي اعترف ديفيد ريكاردو كا سبق وان تحدثنا عن نظريته وهو من ابرز المنظرين الكلاسيك حيث انطلق من حقيقة الصراع الطبقي الذي ينشب حول توزيع الدخل القومي في الأجل الطويل فيما بين كاسبي الارباح الرأسمالية، واصحب الريع ومالكي الاراضي وكاسبي الاجور"العمال" وجوهر فكرته تنطلق من انه خلال الزمن يتزايد السكان بعدل يفوق زيادة المواد الغذائية حسب قانون مالتوس بيد انه لما كانت الاراضي الزراعية محدودة الخصب فان ضغط السكان المتزايد على الغذاء يدفع اصحاب الاراضي الزراعية القديمة الى زراعتها وبشكل مكثف، والى اللجؤ الى اراضي زراعية اقل خصوبة، ولذلك ترتفع تكاليف الإنتاج بفعل قانون الغلة المتناقصة وتتزايد نتيجة لذلك اسعار المنتجات الزراعية الغذائية وبالتالي الى زيادة حجم الريع ونصيبه من الدخل القومي الذي يحوز عليه ملاك الاراضي، وهي طبقة افترضها ريكاردو انها طبقة لا تقوم بالتراكم ولذلك فعندما ترتفع الاسعار للمواد الغذائية فلا بد ان تتزايد الاجور النقدية للعمال لمواجهة نفقات المعيشة المتزايدة، وهكذا يؤدي ارتفاع البيع وزيادة الاجور الى تناقص معدل الربح

وانخفاض النصيب بالتراكم وينخفض معدل النمو الاقتصادي ويستمر هذا النظام في هذا الاتجاه الى ان تتوقف الارباح ويصبح معدل الربح ضفرا.

وفي الماركسية فان الاتجاه طويل المدى لمعدل الربح يتجه نحو التناقص حيث يجد جذوره في التناقص القائم ما بين الطابع الاجتماعي للانتاج والطابع الخاص لملكية وسائل الإنتاج وهو تناقص يعكس نفسه في ذلك البون الشاسع الذي تنمو بت المقدرة على التوسع في الإنتاج والمقدرة المحدودة للتوسع في الاستهلاك، وذلك بسبب علاقات الملكية والتوزيع في نمط الإنتاج الرأسمالي، وقد اشار كارل ماركس الى ذلك الى ان رأس المال يتضمن ميلا مستمرا نحو التوسع للحصول على اكبر ربح ممكن ويتحدد ذلك من خلال التزايد المستمر في الإنتاج ومعدلت استغلال العمال.

كما ان فائض القيمة الذي يجدد في النهاية معدل الربح وان كان يتم عبر عمليات الإنتاج الا انه يتحقق من خلال عملية بيع المنتجات وهو امر يتوقف على على القدرة الشرائية للعمال، وهي قدرة محدودة بفعل الاستغلال الرأسمالي، كما اشار الى مختلف اساليب الدفاع لمقاومة زيادة معدل الاستغلال نحو التزايد، ومن هنا فان ثمة ميل طويل المدى لاتجاه معدل فائض القيمة المطلق نحو التناقص، ومن ثم يميل ايضا الى معدل الربح نحو التدهور وعبر الزمن لا يصبح رأس المال قادرا على التوسع من خلال زيادة معدل فائض القيمة المطلقة.

ومن هنا يلجاء الرأسماليون في البداية الى زيادة معدل فائض القيمة النسبي من خلال تخفيض اجور العمال واطالة يوم العمل ما تلبث ان تصطدم بحدود قصوى لا يمكن تجاوزها، ولهذا يضطر الرأسماليون للعمل على زيادة انتاجية العمل من خلال استخدام آلآلآت وتحسين فنون الإنتاج أي من خلال زيادة نسبة رأسالمال الثابت الى رأس المال المتغير وهوما يعني زيادة التكوين العضوي لرأس المال الامر الذي يؤدي في النهاية الى زيادة اتمتة عمليات الإنتاج كما ان الخفض الذي سيحدث في تكاليف الإنتاج نتيجة لارتفاع مستوى الانتاجية ما يلبث ان ينعكس في خفض الاسعار للمنتجات النهائية وبخاصة بعد ان يبداء المنافسون في تطبيق الفنون الانتاجية الجديدة، ولن يعود معدل الربح نحو الارتفاع الا اذا ازداد معدل زيادة التكوين العضوي لرأس المال .

اما الكينزيين فقد اعتبروا ان اتجاه الربح يتجه نحو التناقص في المدى الطويل يجد تبريره من الاسباب التي ذكرها كينز حول اتجاه الكفاية الحدية لرأس المال وهو ما يرادف الى حد ما لمعدل الربح نحو الانخفاض.

و ففي رأي كينيز ان الرأسمالية حينما تشتري آلة مثلا فانه في الواقع يشتري الحق في سلسة من العوائد الصافية التي يتوقع الحصول عليها من ناتج بيع هذا الاصل عبر فترة حياته الانتاجية، ان الكفاية الحدية لرأس المال هي العلاقة ما بين الغلة التي سبق ذكرها والتي يتوقع ان يقررها الاصل الرأسمالي، وبين كلفة انتاج ثمن عرض ذلك الطلب.

وقد خلص كينز الى انه مع اتجاه مستوى الدخل القومي نحو التزايد، ومع زيادة الميل نحو الاستثمار تميل الكفاية الحدية لرأس المال نحو الانخفاض الى ان تتساوى

مع سعر الفائدة في السوق وهناك يتوقف الميل للاستثمار، وقد اشار كينز الى ان هناك سببين رئيسين يجعلان معدل الكفاية الحدية لرأس المال تتجه نحو التناقص علىالمدى الطويل اولهما الغلة المتناقصة وثانيهما كلفة انتاج المزيد من الاموال الرأسمالية تميل للارتفاع "٢"، ومن هنا ومن خلال استعراض المدارس الاقتصادية السالفة الذكر سواء في حالة الاتفاق او الاختلاف تجاه معدل الربح على المدى الطويل فاننا امام قانون موضوعي من قوانين الرأسمالية وليس تاريخ الآزمات الدورية الاقتصادية والتقلبات طويلة المدى للدخل القومي في نمط الإنتاج الرأسمالي الا تطبيقا لهذا القانون وتطبيقا بنفس الوقت للاساليب والسياسات المضادة التي تلجاء اليها الرأسمالية للتصدي لمفعول هذا القانون.

وعلى العموم فانه اثناء البحث والتقصي لحركة التطور الاقتصادي في الدول الرأسمالية الصناعية يلحظ الباحث كيف سجل معدل الربح وعلى سبيل المثال في الصناعات التحويلية في هذه الدول اتجاها متدهورا وطويل الامد وخاصة في مرحلة السبيعنيات، وهذا ما اكدته كل من " اندريه جلين وبوب ستكليف" عن الرأسمالية البريطانية خلال الفترة من ١٩٥٠ـ ١٩٧٠ اضافة الى ابحاث " نورد هاوس" عن تناقص نصيب الارباح في الاقتصاد الامريكي، ودراسة " ارنست ماندل" عن الرأسمالية المتأخرة، ودراسة " بانيك كلوز"عن الرحية في الصناعات التحويلي في بريطانيا بل وحتى دراسة اللجنة الاقتصادية لاوروبا التابعة للامم المتحدة "٣"

وبالرغم من ان المدارس الاقتصادية السابقة قد اكدت على ان جوهر مأزق النظام الرأسمالي يتمثل في اتجاه معدل الربح نحو الهبوط كاتجاه طويل المدى، وهذا ما اكدته الدراسات السابقة كسبب مفسر للازمة الرأسمالية المعاصرة الا انه يمكن طرح المسألة من منظور آخر وهو منظور مشكلة استيعاب الفائض الاقتصادي في الرأسمالية المعاصرة وهو المنظور الذي يرجع الى " بول سوزي وبول باران" والذي فضل تأصيله نظريا فخلال هذا الجهد النظري لهما وتحت عنوان " رأس المال الاحتكاري " وهو بحث في النظام الاقتصادي الامريكي، حيث يعتقد هذان الباحثان ان اهم ما يميز الرأسمالية المعاصرة هو اتجاه الفائض الاقتصادي نحو التزايد وهذا الفائض عبارة عن الفرق بين ما ينتجه المجتمع وبين تكاليف الإنتاج، ومن ثم يعد الربح جزء منه يميل من حيث نسبته الى الناتج الكلي عبر الزمن نحو التعاظم بسبب النمو الهائل الذي حدث في قوى الإنتاج وتأثير الثورة العلمية والتكنولوجية وكان هذا اهم ما يميز حقيقة الازدهار الكنزي لعالم مابعد الحرب

ان هذا الفائض المتزايد اما ان يتجه نحو الاستثمار لتوسيع الطاقات الانتاجية القائمة او ان يستهلك او ان يبدد بطرق مختلفة وطبقا لرؤيت هذين الكاتبين فان الرأسمالية الاحتكارية المعاصرة عاجزة عن ايجاد المنافذ الاستهلاكية والاستثمارية الكافية لامتصاص هذا الفائض وتشغيله نحو الافضل الذي يتفق مع قواعد الرشد والتوزيع الامثل للموارد، ولما كان الفائض الاقتصادي والذي لا يمكن امتصاصه لمن يجري انتاجه مرة اخرى فانه سيسبب الركود، لكن خفض الإنتاج كعلاج للتخلص من الفائض الاقتصادي الذي لا يمكن امتصاصه حتى ولو كلن مفيدا لجماعات او افراد معينين الا انه لا يؤدي الا زيادة تدهور الموقف "٤"، وخلص كل من باران وسوزي الى انه لو تركت الرأسمالية الاحتكارية تعمل بشكل ذاتي أي في

ظل القوى التي تعمل بالاتجاه المضاد فان الرأسمالية الاحتكارية ستتردى بعمق متزايد في هاوية الركود المزمن، ويرى كل من " سوزي وباران" ان القوى التي تعمل باتجاه مضاد قائمة في بنية الرأسمالية الاحتكارية ذلك انها لو لم تكن موجودة لسقط النظام تلقائيا منذ فترة طويلة، وهذه القوى تتمثل في مجموعة من المصادر والاشكال والمجالات التي يمكن ان تنشّط الطلب الكلي على النحو الذي يمتص هذا الفائض ويجعل هناك امكانية لاعادة انتاجه.

ان المسألة التي يجب ان نسلط الضوء عليها تتمثل بكيفية التخلص من الموارد التي تفوق امكانات النظام الذاتيه على الامتصاص ولا يوجد خيار امام الرأسمالية الاحتكارية فالقضية ليست تنشيط الطلب من عدمه وانما يجب التنشيط والا تعرض النظام للهلاك كما يقول هذات الباحثان أي انه من خلال هذا التنشيط يزخر العالم الرأسمالي بشتى انواع الشرور والسخافات والضياع والاوضاع غير المعقولة .

لاحظنا ان كل من "باران وسوزي" قد توصلا الى ما توصل إليه كينز من حيث عدم قدرة الرأسمالية على النمو الذاتي، ولاحظنا في الصفحات السابقة ان كينز اقترح لمواجهة ازمة النظام الرأسمالي الى ضرورة تدخل الدولة لرفع حجم الطلب الكلي الفعّال كضرورة لتلافي الكساد والبطالة الدورية الدورية الا ان "باران وسوزي" اختلفا مع كينز وقالا" لايجب طرح المسألة بهذا الشكل لأن امتصاص الحكومة للفائض أي زيادة الانفاق الحكومي هو احد الحلول، وان الرأسمالية الاحتكارية تنطوي على قوى اخرى وتبررها تحت مسميات وحجج لكي تعمل في نفس الاتجاه لتنشيط الطلب وامتصاص الفائض المتزايد، وكما اشرنا سابقا فان ازمة الرأسمالية بدأت ما بعد العقد السابع من القرن الماضي بسبب التآكل الداخلي والخارجي لها الا ان الفائض الاقتصادي ظل يتجه نحو التزايد وان كان بمعدلات اقل من العصر الكينزي وان معرفة اسباب هذه الازمة يضع الباحثان " سوزي وباران " امام اسبابها الحقيقة والمتمثلة فيما يجب التخلص من الفائض المتزايد من خلال وسائل الامتصاص التالية:

اولا- امتصاص الحكومة للفائض لاقتصادي من خلال الانفاق العسكري داخليا وخارجيا أي من خلال الاحلاف والمساعدات : من المعروف ان الصناعات العسكرية في مراكز الرأسمالية قد سارت على نحو متسارع لامتصاص اكبر قدر ممكن من الفائض وعلى سبيل المثال ففي الولايات المتحدة وهي مركز المراكز في النظام الرأسمالي يرى باران وسوزي ان التبرير للانفاق العسكري المتزايد في الولايات المتحدة لا يعود الى تهديد سوفيتي عسكري حقيقي بل تهديد سياسي او اقتصادي وايدولوجي لكن هذان الباحثان يقولان ان حاجة القلة الحاكمة الامريكية الى جهاز عسكري ضخم ينبغي تلمسها في موقع آخر خلاف التهديد السوفيتي وبمجرد ان تتحرر عقولنا من هذه الاكذوبة التي صنعتها الدعاية الامريكية فاننا سنكشف توا ما نبحث عنه وهو العداء المتصلب تجاه الاشتراكية والتصميم نفسه على تدميرها وتفكيكها أي ان الهدف السياسي من خطاب " الماكرثية" هو الحيلولة دون توسع الاشتراكية وحصرها في اضيق نطاق العمل على محوها من وجه الارض وان المتغيرات التي حدثت والاساليب والاستراتيجيات المستخدمة لبلوغهذه الاهداف غير المتغيرة .

فقد ساهمت المؤسسة العسكرية الامريكية في امتصاص قدر كبير من لفائض وكان يعجز النظام الرأسمالي من امتصاصه عن طريق زيادة الاستهلاك والاستثمار فقد قفزت المبالغ التتي انفقت على التسلح في امريكا من ٧٧,٨ مليار دولار ١١ ٩٧٤ الى ١٣٠,٤ مليار عام ١٩٨٠ أي ما نسبته ٢٧%بزيادة اجمالي الانفاق الحكومي ثم ارتفعت هذه النسبة الى ٢٤,٨ %في عام ١٩٨٨، وفي بريطانيا وصلت هذه النسبة الى ١٢,٦%وفي ألمانيا ٨,٩ %حسب احصائيات ١٩٨٨ "٥".

على ان الانفاق العسكري المتزايد في مراكز النفوذ الرأسمالي كما اشرنا كان تحت مسمى مقاومة الشيوعة الا انه أصبح جزء سياسيا وعضويا في بيئة الاقتصادية الرأسمالية الصناعية وليس كما يرى هؤلاء الرأسماليين، وان زيادة الانفاق العسكري تعود الى اساليب التالية في المنظومة العسكرية :

١- العقود التي ابرمتها وزارة الدفاع الأمريكية مع شركات الصناعات الحربية غدا لها تأثيرات مضاعفة في حركة النتاج والدخل والتوزيع .

٢- الانجازات العلمية العسكرية أصبح لها ايجابيات تنعكس على الصناعات المدنية.

٣- اصبحت الصناعات العسكرية من اهم الصناعات التصديرية الى دول العالم الثالث ونهب الفائض الاقتصادي لهذه الدول .

بعبارة اخرى ان المجمع العسكري الرأسمالي بمراكزه يعتبر اهم المكونات العضوية الحيوية في اقتصاديات الراسمالية الصناعية ومن هنا يمكننا القول ان الانفاق العسكري الحكومي فاعلية كبيرة ضخمة في امتصاص الفائض الاقتصادي المتزايد واعادة تدويره وجعله وسيلة اقتصادية لرفع معدل الاستثمار والتصدير والربح في عالم ما بعد الحرب .

لكن بعد انهيار الاتحاد السوفياتي فان بعبع الخطاب الدعائي الامريكي الرأسمالي قد فقد وجوده وبذلك فان هذا المجتمع قد فقد فاعليته واصبح بلا جدوى والايام اثبتت ان الغاء هذه الوسيلة اصبحت من الصعوبة بمكان لانها اصلا تعيش ازمة معقدة داخلية وهيكلية ولذلك سعت هذه المؤسسة " المجمع الصناعي والعسكري" من خلال مراكز الدراسات الاستراتيجية الى خلق عدو وهمي مصطنع وهو محاربة ما يسمى بالتطرف الاسلامي والارهاب الاسلامي واصبح اخيرا يطلق عليه الحرب على الارهاب، والاهم من ذلك ان تحويل هذا المجمع العسكري والصناعي الى مجمع مدني خاصة بعد ان أصبح هذا المجمع جزءا من اقتصاديات هذه الدول وليس من السهل ازالة شبكة هذه المصالح المعقدة نسجها خلال العقود الاربعة الماضية.

ويقول " جالبريت بهذا الخصوص " اعتقد ان صانعي الاسلحة سيكون من مصلحتهم تأمين سوق الانتاج للسنوات العشرين او الثلاثين المقبلة وهم يرون ان مشروع حرب النجوم هبة السماء ومصدرا مهما جدا لارباحهم في السنوات السابقة "، ومن ناحية اخرى بالرغم من تغير النظام العالمي من ثنائي القطبية الى احادي القطبية حيث تم رسم العالم على الشكل التالي :" ان تتحول دول العالم الثالث نقاط

تـوتر وصـراعات اقليميـة وازمـات اقتصـادية واجتماعيـة وعرقيـة فهـذه هـي سـاحة الصـراع الاساسـي بالمسـتقبل علـى حـد قـول " ريتشـارد نيكسـون" والتـي اطلـق عليهـا الفرصـة السانحة وخلال نهاية القرن الماضي وبعد ان انتصرت الرأسمالية المتوحشـة على الكتلة الشيوعية بدأت الرأسمالية بنفس الاوهام واكاذيب بمحاربة الارهـاب وقـد بدأت معركها العسكرية بحروب الخليج بحلقاتها الاولى والثانية والثالثة والرابعة علـى الطريق وقد توجت الحربين الثانية والثالثة باحتلال العراق وافغانستان.

ثانيا ـ امتصـاص الفـائض عـن طريـق تصـدير رأس المـال: يعتبـر تصـدير رأس المال وهو احد الظواهر التي بدأتها الرأسمالية كما رأينا في الصفحات السابقة منذ ان تحولـت مـن رأسـمالية تجاريـة الـى رأسـمالية احتكاريـة واصـبحت معضـدة بالتصـدير السلعي، ومـن خـلال العـود الـى كـل مـن البـاحثين " بـاران وسـوزي" حيـث انهمـا لا يعولان على امتصاص الفائض من خلال تصدير رأس المـال الـى الـبلاد المتخلفـة إذ يقـرر كـل منهمـا الـى ان الاسـتثمار الاجنبـي لا يمكـن ان يلعـب دورا هامـا فـي عمليـة اتصاص الفائض إذ ان الاستثمار الاجنبـي ينبغـي ان يعتبـر وسـيلة لاسـتنزاف الفـائض مـن المنـاطق المتخلفـة ولـيس كمنفـذ يوجـه خلالـه الفـائض اليهـا، وقـد اشـار كـل مـن " باران وسوزي" في ذلك الى تجربـة تصـدير رؤوس الامـوال البريطانيـة خـلال الفتـرة الممتدة من ١٨٧٠ـ ١٩١٣، وكذلك تجربـة رأس المـال الامريكـي فخـلال هـذه الحقبـة سـرعان مـا عـوض انسـياب العائـد مـن فائـدة واربـاح الأسـهم وغيرهـا مـن تحـويلات الاستثمار الاصلي اضعافا مضاعفة، وظل ماضيا في صب الفائض الى خزائن الدولـة الام، ويضيف الباحثان انه في هذا الضروف يكون من الواضح ان الاستثمار الاجنبي يزيد مشكلة الامتصاص اكثر مما يساعد على حلها، ويتفق مـع بـاران وسـوزي بشـكل عام حيال هذا الموقف وخاصة على صعيد منظور الأجل الطويل مع الباحث والمفكـر المصري د. رمزي زكي الا انه يؤكد فـي نفـس الوقـت انـه يجـب ان لا نغفـل فـي هـذا الخصوص الدور الذي لعبه النزوح الفائض من البلاد المتخلفه عبر آلية تصـدير رأس المال من مراكز المنظومة نفسها وهي الاصلاحات التي مكنـت ظهـور نظـم اشـتراكية ديموقراطية في دول غرب اوروبا وكان من شأنها تحسين مستويات الاجـور الحقيقـة وتخفيف حدة الصراع الطبقي بل بهذا المعنـى نسـتطيع القـول ان وسـيلة تصـدير رأس المـال الـى المنـاطق المتخلفـة ومـا سـمحت بـت مـن فـائض فـي الاربـاح، وزيـادة فـي الاجور كانت هي الوسيلة التي سمحت باعادة انتاج الفئض المتزايد في سياق تـاريخي معين ولكـن مـع ذلـك تظـل مقولـة بـاران وسـوزي صـحيحة حيـث ان ازمـة اتصـاص الفائض المتزايد لا يمكن حلهـا مـن خـلال الاعتمـاد علـى تصـدير رأس المـال للخـارج لأن المشكلة تصبح هي المزيد من اتجاه هذا الفـائض المتزايـد، وربمـا كـان ذلـك يمثـل احـد تناقضـات الرأسـمالية فـي مسـتقبلها علـى المـدى القريـب"٦"، ويضـيف المفكـر الاقتصادي رمـزي زكـي مبـررا موقفـه بأنـه بغـض النظـر فاننـا حينمـا نتأمـل فـي عـالم السبيعينات والثمانينـات فسـوف نجـد الرأسـمالية العالميـة قـد اسـتخدمت تصـدير رأس المال على نحو واسع وبفاعلية واضحة من اجل احتواء الفـائض المتزايـد علـى صـعيد المنظومـة الرأسـملية عالميـا، وضـرب مثـالا علـى ذلـك الكسـاد التضـخمي الـذي عّـم اقتصاديات الرأسمالية في حقبة السبعينيات وما ترتب عليه من خلق مشكلة مـدخرات داخلية لا تجد طلبا لاستثمارها، كذلك حينمـا ظهـرت مشـكلة الفـوائض البتروليـة عقـب صدمتي ١٩٧٣|١٩٧٤ و١٩٧٤|١٩٨٠ فقد نشأت اكبر مشكلة فائض مالي في تـاريخ

الرأسمالية وهي مشكلة كانت تهدد بازمة كساد عالمي كبير وكان رد الفعل المضاد لذلك هو ان مراكز الرأسمالية العالمية قد حرصت على اعادة ضخ هذه المدخرات والفوائض للمناطق التي كانت تعاني في المقابل عجزا مناظرا اعني بذلك مجموعة دول العالم الثالث والى حد ما مجموعة الدول الاشتراكية سابقا وقد نجم عن ذلك ما يلي:"٧"

أولا ـ ان تصدير رأس المال الى هاتين المجموعيتين عبر شبكة مصارف دولية النشاط والقروض الحكومية والمتعددة الاطراف قد لعب دورا مهما في التخفيف من حدة الكساد التضخمي بمراكز المنظومة الرأسمالية في السبيعينيات ذلك ان تصدير هذه المدخرات وتلك الفوائض قد ارتبط فورا وبطريقة آلية بزيادة حجم التصدير السلعي من الدول المقرضة الى الدول المقترضة، وقد ساعد ذلك على تخفيف حدوث ارتفاع اكثر في مستوى البطالة بل وحتى في مستوى التضخم في بلاد المجموعة الاوروبية والامريكية، ويشير الى ذلك تقرير " فيلي برانت" حول حوار الشمال والجنوب برنامج من اجل البقاء. "٨"

ثانيا ـ ادى تصدير رأس المال الى مجموعة العالم الثالث عبر ازمة الديون الى احكام السيطرة الاقتصادية على هذه المجموعة من الدول والتي بدأت تظهر في عقد الثمانينات وهذه السيطرة افرزت في مرحلة تاليه نظاما صارما من الادارة المركزية الخارجية لا متصاصها عبر فخ عمليات اعادة جدولة الديون والضغط عليها من قبل عصابة النقد الدولي وفرض نمط ليبرالي مفرط في ادارة شؤونها الاقتصادية تمهيدا لاعادة احتوائها والسيطرة عليها مباشرة.

ثالثا ـ لقد ساهمت عملية تصدير جزء من المدخرات الى دول المنظومة الاشتراكية الى اختراقها أولا واحكام السيطرة عليها ثانيا بسبب العديد من المصاعب المالية والاقتصادية والتي نجمت عن هذا التصدير فقد اقترنت القروض التي حصلت عليها مجموعة هذه الدول بزيادة العلاقات التجارية مع دول الغرب الرأسمالي، وقد زادت هذه المصاعب كلما كانت المتغيرات الحاصلة في الاقتصاد العالمي اكثر عمقا، وفي العموم فانه في ظل آلآليات القديمة التي سار عليها الاقتصاد الاشتراكي فانه ثمة صعوبات واضحة ما لبثت ان عانت منها هذه الدول مع نمو هذه العلاقات وهي مصاعب ستتفاقم في عقد الثمانينات وستتفاعل مع امور اخرى لتعزز من ازمة الاقتصاد الاشتراكي وتمهد للقضاء على المنظومة الاشتراكية عندما تستثمرها قوة الثورة المضادة بالداخل والخارج وتنحصر هذه الصعوبات فيم يلي :

١ـ عجز واضح في الميزان التجاري
٢ـ تضخم وتردي اسعار الصرف
٣ـ اشاعة نمط استهلاكي ترفي
٤ـ نشؤ ازمة مديونية حادة في بعض الدول كبولندا سنة ١٩٨٢/١٩٨٣ "٩"

ومن هنا فان آلية تصدير رأس المال خلال حقبتي السبعينات والثمانينات من القرن الماضي قد انطوى على آثار لم تكن في حسبان دهاقنة مراكز الرأسمالية الليبرالية فعلى سبيل المثال في الوقت الذي ادى فيه التصدير للتخفيف عن حدة الكساد

التضخمي في مراكز تلك المنظومة الا انه خلق ازمة مديونية ضخمة غير قابلة للسداد وبخاصة بعد وصول تلك الازمة الى النقطة الحرجة لها وهي النقل العكسي للموارد التي يكون فيها البلد المدين مصدرا صافيا وليس مستوردا لرأس المال وهناك تصبح تنظيرات " باران وسوزي" بان تصدير رأس المال بدلا من ان يكون وسيلة لامتصاص الفائض المتزايد في مراكز المنظومة الرأسمالية أصبح وسيلة لزيادتها، ومن خلال النظر الى حركة الاقتصاد في دول العالم الثالث وخاصة بعد فشل حركات التحرر الوطني من تحقيق مشروع التنمية الشاملة خاصة وان هذه الانظمة السيلسية امتازت بالطبيعة البيروقراطية البورجوازية والتي تسببت في العجز المخزي في مواجهة هذه الازمة فان الرأسمالية بطبيعتها الضارية والمتوحشة تمكنت من احكام سيطرتها وحصارها لهذه الدول تمهيدا لاعادة تكيفها مع المنظومة الرأسماليةاالمتطرفة، ويشير بعض الخبراء في هذا الصدد ان في الوقت الذي كان من المؤمل منه ان تساهم هذه القروض الخارجية التي حصلت عليها حكومات معظم دول العالم الثالث وخاصة الاشتراكية الا ان النهج البيروقراطي الذي سارت عليه قد عمّق وازّم آلاثار السلبية لتلك القروض مع زيادة انفتاح مجموعة هذه الدول على المنظومة الرأسمالية العالمية لكن الذي استثمر هذا الموقف الدول الرأسمالية ومنظومتها العالمية وخاصة مع تفكك الاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية .

ثالثا ــ الفائض والدور المتزايد لقطاع الخدمات: يعتبر هذا العنصر من اهم عناصر امتصاص الفائض وهو التوسع في قطاع الخدمات، ويشهد هذا القطاع نموا هائلا وخاصة في الاقتصاديات الصناعية بل وقد احدث اثرا بالغا الى حد أصبح يلعب دورا حاسما في تحديد طريقة اداء النظام الرأسمالي في الضروف الراهنة بعبارة اخرى يمكن ان هذا القطاع أصبح يلعب دور المنشط الاساسي للطلب الكلي والمستوعب الرئيسي للفائض في تلك الاقتصاديات

لقد عرف الاقتصاديون الخدمة بانها ما ليست سلعة مادية وكان ينظر الى الخدمات ذات الطابع الشخصي وهي تتشكل من الخدمات الاجتماعية كالصحة والتعليم والامن والخدمات المالية والتجارية والتأمين والشحن والعقارات والانشاء، كما وفرّق المفكرين الاقتصاديين ما بين السلعة والخدمة فقد عرفوا الخدمة بانها ليست منتجا ماديا ملموسا وانها غير قابلة للتخزين وانها تستهلك جميع انتاجها وان الفرق ما بين السلعة والخدمة ينحصر في الفروق المادية القائمة بينهما، الا انه نتيجة التطور العلمي والتكنلوجي قد تغيرت هذه الفروق حيث أصبح بالامكان الحصول على الخدمة من خلال وسائل الاتصال الحديثة والتخزين المبرمج، وتدفق المعلومات والبيانات، وعلى ضؤ ذلك فقد اجمع المفكرون الاقتصاديون وخاصة بعد تعاظم اهمية الخدمات في الوقت الحاضر على وضع تعريف يتمتع بقبول شبه عام للخدمات هو النظر الى الخدمة ليست على اساس انهاسلعة وانما كنشاط منتج، وتحولت الخدمة الى مفهوم واسع وفضفاض فمثلا الاقتصادي " هيل" عرفها بانها فعل ينشاء عن نشاط انتاجي يفضي الى تبديل لحالة المستفيد او وضعه، وبالمجمل فما زال هناك اختلاف ما بين الاقتصاديين حول تصنيف انشطة الخدمات خاصة بعد اتساع وتنوع انشطتها، ولو رجعنا الى الادبيات الماركسية، وادبيات الاقتصاد الكلاسيكي السياسي لوجدنا هناك اختلافات حول مفهوم الخدمات فمثلا المفكر الاقتصادي ريكاردو وهو

من معسكر الكلاسيك وينتمي الى نظريات قصور الاستهلاك في تفسير الآزمات الاقتصادية، كما ان كارل ماركس عالج موضوع الخدمات باعتبارها متطلبات لتحقيق الخدمة او لتحولها من شكل الى آخر، ونظر اليها على انها جزء من نفقات التداول وخصما فائضا للقيمة، كما ان المدرسة النيوكلاسيكية والتي سنتحدث عنها في الصفحات القادمة كان لها موقف مناقض للكلاسيك والماركسية فقد حاولت وسعت للقضاء على تدمير نظرية العمل في القيمة من خلال ما سمي بنظرية الخدمات الانتاجية لا للعوامل الإنتاج، وظل موضوع الخدمان يعالج في الحسابات البرجوازية باعتبارها قطاعا منتجا يسهم في توليد الدخل الناتج سواء تلك الخدمات التي لها قيمة سوقية كخدمات المال والتجارة والنقد والبناء والسياحة، اما ما ليس لها قيمة سوقية كالخدمات الحكومية العامة حيث اعتبرت تكلفة انتاجها مناظرة لقيمتها .

ماهي الاسباب التي ساهمت في جعل قطاع الخدمات يشكل عصب النظام الرأسمالي؟

تشير المصادر المتخصصه في التاريخ الاقتصادي انه خلال الربع الاخير من القرن الماضي حدث تغير نوعي بعيد المدى في قطاع الخدمات في المنظومات الرأسمالية الصناعية، وهذا التغير تجاوز من حيث الكم والكيف كافة الأطر النظرية التي انبثقت عن الاقتصاد الرأسمالي الكلاسيكي والماركسي والنيوكلاسيكي، كما ان القفزات التي حققها هذا القطاع من خلال دوره في امتصاص الفائض، وهذا الدور تجاوز التوقعات، وخاصة لدى المفكرين الاقتصاديين " باران وسوزي" وخاصة في كتابيهما " رأس المال الاحتكاري" الذي نشر عام ١٩٦٨ وقد انصب تحليلهما على النشاط التسويقي من الاعلان والدعاية "١٠"، وعلى الخدمات الحكوميةالتي يعكسها الانفاق الحكومي يشمل مصفوفة طويلة وعريضة من الخدمات التي لم يتم حصرها حتى آلان بشكل مقنع، وهذا ما دعا الاقتصاديون للفصل ما بين السلع المادية والخدمية.

نعود الى السؤال الذي طرحناه في بداية حديثنا عن قطاع الخدمات متى أصبح قطاع الخدمات هو الابن المدلل للرأسمالية الصناعية ؟

البداية كانت في الخمسينات من القرن الماضي عندما رصد عدد من الباحثين الاقتصاديين ذلك التوسع الذي حدث في مجال العمالة المستخدمة حتى لوحظ انخفاض العمالة في قطاعات الصناعات التحويلية والزراعية، وفي حقبة السبعينات والثمانينات ازدادت معدلات البطالة وخاصة في المنظومة الرأسمالية الصناعية، كما وتم رصد انخفاض معدلات نمو الانتاجية، الا ان الباحثين لاحظوا ان قطاع الخدمات حقق انجازات كبيرة وتوسع على حساب باقي القطاعات، وزاد من دوره في خلق فرص جديدة بل واصبح هو الحضن الحقيقي للقوى العاملة، هذا وتشير الارقام انه في امريكا قفز نصيب العمالة المستخدمة في قطاع الخدمات من ٨و٧١% عام ١٩٧٣ الى ٩و ٧٦% عام ١٩٨٤، وفي اليابان كانت انسبة ٧و٥٧% الى ٦١% وفي فرنسا ٣و٦١% الى ٨و ٦٧% على التوالي "١١" .

نحن اذن ازاء مرحلة رأسمالية جديدة حدث فيها تغير بنيوي وهيكلي انتاجي عكس معه بالضرورة تقسيما جديدا للعمل الاجتماعي وسحب معه مشكلات جديدة لم تألفها الرأسمالية من قبل، والسؤال الذي يطرح نفسه مرة اخرى ماهي الاسباب التي ساهمت في هذا التغيرروجعلت هناك نموا مفرطا في هذا القطاع يصل الى المدى الذي أصبح هو الماصه الاساسية للفائض الاقتصادي، والى المدى الذي جعل الكثيرين يتحدثون عن التحول من اقتصاد يقوم اساسا على الإنتاج المادي الى اقتصاد يقوم على الخدمات؟

وتنحصر الاسباب التي تسببت في الانتقال من الاقتصاد المادي الى الخدمات على المحاور التالية :

أولا ـ الدخل : ان النمو المتسارع الذي حدث في قطاع الخدمات جاء كتطور طبيعي للنمو الذي حدث في الدخل القومي، وما واكبه من نمو في مستويات الدخل الفردي فالعلاقة ما بينهما وثيقة ما بين ارتفاع مستوى الدخل وزيادة الطلب على الخدمات خاصة وان نمو الخدمات في الاقتصاديات المتقدمة يعتمد اساسا على الزيادة في الاجور ويرتبط بهذا ايضا نمو الخدمات بالزيادة الانتاجية .

الثاني ـ التدخل الحكومي وتأثيره على النشاط الاقتصادي : عندما تم تطبيق الكنزية التي نادت بزيادة الانفاق الحكومي كعامل موازن للتقلبات في الطلب الكلي الفعال زاد الانفاق الموجه للخدمات الاجتماعية، وهي لمجالات التي خلقت الطلب على العاملين بالخدمات، وادت كذلك الى زيادة نصيب الخدمات العامه من الناتج الاجمالي وبهذا خلقت ما يسمى بمجتمع الرفاه .

ثالثا ـ الانفاق العسكري: الذي خلق طلبا كبيرا على الخدمات والوظائف كخدمات البحوث والتطوير والعلماء والمهندسين والاطباء والفنيين سواء الذين يعملون في وزارة الدفاع والمصانع الحربية المملوكة للدولة .

رابعا ـ التكامل في قطاع السلع الاستهلاكية : ان النمو والتنوع الذي حدث في قطاع السلع خلق بالتوازن نموا في الطلب على الخدمات الاستهلاكية كالسيارات واجهزة التكييف والتلفزيون، وخدمات الصيانة والاصلاح من ناحية اخرى وعلى الجانب الاخر هناك تكامل ما بين الخدمات الاستهلاكية نفسها والخدمات الفندقية والسياحية والترفيهية كخدمات السفر .

خامسا ـ الزيادة السكانية والتضخم السكاني في المدن : أي ان التركز السكاني في المدن خلق طلبا متوازيا على الخدمات كالكهرباء والمياه والصحة والمواصلات.

سادسا ـ اثبتت مدارس الادارة الحديثة ان هناك اتجاه جديد ظهر لتصنيع الخدمات لحساب المؤسسات الصناعية والتجارية من خلال تركز كثير من الوظائف والخدمات التي كانت تضطلع بها هذه المؤسسات وعلى سبيل المثال كشركات البحوث والتطوير والعلاقات العامه والاعلان والتسويق والمحاسبة والاستشارات القانونية والاعلامية حيث اصبحت هذه الوظائف تحقق ارباحا ووفورات كبيرة .

سابعا- تعاظم حركة التدويل واشتداد المنافسة على الصعيد العالمي بين كبريات الشركات العابرة للقارات قد ادى الى نمو اهمية قطاع تكنولوجيا المعلومات والاتصالات والتمويل والنقل والابحاث والاعلان .

ثامنا - ارتفاع الاجور: لقد ساهم ارتفاع الاجور في احلال كثير من الفنون التكنولوجية الحديثة داخل الشركات والمصانع الضخمة حيث ادى ادخال تلك الفنون الى خفض كبير في مخصصات الاجور الذي كان يذهب للعمال من ذوي الياقات الزرقاء والموظفين الاداريين والمهنيين .

تاسعا- ارتفاع الربح الذي كان نتيجة للتوسع في الخدمات حيث جذب المستثمرين لديه وخاصة في ضؤ التراجع في الصناعات التحويلية "١٢"

هوامش الفصل الرابع / الباب الأول

١ـ الليبرالية المتوحشة، د. رمزي زكي، ص ٥٧
٢ـ مرجع سابق ص ٥٧ـ ٦٠
٣ـ مرجع سابق، ص ٦٠
٤ـ مرجع سابق، ص٦٢
٥ مرجع سابق، ص ٦٤
٦ـ مرجع سابق، ص ٦٩ـ ٧٠
٧ـ مرجع سابق، ص ٧١
٨ـ مرجع سابق، ص ٧١
٩ـ مرجع سابق، ص٧٣
١٠ـ مصدرسابق، ص ٧٦
١١ـ لمزيد من الاطلاع انظر مرجع سابق، ص ٧٦ـ ٧٧
١٢ـ لمزيد من الاطلاع انظر الليبرالية المتوحشة، د. رمزي زكي، ص ٨٢ـ ٨٦

الباب الثاني : الليبرالية الجديدة او النيوكلاسيكية

الفصل الأول : المشهد الاقتصادي الدولي بعد ازمة الكساد الكبير ١٩٢٩ـ ١٩٣٣

جاءت ازمة الكساد العالمي الكبير بسسبب تناقضات الرأسمالية وبذلك بدأت مؤشرات انحطاطها، وفي هذا المجال ظهرت أفكار الاقتصادي الانكليزي جون ماير كينيز الذي حلل اسباب الكساد الى ترك القطاع الخاص يعمل لوحده من دون تدخل الدولة التي تعمل على ضبط التوازن الاقتصادي، وقد هاجم نظرية اقتصاد السوق التي تقول ان الاسواق الحرة تقود دائما الى الرخاء والتوظف الكامل مستفيدا في نقده وفي صياغة نظريته لحماية النظام الرأسمالي في آن واحد فكان كتابه النظرية العامه للتشغيل والفائدة والمال معبرا فيه عن مذهب تدخل الدولة وذللك من خلال زيادة الانفاق العام في الموازنة العامة، وقد اكد كينز انه لا بد للدولة من خلال سياسات النفقات العامة وسياسة الايرادات العامه ان تتدخل لتصحيح الخلل الاقتصادي الذي اوجدته قوى العرض والطلب وذلك لما منشأنه ان يضمن مستوى معينا من التشغيل للقوى العاملة ومستعينا من الطلب الفعّال الذي يلطف من معقول آزمات فيض الإنتاج ويخلق حافزا لتنشيط الاستثمار عبر زيادة الطلب بتوسيع الانفاق .

هذا فقد حضيت نظرية كينز باهتمام الاقتصاد الرأسمالي لسنوات طويلة من ١٩٣٠ ـ ١٩٨٠، ومع ذلك لم تفلح هذه النظرية في تجنيب العالم أزمة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ عندما اصرت دول المحور النازي والفاشي على اعادة انقسام مناطق النفوذ السياسي في العالم لنيل حصتها العادلة من مغانم النهب الاستعماري التي كانت الديمقراطيات الغربية تنفرد بحصة الاسد، وادى هذا التوحش الى احتدام الصراع وتعرض العالم ببركة النظام الرأسمالي للحرب العالمية الثانية، والتي كانت اكثر تدميرا من الحرب العالمية الأولى اضعاف مضاعفة فقد تحوات مدن ودول بكاملها الى ركام ناهيك عن حصاد الملايين من ارواح البشر وتدمير نتاج وجهد وعمل اجيال بكاملها من البشر وعلى ضؤ هذا الدمار الهائل والكبير في اعادة الهيكلة الذاتية للنظام الرأسمالي فيما بعد، وكأنه الشرط والقاعدة والمناخ المواتي للتوسع الذاتي للرأسمال الاحتكاري وخروجه من ازمته الطاحنة والانطلاق في موجة جديدة من التراكم والنمو طويلة آلامد تمحورت فيه الرأسمالية الصناعية الى ثلاث مراكز عالمية سبق وان اشرنا اليها في محيط هائج بالتذمر وهي:

أولا ـ الولايات المتحدة الامريكية: تشير المصادر التاريخية الى ان الولايات المتحدة الامريكية هي الرابح الكبير والوحيد في الحرب العالمية الثانية حيث جاءت خسائرها المادية والبشرية محدودة للغاية مقارنة مع دول الحلفاء والمحور التي خاضت الحرب حيث ان مشاركتها في الحرب كانت فقط في الربع ساعة الاخيرة انطلاقا من فلسفتها الامبريالية والتي انطلقت من نظرية القراصنة الجدد، اضافة الى انها القاعدة الخلفية لامداد قوات الحلفاء بالعتاد والسلاح والمواد الغذائية والاستهلاكية

كما انها احتكرت السوق العالمية خلال الحرب وهو ما ساهم في نمو الاقتصاد الرأسمالي الصناعي والذي حقق نموا هائلا في اقتصادياتها بلغ ذرى شاهقة بفعل الارباح الخارقة غير ان الانتهاء من الحرب بعد ذلك ادى الى هبوط حاد في معدلات الارباح وحدوث تفاقم مفاجيء في فيض تراكم رأس المال نجم عنه تدهور حاد في حجم الناتج القومي الامريكي، الأمر الذي دفع رأس المال الامريكي للبحث عن منافذ لمعالجة فيض التراكم بعد الحرب وقد اتفق ذلك مع الدوافع الاستراتيجية الامريكية في صد أي توسع سوفياتي ووضع حد للطموحات السوفياتية والاهم من ذلك وضع حد للتمدد الشيوعي فجاءت مبادرات مارشال ١٩٤٧ حيث انفقت الولايات المتحدة ٦٠ مليار على اعمار اوروبا بعد الحرب العالمية الثانية من منطلق ان القيم الثقافية والدينية الحضارية الاوروبية متقاربة مع القيم الامريكية والتي من شأنها تترجم الى علاقات اقتصادية وثقافية واقامة احلاف عسكرية كما ان هذه السياسة تم تطبيقها ثانيا على اليابان كما وتم توجيه رأس المال الامريكي الى امريكا اللاتينية، ويأتي هذا الكرم الامريكي ليس حبا باوروبا او اليابان بل احكام سيطرة النظام الرأسمالي الامريكي على اقتصاديات العالم، واهم من ذلك تكريس السيادة الامريكية لقيادة العالم الغربي المتحضر على العالم الآخر المتوحش والاهم من ذلك تأمين المصالح والاسواق الامريكية وميادين الاستثمار المفتوحة امام رأس المال الامريكي، وفي هذا الصدد امكن الولايات المتحدة تحقيق ذلك من خلال ما يلي:

١ـ الغاء كل القيود التي تؤثر على حركة رأس المال الامريكي على الصعيد الدولي .

٢ـ التغلب على كافة الحواجز التي تغلق الاسواق امام الصادرات الامريكية .

٣ـ امكانية التحكم بالسيولة الدولية .

٤ـ امكانية تحويل العجز الخارجي للولايات المتحدة من خلال طبع الدولار دون ان تضطر الى اتباع سياسات انكماشية تضر بستويات الاستهلاك والاستثمار في الاقتصاد الامريكي .

وفي هذا الصدد فقد عمدت الولايات المتحدة الى اعادة صياغة نظام النقد الدولي على اساس اتفاقيات "بريتون وودز" عام ١٩٤٥ والتي اعتبرت الدولار الامريكي بموجبها المرجع في التعاملات الدولية وهو ايضا العملة الاحتياطية الدولية الرئيسية، هذا ويشير الخبراء الاقتصاديين الى ان العامل الكبير الذي مكن الولايات من ارساء قواعد هذا النظام بما تملكه الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ٧٥% من احتياطات الذهب في العالم، وكذلك سيطرتها على مؤسسات اقتصادية رأسمالية اخرى على نطاق عالمي كالاتفقيات التجارية الثنائية والمتعددة الاطراف وعلى رأسها اتفاقية الجات.

لم تتمكن امريكا ما بعد الحرب من تحقيق نفوذها الاقتصادي بسبب وجود المنظومة الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي من منطلق انه لابد من فتح كل الاسواق امام الاقتصاد الرأسمالي الامريكي سواء بالوسائل القانونية او العسكرية، وقد تم للولايات المتحدة هذا الحلم بسقوط الاتحاد السوفياتي، هذا وان السقوط المدوي للاشتراكية السوفياتية جاء بسبب الاستراتيجيات والخطط الجهنمية التي وضعتها

الولايات المتحدة من اجل صياغة نظام استراتيجي جديد يوحد العالم الرأسمالي تحت قيادتها فكان تأسيس حلف شمال الاطلسي عام ١٩٤٩، وقامت امريكا امتدادا له سلسلة من الاحلاف العسكرية الاقليمية والمعاهدات الثنائية وانشئت شبكة من القواعد العسكرية الامريكية في عدد من الدول بهدف حماية رأس المال الامريكي وبلدان الدول الرأسمالية من جهة وتطويق التوسع السوفياتي من جهة اخرى وذلك من خلال ادخاله في الحرب الباردة لانهاك قواه فسياسة التسلح التقليدي والنووي، والتي تطورت الى استنزاف الكثير من الموارد المالية في حرب النجوم كما ودخلت معه من خلال شن حروب تدخل اقليمية مثل حرب كوريا وفيتنام وافغانستان، وقد هيأت هذه الاستراتيجية والمتمثلة في الحروب الاقليمية وسباق التسلح وكلفة القواعد العسكرية الامريكية في الخارج في حدوث النمو المضطرد والاحتكارات التي ينفذها المجمع الصناعي العسكري الذي بات يحتل اهمية حاسمة في مجمل الناتج القومي الامريكي، وقد حققت امريكا بطريقتها الخاصة الزعامة للعالم الرأسمالي خلال تلك الفترة فقد مكنت قيادتها من تحقيق تسارع في عملية التجدد والتوسع الرأسمالي في اوروبا الغربية واليابان ما امكن للرأسمالية العالمية ان تشهد موجة الرواج والتجدد التي امتددت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وخاصة الاقتصاديات الاوروبية التي بدأت في النمو من جديد .

هذا وفي ضوء ذلك فقد حققت الرأسمالية الصناعية خلال الفترة الممتدة من ١٩٤٥ــ ١٩٧٠ نموا لامعا ومزدهرا إذ حققت الرأسمالية الصناعية معدلات نمو اقتصادية مرتفعة وصلت الى ٤% في ظل استقرار واضح، وانخفاض ملموس في معدلات البطالة بحدود تتراوح ما بين ٢ـ٣ % كما وزادت مستويات الاجور الحقيقية للعمل والطبقة الوسطى كما وزادت الضمانات الاجتماعية الموجهة ضد مخاطر البطالة والمرض والشيخوخة، وهنا اطلق البرجوازيون الاقتصاديون مصطلح " دولة الرفاه" التي تكفلت بها الحكومات بمهمة تحسين مستوى المعيشة والعمل على زيادته بشكل مستمر كما ان التجارة العالمية شهدت نموا كبيرا واستقرار نسبي واضح لاسعار الصرف، وقد اعتقد البعض ان عصر اللآزمات قد ولى وان المخاطر التي تهدد النظام الرأسمالي قد دخلت في ذمة التاريخ "١"

ومن هنا كان من المتوقع ظهور واشتداد الازمة المالية العالمية ان تمتد الى تلك الدول التي اندمجت اكثر بالسوق الرأسمالية غير ان هذا ما كان ليتحقق لولا وجود الضروف المواتية في هذه الدول، ويؤيد هذا التحليل ما ذهب إليه " يوجين فارغا"، ولكن عموما فان ازمة الافراط في الإنتاج لايمكن ان تشمل دولا جديدة الا اذا اينعت فيها تقريبا الاسباب الداخلية للازمة أي ان الازمة الاقتصادية تحدث في الدول التي تتوفر فيها الاسباب الداخلية المؤدية اليها .

كل هذه العوامل اسهمت مجتمعة في جعل دول المراكز الرأسمالية تشهد في عقد السبيعينات ومطلع الثمانينات حالة من التدهور الاقتصادي بدأت بأزمة النقد الدولية الى ازمة الطاقة والمواد الخام وذلك في الاعوام ١٩٧٠/ ١٩٧٥، ١٩٨٢/١٩٨٠، والتي برزت فيها حدة الازمة وعنفها التدميري وشمولها بلدان العالم الرأسمالي في آن واحد ترتب عليها حدوث تشابك بين الآزمة الدورية والآزمات الهيكلية والبنيوية الشاملة وبروز ظاهرة التزامن ما بين الركود والتضخم

و اما ما سمي بظاهرة التضخم الركودي او الركود التضخمي وذلك كان ١٩٧١ عندما اعلن الرئيس الامريكي ريتشارد نيكسون نهاية قابلية تحويل الدولار الى ذهب، وكان اعلانه هذا يعني انهيار نظام بريتون وودز، وقد اثر هذا الانخفاض على قيمة الدولار بنسبة ٨٠% على اثر هذا الاعلان وتقرر بمقتضى اعلان جتميكا في عام ١٩٧٦ التخلي نهائيا عن نظام المبادلات الثابته والاعتماد على نظام التعويم، وبدأت العملات تقوّم حسب تيارات تنقلات رؤوس الاموال الصاخبة بقدر او بآخر.

وهنا يجب ان نعيد الى الاذهان انه بعد الحرب العالمية الثانية ولغاية حقبة السبعينات فقد حققت الرأسمالية الصناعية الليبرالية انجازات تاريخية ليس بطبيعتها ولكن بسبب انتهاج النظرية الكينزية حيث تمكنت باقناع دهاقنة وكهنة الليبرالية بانتهاج هذه النظرية والعودة الى مساندة الدولة والتخلي عن فكرة اقصاء واخصاء وتعقيم الدولة، واخيرا وفي نهاية المطاف اعتقد الاقتصاديون الرأسماليون ان سبب الاستقرار الاقتصادي والنقدي وازدياد معدل النمو يعود الى انتهاج السياسات الاقتصادية الكنزية من خلال التدخل الحكومي في شؤون النشاط الاقتصادي فقد اعتقد هؤلأ الاقتصاديون ان هذا التدخل قد امن النظام الاقتصادي الرأسمالي من مخاطر التقلبات الفجائية التي تطرأ على حجم الطلب الكلي الفعّال وقد حققت ما يلي:

١- التخفيف من حدة الآزمات الدورية

٢- ارتفاع واضح في حجم الاجور التي امدت السوق المحلي حجم وافر من الطلب الاستهلاكي

٣- ازاح عن الطبقة الرأسمالية عبىء الصناعات الهامة التي تلزم لدوران عجلة الإنتاج لكنها غير مربحة من وجهة رأس المال

٤- تفرغ المستثمرون لمجالات اخرى اكثر اهمية

٥- كما ان ارتفاع مستوى المعيشة الناجم عن زيادة الاجور وتوافر الضمانات الاجتماعية وزيادة الخدمات الحكومية قد امّن الرأسمالية ضد مخاطر الاضطرابات الاجتماعية واضعف من قوة الحركة النقابية .

لكن بالمقابل ظهر تيار اقتصادي آخر كشف الى ان التوازنات التي مرت بها الرأسمالية والازدهار الاقتصادي الذي نعم به الاقتصاد الرأسمالي ليس بسبب انتهاج النظرية الكنيزية وعلى رأس هؤلأ الاقتصاديين " جون هيكس"ففي كتابه " ازمة اقتصاديات الكنزية" الصادر سنة ١٩٧٤ آثار جملة من التساؤلات، وعلى رأسها ما اذا كان الانتعاش الاقتصادي لعالم مابعد الحرب وعالم دولة الرفاه ؟ يعود ذلك الى السياسات الكنزية معترفا بان هذا الانتعاش كان سيحدث حتى دون نظرية كينيز ويتفق مع هذا الرأي المفكر الاقتصادي المصري رمزي زكي قائلا" ان هيكس كان محقا الى حد كبير في اجابته على هذا التساؤل لكنه لم يقلل من الآثار الايجابية التي تحققت للاقتصاديات الرأسمالية التي طبقت الكنزية قائلا" صحيح ان الانتعاش الذي حققته الرأسمالية في عالم ما بعد الحرب قد تعاصر مع التطبيق الكينزي الا انه من غير الصحيح ان نزوع اسباب انتعاش الرأسمالية في تلك الحقبة الى السياسات

الكنزية فحسب بل هناك مجموعة من العوامل الموضوعية التي ساهمت في بروز الانتعاش الاقتصادي وتنحصر في المحاور التالية:

١ـ الزيادة الضخمة في الطلب الاستهلاكي والاستثماري بسبب عمليات التعمير لما بعد الحرب .

٢ـ بقاء نمط تقسيم العمل الدولي لصالح البلاد الرأسمالية الصناعية .

٣ـ التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل الذي حدث في طرائق الإنتاج .

٤ـ حصول البلاد الرأسمالية الصناعية على بدائل الطاقة " النفط" وكثير من المواد الخام من الدول النامية باسعار بخسة للغاية .

٥ـ ازدهار حركة التجارة الدولية واستقرار اسعار الصرف نظام " بريتون وودز".

ومن هنا فان المؤشرات الاقتصادية اثبتت ان اقتصاديات الرأسمالية الصناعية عند مشارف القرن السابق باتت تضطرب سواء على المستوى المحلي او الدولي اي ان الانتعاش الاقتصادي بداء يشهد افله.

فعلى المستوى المحلي تشير الارقام الى ان معدلات النمو الاقتصادي بدأت تتراجع، وكذلك ارتفعت معدلات البطالة والطاقات العاطلة كما ان معدلات التضخم قفزت الى الاعلى وتفاقم العجز في الموازنة العامة والدين المحلي وانخفضت معدلات نمو الإنتاجية، ما وضعت معدلات تراكم رأس المال .

اما على المستوى العلمي فقد انهار نظام النقد الدولي عام١٩٧١ وذلك خلال اعلان الولايات المتحدة انهاء الارتباط ما بين الذهب والدولار، وتقويم اسعار الصرف وتفاقم علاقات العجز والفائض سواء ما بين دول مراكز المنظومة الرأسمالية نفسها او بين تلك المراكز ودول العالم الثالث .

انهيار نظام بريتون وودز : لقد تحولت العملة لأي سلعة من السلع وفقا للصيغة الشهيرة التي وضعها ميلتون فرديمان الآنف الذكر، ولم تعد العملة معيارا ثابتا فقد تحولت الى رصيد كأي سلعة اخرى يتم تبادلها مثلها مثل القمح وامعادن، والأبقار.

الامر الذي تسبب في موجة من الابتكارات المادية وساعد على ذلك على ما ساد العالم من اضطرابات منذ ١٩٧٢ من صدمات النفط وصدمات الدولار واختلالات الموازنين التجارية وقد تمثل ذلك في تذبذبات مذهلة ومنبثقة للغاية شملت المتغيرات المادية الرئيسة من معدلات الفائدة وتبادل الحملات واسعار الاسهم والسندات في البورصة، وحاول المتضاربون ان يحملوا انفسهم، مما اسهم ذلك في انتشار الآجل والاختيارية وتكونت بفعل التغيرات المادية اليومية كتل مادية هائلة تدور الكرة الارضيةبخصوص منتجات غير مادية بالكامل ومفترض فيها ان تفضي الى منجزات لم يعد احد يدركها وان كان على الكل ان يتحملها .

هذا وقد اظهرت الاسواق العالمية تشكيلة جديدة وكبيرة من المنتجات كاذونات الاكتتاب واستبدال للاختيارات، وانتشرت منتجات تحمل اسماء عدة مثل "، هذا وقد

ايدت الابتكارات المالية تعززها الوسائل التكنولوجية والقانونية الى خلق الشمولية المالية والتي تمكنت ان تحرر العملة من صرامة المعاملات المصرفية وتفضيل نزوات البورصة وبصفة عامه تعزز التدويل الدولي بقدر عظيم اعتمادا على مفاهيم وتقنيات انجلو سكسونية، فقد باتت رؤوس الاموال الدولية تمثل كما هائلا في حركة متواصلة في انحاء العلم اجمع، وفي اسواق الصرافة حيث بلغ حجمها ٩٠٠مليار دولار كما وعبرت رؤوس الاموال الحدود والمحيطات والصحارى في ثوان، وتستثمر في آن واحد في كافة الاسواق في العالم بلا هوادة وعندما تغلق بورصة طوكيو على سبيل المثال في غضون ساعات تنتقل الحركة الى لندن التي تفتح ابوابها، ومن بعدها نيويورك لتعود من جديد الى طوكيو في غضون ساعات، ويتعين على الوسطاء الماليين ومنهم البنوك بالاخص ان يفتحوا شبكات لهم تغطي الاقطاب المالية الثلاثة امريكا، اليابان، اوروبا، واضحى النموذج الجديد الامريكي على النحو الذي لخصه عالم الاجتماع " جان بادلو" المضارب يتغلب على صاحب المشروع الصناعي والارباح السهلة في المدى القصير تقوض ثروات الاستثمار الجماعي الطويل الآجل .

هذا وقد انتشر الغاء القيود تحت تأثير الولايات المتحدة وبريطانيا وخفضت الاسواق المالية المختلفة من قيودها، وازالت الحواجز وحطمت المتاريس حتى تظل مشاركة في السباق، وهكذا لم تعد الشمولية المالية تقنع بالاطار القومي الضيق للغاية وهي في الوقت ذاته تنهج منطق السوق الصارم فهي بلا حدود ولا ضابط او رابط ومصحوبة بفيض من الابتكارات، وكذلك بمخاطر الانهيار والعمليات المريبة "٣" .

لقد اشرنا في الصفحات السابقة انه تم امتصاص الآزمة العامة للرأسمالية التي حدثت للعالم بسبب الحرب العالمية الاولى ولفترة طويلة من الزمن بفضل موجة التوسع الكبير الذي جرى بعد الحرب العالمية الثانية، واشرنا الى ان الاسباب العامة جاءت بسبب تناقضات الرأسمالية في مرحلتها الامبريالية والتي تفاقمت اساسا لان الاندفاع والحاجة الى انتشار القوى الانتاجية، وما يتبعها من تنمية اقتصادية واجتماعية وسياسية للانسانية جمعاء لم تكن منسجمة مع الحدود الضيقة التي تفرض عليها العلاقات الرأسمالية للانتاج وفق الطريقة التنظيمية للنظام الرأسمالي، ولقد ضاعفت الامبريالية هذا التناقض لانه في الوقت الذي سمحت فيه بالانتشار الكبير للعملية الانتاجية على الصعيد العالمي على اساس ما توصلت إليه من توحيد للاقتصاد العالمي الرأسمالي في اقتصاد واحد نجد انها تعمل على احتكار الملكية وجعلها في ايدي حفنة من اصحاب المال في الدول الرئيسة وخاصة امريكا.

وهنا لابد ان نشير انه بعد الحرب العالمية الثانية وبعد وضع اسس النظام الاقتصادي الدولي في عام ١٩٤٤ فقد اعطى هذا النظام الروح للاقتصاد الرأسمالي واستمر حتى ١٩٧٠ وخلال هذه المدة عادت الآزمة بالظهور وذلك بفضل ادوات التنظيم الدولي التي اوجدها هذا النظام، واذا كانت اركان الرأسمالية العالمية قد اهتزت مع بداية ظهور الآزمة العامة فان الأزمة الحالية تكشف عن عجز الترتيبات التي تم اتخاذها لغرض معالجتها بعد الحرب، وبهذا تكون الآزمة قد ظهرت من جديد.

ان الآزمة الاقتصادية من وجهة نظر الماركسية من خلال ما سبق كشفت لنا عجز الترتيبات التي تم اتخاذها بعد الحرب هو اننا نعيش في الواقع عجز النظام الاقتصادي الدولي الذي تم اقراره بعد الحرب العالمية الثانية لأن العالم انقسم بعد الحرب الى قطبين ونظامين اقتصاديين متناقضين احدهما امبريالي متوحش والثاني اشتراكي .

لقد اهتم النظام الرأسمالي باعادة تنظيم نفسه قبل ان تضع الحرب اوزارها بفترة عندما بادر قادته للاجتماع عام ١٩٤٤ في برايتون وودز والتوقيع على عدد من الاتفاقيات مثل اتفاقية تحديد اسعار الدولار الامريكي كعملة نموذجية دولية، واتفاقية البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، واتفاقية الاستثمارات لاعادة اعمار اوروبا " خطة مارشال" وهذه الاتفاقيات هي التي رسمت هيمنة امريكا في المعسكر الرأسمالي ونتيجة لهذا الوضع ظهر نمط اقتصادي جديد هو التعاون المتعدد الجنسيات والذي أصبح فيما بعد نقطة الانطلاق للتوسع الامبريالي.

وتبعا لذلك أصبح الهدف الرئيسي لسياسة الحكومة الامريكية على الصعيد الدولي حماية المصالح الاقتصادية لمؤسساتها في جميع انحأ العالم، والواقع ان امريكا بالرغم من متابعتها لحركة رؤوس الاموال في العالم فانها منحت الصفة الدولية لهذه الحركة ليس بمعنى التعبير عن المصالح الدولية وانما بمعنى الدفاع عن مصالحها الفردية والخاصة الى بقية انحاء العالم وهي بهذا الدور تعمل ليس لرسم سياسة شاملة لمجموع النظام الرأسمالي وانما للعمل بدقة عن طريق استخدام عملائها للدفاع عن المصالح الامريكية حينما وجدت ازاء هذا الوضع من خلال اخفاء النزعات العلنية او الدفينة بين مختلف دوائر التأثير خاصة بين امريكا واوروبا واليابان امرا حاسما من اجل تحقيق فرض الهيمنة الامريكية على المعسكر الرأسمالي وقبول الدول الاخرى بالهيمنة العالمية المطلقة التي تمارسها امريكا ولفرض تنفيذ هذه السياسة اطلقت امريكا في نهاية الاربعينات ما يسمى بمبداء الامن القومي الامريكي الذي تجسد في سياسات الحرب الباردة ومناهضة التمرد، وانطلق هذا المبداء من ان العالم منقسم الى قسمين او كتلتين، الكتلة الاشتراكية بقيادة الاتحاد السوفياتي، والكتلة الغربية المسيحية بقيادة امريكا، وشكّل النزاع ما بين هاتين الكتلتين تناقضا فريدا مطلقا بينهما مما دفع الكتلة الغربية المسيحية لأن تتحد وتمنع الشيوعية من الانفراد بالعالم، وبما ان امريكا كانت هي الدولة الاقوى فقد انيطت بها مهمة حماية امن الحدود الغربية، ولذلك فقد نشطت الدعاية الايدولوجية وهي من أهم وسائل الحرب الباردة بالرغم من اعتماد هذه الحرب على الاسلحة النووية الفتاكة الأمر الذي جعل الدول الرأسمالية تستفيد من قوة الرخاء الاقتصادي الطويل التي دامت اكثر من عقدين من السنوات .

ان هذا الهجوم الاستراتيجي الأمريكي والحلف الغربي وخاصة بعد انضمام أمريكا إلى حلف شمال الأطلسي اثّر كثيرا على المعسكر الاشتراكي لأن هذا المعسكر كان فتيا في مراحل تكوينه الأول حيث نالت منه الامبريالية، وقد ظهر هذا النيل او الشرخ عندما قرر المارشال تيتو الانضمام الى الكتلة الشرقية وذلك من خلال السير على النهج الذاتي ومحاولة البحث عن طريق ثالث وهدفه حتى يهدئ من الغضب الامبريالي، ولكن الانعطاف جاء في الخمسينات حيث ضعف الاتحاد

السوفيتي بعد موت ستالين الذي وضع أسس الدولـة الاشتراكية وبسبب الجهد الهائل الذي بذل في إعادة الأعمار بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية والتي قضت على اكثر من ٢٠ مليون سوفياتي ودمرت نصف اقتصادياتهم عند ذلك بداء قادة الاتحاد السوفيتي بقياد " نيليتا خرشوف" بالتراجع الاستراتيجي الذي ساهم فيما بعد بتفكيك الاتحاد السوفيتي وان السبب في ذلك يعود الى التحولات الاقتصادية التي جرت في نهاية الخمسينات ومنتصف العقود التي تلاها، والتي ادت الى هيكلة الاقتصاد السوفيتي من خلال إلية إحياء السوق وتقليص دور التخطيط أي تخطيط الافراد بشأن استخدام القدرات الاقتصادية .

ومن هنا فقد بدأت ملامح الأزمة الاقتصادية الأمريكية في العقد السابع من القرن الماضي وهي المرحلة التي وصلت عندها الانتقادات الحادة تجاه تطبيق النظرية الكنزية والعودة إلى آراء آدم سميث ورفاقه، هذا وقد بدأت ملامح الأزمة الاقتصادية الأمريكية في عهد الرئيس ريتشارد نيكسون وهي أول أزمة اقتصادية تفجرت في الولايات المتحدة وهي كما اشرنا مركز مراكز الرأسمالية الليبرالية وهي صاحبة اكبر وأقوى اقتصاد في العالم عندما قرر نيكسون إلغاء معادلة الدولار والتحويل الحر له في اكبر عملية نصّب على مّر الأزمات مما ساعد على إن تطفو هذه الأزمة على السطح بحيث أخذت تلتهم وبصمت أوصال الاقتصاد الأمريكي، وخلال الفترة الممتدة من ١٩٧٤ـ ١٩٧٥ أصابت هذه الأزمة اقتصاديات الدول النامية فحدث فيها كسادا عاما مما أدت في العقد الثامن من القرن الماضي إلى الركود في اقتصاديات دول العالم الثالث ومن ثم غزت في التسعينات خلال تلك المرحلة الدول الاشتراكية ومع ذلك ظلت الأزمة تراوح مكانها ما بين المد والجزر مع إعطائها فرصة للتحسن في عهد ريغان ولكن من خلال انتقالها من مرحلة الثمانينات إلى التسعينات وصلت هذه الأزمة إلى السواء حالاتها واستمرت إلى الوقت الحاضر "٢" هذا وسنفرد في الصفحات القادمة فصلا كاملا عن باب أزمة الاقتصاد الأمريكي قبل وبعد تطبيق النهج الليبرالي الجديد والى يومنا هذا، ومن هنا يمكننا القول إن الاقتصاد العالمي امتاز خلال مرحلة التسعينات ميلا شديدا نحو الركود الاقتصادي فبعد إن كانت حصة الفرد من الناتج القومي الإجمالي تزداد بنسبة ٦و٣% سنويا للفترة من ١٩٦٥ـ١٩٧٣ حسب تقرير البنك الدولي تميل نحو الانخفاض إلى إن وصلت إلى ٤و٢% طوال فترة السبعينات وأصبحت تعادل ٢,٢% في فترة الثمانينات .

وفي الدول النامية فان معدل النمو في حصة الفرد قد انخفض من ٩و٣% في الفترة الأولى إلى ٢و٣% في الفترة الثانية بحيث انخفض أخيرا إلى ٢و١% في فترة الثمانينات، وبعد ان كان معدل النمو في حصة الفرد من الناتج القومي لبلدان اوروبا الشرقية يحقق ارتفاعا بلغ ٤و٤% في فترة السبعينات انحدر ليصل الى السواء حالاته في هذا العقد إذ بلغ ١%"٣"، ومن ناحية أخرى فان النمو الاقتصادي المتأثر بالكساد الذي حصل عام ١٩٧٤ـ ١٩٧٥، ١٩٨٠ـ ١٩٨٣ عندما تفجر كساد اقتصادي جديد وشامل إثناء الانتقال من عقد الثمانينات الى التسعينات فبعد ان كان حصة الفرد من الناتج العلمي تنمو بمقدار ٧و٢% في عام ١٩٨٨ لم تنم الا بمقدار ٣و. % فقط في عام ١٩٩٠ و٢% في عام ١٩٩١، إما الإنتاج الكلي فقد ازداد بنسبة ٠، ٣% في

عام ١٩٩١ وهذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها هبوط من هذا النوع في الإنتاجية العالمي منذ الحرب العالمية الثانية.

وقبل ذلك ففي الستينيات تغير هذا الواقع عندما انتقلت الريادة التكنولوجية الى اليابان وألمانيا فقد انعكس هذا على إنتاجية العمل إذ بلغت نسبة الزيادة فيها للفترة ١٩٦٠- ١٩٦٧ حوالي ٢٨٩% في اليابان و١٤٥% في ألمانيا بينما كانت الزيادة في هذه النسبة لا تشكل ٥٧% في أمريكا، وهكذا استطاع هذان البلدان ان يحققا في كثير من الفروع وخاصة في مجال التكنولوجيا الدقيقة إنتاجية أعلى من أمريكا وتمكنا من بيع منتجاتهما في السوق الدولية بأسعار منخفضة، وهذا هو السبب في اختفاء الفوائض التجارية الأمريكية التي كانت ضرورية جدا في اجتذاب الذهب والسندات التجارية التحويلية من الدول الأخرى، إما الفوائض التجارية المستمرة " ألمانيا،اليابان" فقد كانت السبب في انتقال الاحتياطات النقدية الدولية والذهب من الدول الأخرى إليها، وهكذا تقلصت نسبة مساهمة أمريكا في الإجمالي العالمي من الاحتياط النقدي من ٤٣% عام ١٩٥٣ الى ٣و٨% عام ١٩٧٠ بينما ازدادت هذه النسبة فيما يتعلق بالمجموعة الاقتصادية الاوروبية التي تقودها ألمانيا من ٥و١١ % الى ٣٧% وكذلك ازداد نسبة مساهمة اليابان من - ٥و١% الى ٢و١١% لأنه بدون توفر هذا الاحتياطي من النقد الأجنبي لا يمكن المحافظة على معادلة الدولار، لقد سبق النمو المنتظم في إنتاجية العمل على نسف القاعدة الأساسية للنظام النقدي للرأسمالية المتمثلة بالدولار كعملة نقدية عالمية من جذورها هذه القاعدة سبق للرأسمالية ان حققت بموجبها التنظيم الاقتصادي في المحيط الدولي .

هوامش الفصل الأول الباب الثاني

١ـ الفكر السياسي، ص، ١٨٠٢ ـ ١٨١١

٢ــ انهيـار الليبراليـة الجديـدة، د. نيلسـون اروو جـودي روزا، ترجمـة جعفـر السوداني، ص ٣٦ـ ٣٧

٣ـ مرجع سابق، ص ٣٧.

الفصل الثاني |الباب الثاني الليبرالية الجديدة

مفهومها: قبل الدخول في تناول مفهوم الليبرالية الجديدة وناشأتها لا بد من طرق النظرية الاقتصادية النيولبرالية، وقد سبق لنا في الصفحات السابقة إن تناولنا ابرز النظريات الاقتصادية واجلنا الحديث عن الليبرالية الجديدة أو النيوكلاسيك لكي ندخل القارئ إلى عقيدة الليبرالية الجديدة حتى يعرف أركان هذه العقيدة ومبادئها.

نشأة الليبرالية الجديدة

نشأت هذه العقيدة الاقتصادية الجديدة قرب نهاية القرن العشرين كما يقول المفكر الاقتصادي سمير أمين وهو من ابرز رموز ما يسمى بالماركسيين الجدد" لقد تفشى في العالم مرض خبيث وغامض وقد أصاب المرض جميع السكان، وقد أطلق على الفيروس المسبب للمرض اسم الفيروس الليبرالي "١"، وقد ظهر الفيروس لأول مرة في القرن السادس عشر داخل المثلث المعروف " لندن، باريس، أمستردام" وظهر الفيروس في أوروبا في أواخر القرن العشرين عائدا من أمريكا بعد إن تم تسمينه مما مكنه من القضاء على أغلب الأجسام المضادة ونتج عنه وباء تسبب في القضاء على الجنس البشري"٢"، هذا وقد سبب الفيروس حالة غريبة من انفصام الشخصية فلم يعد الفرد يعيش بوصفه كائنا متكاملا ينظم نفسه لإنتاج ما يحتاجه وهو ما يطلق عليه العلماء الحالة الاقتصادية، ويطور في الوقت نفسه الهيئات والقواعد والإعراض التي تسمح له بالازدهار ويطلق عليه العلماء الحياة السياسية .

وقد نجمت جميع الأزمات التي حدثت قرب نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين والتي خرجنا منها نهائيا لحسن الحظ لقد نجح الرشاد الحقيقي كما يؤكد د. سمير أمين في التغلب على هذا المرض الخطير واستمرت الشعوب على قيد الحياة بما فيهم الأوروبيون والأسيويون والأفريقيون والأمريكيون وحتى أهل تكساس الذين تغيروا بعدها وعادوا بشرا أسوياء مثل الباقين، هذا وقد اختيرت هذه النهاية السعيدة لا من باب التفاؤل العنيد ولكن لأنه في حالة الفرض الثاني لم يكن سيبقى احد ليحكي القصة الكاملة ولكانت نبؤه فوكوياما قد تحققت، فالليبرالية قد ترتب عليها نهاية التاريخ وفنيت الإنسانية برمتها في المذبحة وإما القلائل الناجون من أهل تكساس فتحولوا إلى جماعات من البدو الرحل ثم قدموا

بدورهم ذبائح بأمر زعيم طائفتهم الذين كانوا يعتقدون في قدرته على صنع معجزات وكان اسمه بوش هو الآخر"٣"

هذا وقد منيت حياة هذا الجزار الليبرالي بنهاية غير سعيدة وجهها إليه احد الضحايا في العراق هو الصحفي منتظر الزيدي عندما وجه إليه ضربة صاروخية بحذاء كان يلبسه إثناء زيارة الأخير للعراق، هذا وقد اعتبر المراقبون إن هذه الاهانة ليست موجهة لبوش فحسب بل موجهة للبرنامج أللبيراليي المتوحش في جميع إنحاء العالم وبالمناسبة فان منتظر الزيدي ينتمي إلى التيار اليساري المناهض للعولمة وللحرب وان هذا العمل الشجاع الذي وجهه منتظر الزيدي يعتبر من ابرز الإعمال تقربا إلى الله أي إن رجم بوش يعني رجم إبليس الرأسمالية أي إبليس الهيمنة الليبرالية الرأسمالية المتوحشة الأمريكية .

عودة إلى النظرية النيوليبرالية، فقد ظهرت هذه النظرية في نهاية عقد السبعينيات من القرن الماضي وخلال هذه المرحلة ظهرت تطورات تكنولوجية هائلة كان لها اثر كبير على زيادة الإنتاج ودفع عملية التنمية والتقدم والرخاء، انطلقت نظرية النيوكلاسيك من خلال عملية النمو دون حدوث ركود حتمي أشار إليه المفكرين الكلاسيكي.

ومن ابرز المفكرين الاقتصاديين الذين تبنوا نظرية النيوكلاسيك الانجليزي " الفرد مارشال" والسويدي" فكسل" والأمريكي" كلارك" وركزت هذه النظرية على النمو ومحدداته وأسبابه، هذا وقد انطلقت هذه النظرية من المحددات التالية :

١ــ إن عملية النمو عملية متكاملة مترابطة ومتوافقة أي إن نمو أي قطاع أو صناعة معينة يدفع بنمو القطاعات الأخرى، وإذا تقدمت صناعة ما أسفر ذلك عن إنتاج آلات وارتفاع مستوى المعارف الفنية والتي بدورها ترفع مستوى الزراعة أي إن تقدم صناعة ما يرفع معه صناعات جديدة وتمد الصناعات الأخرى بالخدمات المشتركة كالكهرباء والنقل والمواصلات، هذا وقد أشار " مارشال" إلى فكرة الوقورات الخارجية والتي تؤكدالى إن النمو يتسم بالتوافق والترابط فوجود أي مشروع يخلق منافع وفوائد لم تكن موجودة من قبل ويدفع لتوسيع دائرة الاستفادة منها من خلال إنشاء مشروعات أخرى ترتبط بمستوى التقدم الذي تحقق قبلها، كما وساهمت هذه النظرية في الفائدة المشتركة للفئات المختلفة فنمو الناتج القومي يعني زيادة الدخول بشقيها الأجور والإرباح"٤".

٢ـ النمو الاقتصادي يعتمد على العمل والموارد المالية والطبيعية والتنظيم والتقدم التكنولوجي، هذا وقد انطلقت أفكار النيوكلاسيك مما يلي:

١ـ التقدم التكنولوجي

٢ــ مرونة الطلب على الأرصدة المتاحة للاستثمار معنى ذلك إن الوصول إلى حالة الركود ليس سهلا وممكنا، وهذا بحد ذاته كلام خيالي وهو هراء تاريخي لا أكثر ولا اقل.

٣ــ إن النمو لا يتحقق بطريقة مفاجئة وإنما بالتدرج فهو النمو العضوي كما وصفه مارشال ويلاحظ انه طبقاً لأراء داروين بالتطور تأثير على هذه النظرية

ومفكريها، حيث ركزوا على الكيفية التي يوزع بها جهاز الثمن موارد المجتمع بين استخداماتها اللانهائية، كما واستعانوا بأسلوب التحليل المعتمدة في فكرة التوازن الجزئي الساكن فكل مشروع صغير وكل مرحلة هي جزء من كل ينمو معا بشكل تدريجي ونسق متداخل ومتبادل التأثير ولذلك فنظرية الكلاسيكي تعالج الأزمات القصيرة المدى"٥"

٤- طور النيوكلاسيك نظرية التكاليف النسبية لشرح مساهمة التجارة الدولية في التأثير على مساهمات الدخول القومية بالدول المشتركة بالتبادل الخارجي، وعلى الصعيد الدولي يؤكد النيوكلاسيك على مزايا التخصص وتقسيم العمل وحرية التجارة الخارجية حيث تعم الفائدة وتزداد الدخول القومية بعضلات تمكن الدول المتخلفة من تحقيق معدلات مرتفعة للتراكم الرأسمالي والتي ستخدم التنمية الاقتصادية . كل هذا الكلام مزاعم وأكاذيب وسيرى القارئ أن هذا الكذب هدفه واحد وهو تحقيق الربح الرأسمالي.

لقد شكك النيوكلاسيك في إمكانية استفادة جميع الدول على المدى البعيد من مزايا حرية التجارة الدولية حيث خشوا من تدهور معدلات التبادل الدولي إلى غير صالح الدول الصناعية القديمة فهذه الأخيرة تواجه قصورا في تجديد صناعاتها بما يتعادل مع التقدم في مستويات الصناعات الأخرى في الدول المنافسة، وكأنهم يشيرون بذلك إلى صناعة الغزل والنسيج في انجلترا، وذلك في مواجهة الصناعات اليابانية والألمانية التي تمتاز بالكفاءة الإنتاجية عالية الجودة وتكنولوجيا احدث .

في ختام حديثنا يمكن تلخيص ابرز أفكار النيوكلاسيك وعلى النحو التالي:

١- رأس المال والتراكم الرأسمالي
٢- التكنولوجيا والتقانة
٣- العمل
٤- الموارد
٥- التنظيم
٦- التوافق والتدرج لحدوث نمو اقتصادي

ما هي الليبرالية الجديدة

الليبرالية الكلاسيكية لا تختلف كثيرا عن الليبرالية الجديدة لكن وسائل الثانية اعنف وأكثر توحشا من الأولى:

فقد عرفها ونستو تشرشل عقب الحرب العالمية الثانية بأنها قيام النظام الدولي بعد الحرب العالمية الثانية وهي إن حكم العالم لا يجب إن يكون في متناول الجياع لما يمثله من خطر على الحضارة، وتمشي هذه الصور مع الليبرالية الليبرالية الجديدة والمحافظون الجدد من ريفان إلى نيكسون وبوش الأب والابن فكلهم واحد، إن هذه

التوجهات التشرشلية تتماشى مع عقيدة الإباء المؤسسين لليبرالية الأمريكية التي تؤمن إن من يملك أصول البلد يجب إن يحكمها .

إن الليبرالية الجديدة ليست تعبيرا عن إعادة إحياء رأسمالية للقرن الماضي التي تم بالتنافس أنها بداية لولادة خطاب تنظيري مشروع للهيمنة أو امبريالية الهيمنة "٦" .

لا تختلف الليبرالية الجديدة عن التراثية من حيث الوسائل والأدوات فالمبادئ هي نفسها ولا يمكن التراجع عنها كما يقول دهاقنتها وكهنتها بالمطلق بالإمكان إثراءها بالمزيد من التجارب، وإذا كانت الكلاسيكية ارتبطت بالفكر الأوروبي فان الجديدة والنيوكلاسسيكية ارتبطت بالفكر الأمريكي وممارساته وخاصة مع بروز الولايات المتحدة على المسرح الدولي، لكن هذه الليبرالية يشوبها الانتكاسات الحقيقية لحقوق الإنسان والتي تمارس من قبل الليبرالية المتوحشة في كافة إنحاء العالم وكما اشرنا فان حقوق الإنسان استخدمت من قبل الدوائر المهيمنة في الولايات المتحدة ومارست الأخيرة أبشع إشكال الاهانة والدمار والقتل وقد يخرج علينا احد كهنة الليبرالية الجديدة ويلقي علينا خطابا تنويرا ودعويا يطالبنا بعدم الربط ما بين الليبرالية الأمريكية والسياسات التي تنفذها وزارة الخارجية الأمريكية في العالم وخاصة في العالم العربي والإسلامي وخاصة بعد الاستخدام المفرد للقوة حسب قول احد وزراء الخارجية الفرنسي، ونجد هناك من يحاول أن يدافع عن الليبرالية الجديدة، ومنهم من يحاول إبراز بعض أخطاءها من خلال القول إن التجربة الجديدة لليبرالية ليست نزيهة، وليست تجربة ملائكية وهي لا تمارس طقوس مثالية ولكنها تسعى لإقامة مجتمع تسوده قيم حقوق الإنسان .

بعبارة أخرى يمكن وصف الليبرالية الجديدة على شكل معادلة رياضية على النحو التالي : الليبرالية الجديدة = تجديد المؤسسات + تحرير الاقتصاد + الحريات + خلق سياسة جديدة .

كما إن كهنة الليبرالية الجديدة يدعون ويزعمون بان الايدولوجيات تصادر السلطة والمؤسسات وكل المجتمع وعلى العكس يزعمون إن الليبرالية الجديدة تتيح التداول للسلطة وتسمح بالمشاركة بالسلطة وهي ترضى إن تبقى خارجها كمراتب عليها .

هذا الذي سمعناه من كهنة الليبرالية وهو كله تنظير في تنظير وكله هراء في هراء فالأغلبية محكومة والأغلبية مسحوقة وجائعة والأقلية الاليجاريكية هي التي تحكم .

يبدوا إن مصطلح الليبرالية الجديدة قد تشكل بريقا خاصا في وسائل الإعلام والأخيرة تقوم بضخ هذا المصطلح إلى الجمهور دون تسليط الضوء على ماهيته وحقيقته حيث إن هذا المصطلح لحق به من ضجيج وشعارات زائفة ونزعة ايدولوجية وعقائدية كما إن هذا المصطلح يمتاز بالضبابية والمطاطية والفضفضة وينطوي على تعريفات ومعاني متضاربة بل وغامضة ويصل إلى حد اللبس فمثلا في بريطانيا عندما يطلق مصطلح الليبرالية يقصد بالتاتشرية بينما في أمريكا يقصد

بالريجانية ويقصد بهذا الاتجاه المحافظ ومن هنا لا يوجد اختلاف في كلا المضمونين بالرغم من اختلافهما من حيث الشكل .

فلذلك فان النيوليبرالية هي التيار النيوكلاسيكي في الفكر الاقتصادي الرأسمالي الذي اخذ سبيله إلى التطبيق في البلاد الرأسمالية مؤخرا، والذي يؤمن إيمانا مطلقا بكميات السوق والمنافسة والمبادرات الفردية ويعادي التدخل الحكومي في مجال الاقتصاد والعدالة الاجتماعية ويضع الرد وهو عادة صاحب رأس المال في بؤرة العناية والاهتمام .إن الليبراليون الجدد هم من اشد المناوئين للكنزية التي دعت إلى التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي لمواجهة الأزمات الدولية التي يتعرض لها الاقتصاد الرأسمالي وهي ضد كل إشكال التدخل الحكومي الهادف إلى مراعاة الاعتبارات الإنسانية والاجتماعية.

إن الليبراليين يدعون إلى إسقاط سيطرة الدولة على النشاط الاقتصادي ويعتبرون سيطرة الدولة هو من الأنشطة الهدامة لإسقاط السوق وهم يعادون الاستثمار الحكومي عدا الاستثمار في البنية التحتية الأساسية، وهم ضد التوسع في الإنفاق العام

فلسفة الليبرالية الجديدة

انطلقت فلسفة الليبرالية الجديدة من المحاور التالية :

١- الكفاءة الاقتصادية: انطلقت الكفاءة الليبرالية أصلا من الربحية المالية لرأس المال أي سيطرة العامل الاقتصادي الخاص بالرأسمالية "٨".

٢- التوسع الكامل للسوق والتوسع الكامل للديمقراطية: مع ذلك لم يتم إثارة قضية الصراع بين المصالح الاجتماعية التي تؤثر بداخلها عن السوق، وتلك التي تمنحهم الديمقراطية السياسية فالاقتصاد والسياسي لا يعتبران البعدين الذين يكونان الواقع الاجتماعي ولكل منهما كيانه المستقل والذين يتفاعلان جدليا، والاقتصاد الرأسمالي يسيطر في الواقع على السياسة ويلغي قدرتها الخاصة الخلاقة .

٣- إن البلد الأكثر تطورا والذي تكون فيه السياسة التابعة للاقتصاد الرأسمالي هو أفضل نموذج للجميع، ويجب على من يرغبون في البقاء على المسرح العالمي أن يقلدوا مؤسساته وممارساته .

٤- لا يوجد بديل للنموذج المقترح المبني على الفروض الاقتصادية والتطابق بين السوق والديمقراطية، ووضع السياسة في خدمة الاقتصاد والبديل الاشتراكي فشل في إن يكون بديلا .

العلاقة ما بين الليبرالية الجديدة والمحافظين الجدد :

الليبرالية كما يزعم كهنتها نشاءت في اصولها كتيار فكري سياسي وعقائدي تناهض السلطات والاستبداد والإقطاع وتناهض الأفكار والأنظمة التي تقف في وجه العطاء الفكري والحرية الفردية، لقد نادى الليبراليون الجدد بثورة ثقافية من حيث إن

الثقافة هي التعبير الواعي عن واقع المجتمع والذي بدونه لن يتم إصلاح سياسي اواقتصادي أو اجتماعي "٩" .

ومن هنا يمكننا القول إن المحافظون الجدد ظهروا في أمريكا وهم دعاة حرب العقول والقلوب وحرب الأفكار وحرب تغيير المجتمعات بالعنف جاءوا من تقاليد لينينية تروتسكية أي أنهم ماركسيون وحافظوا الدرس ولكن في خدمة السيد الرأسمالي اخذوا من لينين فعالية الاقوال العصبوية المنظمة المثابرة بينما رفعوا شعار الديمقراطية المظلل ومن ترو تسكي اخذوا مبدأ الثورة الدائمة بعدما حولوه إلى جراء الحرب الدائمة هجوم ايدولوجي مستمر بلا رحمة تقوده عصبة مصممة مستخدمة كل الوسائل العنيفة والسياسية في ميكافيلية مطلقة "١٠" .

هذا لتعريف صاغه مفكر أردني ماركسي بالمقابل هناك تعريف إذ لمفكر ناقد أردني لكنه ليبرالي رأسمالي يريد أن يدافع عن منهجية الليبرالية وإنها تتعارض مع منهج المحافظون الجدد انه د.شاكر النابلسي مؤسس حركة ما يسمى الليبراليون العرب الجدد حيث يقول إن المحافظون الجدد تأسسوا فكريا على يد المفكر الألماني ليوشتراوس الذي هاجر إلى أمريكا عام ١٩٣٨ وأصبح كأستاذ جامعي في شيكاغو بالشتراوسية الليبرالية التي كانت تمثل الجذور الأولى لفكر المحافظين الجدد ألان الذين تم إطلاق اللقب عليهم من قبل الليبراليين الأمريكيين من باب الحرية والحط من قيمتهم الفكرية والسياسية والاشتراوسية وتنادي بالأفكار التالية :

١- رفض الحداثة وتفضيل المنطق على التفكير .
٢- استخدام الدين للسيطرة على الجموع .
٣- استعمال الكذب والخداع للمحافظة على السلطة .
٤- فرض الدين على الجماهير وإبعاده عن الحكام .
٥- استعمال القوة لكبح العدائية لدى البشر من خلال دولة قوية كابحة .
٦- الإيمان بالزيادة الأمريكية الخيرة .

وفي بداية الثمانينات من القرن الماضي وبالذات في بداية الثمانينات من القرن الماضي وبالذات في عهد ريغان ١٩٨٠-١٨٩٩ لعب المحافظون الجدد الذين كانوا من الحزب الديمقراطي ثم انظموا إلى الحزب الجمهوري دورا أساسيا حاثين ريغان على مواجهة الاتحاد السوفيتي بكل الوسائل الممكنة من اجل إسقاط الاشتراكية ومحاصرتها في عقر دارها ولكن على رأسهم رولاندرامسفيلد وديك تشيني، جيب بوش وزلمادي خليل زاده، وريتشارد بيرل، وغلاس فايث، وولفوفيتز .

وفي عام ١٩٩٧ قدم هؤلاء للكونغرس وللإدارة الأمريكية في عهد كلينتون مراسم مشروع القرن الأمريكي الجديد، ولكنهم لم يفلحوا يلقوا إذانا صاغية من هؤلاء كما لم يلقوا آذانا صاغية من بوش الأب فيما بعد ولكن برنامجهم ينادي بالأفكار التالية :

١- زيادة ميزانية وزارة الدفاع بشكل كبير لتحديث الوات المسلح.
٢- تعزيز العلاقات مع الدول الصديقة الديمقراطية .
٣- تحدي أمريكا لنظم الحكم المعادية للحرية والديمقراطية.
٤- تعزيزا ودعم الإصلاح السياسي وحرية السوق في العالم.

٥- قبول أمريكا بالدور الفريد في الحفاظ على النظام العالمي الديمقراطي الحر .
٦- المطالبة باستخدام القوة في القضاء على النظم الديكتاتورية ومنها الطرق .
٧- عدم حصر الديمقراطية في شعب من الشعوب في بلد من البلدان.
٨- النظر إلى العالم من خلال منظار الخير والشر ولا منظار وسيطا بينها .

جاءت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ والتي أضافت على الخطاب السياسي للمحافظين الجدد ثلاثة بنود أخرى هي :
١- استعمال العصا الاستباقية .
٢- إظهار محور الشر والتنديد به .
٣- تقسيم العالم إلى أعداء وأصدقاء إن تحدد موقفك إما معنا أو ضدنا فلا مجال للوسطية.

لقد عارض المحافظون الجدد أكاديميون ومثقفون أمريكيون وعلى رأسهم أنتوني كدسمان خبير الشؤون الإستراتيجية بمركز الدراسات الإستراتيجية الدولية بواشنطن حيث اعتبر خطابهم هو وهم خطي خاصة فيما يتعلق بالشرق الأوسط كما كان من بينهم السياسي "رون بول " "١١" .

الكاتب النابلسي مهووس بالخطاب ألمحافظي والليبرالي فهو يعتبر إن أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ هي عبارة عن هاربر رقم "٢" أو هاربر جديدة، فقد اعتبر أحداث هاربر ١٩٤١ حدا فاصلا ما بين تاريخين ما قبل الكارثة وما بعد الكارثة ودفعا قويا لأمريكا لدخول الحرب العالمية الثانية، وقرار ترومان بإلقاء القنبلة النووية على هيروشيما وناغازاكي حيث قتل نصف مليون ياباني وجرح عدد آخر وتغيير خارطة العالم التي تغيرت بتحرير أوروبا وانهزام النازية والفاشية والعسكارتيا اليابانية، والسؤال الذي يطرح نفسه أليس إلقاء القنبلة النووية على الشعب الياباني اخطر من النازية والفاشية ؟ فعلاان الأمريكيين هم اشد خطرا من النازيين والفاشيين بل هم الفاشيون والنازيون الجدد.

كما كانت كارثة ١١ سبتمبر هي فاصل بين تاريخين ما قبل الكارثة وما بعد الكارثة وكانت هذه الكارثة التي وصفت بأنها اشد إيلاما من كارثة بيرل هاربر أو هي هاربر جديدة كما وصفها "وأي كريفن " في كتابه بيرل هاربر الجديدة معتبرا إن تقدم أمريكا سيقود إلى إعادة تشكيل العالم من جديد بما فيه الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، ومن هنا جاء مشروع الشرق الأوسط الجديد الذي تم الإعلان عنه عام ٢٠٠٤ من قبل مجموعة الثمانية .

إن هلوسات النابلسي تكمن بقوله انه لولا ١١ سبتمبر لما تم اقتلاع النظام الدكتاتوري بالعراق بالقوة العسكرية، ولما تم إسقاطه سلميا بالطرق السلمية والدبلوماسية، وهذا المهووس لم يقل انه تم تشريد ٥ ملايين مواطن عراقي ونهب ثروات وتاريخ العراق وتدمير دولة عمرها الحضاري أكثر من ستة ألاف سنة، والنابلسي يقول إن أمريكا تمكنت من تفكيك الاتحاد السوفيتي سلميا ودون إطلاق طلقة واحدة لكنه لم يوضح حقيقة الموقف الليبرالي والمحافظي الأمريكي من خلال هذا السار الذي أحدثته أمريكا الجديدة هل جاء من اجل عيون الديمقراطية أم من اجل

عيون الليبرالية النفطية والليبرالية الاحتكارية والسوق والاقتصاد والنهب الذي تقوم به حفنة من عصابة المحافظون الجدد.

نصل في نهاية الكلام إن دور المحافظين الجدد هو تخريب العالم بل يمكننا وصفه بأنهم فئران الخراب للمدنية الحديثة وان الدور الذي يجب إن يقوموا به في إعادة هيكلة العالم تقع بعد ذلك على الليبراليين الجدد، أن المحافظين الجدد خطهم تخريبي بينما الليبراليون الجدد هم المنظرون العقائديون لتبرير هذا الخراب، المهم إن يحققوا الإرباح على حساب دماء الشعوب ومعاناتهم .

الفصل الثاني\الباب الثاني

١- فيروس الليبرالية :د.سمير أمين ص.
٢- مرجع سابق ص.
٣- مرجع سابق ص ٥-٧.
٤- التنمية الاقتصادية، رمزي سلامة.
٥- مرجع سابق ص .٣٤٢
٦- من الامبريالية إلى العولمة، د.جورج لابيكا، ترجمة مجدي عبد الحافظ ص ١١٩.
٧- انهيار الليبرالية الجديدة، نيلسون اورو وجواي ترجمة جعفر السوداني ص ٢٤.
٨- مرجع سابق ص ٧.
٩- الليبراليون الجدد شاكر النابلسي، ص ١١ .
١٠- الرجل الذي رأى ماركس مجددا " ناهض حتر " ص ٨٦- ٨٧ .
١١- الليبراليون الجدد، د.شاكر النابلسي، ص ٣٢-٣٥.

الفصل الثالث / الباب الثاني

الليبرالية الجديدة النشأة والظروف التي ساهمت في ولادتها .

منذ أن ظهرت الليبرالية ظهرت معها العناصر المكونة للايدولوجيا البرجوازية من رحم عملية انحلال النظم الإقطاعية من جهة وولادة النظام الإقطاعي من جهة أخرى، في الوقت التي كانت تصطدم فيه مع النظم والمؤسسات الإقطاعية كانت هذه العناصر ترسي ملامح مرحلة جديدة، وتكون إطارا لفكرة ملامح مرحلة جديدة وتكون إطارا لولادة نظام عالي، وفي هذا الصدد يمكن القول إن الايدولوجية الليبرالية الرأسمالية في بداية نشأتها كانت ايدولوجية ايجابية أي يعني أنها لم تكن نتاجا للرفض، وإنما هي تأكيد لنظام وعصر جديدين، وتمثل ابرز أركانها الفردية باعتبارها النتاج الطبيعي للملكية الخاصة .

إن الرأسمالية البرجوازية تحتاج إلى الحرية كما يقول المنظر الأول لها آدم سميث كي تمارس فيها طرق التصويت السري والعلني وعمل الأحزاب، والتناوب على السلطة بين مختلف الإطراف الحاكمة، ولذلك أصبحت الحرية إحدى الحاجات الأساسية والحيوية لعمل النظام الرأسمالي، ولذلك اعتمدت الايدولوجية الرأسمالية الليبرالية إلا إن هذه الحرية هي بالأصل حرية برجوازية، فالعمال الذين لا يملكون وسائل للإنتاج يملكون فقط قوة عملهم الخاص ولهم الحرية في بيعها في السوق إلى الأشخاص القادرين على سراءها، وفي حالة عدم انجازهم البيع فليس إمامهم سوى الموت جوعا ناهيك عن حرية التصويت العلني والسري بين الحين والأخر لاختيار لا يقع إلا على أعضاء الطبقات الحاكمة .

إن حرية الرأسمالية الليبرالية هي حرية فقط للرأسماليين أنفسهم أما بالنسبة للطبقات الأخرى فإنها موجودة شكليا، والتاريخ يشهد على الرأسمالية حيث ترعرع في أحضانها مؤسسات مشابهه لتلك التي نشأت في أحضان الإقطاع والتي سحقت الحرية نفسها، وهي عبارة عن احتكارات ولكن على شكل " تروتستات وكارتلات" فالأولى تعني تحالف اقتصادي مالي يشرف على مجموعة من الشركات تهدف إلى احتكار أنواع معينة من البضائع، والثانية تعني اتفاق تجاري بين الشركات تنتظم إلى نوع من الاتحاد من اجل تحديد الأسعار في السوق وإلغاء أو وضع العقبات أمام المنافسة الحرة، والتي بدورها خلقت اجواء مناسبة لسحق الحرية التي تتشدق بها الرأسمالية، علما بأنه لا يوجد حرية لتداول رؤوس الأموال وقوة العمل والبضائع مع وجود هذه الاحتكارات أي بمعنى عدم وجود حرية تجارية، وان المنافسة الحرة هي السبب في سيطرة هذه الاحتكارات "١".

إن وجود هذه الاحتكارات لا يضمن التصويت العلني وان كان شكليا للتناوب الحقيقي للسلطة بين مختلف الأطراف الرأسمالية لأن الذي يقود شؤون الدولة هي الدوائر المالية المتنفذة، وان الحرية الرأسمالية التي لم تكن اطلاقا حرية بالنسبة للقطاعات المحكومة لم تعد حرية للكتلة البرجوازية وإنما أصبحت قناع للأقلية المستنفذة ماليا، وعليه تحولت الديمقراطية الرأسمالية إلى بلوتوقراطية، ولذلك

اصطدمت آلية النظام أكثر من أي وقت مضى مع الايدولوجيا التي كان يستند إليها، وبشكل خاص مع النواة المركزية لهذه الايدولوجيا وهي الحرية مما أدى إلى فضح أخطاء الايدولوجيا البرجوازية فيما يتعلق بكونها ايدولوجيا ايجابية "إن مصطلح الباوتوقراطية يعني حكومة الأغنياء".

إن الرأسمالية الليبرالية لكي تنجز مشروعها ينبغي إن تمتلك درجة معينة من الارتباط بالحقيقة، وعليه لا يمكن اعتبار الايدولوجيا الرأسمالية مناهضة للايدولوجيا الاشتراكية بسبب عدم وجود الشرعية للقيام بذلك إذ عليهم أن يبحثوا عن مبررات أخرى " غير اختلاق العدو الوهمي" حتى تعود إلى رشدها

ففي السبعينيات من القرن الماضي تحولت احتكارات البلدان الرأسمالية الغارقة بالكساد بالاعتماد على أسواق جديدة لمصاصي الدماء الذين يمتصون دماء البشرية لكي يحافظوا على شروط وجودهم، هذا وقد جرى خلال الفترة الماضية صراعات جانبية ما بين دول مراكز الرأسمالية " أوروبا، أمريكا، اليابان" خاصة بعد تعاظم القوتين الاقتصاديتين"اليابان وألمانيا" ولمواجهة هذه المستجدات عمدت احتكارات دول مراكز الليبرالية الرأسمالية وحكوماتها إلى البحث عن أسواق جديدة إقليمية أكثر اتساعا كالاتحاد الأوروبي ومنطقة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية "نافاتا" منتزعة بذلك النضالات الاجتماعية التي حققها عمال العالم، والاهم من ذلك تدمير اقتصاديات الدول ذات النمو المتدني.

خلال حقبة السبعينيات تعرضت الكنزية إلى هجوم مركز من مجموعات اقتصادية متطرفة للتخلي عن فكرتها وفلسفتها والمتضمنة تحقيق دولة الرفاه الاجتماعي من خلال الاعتماد على القطاع العام وإطلاق سيطرة الحكومة على الاقتصاد بخلاف الليبرالية الكلاسيكية ومنهجها والتي تبناها كل من آدم سميث وعدد من المفكرين الاقتصاديين.

ومن الجدير بالذكر إن طبول الدعاية وأبواقها ظلت تدق إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية والى العقد السابع من القرن الماضي اعتقادا مطلقا من إن البرجوازيين والمفكرين الرأسماليين والليبراليين إن تدخل الدولة هو الدواء الشافي لعلاج الأزمات التي تعاني منها الرأسمالية، وهذه الدعوة أطلقها كما اشرنا في صفحات سابقة جون مايرز كينيز سنة ١٩٣٦ ولم تطبق إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وعلى ضوء ذلك تم التوسع في الإنفاق الحكومي والجاري والاستثمار وتوصلوا إلى حتمية مطلقة إلى إن هذا الإنفاق هو مضخة الرواج وهو الدواء الناجح لأزمات الرأسمالية الدورية، ويعتبر من اقوي الوسائل لتحقيق التوظف الكامل، وبقي الحال على ما هو عليه أي تبرير هذا التدخل وتحليل مشكلاته.

ومن هنا فان الخطاب الرأسمالي الليبرالي ألكنزي عظم دور الدولة ومجّد السياسات الحكومية من خلال ما يلي:

١- مساعدة الحكومة للشركات الخاصة
٢- تأمين المشتريات الواسعة من القطاع الخاص"السلاح وغيره"
٣- ضمان الصادرات

٤ـ زيادة الإنفاق العام على الخدمات الاجتماعية التي أعطت مزايا كثيرة للقطاع العام وللعمال وللطبقة الوسطى الأمر الذي خفف من مطالبة العمال بزيادة الاجور

كل ما ذكر سابقا جعل الدولة ضامنة لربح الاحتكارات، ويكشف عن هذه الحقيقة الاقتصادي البلجيكي" ارنست مندل" حيث يقول "إن هذا التعاون الوثيق ما بين الاحتكارات والدولة ليس ابدآ نتيجة خضوع الاقتصاد للدولة بل العكس صحيح وهو خضوع الدولة للاحتكارات عن طريق التحالف المتعاظم ما بين جهاز الدولة القيادي ورؤساء الاحتكارات الكبيرة أنفسهم."٢"

ومما يثبت كلام " ارنست " إن معظم رجال السياسة والاقتصاد الذين يشغلون المراكز الحساسة في الاقتصاد الأمريكي والبريطاني والفرنسي من كبار رجال الأعمال، ومن هنا يمكننا القول إن النمو المتزايد لتدخل الدولة في النشاط الاقتصادي واتساع حجم الدولة ليس له علاقة بالاشتراكية .

هذا ويؤرخ الاقتصاديين إلى انه مع بداية السبعينات من القرن الماضي دخلت الرأسمالية الليبرالية في أزمة هيكلية حادة جدا سرعان أن دخلت الرأسمالية الكنزية في أزمة، فهي جاءت لتعالج أزمة خانقة سواء على صعيد الفكر أو صعيد السياسات الاقتصادية، ولذلك جاءت الرياح العاتية التي هبت على الكنزية أي على تدخل الدولة في القطاع الاقتصادي من خلال المؤشرات التالية :

١ـ تردي معدلات الربح في قطاعات الإنتاج المادي.
٢ـ إيقاف أو تقليل خطط الاستثمار حيث أدى ذلك إلى خفض الطلب على العمالة وزيادة عدد العاطلين عن العمل.
٣ـ ارتفاع مؤشرات التضخم.
٤ـ بروز أزمة استيعاب الفائض النقدي المتزايد، وعلى ضوء ذلك اتجهت أقسام واسعة للاستثمار في المضاربات والإقراض والتوسع في قطاعات الخدمات وسبق إن سلطنا الضوء على امتصاص الفائض في فصل سابق.

إذن الكنزية تعرضت إلى عمليات صاعقة منظمة وحصار طاحن مركز قاده مفكرين اقتصاديين أطلق عليهم الليبراليون الجدد بقيادة المفكر الاقتصادي " ملتون فريدمان" من أنصار مدرسة شيكاغو وأنصار مدرسة اقتصاديات العرض بقيادة " الفرو" وانصاره.

ما هي الجريمة التي ارتكبتها الكنزية حتى تتعرض لهذا الهجوم ؟

السبب واضح لهذا الهجوم حيث إن الكنزيه تبنت اتجاه دعم ومؤازرة تدخل الدوله في النشاط الاقتصادي، وهذه أكذوبة استند عليه النيوليبراليين في هجومهم على الكنزيين، فمن خلال الصفحات السابقة أوضحنا إن الرأسمالية منذ إن جاءت فقد تخرجت من معطف الدولة ولاحظنا إن أي أزمة كانت تواجهها فإنها تستعين بالدولة لحل مشكلاتها، ولذلك فان هذا الهجوم خادع ومليء بالأكاذيب المزيفة ولكن السبب

الحقيقي في الهجوم على خيار الدولة هو إن الأرباح تتناقص وتذهب إلى العمال ورأس المال شره جدا لايريد لأحد إن ينتعش أو يستفيد.

أن كل من مدرسة شيكاغو ومدرسة اقتصاديات العرض حمتا التدخل الحكومي لكافة الآزمات التي تعاني منها الرأسمالية من بطالة وركود وانخفاض في الإنتاجية والتضخم وعجز الموازنة، لكن أنصار الكينزية عجزوا عن دحض أفكار النيوليبراليين أو وضع بدائل أخرى لعلاج أزمة الرأسمالية المستفحلة وخاصة أزمة الركود التضخمي، وان كانت مساهمتهم النظرية في هذا المجال أمر لايمكن التهوين من شأنه، وبالمجمل فان الرأسمالية عبر مراحلها قد أفرزت من تيارات الفكر الاقتصادي ما يناسب مصالحها فان أزمة ما بعد السبعينات أفرزت تيارات ليبرالية متطرفة، وهذا التيار الليبرالي المتطرف أو المتوحش قد انقسم إلى اتجاهين يصبان في منبع واحد انطلقا من إعلان المناداة والجهر بالصوت العالي من خلال إطلاق الحرية الاقتصادية بمعناها الهمجي الفوضوي المتوحش.

فالتيار الأول فقد تبنى في طرحه تحجيم دور الدولة ووقف تدخلها في النشاط الاقتصادي من خلال تفعيل شعار الليبرالية الكلاسيكية الذي أطلقه آدم سميث بان الحرية الاقتصادية هي أساس حرية الفرد وان الضوابط التي تحول دون تحقيق ذلك هي من الاستثناءات ويجب التخلص منها من منطلق انه لا تعارض ما بين سعي الفرد للبحث عن مصلحة وتحقيق مصلحة المجتمع، والاهم من ذلك إن الرأسمالية هي نظام يقوم على حرية السوق كفيلة بان تصحح أخطاءها بنفسها لو تمكن المجتمع حماية هذه الحرية والعمل على تحجيم سلطة الحكومة وتدخلها في الحياة الاقتصادية، وعلاوة على ذلك فالرأسمالية كفيلة بإعادة التوازن من خلال خلق آليات السوق، وان ما حدث من اختلال وعدم توازن عبر تاريخ الرأسمالية منذ القرنيين الماضيين إنما يعود إلى انتهاك قوانين السوق من قبل الدولة وخاصة في مجال إعانات البطالة والرقابة على الأسعار والخدمات الاجتماعية كالصحة والتعليم ودعم المواد الغذائية للفقراء والضمان الاجتماعي والإسكان.

فسياسات الكينزية في نظر النيوليبراليين هي المسئولة عن زيادة العجز بالموازنة العامة للدولة، وهذا العجز قد تم تمويله من خلال الائتمان المصرفي وطبع " البنكنوت" مما كان له اثر وثيق بزيادة عرض النقود وانفجار التضخم، كما إن جانبا من العجز قد تم تمويله من خلال سياسات الين العام الداخلي أي الاقتراض من القطاع الخاص فترتب على ذلك سحب جانبا من المدخرات الحقيقية لتمويل الإنفاق الحكومي، وهي مدخرات كانت من الممكن توجيهها للاستثمار المنتج والذي سيزيد من معدل النمو الاقتصادي"٣"

هذا ومما زاد في تعقيد الموقف من وجهة نظر الليبراللين المتطرفين إن الدولة في صدد سعيها للبحث عن موارد لتمويل إنفاقها المتزايد قد لجاءت إلى زيادة الضرائب على الدخول والثروات المرتفعة مما كان له تأثير محبط على قرارات الادخار والاستثمار في القطاع الخاص فكأن التدخل الحكومي ودولة الرفاه مسئولان مسؤولية مباشرة عن زيادة الأسعار وتدني مستوى الادخار وركود الاستثمار وتراجع معدلات النمو.

هذا وقد توصل الليبراليون الجدد إلى قرار وأعلنوه بالصوت العالي بان ممارسات الكينزية خلال الحقبة السابقة هي انه لا توجد دولة من دول العالم الصناعي إن تجمع ما بين تحقيق التوظف الكامل والاستقرار المصرفي وحرية السوق، فالسعي لتحقيق التوظف الكامل هو الهدف الاسمي للكنزين والذي بدوره يتطلب زيادة الإنفاق العام وتدخل الدولة في النشاط الاقتصادي وادي إلى عجز في الموازنة العامة والى زيادة الإصدار النقدي مما شكل السبب المباشر في ظهور إعراض التضخم، ومن ناحية أخرى وكما يقول الليبراليون الجدد تبين إن مكافحة التضخم يتطلب تخفيض الإنفاق العام وتحجيم عجز الموازنة العامة مما سيكون له اثر مباشر في زيادة معدلات البطالة فلم تعد القضية المطروحة هي البحث عن التوازن الأمثل ما بين معدل البطالة المقبول ومعدل التضخم المقبول كما نص عليه منحنى " فليبس" والذي ينص على وجود علاقة عكسية ما بين معدل البطالة ومعدل التضخم، هذا وقد أشارت الدراسات إن المعدلين اتجه هان معا نحو التزايد بشكل متسارع خلال عقد الستينات والسبعينات من القرن الماضي، وقد استثمر النيولبيراليين الجدد هذه الورطة الكينية خاصة بعد فشل منحنى فليبس.

أي إن النيوليبراليين يريدون إعلان عدم وجود أي علاقة ما بين التضخم والبطالة ومن ثم لإثبات عدم وجود أي صلة ما بين متوسط مستويات معدلات البطالة ومتوسط معدلات التضخم فالأخير في نظرهم ظاهرة مستقلة عن ظاهرة ارتفاع الأجور، ويعود ذلك إلى الإفراط النقدي الذي مارسته الحكومة لتمويل عجز الموازنة العامة، إما البطالة في رأي النيوليبراليين فسببها زيادة تدخل الحكومة في النشاط الاقتصادي والمجالات الاجتماعية الأخرى على النحو الذي شل من كفاءة آلية الأسعار وتبني سياسات تحقيق التوظيف أي سياسات الكينزيين.

وهنا يشير أنصار مدرسة شيكاغو النيوليبراليين فيما بعد إن البطالة في بداية الرأسمالية كانت تعالج من خلال انخفاض معدلات الأجور، إما ألان فان الخلل يعود إلى نقابات العمال وإعانات البطالة والتي تعطل من فاعلية السوق، كما إن النيوليبراللين يرون إن إعانات البطالة التي تمنحها الحكومات جعلت العمال غير عابئين بالبحث عن فرصة عمل والاقتراح هو إن تلغى الدولة أو إن يحد من سلطانها على النشاط الاقتصادي، وخاصة إعانات البطالة وإلغاء الدعم وإعادة الدور لقوى العرض والطلب في سوق العمل لإجبار العمال على العمل بمستويات الأجور التي تحددها القوى، وفي هذا السياق يعتقد الليبراليون الجدد إن الخطاء الذي تورط به الكنز يون هو إهمال فكرة معدل البطالة الطبيعي أي جيش العمال الاحتياطي الذي يلعب دور المنظم الطبيعي في تحديد معدلات الأجور بل إن اقتصاديا بحجم "د.ليدلر" لايتردد حينما يزعم بان معضلة البطالة الطبيعي يجب أن يكون من خلال زيادة معدل البطالة الطبيعي الذي يتعين أن يقبله المجتمع يمكن أن يصل هذا المعدل إلى ٩% من مجموع القوى العاملة، فمن شأن ارتفاع هذا المعدل أن تتجه الأجور نحو الانخفاض فتنخفض بالتالي تكاليف الإنتاج وتزداد البواعث، ومن ثم لدى الرأسمالية القدرة على استئجار العمال وتشغيلهم وذلك يشترط بداهة كسر عنق النقابات العمالية في نضالها الدائب من اجل ارتفاع أجور العمال.

ويعتقد ليدلر أن معالجة مشكلة البطالة والتضخم معا سيتم على المدى الطويل، ويعترف أنصار الليبرالية الجديدة أن هذه السياسة قاسية ومريرة ولا تخلو من ألآم، ولكن لامناصة من تقبلها وان المهم هو توفر الإرادة السياسية التي تقبل هذا التحدي"٥"

أما التيار الثاني من الليبرالية الجديدة فقد تبنى المطالبة بإعادة توزيع الدخل والثروة لصالح البرجوازية أي المطالبة بالبحث عن مصادر جديدة للتراكم البدائي للاستعانة بها في مرحلة التوسع الرأسمالي القادمة، وهنا انطلقت ملامح هذا التيار من خلال:

١ـ خفض الضرائب على الدخول والثروات الكبيرة
٢ـ بيع مؤسسات الدولة ونقل ملكيتها للقطاع الخاص

هذا وقد ظهر تيار قوي في الليبرالية الجديدة يهاجم فرض ضرائب عالية فرضتها الحكومات على دخول وأرباح الشركات والمؤسسات الصناعية والتجارية والمالية فهذه الضرائب هي المسئولة من وجهة نظرهم عم تدهور حوافز العمل والادخار والاستثمار بل هي المسئولة عن ظاهرة التهرب الضريبي واتساع حجم الاقتصاد السري، ويعتقد هذا التيار انه أذا كانت الرأسمالية تعاني من وجود بطالة وطاقات معطلة وانخفاض في معدلات النمو فان ذلك لايعكس أزمة في العرض وعليه فان الحل يكمن في زيادة الإنتاج، وهم كذلك لايعترفون بوجود مشكلة تصريف أو امتصاص لأن كل زيادة في الناتج ستجر معها زيادة مساوية في الطلب.

وفي العموم يعتقد هذا التيار إن أهم ما يحتاجه الرأسماليون لزيادة الإنتاج توفير الحافز والأمان والحرية المطلقة لهم في أرباحهم ودخولهم، وذلك من خلال تخفيض الضرائب المفروضة على دخولهم وثرواتهم، كما أهم يعتقدون انه إذا كانت الضرائب مرتفعة وبالذات ضرائب الدخل والثروة وبسبب تدخل الدولة، واحتياجها للإيرادات فان الأفراد سوف يعملون ويدخرون ويستثمرون بشكل اقل مما كانت الدولة لا تتدخل أصلا ولا تفرض تلك الضرائب المرتفعة فطالما أن الأفراد يدركون انه بعد وصول ثرواتهم ودخولهم إلى مستوى فان أي زيادة فوق هذا المستوى ستخضع لمصيدة الضرائب المرتفعة فأنهم لهذا سوف يتقاعسون عن الوصول إلى ما بعد هذا المستوى، وينتجون من ذلك كي نحفز الأفراد على العمل والادخار والاستثمار فلا بد من أجراء في معدلات ما تقطعها الدولة منهم من ضرائب، وهذا لا يؤثر على الموازنة العامة بل العكس حيث يزعم هذا التيار أن تخفيض معدلات الضرائب سوف يجعل الحصيلة الضريبية تزداد، نظرا للإثارة التوسعية بالدخل والناتج والتوظف التي ستنجم عن هذا التخفيض، وقد استندوا في تبرير تلك الفكرة إلى الاقتصادي " ارثر لافر" وعرفت تحت مصطلح منحنى لافر الذي ينص على ما يلي " إذا كان معدل الضريبة صفرا وإذا كان معدل الضريبة ١٠٠% فان حصيلة الضرائب ستنعدم تماما، وبين هذين الحدين توجد نقطة وحيدة على المنحنى يمكن عندها تعظيم الحصيلة الضريبية "٦" .

هوامش الفصل الثالث الباب الثاني

١- انهيار الليبرالية الجديدة،
٢- النظرية الاقتصادية الماركسية الجزء الثاني، ارنست مندل، ترجمة جورج طرابيشي ص ٢١ .
٣- رأس المال الاحتكاري، بول بوران وبول سوزي، مرجع سابق ص ١٥٢-١٥٣
٤- التضخم المستورد، دراسة في آثار التضخم بالبلاد الرأسمالية وأثره على البلاد العربية، د. رمزي زكي ص ٨٧ .
٥- الأزمة الاقتصادية الراهنة، د. رمزي زكي ص ٨٣.
٦- مرجع سابق ص ٩٣ وكذلك انظر الصراع الاجتماعي والفكري حول الموازنة العامة للدولة في العالم الثالث.

الفصل الرابع/ الباب الثاني

منهاج الليبرالية الجديدة

انطلقت مناهج الليبرالية الجديدة على كافة الصعود المحلية والعالمية من اجل ادارة الرأسمالية على النحو التالي:

الصعيد المحلي:نظّر الليبراليون الجدد للرأسمالية من منطلق أن عيوبها الأساسية غير موجودة أو أنها قد تتعرض لأزمات خطيرة، ولو حدث ذلك فان الرأسمالية قادرة على تصحيح أخطاءها ولديها القدرة الكافية للتكييف مع المستجدات والتطبيع مع أزماتها وتجاوزها بالسرعة المذهلة شرط إن يتم تحرير الأسواق وحمايتها وعدم التدخل في مسارها، وهذا لن يتأتى إلا بتحجيم دور الدولة وتخلها في النشاط الاقتصادي بل ذهب فريق من الليبراليين الجدد إلى الاعتقاد من جديد بفكرة اليد الخفية لآدم سميث وتحقيق الانسجام والتوافق بين المصلحتين الفردية والعامة .

لقد شخّص الليبراليون الجدد أزمة الرأسمالية بان أي أزمة يتعرض لها النظام الرأسمالي والتي تكمن في قصور العرض وليس في قصور الطلب، ومن هنا طالبوا بإنعاش قوى العرض، وانه لكي يتحقق ذلك يجب توفير الأمان والحرية المطلقة للمستثمرين، وان تتوفر لديهم الأموال اللازمة لنشاطهم الاقتصادي والعمل على زيادة بواعثهم للإنتاج والاستثمار من خلال تقليل ضرائب الدخل المفروضة على إرباحهم العالية، وتخفيض الضرائب على الثروة ورأس المال، وان يباع القطاع العام لهم، وان تنتقل كثير من الأنشطة التي كانت تقوم بها الحكومة إلى القطاع الخاص كالتعليم والصحة وان ترفع الدولة يدها عن جهاز الأسعار وان تتخلى الحكومة عن أهداف التوظيف الكامل ودولة الرفاه" الضمانات الاجتماعية وإعانات البطالة ودعم المواد الغذائية الأساسية للفقراء ودعم المحروقات" وكل ما هو مطلوب من الدولة إن تقوم بوظائف الحراسة لقواعد هذه اللعبة وان تضع سياسة نقدية منضبطة

الصعيد الدولي: لقد رحب الليبراليون الجدد بتعويم أسعار الصرف وإلغاء موازيين المدفوعات والتحويلات الخارجية وبضرورة تشجيع حركات رؤوس الأموال والاستثمارات الأجنبية مع خلق مناخ مواتي في البلاد التي تذهب إليها.

ومن الجدير بالذكر انه منذ السبعينات من القرن الماضي تسربت الليبرالية المتوحشة إلى المنظمات الدولية " صندوق النقد الدولي والبنك الدولي" وراحت تتعامل مع الدول النامية الفقيرة من منطلق التكييف وضرورته مع السوق الرأسمالي العالمي، وإبعاد الدولة وإضعافها وترك آليات السوق لكي تعمل بشكل طليق، هذا وقد وضعت هذه المنظمات مشروعا امميا لإعادة الانضباط الاقتصادي داخل هذه الدول وتجديد علاقاتها مع السوق الرأسمالي العالمي، وهو المشروع الذي يصاغ بشكل عام ودون إن يفرق ما بين دولة وأخرى تحت عناوين " برامج التثبت والتكييف الهيكلي"

ومن هنا نلاحظ أن الليبرالية المتوحشة بمنطلقاتها الآنفة الذكر والتي اكتسحت في تطبيقها مختلف مواقع الساحة العالمية كانت في الحقيقة انعكاسا لعمق الأزمة في النظام الرأسمالي، ويجب النظر إليها على انه تمثل ايدولوجية كاملة لإدارة هذه الأزمة، ومما ساعدها في ذلك ضعف قوى اليسار وهذا الضعف تجدر بالدرجة الأولى بسقوط الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية، ومن الجدير بالذكر إلى إن الليبراليين الجدد بدعوتهم للحرية الاقتصادية وإنكار دور الدولة في ضبط الآيات وحركة النظام الرأسمالي والتخفيف من شروره الاجتماعية وخاصة التوزيع والعدالة الاجتماعية فقد تمكنوا من إجهاض كل تقدم حققته المدرسة الكينزية والتي أثبتت أن الرأسمالية فقدت قدرتها التلقائية على التوازن وإنها معرضة من حين لآخر لأزمات دورية بسبب التباين الذي يحدث بين قوى الطلب الكلي وقوى العرض الكلي، ولمواجهة هذه الأزمة اقترح الكينزيين بأنه لا بد للدولة إن يكون لها حضورا في النشاط الاقتصادي باعتبارها العامل الموضوعي لقوى الاضطراب في النظام الرأسمالي، ومن هنا يتبين لنا إن أطروحات الكنزيين تتوافق مع أطروحات اليسار والحركة الاجتماعية الاشتراكية بالرغم من إن كينيز ليس ماركسيا بل ويعتبر من اشد الكارهين للنظام الاشتراكي لكنه اقتصادي فذ يشعر أمانة المسؤولية بان تتدخل الدولة لإنقاذ الرأسمالية من شرورها وأزماتها وهو أمر محل قبول تام من الدول الرأسمالية خلال المرحلة الممتدة من ١٩٤٥_ - ١٩٧٠

مبادئ الليبرالية الجديدة

إن الليبرالية الجديدة مكونة من مجموعة من المقترحات التي أطلقها عليهم اسم اتفاق واشنطن وهي إحدى المحاولات لتلبية حاجة مزدوجة للرأسمالية الحديثة تتمثل بإيجاد ايدولوجيا ايجابية تضفي الشرعية على النظام وبنفس الوقت تبرر العمل الجديد لاحتكاراته في جميع أنحاء العالم وهي تحاول تحقيق ذلك مرة واحدة من خلال بداء الحرية الجديدة الذي اتخذته عنوانا"١".

وكما اشرنا سابقا فان ايدولوجيا لكي تصبح فاعلة يجب تلامس الواقع والحقيقة ليس دائما في بساطتها وإنما في شكلها وحضورها الخارجي، ولكن في حالة الايدولوجيا الحاكمة نجد أن أساسها يستند إلى المظاهر لا إلى الباطن الذي تستقي منه مرجعيتها الفكرية، أما الوصول إلى الجوهر فهو مهمة علمية بحته أو من مهام ايدولوجيات الطبقات المحكومة التي تحتاج إلى المعرفة من اجل الوصول إلى نضالها الذي لا بد وان تكون نهايته التغيير.

ولو القينا نظرة على تاريخ الرأسمالية الليبرالية عبر مراحل تحولاتها فإنها لم تكن تعتمد على المعرفة وهي ليست بحاجة إليه والسبب لأن علاقات الإنتاج في المجتمع الجديد سبق لها وان ولدت إبان الانحلال الاقطاعي .

إن الليبرالية الرأسمالية ليست ايدولوجية كما اشرنا بل هي مهزلة واضحة وإنها مزيفة إذ تنادي بتسطيح للحرية ولكنها في الواقع تريد أن تحقق الحرية للأقليات والدليل على ذلك التناقضات الواضحة ما بين النظرية والتطبيق، وان أي نظام يعتمد

على شيء من هذا القبيل ويكون هدفه البقاء مع نظام بائس، ولذلك لاحظنا إن الليبرالية الجديدة بدأت تتخبط بكل الاتجاهات حيث تعرضت الدوائر المالية في دول مراكز الليبرالية بخيبة أمل"٢"، والسبب في ذلك كونها من أساسها تفتقر إلى الميكانيزم الفكري والذي يحقق الرابط ما بين الطبقات المحكومة في كافة أنحاء العالم، فقد أخذت تلجا إلى القوة المهيمنة والغاشمة وما العراق وأفغانستان عنا ببعيد، وهذا يساهم في فضح السياسات التي تتاجر بها وتكشف عن حقيقتها تحت ستار عناوين مفضوحة كنشر الديمقراطية ومحاربة الإرهاب.

إن مبادئ الليبرالية الجديدة انطلقت كما لاحظنا فيما سبق من شعارات مزيفة من خلال اختطاف المعنى الظاهري للحرية وتطبيق سياسات عدوانية إجرامية بحق الشعوب فالدمار يعني من وجهة نظر الليبرالية المتوحشة هو إعادة بناء والتفكيك هو إعادة الهيكلة ومحاربة الإرهاب هو قتل الأطفال والنساء والأبرياء ونشر القيم الإنسانية بحيث يتم زرع الحقد ونشر الفتن من خلال إسقاط القنابل على رؤوس الفقراء بدل الورد، ومن هنا فان إبراز القواعد والمبادئ التي استندت إليها الليبرالية الجديدة تنحصر في ما يلي :

أولا : عولمة الاقتصاد : أي خلق البيئة المناسبة لعالم بلا حدود أي إخضاع العلاقات الاقتصادية على مستوى العالم لمسطرة السوق وهو المقياس القادر على إدارة أدوات الإنتاج في كافة أنحاء العلم بالشكل الذي يحقق الازدهار والسعادة والرفاه الانسانية.

ولذلك نجد إن مصطلح العولمة جاء بعد الانتصار الذي حققته الرأسمالية على المنظومة الاشتراكية بدون حرب فعلية، ولكنها كانت حرب قذرة جندت الرأسمالية كل قوى الشر والكهانة لتفكيك الاشتراكية، إن هذا الانتصار الذي حققته الرأسمالية هو انتصار وهمي لأنه جاء بدون مواجهة حقيقية، والاهم من ذلك إن المعسكر المنتصر خلق هذا المصطلح لإضفاء الشرعية على هيمنة اقتصاد السوق.

النظام الرأسمالي يوجد فيه توجه نحو عولمة الاقتصاد ولكن ما يجري حاليا هو تفاقم الصراعات ما بين مراكز الرأسمالية وخاصة ما بين أمريكا وألمانيا واليابان، ويجري العمل على تشكيل كتل اقتصادية بقيادة هذه الدول، وبالتالي توسيع الحماية الجمركية من ناحية حكوماتها"٣"، هذا وبتعبير نظام الحماية الجمركية الواسع الذي يتبعه الاتحاد الأوروبي خاصة في حقل الحبوب وهو من الأنظمة المعروفة على نطاق واسع بحيث بلغت نسبة الضريبة الفعلية التي يفرضها في هذا الحقل بحدود ٣٨% واعلى من نسبة ضريبة الولايات المتحدة، ولكنها اقل من نسبة ضريبة اليابان البالغة ٧٢% وعليه فان السياسات التي تنتهجا مراكز الليبرالية تتنافى مع العقيدة الليبرالية الجديدة في مواجهة اخطر أزمة اقتصادية في التاريخ الحديث.

إن هذا الاتجاه الجديد لم يكن اتجاها نحو تكامل عالمي اقتصادي واسع يقوده السوق وإنما هو في الحقيقة إعادة تقسيم العالم من جديد وإخضاعه لمطرقة الاحتكارات ودولها الامبريالية، والحق يقال إن هذا الطريق لم يتمكن من احتواء الأزمة والسيطرة عليها، ولكن هذا الفشل لا يعود بالضرورة إلى هذا النهج بحد ذاته

وإنما يرجع إلى طبيعة الاقتصاد العالمي بدلا من تحقيق عولمة مثالية للاقتصاد، ولذلك فان العالم بانتظار أزمة شاملة لتتوفر فيها آليات موحدة للتدخل الاقتصادي أو مجردة من إمكانية تحديد السياسات الاقتصادية على المستوى العالمي، وان دلت فإنما تدل على خطورة هذه الأزمة والأيام أثبتت صحة هذا القول فالعالم يعيش ألان أزمة اقتصادية عارمة اعنف من أزمة الكساد "١٩٢٩-١٩٣٣" .

إن العولمة التي توصل إليها الليبراليون الجدد تلك التي تعمل في التروستات والكارتيلات على خلق مناطق للنفوذ بقيادة المؤسسات المالية للدولة الرئيسة من خلال احتكارها لوسائل الإنتاج ومصادر المواد اتلاولية، والتكنولوجيا والأسواق، وسحق الفقراء والدول الفقيرة، وان الاقتراحات بشأن إنشاء مناطق للدولار والين واليورو وجعلها أسواقا واسعة من اجل إعادة اقتسام العالم من جديد تحت قيادة مراكز الرأسمالية العالمية وهذا يعني ما يلي :

١- تعزيز الحدود الاقتصادية الواقعة تحت سيطرة هذه الاحتكارات.

٢- الإلغاء الكامل لحدود الدول الضعيفة وتحديد مهماتها بأنها مجرد مستودعات لأسواق مراكز الرأسمالية ومصادر للمواد الأولية والأيدي العاملة الرخيصة من اجل تحقيق المكاسب الخاصة لهذه الإطراف الاحتكارية وهذا كله سيعزز من قوة الدول المهيمنة الامبريالية وسحق الدول الفقيرة .

ثانيا : إفلاس الدولة : يعتبر هذا الوبداء من أهم مبادئ الليبرالية الجديدة، ويطالبون بإقامة مبدأ الخاصية أو التخصصية مقابل ذلك، إن هذا المبدأ الذي سنه هؤلاء المجانين وهو احد إشكال الخداع وهم يقررون إن سبب إفلاس القطاع العام يعود إلى عدم الكفاءة حيث انه يقف إمام حرية السوق والعكس هو الصحيح، إن الكفاءة هي مصدر القطاع العام وان هذا الخطاب الذي يتشدق به هؤلاء الليبراليين الجدد ما هو إلا ثرثرة كبيرة وأكذوبة تهدف إلى التغطية على ممارسة عملية النهب لمقدرات الدولة والاستيلاء عليها، فالدولة تنبذ التطرف الاقتصادي ولا تتعامل معه، بل إن التطرف هو هاجس القطاع الخاص داخل الدولة كما لا توجد كفاءة في الدولة وأنكما يوجد تشويه لأهدافها من خلال خدمتها المفرطة للمصالح الخاصة، والحقيقة أكدت إن الدولة هي التي تدافع عن المصلحة العامة والجماعية، وهي المحرك الحقيقي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية "٤" .

إن كفاءة السوق أو هيمنة الاحتكارات انطلقت من أبواق الليبرالية الجديدة وأنصارها من خلال ايدولوجيا تبشيرية إيمانها المطلق بان السوق كان وما زال وسيبقى إلى الأبد، وانه يشكل العنصر الحضاري الرئيسي الذي يكون بمفرده قادرا على تنظيم الاقتصاد العالمي بطريقة تظم التوظف المناسب للموارد المتاحة والتوزيع الأمثل للثروة والدخل، بعبارة موجزة يقر الليبراليون الجدد بان السوق هو محرك التاريخ بخلاف الماركسيون الذين يقررون بان الصراع الطبقي هو محرك التاريخ .

إن هذا الخطاب الليبرالي الجديد يمتاز بالكذب والدجل والتظليل سواء قررها النيوليبراليين عن وعي أو بخلاف ذلك هذا ويعتبر المنظرون الماركسيون إن هذا الخطاب ما هو إلا مجافاة للحقيقة لان السوق تاريخيا لم يجرب الا خلال فترات

زمنية محدودة، والسوق لم يكن موجودا منذ الازل فقد ظهر في فترة محددة من التاريخ، وان ابداعات الشعوب والحضارات التي سبقت اطروحات آدم سميث وريكاردو وفريدمان كانت لم تكن تعتمد على هذه النظرية او لم تكن تعترف بشئ اسمه اقتصاديات السوق،

وان الحضارات الانسانية وضعت القوانين التي تناسب المجتمع والجماعة لتحقيق التنمية الاقتصادية، فالسوق هو طارئ جديد على الاقتصاديات الكلاسيكية والنيو كلاسيكية ومن يقرأ الادب الاوروبي في القرنين السابع عشر والثامن عشر وحتى القرن التاسع عشر يجد المعاناة التي تكبدتها البشرية "انصح اقارئ بالعودة لقراءة كتاب البؤساء لفكتور هيجو " يجد ان السوق كان دائما يلفظ انفاس الفقراء والمعذبين ويعيد هيكلتهم الا الدولة فهي التي حمت الانسان والانسانية من سطوة السوق، فعندما بدأت المصانع بالانتشار في كافة الارجاء اخذة الدولة تعمل في اطار تدجين البائسين الذين خلفتهم ممارساتها، وذلك باستخدام القمع بكل اشكاله كالسجون ومعسكرات الاعتقال والتعذيب بهدف تحضيرهم كايدي عامل جاهزة ومطيعة لرأساء الاموال الجديدة .

ولقد اشرنا في الصفحات الماضية بان النظام الرأسمالي ولد من رحم الدولة ومن دعمها خاصة اثناء تطبيقة للكنزية وقبلها فالاخيرة ليست طارئة بل جاءت بتوافق كامل مع البرجوازية الرأسمالية، ان الدولة هي القابلة التي ساهمت في ولادة اقتصاد السوق بل ورعته في مرحلة الطفولة وقبلها في مرحلة الحمل الى ان اشتد عوده بل الى مرحلة الشيخوخة"٥"، ان الخبراء الاقتصاديين اعتبروا ان وظيفة السوق كمنظم للاقتصاد وظيفته مؤقتة ولا يمكن إن تدوم وظيفته إلى الأبد وهذا هو احد إخفاقات نظرية الليبرالية بشقيها الكلاسيكي والنوليبرالي وكلاسيكي.

إن الايدولوجيا الليبرالية الجديدة تعلن بالضبط عكس ما تثبته لنا الحقائق وهي إن الدولة وبالاشتراك مع الاحتكارات تهتم أساسا بعملية تنظيم الاقتصاد في المرحلة الحالية لرأس المال الاحتكاري لكن الليبرالية الجديدة تؤكد إن الدولة مفلسة وان السوق الذي يمر بعملية أفول واضحة تتلاشى قدرته التي كانت فيما مضى تساعد على تنظيم الاقتصاد، بيد إن الليبرالية الجديدة لاتكل ولأتمل من الدعاية عن الميزات الجديدة للسوق لأنهم ليبرلو عناصر الحقيقة ولا يريدون من الآخرين الاطلاع عليها وليس وحدهم الذين يتمتعون بهذه الصفة بل إسلافهم الذين سبقوهم في تجريد الصفة العلمية من الاقتصاد حيث سبقهم اؤلائك الذين أطلق عليهم كارل ماركس " السوقيين " وأبوا على القيام بنفس العمل "٦" .

في نهاية هذا التحليل عن ايدولوجيا الليبرالية المتطرفة يمكننا القول إن السوق لم يعمل بصورة كاملة إلا في القرن الماضي ولفترة قليلة من الزمن خلال الفترة التي تم فيها تدمير جيوب الإقطاع لدى انتهاء الثورة الصناعية الأولى وخلال الفترة التي تبدءا من الربع الأخير من القرن الماضي، والتي نشأت فيها الاحتكارات نتيجة قيام الثورة الصناعية الثانية، إذن فان هذه المدة هي اقل من قرن واحد من الزمن وتشكل ١% من عمر التطور المقرر للبشرية، ولذلك فان مقولة إن السوق هو محرك التاريخ كلام مشكوك فيه وسهل دحضه لأن الفترة التي قاد فيها اقتصاد السوق

الرأسمالية كانت محدودة والاهم من ذلك كانت هذه الفترة مدعومة ومغطاة من قبل الدولة البرجوازية .

إن الشيء الذي يجب إن نقرره هو إن التاريخ لم يتطور بصورة تلقائية ولا بصورة عشوائية فوضوية تجارية وإنما تم من خلال وعي الإنسان وبزيادة المعرفة بقوانين الطبيعة ونواميسها، وباستخدام هذه المعرفة لزيادة القدرة الإنتاجية للإنسان ولتطوير القوى الإنتاجية، وحتى عندما كان السوق يؤدي دوره في العصر الرأسمالي كان التخطيط الذي مارسته وطبقته الرأسمالية التي استخدمت الدولة يمثل المحرك الرئيسي للتطور، كما إن الرأسمالية تعرضت لضغط من القوى الإنتاجية أي من العمال لدفع عجلة التنمية، وليس لاقتصاد السوق، وهكذا يبدو لنا إن القوى الحاكمة هي التي كانت تؤثر في عملية النمو والتطور، وليس للسوق وأي إن هذا الانجاز هو نتيجة تطبيق ايدولوجيا القوى المهيمنة ويدعمها مثقفوها.

الخلاصة التي نريد إن نصل إليها إن الذي يقود الاقتصاد الرأسمالي ليس هو السوق بل هو النشاط الذي تقوم به الدولة، والدوائر المهيمنة والتخطيط الاحتكاري الذي قد يقوم به فرد مستنفذ أو مجموعة قليلة مستنفذة، وما نريد قوله هو إن التخطيط الجماعي هو العامل الحاسم في الاقتصاد، وعليه يقع دور إزالة تحكم السوق والفئات المهيمنة ليتم إفساح المجال إمام ارقي نتاج الطبيعة المتمثلة بالوعي الإنساني لكي يأخذ دوره، وهذا هو المنطق بعينه إذ ينبغي للجزء الأرقى إن يقود الكل لأن العكس من ذلك سيصبح كما لو إن الذيل الرأسمالي وهو جزء من الاقتصاد والكلب يتحرك من قبل الذيل!!!!

كيف ومتى بداءت الهجمة البرجوازية على تفكيك الدولة والقطاع العام ؟

اشرنا في ما سبق بان رياح حركة التنوير الأوروبي والتي بدأت تهب على النظام الرأسمالي العالمي في الدول المتقدمة وكل إطرافه المختلفة أي إن الرأسمالية الليبرالية جرفت كل الإشكال التي تحاول أن تقف أمام تقدمها بشتى الوسائل الممكنة لتفكيك سيطرة الدولة على النشاط الاقتصادي ليس حبا بالدفاع عن حرية الإفراد وإطلاق الحريات الاقتصادية تحت فرص التنمية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية معا بل تحقيق قدر اكبر من الربح لدهاقنة الرأسمالية العالمية المتطرفة .

لاحظنا كذلك خلال المرحلة التي تلت الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥-١٩٧٠ كيف تم توظيف النظرية الكنزية في تحقيق الرفاه الاجتماعي بسبب الأزمات الكبيرة التي يعاني منها النظام الرأسمالي، وحينما يتأمل الباحث في هذا الإنتاج الفكري الضخم الذي أحرزته الترسانة المعاصرة للفكر الاقتصادي الرأسمالي البرجوازي والذي جعل من معركته الرئيسة تفكيك الدولة والوصول إلى إقصائها وإنهائها وبالتالي إضعافها للحيولة دون التدخل في إشكال النشاط الاقتصادي .

ومن خلال نظرة فاحصة ومتقدمة في هذا الكم الهائل من السياسات الاقتصادية الجديدة، والتي استهدفت تحجيم دور الدولة والقضاء على التدخل الحكومي في

النشاط الاقتصادي والاجتماعي، والأمثلة كثيرة في هذا المجال مثل نقل ملكية المشروعات العامة إلى القطاع الخاص والتخفيض المستمر لمصروفات الضمان الاجتماعي، والخدمات العامة والاعتماد المتزايد على السوق وآليات العروض والطلب.

ومن هنا كما تشير الدراسات التاريخية فقد تمكنت الليبرالية المتطرفة من الزحف مبكرا إلى دول العالم الثالث بعد انحسار وانكسار حركة التحرر الوطني، وحصار عملية التنمية وازدهار التخلف والتبعية فيها، حينما يدقق الباحث الحصيف في كل هذا العدوان الذي شنته وما زالت تشنه الليبرالية الجديدة للتدخل الحكومي يلمس الباحث إن الهدف هو تطبيق المنهج الرأسمالي في مرحلته الصناعية الأولى حينما بدأت الرأسمالية في حركتها صوب احتلال دول جديدة وإنشاء مستعمرات والاهم من ذلك هو استغلالها الفاضح للأطفال والنساء .

والسؤال الذي يطرح نفسه ما سر هذه الليبرالية المتطرفة التي نشاهدها سواء على ساحة مراكزها المتقدمة الصناعية أم في إطرافها المختلفة، بل وصل الأمر إلى عدد من الدول التي كانت تنتهج المنهج الاشتراكي، وهذا ما يستدعي بنا إن نطوف في أعماق التاريخ وقد اشرنا إلى هذا الطواف التاريخي وأثبتنا كيف بدأت الرأسمالية التجارية والصناعية وكيف ساهمت في إذلال الإنسان وتحطيمه .

بدأت الظروف التي تهيأت للتفكير بتحجيم الدولة منذ بواكير الأزمة النفطية التي جرت إثناء حرب رمضان ١٩٧٢ ما بين العرب وإسرائيل عندما شكلت الدول المنتجة للنفط، ومعظمها دول عربية تحالفا سمي بالأوبك أي منظمة الأقطار المصدرة للنفط، إن معالجة نتائج الأزمة تطلبت أسلوبا جديدا وإدارة الاقتصاد من خلال الكبح المالي والتحكم في عرض النقد وبين ليلة وضحاها سمع إن وزراء المالية في الدول الأوروبية والغربية يتحدثون عن الحاجة الماسة إلى محاربة التضخم وكبح جماح القطاع العام، وقد جعل مقدموا العروض المأزومة من تبني هذه الروح الجديدة شرطا لتقديم القروض في بريطانيا عندما اجبر وزير ماليتها ديني هبلي على اللجوء لصندوق النقد الدولي لطلب قرض في عام ١٩٧٦ كان من شروط معونة الصندوق تخفيض الإنفاق العام والضبط المحكم للتضخيم "٧" .

ومنذ تلك اللحظة احتضرت الكنيزية ومعها الحكومة الكبيرة إن لم تكون قد ماتت وبالفعل قد نعاها رئيس الوزراء العمالي "جيمس كالهان " في خطبته التي ألقاها في مؤتمر حزب العمال في وقت متأخر من ذلك العام قائلا :

" كنا نعتقد إن بإمكانكم إن تتدبروا أموركم للخروج من الانكماش الاقتصادي وان تزيدوا من فرص العمل بزيادة الإنفاق كثيرا وأقول لكم صراحا إن هذا الحق لم يعد موجودا "٨" .

وفي الولايات المتحدة الأمريكية كان الرئيس كارتر قد توصل إلى هذا الاستنتاج فاختصر النفقات العامة وبذلك تحولت النظرية الكنزية في نهاية السبعينيات من القرن الماضي مجرد نظرية في متحف التاريخ .

وجاءت اللحظة الحاسمة أو ما نسميها الفرصة الحاسمة وهي المرحلة التي جاءت بعد رئيس الوزراء البريطاني مارغريت تاتشر ثم رونالد ريغان وهما سياسيان محافظان وقد تبنيا بحماس فكرة اقتصاد السوق أو الأسواق الحرة، وكانا يعاديان بإصرار مفهوم الدولة المتدخلة في شؤون مواطنيها .

وقد رفضت ابنة البقال وممثل هوليود النظرية الكنيزية وتبنيا أراء ملتون فيردمان وفريد ريش حابك، وان أسس هذه المبادئ هي إن الأسواق لا يمكن إن تفشل وإنما آمنا بان السوق الحرة قادرة بشكل أفضل من الدولة في توزيع البضائع والخدمات، وان محاولات الحكومة لمحاربة إخفاقات السوق تؤذي أكثر مما تفيد، وانطلقت فكرة "فيردمان وحابك" استكمالا للسياسة الاقتصادية الفيكتورية " نسبة إلى الملكة فكتوريا" وحتى انهيار السوق المالية الأمريكية، وتوصلا إلى دور الدولة وهو فرض العقود وتوفير العملة المستقرة لضمان عدم انحراف قوى السوق من اجل توفير أفضل المناخات لازدهار النشاط الاقتصادي وأعادوا إلى الأذهان تصريحات الرئيس الأمريكي " كلفن كوليج" في العشرينات من القرن الماضي" إن شغل امريكا هو النشاط التجاري"

إن التحالف الريجاني ـ التاتشري بالرغم من اختلافهما في كثير من القضايا والملفات الاقتصادية إلا إنهما تبنيا أراء " فيردمان وحابك" فقد تبنت تاتشر نظرية

التحكم في عرض النقود أي التأكيد على التحكم الدقيق في الموارد النقدية بينما إدارة ريغان كانت خاضعة لهيمنة اقتصادية لعرض الذين تبنوا تخفيض الضرائب لإعطاء اكبر حافز للإنتاج، وبذلك كان تحالف ريغان – تاتشر ضد نظرية كينيز بل ونفي لمبادئ هذه النظرية لفترة ما بعد الحرب .

فقد نادى اليمين المحافظ الجديد بتخفيض التضخم وخفض النفقات العامة التي اعتبروها سببا للكساد الاقتصادي بدلا من غايات التوظيف الشامل وإيجاد دولة الرفاه السخي، لقد أراد اليمين الجديد إن تصل التخفيضات إلى خصخصة كثير من وظائفها أو تكليف مؤسسات أخرى بها .

وقد استند آراء هذا التوجه إلى إن الدولة وصلت إلى حالة من التطرف ويجب إن يتم تهذيب هذا التطرف للوصول إلى إلغاء حضور الدولة في النشاط الاقتصادي من خلال ما يلي :

١- تخفيف شرور الدولة التي هي قدر الإنسان .

٢- توفير إطار يستطيع الناس والجماعات إن يتابعوا من لخاتل أحلافهم المختلفة لا لضمان الرفاه بشكل ايجابي "٩"

ويستدل على نهج هذا الفريق الاقتصادي الجديد ما قاله وزير الخدمات الاجتماعية في حكومة تاتشر "جون مور " عام ١٩٨٧ " ظل الرأي العام في بريطانيا لمدة تزيده عن ربع قرن بعد الحرب العالمية الثانية، وبتشجيع من رجال السياسة يسير في طريق اعوج نحو اعتماد أكثر على دولة اقوي وتحت قناع الشفقة، ثم تشجيع الناس ليروا أنفسهم ضحايا الصروف "١٠" .

هذا وقد اعتبر الليبراليون الجدد إن السياسات الكنزية من خلال دولة الرفاه قد ساهمت في ترسيخ ثقافة البلادة والتوكل، ومن هنا فقد برزت مجموعة من القيم الجديدة لليبرالية المتوحشة وتنصب فتمايلي :

١- حل الاستغلال محل الاعتماد المتبادل .

٢- رفض مبدأ المساواة على أساس ايدولوجيا ولم يعد للدولة دور تقوم به في إعادة توزيع الثروة .

٣- لا مكان لمعايير الحاجة المطلقة .

ومن هنا يلاحظ القارئ إن هؤلاء الليبراليين الجدد والمحافظين الجدد يريدون إن يصلوا إلى أكثر من ذلك قائلين " ما عادت الدولة مسئولة عن توفير دعم بلا تمحيص لمن حرموا من القدرة إن يكونوا منتجين لأي سبب كان ".

هذه الأقوال وغيرها جاءت في عام ١٩٨١وفي إعقاب إعمال الشغب التي جرت في بريك ستون، قال وزير الدولة لشؤون التوظيف البريطاني في عهد تاتشر " نورمان تبيت " إن أبي لم يشاغب بل ركب دراجته ليبحث عن عمل، وصار عنوان التاتشرية آنذاك اركب دراجتك "وخلال هذه الفترة المرحلة تغيرت القيم الأخلاقية وانقلبت على عقب فمثلا اعتبر الشجع شيئا حسنا فقد صورته الأدبيات الاقتصادية بأنه من فضائل الإعمال وخاصة كتب كل من**WALL STREET** لاوليفرسق، **THE BONE FIRE OF VANITIES** لتوم ولف " وكتاب **THE MONY** لمايكل لويس، وكانت رياء الطامحين للمشاركة في الحلم الأثري قد فصلت لتناسب هذا الطموح، فقد كتب رجال الاقتصاد من جامعة شيكاغو عن الإنسان باعتباره إنسانيا ونوويا إلى ابعد الحدود، وبذلك خلقوا فكرة إن يكون الإنسان " الرجل الاقتصادي " .

لقد داست حكومة تاتشر على كل طموحات حكومات العمال والمحافظين في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي فقد حررت الحكومة من عبئ التوظيف الشامل واحتفظت بمزايا التزويد الخاص لا بالتزويد العام، وساهمت في خفض عبئ الإنفاق الاجتماعي الذي زعمت انه عمل على تآكل الحوافز الاقتصادية بشكل خطير، هذه الحوافز هي التي جعلت التنمية الاقتصادية المستدامة شيئا ممكنا، كان هذا يفضي إلى إرخاء العنان للقطاع الخاص وتقييد الدولة، ولتأكيد هذه النزعة بيعت فضيات العائلة المالكة في بريطانيا حيث رأت تاتشر في الخصخصة العلاج الرئيسي لعلل الاقتصاد البريطاني، وأسلوبا مناسبا لموازنة الموازنة، وقد تمت عملية البيع بشكل واسع لأصول كبيرة من القطاع العام إلى القطاع الخاص خلال الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، فجمعت حكومة المحافظين من ذلك ٦٧ بليون جنيه استرليني ما بين أعوام من عام ١٩٧٩ -١٩٩٧ .

وتشير المصادر إلى إن رئيس الوزراء البريطاني الأسبق هارلود ماكميلان هو الذي وصف هذا بأنه بيع لفضيات الأسرة الحاكمة أو المالكة بثمن بخس قائلا " في البداية كانت فضيات الحقبة الجورجية وهي الحقبة التي حكم بها الملك جورج الخامس والسادس الممتدة من ١٩١٠ -١٩٥٢ هي التي استغني عنها، وتلاهى جميع

الأثاث اللطيف الذي كان يوضع في الصالة، ثم بعد ذلك لوحات الرسام الايطالي كانلي اوكانوليتو الذي اشتهر برسومه التفصيلية للمدن القديمة ولا سيما البندقية " .

هذه الخطبة ألقيت في ٨ نوفمبر ١٩٨٥ إمام التيار الإصلاحي لحزب المحافظين، كما إن الحكومة كانت تمتلك عام ١٩٧٩ معظم الفحم أو كله وكذلك الفولاذ والغاز والكهرباء والسكك الحديدية وخطوط الطيران والاتصالات والطاقة النووية وبناء السفن، ولها حصة كذلك من النفط والمصارف والملاحة والنقل البري إلا انه مع حلول عام ١٩٩٧ كانت جميع هذه المرافق في أيدي القطاع الخاص، ولقد لخص وزير الدولة لشؤون الطاقة بنجل لارسن قائلا " يجب إن لا تبقى أي صناعة تحت ملكية الدولة، ما لم تكن هناك حالا ايجابية شاملة تدعوا إلى ذلك .

كما واتخذت الحكومة البريطانية خطوات لإرساء ثقافة اقتصادية تثمن الابتكار والمشروعات الجريئة حيث خفضت معدلات الضريبة على صرف النقد الأجنبي وإرباح الأسهم دون الالتفات إلى الوضع الحرج الذي يمكن إن تصل إليه الأمة حيث فقد آلاف الموظفين وظائفهم في بنك انجلترا، والغي الإقراض والشراء بالتقسيط ورفعت القيود عن الإذاعات والاتصالات والنقل والإعلان، ووضعت برامج للحق في شراء مساكن البلدية واصبحت الأسهم ميسورة بشكل كبير أكثر من ذي قبل، ولا سيما المرافق التي كانت تمتلكها الحكومة، وفي عام ١٩٧٩ تضاعف عدد النقابات المهنية وأصحاب الأسهم، وخلال عشر سنوات زادت المجموعة الأخيرة على المجموعة الأولى، وسادت الرأسمالية الشعبية، وكان كل واحد إن يشارك في نجاح تاتشر الاقتصادي، واصبحكل من يعارض هذا النجاح معرضا للهجوم، وتم حل التنظيم لأنه صار يعتبر حلا يخنق الشركة، وهوجمت الاتحادات بشدة واعتبرت مسئولة إلى حد كبير عن الأداء الاقتصادي الضعيف للصناعات البريطانية، وأصبح التنديد باليمين الجديد مبدءا أساسيا لدى النقابات المهنية "١١"

تجربة الليبرالية الأمريكية

انتقل فيروس الليبرالية الجديدة من انجلترا إلى امريكا من منطلقان التجربة التاتشرية ـ الريجانية من منطلق الإيمان الثابت بنظرية الانسياب الخفيف التي تدعي بان الأغنياء إذا منحوا حوافز للعمل كمقاولين، وهكذا سيعملون على ازدهار النمو وخلق الوظائف أو إذا حولت صناعات الخدمات ألعامه إلى القطاع الخاص فإنها ستسير بشكل أجود وتوفر وظائف أكثر لإفراد ستبداء إعدادهم في التناقص من سجلات المعونة الاجتماعية، واعتبر توفير حوافز للفقراء اقل للعمل اقل إغراء انه يعمل على دعم النمو الاقتصادي .

هذا وقد جرى التشدد في متلبسات أحقية الحصول على المساعدات وسحبت من بين الذين كانوا يتمتعون بحق اخذ قسائم المال والطعام من مؤسسة تقديم العون للذين يعولون اطفالا، وعلى العكس من اوروبا فان الملكية العامة لم تنجح في امريكا حيث بدأت إدارة ريغان بإزالة القيود عن الاقتصاد وهي عملية بلعها كما أسلفنا جيمي كارتر في السبعينات من القرن الماضي، كما وألغت إدارة ريغان القيود عن أسعار

النفط وخففت القيود عن النقل بالسكك الحديدية وعن الإذاعة وعن صناعة النفط والغاز الطبيعي، وكانت إدارة ريغان غير متحمسة لفرض تشريعات تقاوم الاتحادات الاحتكارية بالرغم من إن زعماء النقابات المهنية الأمريكية لم يستخدموا كثيرا من التأثير السياسي إلا إن ريغان أعاد قرار تاتشر في الالتزام القوي بكبح سلطان النقابات إذ انه بعد إن تسلم الرئاسة بقليل واجه إضراب مراقبي الملاحة الجوية على مستوى الأمة فما كان إلا إن طردهم في الحال واستبدل مكانهم مراقبين عسكريين وعمالا حديثي العهد والتدريب"١٢".

وكخطوة استباقية لدغ القطاع الخاص وعد برفع عبئي الحكومة عن ظهر الشعب فقد أراد بإجراء التخفيضات الضريبية إن يعيد خلق الحوافز الذي جمدته سياسات إسلافه، وانخفض السقف الأعلى من معدل ضريبة الدخل في الولايات المتحدة من ٧٠% إلى ٢٨%، وفي أوائل الثمانينات من القرن السابق حيث تغير الواقع في القرن السابق حيث تغير معه دور الدولة ووظيفتها في كل من بريطانيا وأمريكا فقد اعتبر نهج الليبرالية الجديدة بمثابة بشارة جديدة لولادة دين جديد وهو اقتصاد السوق، وانحصرت مهمة الحكومة في خلق الإطار الذي يستطيع الإفراد والجماعات من خلاله متابعة مشاريعهم وأحلامهم كل على انفراد حيث كشف مدير الخزانة الأمريكية في عهد ريغان " ديفيد ستوكمان" حيث يقول " إن رؤية المجتمع الجديد تقوم على قوة رجال أحرار في أسواق حرة وعلى قدرتهم الإنتاجية "

ماهي الرسائل التي يريد إيصالها الليبراليون الجدد إيصالها؟

من خلال العرض السابق يمكننا تحديد أهم الرسائل التي تريد إن تحققها الليبرالية الجديد وعلى النحو التالي:

١- إن تبتعد الدولة عن النشاط الاقتصادي فمهمتها ليست ضمان التوظف الكامل أو تحقيق دولة الرفاه بل المطلوب العودة إلى وظيفتها الرئيسة وهي الحراسة الداخلية والخارجية فقط

٢- ضبط السياسات النقدية : أي ضبط كتلة النقود المتداولة والليبراليون يعطون لهذه الكتلة أهمية محورية في تفسير سير النظام الرأسمالي فهي المتغير الاستراتيجي الذي يتحكم في كل المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية، وكذلك فان حجم هذه الكتلة يجب إن يخضع لميزان دقيق يتناسب مع حجم الدخل أو الناتج، أي إن الليبراليين الجدد يفسرون فترات الأزمات التي تعرضت لها الرأسمالية من خلال المتغيرات الحاصلة في كمية النقود، وهم كذلك يعتقدون إن تلك الكميات كانت اقل من المطلوب في سنين الكساد١٩٢٩- ١٩٣٣، وانه لو كانت البنوك المركزية قد سارعت لتنظيم عرض النقود وضخ السيولة المناسبة لما كان الكساد قد حصل.

٣- إن أزمة الرأسمالية الحديثة والمتمثلة في شدة الضغوط التضخمية، وانخفاض تراكم رأس المال وتراجع معدلات النمو مع زيادة معدل البطالة تعود إلى أخطاء

السياسة النقدية التي تمثلت في ضخ كميات كبيرة من النقود لتتناسب ومقتضيات التوازن.

٤ـ لقد سوق الليبراليون الجدد ونادوا بالفكرة القائلة بزيادة الفائدة في الأجل القصير هي أفضل بكثير من زيادة الضرائب سواء على الأجل المتوسط أو الطويل فهذه الزيادة ستؤدي إلى ضبط عرض النقود في حين إن زيادة الضرائب تحبط حوافز الادخار والاستثمار والعمل، وحينما تتولى البنوك المركزية ضبط كمية النقود بما يتناسب وحجم الناتج فانه يجري بعد ذلك تعديله تبعا للمتغيرات الاقتصادية

٥ـ ما يريده الليبراليون الجدد كذلك إيصاله بان التكلفة الاجتماعية لما يسمى بالديمقراطية البرجوازية ودولة الرفاه أصبحت لا تطاق في صروف الكساد وانخفاض معدلات الربح حيث عبرت عن رأيها بشكل علني من خلال رفضها بدفع هذه الفاتورة فطالبت بتقليص الإنفاق الحكومي العام ذو الطابع الاجتماعي لكي تبرر مطالبها بتخفيض الضرائب المفروضة على الدخول والثروات المرتفعة، وان تتراجع الدولة عن التدخل في النشاط الاقتصادي، وكل ما عليها هي إن تهتم بوظائفها التقليدية وان تضبط معدلات نمو عرض النقود.

كيف تم تطبيق أفكار الليبرالية الجديدة ومتى ؟

الدراسات تشير انه في عهد الرئيس الأمريكي ريغان أي في أوائل ١٩٨٠ من خلال ما أوصت به لجنة " كيمب روث" إلى إجراء خفض كبير في معدلات الضرائب على الدخل والثروة، وكذلك لحقتها بريطانيا وفرنسا وكان من نتيجة هذه السياسة تحقيق الأهداف التالية :

١ـ زيادة موارد القطاع الخاص
٢ـ تزايد العجز بالموازنة العامة نظرا للخسارة الكبيرة التي حدثت في حصيلة الضرائب، وفي هذا الصدد يقول الاقتصادي الأمريكي" مهير بوز" في ذلك قائلا" لقد أدرك الرئيس الأمريكي ريغان بعد نشر فكرة " لافر" انه ليس عليه عناء البحث عن حلول فقد وجدها في خط لافر البياني وتبين له إبان الحرب العالمية الثانية عندما كانت الضريبة الإضافية على الدخل ٩٠% انه لا يستطيع التمثيل في أكثر من أربعة أفلام سينمائية في السنة لأن كل فيلم يمثله إضافة إلى الأربعة أفلام يذهب دخله ضريبة للدولة ومن خبرته الشخصية راقت فكرة لافر تماما" "١٣".

من جهة أخرى وكما يقول " جون كينيت جالبرايت" في هذا الصدد " خفضت الضرائب لمصلحة الأغنياء ليس من الممكن قبل هذه الحقيقة في بلد ديمقراطي كبلدنا ولكن لا بد من مواجهة ذات مظهر خداع واقتصاد جلب العرض لقد شكلت هذه الواجهة لتمرير التخفيضات الضريبية التي استفاد منها الأغنياء، إني آسف جدا إن أدلي بهذا الاعتراف" "١٤".

ولتأكيد أضاليل وأباطيل وأكاذيب ومزاعم الليبراليين الجدد حيال قضية خفض الرائب على الأغنياء فقد كانت الدعاية الأمريكية في عهد ريغان تروج بأن تخفيض

الضـرائب سـتؤدي إلـى زيـادة حصـيلة الضـرائب وتسـاهم فـي إعـادة التـوازن إلـى الموازنـة العامـة، وعلـى هذا الأساس عكف " ديفيد ستكومان" مسئول الموازنـة في عهد ريغـان علـى وضـع سيناريو بـين فيـه انـه بحلـول ١٩٨٦ سيكون فـي الموازنـة فائض يقدر بـ٢٨ مليار دولار ولكن الواقع بعد ذلك إظهار عجز مقداره ٢٢٦ مليار دولار رفـع المجمـوع التراكمـي للعجـز مـن عـام ١٩٨٢ – ١٩٨٦ إلـى حـوالي ٩٤٢ مليار دولار واستمر العجز بعد ذلك يتفاقم عاما بعد عام، وهذه الأرقام تثبت مدى أكاذيب الليبراليين الجدد ودهاقنـة المحـافظين الجدد، وان هذا الانخداع والنفاق الذي أعدت به الموازنات العامة إثناء حكم ريغان أصبح مكشوفا للعيان "١٥" .

لقد ركزت الليبرالية الجديدة على نقل ملكية المشروعات العام إلى الخـاص، وقد نجم عن تطبيق هذه السياسة إعادة توزيـع الثروة لصـالح البرجوازيـة بعد تمكنهـا من الاستيلاء على ملكية المؤسسات العامة على أساس قواعد السوق والتي جاءت كمـا يقولـون بسـبب توسـع القطـاع العـام فـي مجـال الاسـتثمارات خاصـة فـي بـروز أزمـة الليبرالية في السبعينيات حيث اغتنمت الليبرالية الجديدة هذه الفرصة وسلطت الضوء على هذا المحور ولجأت إلى أسلوب دعائي يركز علـى إن الدولـة هـي أسوء مستثمر ولأن القطاع الخاص أكثر كفاءة فـي تخصيصـه كموارد من القطـاع العام وان زيـادة حجم الاستثمارات الحكومية تزعج الإقطاع الخاص تتحد من حريـة حركتـه، وان نمـو القطـاع ينـذر بعـودة الأفكـار الشـمولية، وعليـه فـالمطلوب لحلحلـة الأزمـة يجـب علـى الدولة إن تتخلى عن ملكيتها للقطـاع القطـاع العـام، وبالفعل بـداء الإعداد لنقل ملكيـة كثير من الشركات العامة إلى القطاع الخاص شركة تتلو شركة كمـا لـو كانت عجولا سمنت خصيصـا للـذبح، وقد كانـت البدايـة فـي بريطانيـا مـن خـلال شـركة " بـريتش تليكوم" ومـا تـلا ذلـك مـن شـركات أخـرى أيـام حكـم تاتشـر ثـم راحـت حكومـات بـلاد أخـرى تسـير علـى نفـس الـنهج " فرنسـا، ايطاليـا، كنـدا، سـنغافورا"، ولـم يكـن البيـع قاصـرا علـى الرأسـمالية المحليـة بـل شـاركت بنـوك ومؤسسـات ماليـة أجنبيـة، ومستثمرون من بلاد أخرى، وواكب ذلك تدهور الاستثمارات الحكومية الثابتـة في المدارس والمستشفيات والمرافق العامة .

كيف بداء تصدير الليبرالية الجديدة ؟

لقد انتشر مذهب النيوليبرالية بشقيه الأمريكي والبريطـاني، فـالأمريكي مـن خـلال التواجد الكثيف لجنود الرأسمالية حيث ذرع مشاة الرأسمالية فـي العـالم مـن امريكـا اللاتينية إلى شرق آسيا والهند ومعظم إفريقيا، ومن الأمم الرأسمالية العتيقة الهابطة مثل المملكة المتحدة إلى اقتصاديات الرأسمالية النشطة ذات التراث التليد مثل ألمانيـا، وحتـى بعـض اقتصـاديات بقايـا الـدول الشـيوعية والاشـتراكية، وقـد تـم نشـر ثقافـة الليبرالية الجديدة بفضل التطور التكنولـوجي فـي مجـالات الاتصـالات والإعلام التـي سـاهمت بسـرعة فائقـة فـي نشـر هـذه الثقافـة، والاهم من ذلك المؤسسـات الاقراضـية الليبراليـة التـي تهيمن علـى القـرار الـدولي والتـي اطلـق عليهـا مجموعـة واشـنطن" صـندوق النقـد الـدولي والبنـك الـدولي"، واصـبحت كلمـة السـوق هـي الكلمـة الأكثـر انتشارا في السبعينات والثمانينات .

ومن الجدير بالذكر إن أكثر الأقطار والدول التي احتضنت رأسمالية الليبرالية الجديدة هي الأقطار التي خرجت من معطف السيطرة البريطانية، وقد حمل الأداء الاقتصادي المتأرجح في الثمانينات في استراليا وزير ماليته " بول ليتنغ" الذي أصبح رئيسا للوزراء فيما بعد إلى التحذير من إن تصبح إحدى جمهوريات الموز إذا لم تقوم بإجراء إصلاحات اقتصادية كاستبعاد القيود والاستقامة المالية والخصخصة تذكر كثيرا بخطط تاتشر.، وفي كندا في تلك الحقبة قام " بريان مولروني " بتحرير القوانين التي تفيد الاستثمار الخارجي فيها فاتحا بذلك السوق الكندية للتجارة الحرة، وفي نيوزلندا أكثر ديمقراطيات العالم اشتراكية وشمولا تحولت إلى ليبرالية جديدة فقد أحيت ايدولوجيا ليبرالية جديدة وتبنت، حيث تبنت برنامج إصلاح جذري لم يترك مؤسسة اجتماعية رئيسية من غير هيكلتهاط١٦".

إما في امريكا اللاتينية فان الأنظمة العسكرية التي سيطرت على المسرح السياسي في عقد الثمانينات، حيث وضعوا أنفسهم في خدمة اليمين المحافظ الأمريكي والبريطاني فمثلا في تشيلي وخلال حكم " بينوشيه" الذي انتهج سياسات اقتصادية مؤلمة ترتكز على ضبط صرف المال وهو الأنسب في نظره لتثبيت الاقتصاد حيث تمت هذه الإجراءات تحت إشراف اقتصادي من قبل الليبراليين الجدد " جناح مدرسة شيكاغو" ومع انطلاقة العقد التاسع من القرن الماضي سعت معظم القيادات السياسية في امريكا اللاتينية بدء من الرئيس المكسيكي كارولسساليتيس دي غورتاري والارجنتيني كارلوس منعم والبرازيلي فيرنالدو كولوردي ميللو إلى تطبيق برامج بعيدة المدى للتحرر الاقتصادي تعترف بالحاجة إلى منافسة السوق والانفتاح على الاقتصاد العالمي، وكانوا يؤمنون بان تخلفهم ناجم عن درجة غير كافية من الرأسمالية تمت ممارستها في بلدانهم في الماضي، وأدركوا إن الفرصة السانحة إمامهم هي المزيد من الاقتراض من البنك الدولي، وبالمقابل فأنهم لن يخسروا شيئا فتطبيق حزم اقتصادية تتماهى مع عصابة واشنطن هو مكسب بالدرجة الأولى، هذا وقد اضطرت اوروبا للسير في اتجاه الليبرالية الجديدة بسبب المستويات العالمية من التضخم والمديونية العامة والاهم من ذلك المنافع التي ستحققها الخصخصة وخاصة ألمانيا بقيادة " هولمت كول" وفرنسا بقيادة " جاك شيراك" .

إن الموقف الفرنسي والألماني لم يأتيا نتيجة إيمانهم بخط ريغان ـ تاتشر، ولكن كما أسلفنا بسبب المنافع الاقتصادية التي سيحصلان عليها، إضافة إلى التماهي مع البيئة الاقتصادية الجديدة والتي تتطلب منهما دعما للسياسات الاقتصادية الجديدة أي سياسات اقتصاديات السوق وتخفيف الضرائب وإلا كانا خاسرين على المستويين الداخلي" الاستثمار الداخلي" فقد عمل كول على تقييد المساعدات الاجتماعية والرعاية الصحية وعلى خصخصة الشركات، في ايطاليا وفرنسا قد تم تقديم خصخصة شركات تصل قيمتها إلى ٥٠ بليون دولار في السنوات العشر التي انتهت عام ١٩٩٥، هذا أدى إلى زيادة الشركات التي تملكها ايطاليا .

وفي المنظومة الاشتراكية جرت إحداث مرعبة فبعد تفكك الاتحاد السوفييتي تحللت الكتلة الشرقية وقبلها تفككت وتطايرت إلى أشلاء بلا حرب مع إن غربان الرأسمالية كانوا يقولون إذا كان وليم الفاتح قد احتل بريطانيا بالسيف فان المنظومة الاشتراكية قد هزمتها زجاجة الكوكاكولا .

لقد صدمت رأسمالية السوق الحرة المعسكر الشرقي من خلال ما بثته كل من "روبر ميردوك " "وتد ينرند" رؤيتها للعالم جاعلين من المستحيل على الحكومات الشيوعية حجب ازدهار الدول الغربية في عيون شعوبها حيث بلغ عدد مطاعم ماكدونالد نهاية القرن الماضي نحو ثلاثين إلف فرع وتتوزع في ١٢٠ بلدا في العالم "١٤ " .

إضافة إلى بنطلونات الجينز ماركة ليفي وسيارات "~~bmw~~bow" وموسيقى الروك اندرول رموزا لاسلوب الحياة الغربية، وكانت لهذه الرموز اهميتها في نظر سان اوروبا الشرقية ولم تعد الحكومات الاشتراكية قادرة على مقاومة نظام رأسمالي دولي تناست ثروته كثيرا خلال العقدين الماضيين قبل نهاية القرن الماضي، وقد دفعت ثمن الإنفاق العسكري الضخم، لقد كانت مجاراة برنامج حرب النجوم الذي اقترحه ريغان شيئا مستحيلا، واصبحت واصبحت الحاجة إلى الاتحاد السوفييتي إن يكون مستعدا لمحاربة بقية العالم امرأ يزداد التثبت به صعوبة .

إن سقوط الاتحاد السوفييتي دفعة واحدة اثر على دول مثل الهند التي كانت ترتبط بعلاقات اقتصادية مع المنظومة الاشتراكية الشرقية فقد نجم عن هذه الدول إن اتجهت إلى تطبيق النهج الليبرالي الغربي وتحرير أسواقها واقتصادياتها وهي ألان ماضية في الخصخصة وتيسر عملية الاستثمار الأجنبي .

إما في إفريقيا فبعد عام ١٩٨٩ تحولت كل من زامبيا وتنزانيا بين عدة دول شرعت في التحول نحو اقتصاد السوق .

وفي الصين والتي فاجأت العالم بان سبب تخلفها الاقتصادي عن باقي دول أسيا الرأسمالي يعود إلى التخطيط المركزي الاشتراكي وهو المسئول عن ذلك "١٥" .

كما وقد أعلنت كثيرا من دول العالم الثالث فضلا عن دول النمو الاقتصادي استعدادها لفتح أسواقها، والترحيب بعقيدة اقتصاد السوق وأنبياء العولمة وتحرير التجارة، وهذا الترحيب جاء بسبب إن فقدت هذه الدول ثقتها بأنظمتها الاقتصادية المحافظة والتي كان مردودها الاقتصادي ضعيف جدا بسبب سياسات الإنفاق، حيث رأت إن النجاحات التي حققها بعض دول شرق أسيا "سنغافورا، كوريا الجنوبية، هونج كونج، تايوان " كما وشاهدت بعض الأقطار النامية كيف دخلت دول نمور الاقتصاد الأسيوية في اتفاقيات تسمح بضخ وإنتاج دول أخرى وفي مشروعات مشتركة واستفادت من رأس مال الشركات الأجنبية أو تقنياتها، ومن المستثمرين وبنجاح ملموس .

إمام هذا الواقع الذي لا نستطيع إن نتهرب منه ففي بداية التسعينات منذ القرن الماضي أصبحت الليبرالية المتوحشة " محور تاتشر ريغان " هي الايدولوجية المهيمنة في العالم بل إن اليسار الكلاسيكي التقليدي يتبنى الكثير من هذه الخيارات، كما والتحق بها، وبعبارة أخرى فقد ترسمل اليسار الكلاسيكي وتلبرل، فمثلا في بريطانيا فان أصحاب الأسهم وهي من تراث تاتشر جعلت من سياسة إعادة التأميم أمر غير ممكن لأي حزب يسعى لكسب الانتخابات، لقد تم إلغاء البند الرابع من دستور حزب العمال مع التزاماته بالملكية العامة لوسائل الإنتاج، وستكون الصناعة الآن في أيدي القطاع الخاص، وعندما تعافى حزب العمال عام ١٩٩٤ من فشله

الرابع على التوالي في الانتخابات انفصل انفصالا حاسما عن ماضيه، وهجر سياسته الكلاسيكية في فرض الضرائب والإنفاق، وتبنى الخط ألليبراليي الجديد حيث تبنى رئيس حزب العمال أراء المحافظ البريطاني ووزير المالية في عهد تاتشر " بنجل لارسون" الذي اعتبر " إن الحكومة العمالية ستوازن الميزانية، وتضع هدفا واضحا يتمثل في تضخم منخفض وثابت، وسيدار التوظف على أساس سياسة ترمي إلى زيادة الإنتاج والتوظيف وخفض الضرائب وإشكال أخرى من القيود.

وهذا الترتيب الايدولوجي الجديد قابلته تطورات أخرى ففي الحزب الديمقراطي الأمريكي بخلاف موقف " مايكل دوكاكيس" اليساري الوسط جدد الديمقراطيون الجدد بقيادة كلينتون على أهمية التجارة والصناعة والاستثمار والتنافس والتجارة الحرة بدلا من العدالة الاجتماعية .

إخفاقات الليبرالية الجديدة

الخطاب الليبرالي الجديد استخدم التضليل موهما الحكومات والشعوب والهيئات بان التحول في السياسة العالمية نحو الليبرالية الجديدة الذي جرى خلال العقد الثامن من القرن الماضي سيؤدي إلى تساوي معيشة الأمم والأمم الأفقر ولكن الذي حدث إن فجوات الدخل بين الشرق والغرب والشمال والجنوب هي اليوم أوسع منذ قبل فمثلا فالأدوية التي يتصدق بها البنك الدولي وصندوق الدخل القومي "علاج " الصدقة والتوطين والتعديل البنائي والتحرر المالي والتجاري والغاء القيود مسحت مؤسسات العمل وأضعفت من قوة الاتحاد التفاوضية وأدت إلى اندفاع صوب برامج خصخصة لم تستفد منها الأقلية، وحرمت بلدنا من زيادة الإنفاق العام لتلبية حاجاتها من الرعاية الاجتماعية وحبة الدواء لم تكن حبة وحسب بل كانت بالإكراه .

هذا وكان بوسع صندوق النقد الدول على الدول النامية التي تعتمد على القروض من الجماعة الدولية وذلك يجعل من القروض التي يقدمونها مشروطة بقبول هذه الأمم بآرائها الاقتصادية وتجبير هاتان المنظمتان أو المؤسستان الدول المارقة على الطاعة من خلال اعتماد مالي عليها أو من خلال التهديد بالعقوبات ومصطلح الدولة المارقة مصطلح صاغته وزارة الخارجية الامركية كل من لا يفتح أسواقه وبلاده للغزو الاقتصادي الأمريكي فهو مارق .

وعلى أية حال فان ما يتجاهله التحليل التقليدي هو الجري وراء السياسات الحرة يتمخض عن يمكن إن يقسم السكان إلى اتجاهين معارضين ومتعاكسين، وهذه الصورة تتطابق مع ما قاله الاقتصادي "ماريت احن " الفائز بجائزة نوبل " المجاعات يمكن إن تحدث مع إن الصوامع مليئة بالحبوب " ويمكن إن يعادل هذا الاتجاه الانشقاق في تنبؤ تقليدي مريح حول ما يمكن إن تفعله التجارة والاستثمار وإعمال الشغب التي حدثت في الأرجنتين عام ٢٠٠١ يمكن إن تقدم شهادة صارخة على الانهيار في رأس المال الاجتماعي الذي بنشاء عن حالة من عدم المساواة المتزايدة ففي هذه الأيام يسقط في الأرجنتين كل يوم ١٠٠٠ شخص أخر تحت خط الفقر "١٦" .

المشهد الاقتصادي الرأسمالي بعد تطبيق المنهج الليبرالي الجديد

تشير المؤشرات الاقتصادية على الصعيد المحلي في الدول الرأسمالية التي انتهجت الليبرالية المتطرفة حيث نلاحظ ما يلي:

١ـ لم تقفز معدلات النمو إلى كمعدلات مقبولة، ولذلك كانت أرقاما النمو منخفضة وغير مستقر.
٢ـ استمرار اوجه الاختلال الداخلي أي عجز الموازنة العامة والتباين بين الادخار والاستثمار والاختلال الخارجي أي عجز موازيين المدفوعات بصورة مستمرة ومتزايدة .
٣ـ انخفاض معدلات نمو الانتاجية .
٤ـ زيادة افلاس المؤسسات .
٥ـ ارتفاع معدلات البطالة.
٦ـ تدهور أحوال الطبقة الوسطى.
٧ـ اتساع الفجوة في توزيع الدخل والثروة بشكل ينذر بتفاقم الأوضاع الاجتماعية واحتدام أزمة التصريف وهي أمور كانت خارج تفكير الليبرالية الجديدة.
٨ـ بروز إحداث العنف وخاصة في لوس أجلوس وصعود النزاعات العرقية والقومية والاتجاهات اليمينية والأصوليات المتطرفة كالفاشية والنازية الجديدة لتدق نواميس الخطر، ومن الجدير بالذكر إن الفجائع الكبرى التي تنتظر الليبرالية الجديدة وقد حدث ذلك حيث إن أعوام ٢٠٠٧، ٢٠٠٨، ٢٠٠٩- تشهد انفجار اقتصادية صارخة أحيانا وصامته أخرى أي إن تسونا مي الأزمة العالمية الحالية هو اكبر دليل على ما نقول، بعبارة أخرى إن الفشل سيكون بالمرصاد لنهج الليبرالية الجديدة

ومن هنا وعلى الصعيد العالمي والدولي فقد ساهمت الليبرالية الجديدة إلى بروز المؤشرات الاقتصادية التالية:

١ـ نشؤ أزمة المديونية العالمية .
٢ـ تعرضت أسعار الصرف إلى فوضى عارمة واضطراب في السوق .
٣ـ بروز نزعة الحماية والكتل الاقتصادية الإقليمية شبه المنغلقة ٤ـ اندلاع حروب نقدية وتجارية ضارية

نتائج الليبرالية الجديدة على الفقراء في العالم الثالث

كانت وما زالت دول العالم الثالث هي اكبر الضحايا وما زالت جراء تطبيق النهج الليبرالي المتوحش، فالصورة بليغة ومتردية والتعاسة والبؤس لا يحتاجان إلى توضيح وخاصة كمائن المديونية الخارجية حيث وقعت دول العالم الثالث في فخ المديونية بعد إن تم محاصرة الدول الفقيرة من قبل الدائنين وصندوق النقد الدولي

والبنك الدولي ليجبروها على إن تتكيف مع الأوضاع المضطربة للاقتصاد العالمي، وان يضمنوا من خلال هذا التكيف تحقيق ما يلي:١ـ استعادة ديونهم.

٢ـ إعادة تشكيل التوجهات الاقتصادية والاجتماعية في هذه البلدان على نحو يكفل لهم إعادة أساليب السيطرة المباشرة على اقتصادياتها، وهي الأساليب التي كانت تنتهجها الدول الاستعمارية ولتي فقدت أدوات السيطرة بعد إن حصلت هذه البلاد على استقلالها السياسي بعد الحرب العالمية الثانية، ومن هنا فان أي أزمة تتعرض لها سيدفعها شعوب العالم الثالث والثمن سيكون باهظا ومدمرا وهذا هو المطلوب وهو ما تريده الليبرالية الجديدة .

الأرقام القياسية التي حققتها الليبرالية المتوحشة في المراكز الليبرالية الرأسمالية

من خلال إلقاء نظرة على بلدان مراكز الرأسمالية المتوحشة نجد إن الفجوة تتسع ما بين الأغنياء والفقراء ففي الولايات المتحدة الأمريكية لم يتم توزيع الغنائم منذ فترة طويلة من التوسع الاقتصادي الطويل حيث إن ٩٧% من الزيادة في الدخل ذهبت لاغني ٢٠% من العائلات خلال العشرين سنة الأخيرة، وبينما يكسب الأغنياء أكثر، كما وارتفع متوسط الدخول لأعلى خمس الكاسبين من الذكور بمعدل ٤% ما بين العاملين خلال أعوام ١٩٧٩و ١٩٩٦، وادني خمس هبط معدل كسبهم بما يساوي ٤٤% وهناك ٣٦,٥٠ مليون أمريكي أي ١٣,٧% من السكان يعيشون حياة فقيرة يمتلك اغني ١% ٤٠% من ثروة البلاد مقارنة مع ١٣% اقل مما كانت عليه قبل ٢٥ سنة، والدخول في الولايات المتحدة قريباً أو تساوي عما كانت عليه منذ الكساد، كما إن معدل البطالة الوطني وصل إلى ٥,٤% فان كثير من المحميات الأمريكية الوطنية الأمريكية يصل إلى ٧٠% ومعدل البطالة في المناطق الريفية المنعزلة في امريكا يبلغ ضعفي وأحيانا أربعة إضعاف، وأصبح الضمان الاجتماعي للعاطلين عن العمل مشروطا أكثر ولا يستفيد من منح البطالة الأمريكية اليوم سوى ٣٩% من العتلين عن العمل بينما كانت النسبة في ١٩٨٦ سبعين بالمائة، كما إن هناك هوة سحيقة ما بين الأغنياء والفقراء ففي امريكا ٤٥ مليون مواطن أمريكي ليتمتعون بالتأمين الصحي، وبالمقابل ينفق الأمريكيين ثماني مليارات على مواد التجميل فيما لا يجد العالم تسعة بلايين من الدولارات تكفي حسب تقديرات الأمم المتحدة لتوفير مياه الشرب المضيف والمرافق الصحية .

فيما ارتفع دخل أفقر العائلات الأمريكية خلال السنوات العشر التي بدأت من ١٩٨٨ إلى اقل من ١% بينما قفز إلى ٥١% لخمس اغني الأغنياء في مدينة نيويورك بكسب ٢٠% سنويا و١٠,٧ دولار في الوقت الذي يكسب سنويا اغني عشرين في المائة و١٥٢، ٣٠٠ دولار إما اجو رمن هم في الحضيض فهي متدنية جدا، وعلى الرغم من انخفاض أرقام العمال العاطلين في تلك البلاد فان ١١مليون من العمال الأمريكيين العاملين وطفلا واحدا بين كل خمسة أطفال أمريكيين هم في إعداد الفقراء"١٧"و كما إن أربع أخماس الأمريكيين يعانون ظروفا معيشية غير مستقرة ولا تتوفر لهم طلب دولي فالعمالة الأمريكية الماهرة من ذوي الياقات

الزرقاء التي تشكل أغلبية القوى الأمريكية العاملة التقليدية ذات الدخل الفردي المرتفع والعمود الفقري للحزب الديمقراطي فقد فقدت ملايين الوظائف حينما ذوت تحت غطاء المنافسة الدولية أو نقلت إنتاجها الصناعي إلى دولة أخرى سعيا وراء العمالة الرخيصة والأدهى إن الطبقة الوسطى أخذت في الانكماش في امريكا بعد إن كانت فيما مضى بلد الطبقة الوسطى فلو عرفنا الطبقة الوسطى بأنها مجموع الإفراد الذين يقترب دخلهم من المتوسط القومي فإنها لأتمثل إلا حوالي ٥% من سكان امريكا في المقابل ٧٥% في ألمانيا و٨٠% في السويد وسويسرا، والاهم من ذلك لا توجد مؤسسة أمريكية لمكافحة الفقر والمراكز هي المكلفة بذلك غير إن الموارد العامة المتواضعة والمتخصصة لهذا الغرض تحد في اغلب الأحوال من مدى تأثيرها وفحوى خطاب الرئيس ريغان " إن الفقر ليس قضية سياسية ولا يخص الدولة انه مساءلة أخلاق وإحسان".

هذا وقد ظلت الاحتكارات الأمريكية تعزز جهودها للحفاظ على مواقعها المتقدمة ففي الفترة الممتدة من ١٩٨٠ـ ١٩٨٧ زادت قيمة استثماراتها المباشرة في أصول الإنتاج العينية في الخارج بحدود ٩٤ مليار ذهب أكثر من نصفها إلى اوروبا وذهب الباقي إلى دول العالم الثالث وزادت بالتالي قيمة الاستثمارات بحوالي ١٣٨ مليار دولار أي بنسبة ٤٥% وبالمقابل ازدادت نسبة توجهها إلى بلدان العالم الثالث "١٨".

ولو القينا النظر على برامج الليبرالية الأمريكية ففي عهد ريغان نجد إن برنامجه تكون من المحاور التالية ـ

١ـ تخفيض الأعباء الضريبية
٢ـ السيطرة الكاملة على النقد.
٣ـ إلغاء المنظم.
٤ـ التوسع في الخصخصة .
٥ـ تحجيم دور الدولة .
٦ـ تكيف القوة الدفاعية لأمريكا من خلال تبني مبادرة الدفاع الاستراتيجي" حرب النجوم" التي تهدف إلى إقامة درع في الفضاء قادرة على مواجهة الصواريخ السوفيتية، وقد خصص لهذا المشروع ٢٥٠ مليار دولار منها ١٠% للأبحاث، وظلت مبادرة الدفاع الاستراتيجي هذه مبادرة رابحة على طول الخط بالنسبة لأمريكا وقد استخدمت في حرب الخليج عام ١٩٩١.

هذا وقد حققت امريكا الريجانية أوج نفوذها وبدأت وكأنها كعبة الرأسمالية العالمية المعاصرة وسار الأوربيون خلف ريجان متأثيرين بهذا النهج في كثير من المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ومنذ ذلك تأثروا بمفهوم اللامساواة في مجال العمل والبطالة والتعليم والنقل العام والاتصالات الفضائية والمرافق العامة وسرعان ما لحقت بهم بلدان العالم الثالث من خلال دور كل من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي بإنشاء وتعمير وتشجيع تكثر من أي وقت مضى على اللجي إلى السوق والمنافسة من القطاع الخاص فقد انتشرت الخصخصة على نطاق واسع، إما السياسات النقدية فهي من وحي صندوق الاحتياطي الأمريكي الفيدرالي

فالمطلوب هو القضاء على التضخم الذي ينهش الذمم المالية والتي تتآكل بفعل الدخول ويزيد من عدم المساواة .

وفي عهد بيل كلينتون الذي لم يتمكن من إعادة النظر بالنهج الليبرالي بل سار على هذا النهج بسبب سيطرة الجمهوريين في الكونغرس على مقدرات الأمور، وبالرغم من النجاحات التي حققتها امريكا بالنهوض بالاقتصاد الرأسمالي والتفوق العالمي في امتلاك قوة السلاح ووسائل المار الشامل فإنها لم تصل بعد إلى تحقيق ابسط معايير العدالة الإنسانية وأكثرها جلا وبداهة في المساواة بين البشر ويكفي جملة من المشاهدات التالية :

١ـ الإنسان الأسود ما زال اقل أهمية من الحيوان فالكلاب تحضى بعناية الرجل الأبيض وبرعايته ولطفه ووضع الزنوج في حالة مأساوية ما قيمة الازدهار الأمريكي مادام الأمريكي البيض يدوس على الأسود ومن خلال المقولة الشائعة " إذا كنت ابيض اللون فتقدم للإمام وإذا كنت اسود فتراجع نحو الخلف.

٢ـ إن ٢٨ مليون أمريكي أي ما يزيد على عشر السكان قد حصنوا أنفسهم في أبنية وإحياء سكنية محروسة، ومن هنا فليس بالأمر الغريب إن ينفق الأمريكيين على حراسهم الشخصيين المسلحين ضعف ما تنفقه الدولة على الشرطة .

٣ــ انتشار العنف والانحلال الاجتماعي والسياسي واجتياح كبريات المدن وخاصة نيويورك وواشنطن وشيكاغو ولوس انجلوس، وقد ازداد تفاقم دائرة الفقر والطبقات المحرومة وارتفاع معدل وتدني مستوى الخدمات الصحية في الإحياء الفقيرة، وتزايد عدد الذين لا مأوى لهم كما وتدنى مستوى التعليم وانهارت القيم التربوية وحرمان الكثير من هذه الفئات، كما وانتشر تعاطي المخدرات وزاد عدد المدمنين وارتفعت معدلات الجريمة على اعتباران البيئة الاجتماعية الأمريكية أصبحت بيئة سيئة وجاذبة للجريمة واصبحت السوء في توزيع الدخل في العالم .

ومن هنا فقد استبشر الخبراء وصناع القرار بان النموذج الأمريكي أالليبراليي غير مؤهل للبقاء أو الاستمرار في مراكز الهيمنة والنفوذ العالمي لأكثر بحيث لا يتجاوز العقد الأول من القرن الحالي فهو نموذج يضحي بالمستقبل من اجل الحاضر الذي يتمتع به ٢٠% من أغنياء الشعب الأمريكي في الوقت الذي لم تعد فيه القدرة الاقتصادية مكانة كالقدرة العسكرية فقد تنبأ الأمريكي " بول كينيدي " في كتابه نشؤ وسقوط القوة الأعظم في العالم قائلا " إن كل قوة تستمر في النمو ما دامت قدرتها الاقتصادية تفوق قدرتها العسكرية وتأخذ بالتراجع حينما تمسي قدرتها اكبر من قدرتها العسكرية اكبر من قدرتها الاقتصادية "

وهذا ما حصل بالفعل في الأزمة المالية العالمية التي يتعرض لها الاقتصاد العالمي وعلى رأسه الاقتصاد الأمريكي والذي سنفرد له في الصفحات القادمة والمسئول عنه خطاب وسياسة كل من الليبراليون الجدد والمحافظين الجدد وعلى رأسهم الرئيس الأمريكي بوش الابن حيث في عهده ازدادت الفجوة بين الأغنياء والفقراء وخطط لإلغاء الضرائب عن فوائد رؤوس الأموال والشركات، وفي النهاية تمكن خلق ارستقراطية الأثرياء والانتهاء ببقية الناس إلى وضع دوني .

ومن ناحية أخرى فان الدعوات النيوليبرالية الجديدة إلى خفض الإنفاق العام وتخفيض العجز بالموازنة لم يتمكن من مواجهة تفاقم العجز في موازنات البلدان الرأسمالية المتطورة خلا الثمانينات وبلغ أرقاما فلكية، وكذلك تضخم الدين العام إلى درجة أصبحت مدفوعات إقساطه وفوائده من ابرز مكونات عجز الموازنة في امريكا حيث ارتفع هذا العجز من ٣٥,٦مليار دولار عام ١٩٧٧ إلى ٢٢٠ مليار عام ١٩٨٦ والى ٤٥٠ مليار دولار عام ١٩٩٢ حتى أصبح يمثل ٧,٥% من الناتج القومي الإجمالي كما وارتفع حجم الدين من تريليون دولار عام ١٩٨٢ إلى ٣,١ تريلون في أواخر الثمانينات من القرن الماضي كما وارتفعت مدفوعات خدمة الدين العام حيث وصلت إلى ٢٥,٥ مليار دولار عام ١٩٨٠ إلى ١٩٨,٨مليار دولار عام ١٩٩٢ وباتت ابرز عناصر الموازنة بعد الإنفاق العسكري حيث بلغت نسبتها إلى إجمالي نفقات الموازنة ٣,٦% وهي تمثل حوالي نصف العجز في الموازنة .

هذا وقد أدت السياسات النيوليبرالية المستندةالى هذه المدرسة التي تنتهجها دولة رأس المال الاحتكاري في الثمانينات إلى تفاقم التفاوت في توزيع الدخل حيث ارتفعت مداخيل العشرين بالمئة الأغنى من الأمريكيين بنسبة ٣٠% بينما انخفضت دخول العشرين بالمائة لأفقر٤٠% وثمة نحو٣٥ مليون أمريكي لا يتمتعون بتأمين صحي وهناك ٢٥ مليون أمريكي يعتمدون على بطاقات الغذاء التي تقدمها الدولة من اجل البقاء على قيد الحياة

بالمقابل يوجد في بريطانيا نماذج مأساوية فمن خلال عملية الرصد للأطفال الذين يغسلون زجاج السيارات عند إشارات المرور حاملين دلال المياه القذرة، وفي منهاتن أناس يفتشون في الحاويات على علب المشروبات الفارغة مقابل سنتات، وقبل ذلك منذ إن استلمت تاتشر ابرز رموز التيار النيوليبراليي الحكم في بريطانيا ١٩٧٩ كان اغني الخمس من السكان يتمتعون بنحو ٤٣% وفي عام ١٩٩٦ وهو العام من حكم المحافظين كانت الأرقام على النحو التالي: حيث ارتفع إجمالي الناتج المحلي بشكل ملموس وكان نصيب الفقراء قطعة اصغر من كعكة، وارتفع عدد الأسر تحت خط الفقر بعدل ٦٠% في الثمانينات وفي عام ١٩٩٦ كننت بريطانيا تضم اعلي نسبة من الفقراء في اوروبا فكان هناك ثلاثمائة إلف طفل بريطاني هم اقل حضا في العام ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦ مما كانوا في العام ١٩٧٩ "١٩".

حقا إن هذه الأرقام والمؤشرات تسر خصوم الليبرالية الجديدة وتؤكد في نفس الوقت إن الرأسمالية المتوحشة حققت انتصارا تاريخيا لصالح الأثرياء على حساب الفقرات أي إن غنائم الليبرالية لم تصل إلا إلى فئة أصحاب رأس المال وهذا يتحتم إمام هذه الإخفاقات.الغير أخلاقية لليبرالية الجديدة فان الدولة يجب إن تتلمس مواقع الضعف في الرأسمالية وإلا فإنها ستثبت أنها ضعيفة امام سياسات اقتصاد السوق وهي التي أوقعت نفسها في هذا المطب.

قبل إن نختتم هذا الباب لا بد، من هنا فان إعلان الطلاق مابين الليبراليين والدولة علينا أن نسلط الضوء على علاقة الليبرالية بالدولة وكذلك العلاقة ما بين الليبرالية والديمقراطية ومن هنا فان إعلان الطلاق مابين الليبرالية والدولة وكما لاحظنا في الصفحات السابقة التي اشرنا إليها حيث لاحظنا تمردا على مرحلة الرأسمالية

المحجمة من قبل الدولة حيث لم تغني ما آلت إليه الرأسمالية من الاعتدال النسبي والسعي لبناء دولة الرفاهية بما تم من إصلاحات لتصحيح تجاوزات السوق والحد من غلواء الرأسمالية وعنفها من خلال سن القوانين وعقود العمل الجماعية وسير مختلف التطورات التشريعية لتأمين الكثير من حقوق العمال وتنظيم عملية إعادة التوزيع بشكل متواصل وانعكاس ذلك على المجتمعات الرأسمالية في ظل مذهب تدخل الدولة قدرا من الإنسانية فان هذا الوضع لم يستمر ولكنه تغير بعد مجيء اليمين المحافظ في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا إلى سدة الحكم حيث تم تدشين مرحلة تسند روح التمرد على تدخل الدولة حيث انتهجت سياسة جديدة تعتبر السوق هو الجنة وان الدولة هي النار أو بلغة أخرى تبنت ايدولوجية رأسمالية بان السوق هو الخير والدولة هي الشرور.

إن هذه الايدولوجية انتقلت كما أسلفنا من الرأسمالية الاجتماعية إلى الرأسمالية المحافظة الجديدة ودخلت مرحلة حلول الرأسمالية محل الدولة بما ذهبت إليه المدرسة العنقودية التي ترى انه ليس ثمة خلل في النظام الرأسمالي، وان ما يحدث من اضطرابات سببه الأخطاء في السياسات الحكومية وخاصة السياسات الكنزية التي تعرقل عمل آليات السوق والاقتصاد الحر والذي ينص على ما يلي" عندما تتوفر حرية السوق لا بد من محاصرة مهمة الدولة فالرأسمالية في اعتقاد هذه المدرسة كفيلة بتصحيح أخطاءها إذا استطاع المجتمع حماية الحرية من ضغوط العمال ونقاباتهم .

إشكالية العلاقة ما بين الديمقراطية والليبرالية

إن كشف الموقف الحقيقي ما بين الديمقراطية وأوهام الليبرالية واضح وجلي فمن خلال قرأه التاريخ الغربي للرأسمالية الليبرالية حيث لاحظنا إن الأنظمة الرأسمالية ساندت أنظمة حكم امتازت بالقمع والاستبداد وإذلال الشعوب أي إن ملف سجل حقوق الانسان هو المعيار الحقيقي الذي يثبت تماثل الديمقراطية مع الليبرالية فمثلا إن فكرة حماية حقوق الإنسان كلها وهي مفهوم اصطبغ بمعنى حقيقي بعد الحرب العالمية الثانية وخاصة عندما انصب اهتمام الحكومات الغربية على حاجاتها لترويج وتبني مصالح شركاتها عبر العالم .

لقد اقر الاتحاد الأوروبي اتفاقية الاتحاد الجمركية مع تركيا في الوقت الذي كان البرلمان الأوروبي يعبر عن قلقه من انتهاكات حقوق الإنسان وعن مخاوفه من الإبادة الجماعية للأكراد في الأراضي الشرقية لتركيا وظل الاتحاد الأوروبي سنوات طوال لا يعمل إلا القليل ازاء انتهاكات حقوق الإنسان في نيجيريا وغيرها، وأين كانت فرنسا ابرز الوارثين لليبرالية الرأسمالية والتي فجرت الثورة الفرنسية على أرضها من احتلال الجزائر ولغاية ألان لا تريد إن تقدم اعتذارا صريحا خلال فترة الحكم الجزائري مع إن ميثاق حقوق الإنسان الذي صدر عام ١٩٤٨ وبقيت فرنسا محتلة لعدد كبير من الشعوب الأسيوية والإفريقية المقهورة .

وقبل سنوات الم تتحالف الولايات المتحدة وريثة الليبرالية الجديدة وقبل الكلاسيكية مع المجاهدين الأفغان ضد الشيوعيين السوفيت وبالأمس كانت الولايات المتحدة تساند حركة طالبان الأفغانية حتى عام ١٩٩٧ على الرغم من سجلها في حقوق الإنسان وخاصة النساء وكبت الحريات ويرجع السبب في ذلك إن شركة الزيت الأمريكية " Unocal" كانت قد وقعت صفقة مع حكومة طالبان لبناء خط غاز كلفته بليونا دولار وخط آخر لنقل النفط والغاز من تركستان إلى باكستان عبر أفغانستان وفي النهاية اشتدت واشنطن على طالبان تحت مبررات حقوق الإنسان بضغط من الحركة النسائية الأمريكية وبسبب دعم طالبان لابن لادن فعندما لا يتم الاتفاق على المصالح الاقتصادية والتجارية وحرية التجارة يلجا إلى سلاح حقوق الإنسان ومحاربة الإرهاب وكل هذا كذب ودجل وافتراء وتضليل .

كما جرى للصين وهي دولة تنتهج الرأسمالية الليبرالية لكن الغرب يهدد الصين ما بين الحين والآخر في ملفات حقوق الإنسان وتستخدم كل الوسائل للضغط على السياسة الاقتصادية الصينية المتنامية والتي يتوقع إن يكون لها شأن كبير في قيادة النظام الاقتصادي العالمي، وهذا ما يشير إليه الانتقاد الحاد الذي أبداه بيل كلينتون عام ١٩٩٢ لخصمه في الانتخابات الرئاسية لخصمه بوش الأب لأنه وعد بتجديد وضع الصين التجاري " الأمة الأكثر رعاية " وذلك على خلفية انتهاكها لحقوق الإنسان ولكن ما إن وصل كلينتون إلى الحكم حتى ناقض أرائه حيث أول من طالب بإدخال الصين كشريك كامل في منظمة التجارة العالمية، وما إن جاء عام ٢٠٠٠ حتى تمكن من إرساء العلاقات الصينية الأمريكية على أسس طبيعية، وقد فسر كلينتون هذا الموقف مع الصين قائلا " التجارة تشجع الديمقراطية " هذه العبارة تعني انه كلما ازداد دخول الصين في التجارة الأجنبية عليها أسرعت قبضة الشيوعية على البلاد في الارتخاء، وكلما أسرع الإصلاح إلى موقفها من حقوق الإنسان، وهذه نظرة تبنتها عنه استنتاجات أكاديمية تربط الاستثمار بالشركات متعددة الجنسية مع ازدياد مستويات إجمالي الناتج المحلي وتربط إجمالي الناتج المتنامي مع الزمن مع حقوق الإنسان والأسواق أكثر حرية وحتى للمقرطة أو على الأقل كان هذا التبرير الذي استخدمه كلينتون عام ١٩٩٤ عندما اتخذ خطوة راديكالية في الفصل مابين التجارة وحقوق الإنسان حتى لم يعد يلتفت إلى الطبيعة غير الليبرالية للنظام الصيني في قراره التنفيذي السنوي الذي يعطي بكين مركز الأمة الأكثر رعاية تجارية "٢٠".

لم تكن أكذوبة حقوق الإنسان هي التي هبطت إلى مرتبة متدنيا فقد تراجعت الديمقراطية إمام المصالح التجارية في معظم القرن الماضي، وهذه الحالة هي أوضح ما تكون امريكا اعلى الأصوات في دعم الديمقراطية التي جعلت الديمقراطية تحتل بانتظام معقد خلف الليبرالية الرأسمالية على الرغم من زعمها بان الديمقراطية هي من أولويات السياسة الخارجية الأمريكية فمثلا عندما حملت الدبابات الرئيس الروسي السابق يلتسين إلى الميدان في شهر أغسطس ١٩٩١ حيث عبر كلينتون في ذلك " إن الديمقراطية انتصرت وإنها يجب إن تسود " بالرغم من قصفها للبرلمان الروسي ويبدو انه لم يقصد نظاما للناس في حق الانتخاب ومن غير المحتمل إن كان

مهتما بحق إن تكون روسيا ديمقراطية وكل ما كان يهم هو إن يحدث في روسيا نظام يتماشى مع المصالح الأمريكية ويشارك في دعم قيمها الليبرالية .

إن دولة السياسة قد ولت في ظل الليبرالية الجديدة فالناس والجماهير أصبحت تعي هذه الحقيقة المرة فالسياسيون الآن يلهثون وراء مصالحهم الذاتية وليس لديهم الاستعداد التام لتبني قضايا الجماهير وهم على امتداد العالم كل ابتداء من الديمقراطيات الكلاسيكية سواء في التجربتين الأمريكية والبريطانية والاوروبية بشكل عام إلى الدول الأقل تجربة ديمقراطية سواء في امريكا اللاتينية أو الشرق الأوسط فقد انحدرت اهتمامات الناس بالمؤسسات الديمقراطية وانحدرت ثقتهم بحكوماتهم ففي انتخابات ٢٠٠١ في بريطانيا لم تزد نسبة الاقتراع عن ٤٩% وهو اقل اقتراع منذ الحرب العالمية الثانية إما الانتخابات الأمريكية فقد انحدرت ثقة الناس بها باستثناء انتخابات ٢٠٠٨ حيث جرى انقلاب في طريقة تفكير الأمريكيين ويبدو إن الأمريكيين لديهم مشكلة بانتخاب اوباما الأسود بسبب الصراع ألاثني الذي يجري على الساحة الأمريكية كما أسلفنا فالبيض يعتقد إن اللون الأسود هو لون متنحي فكيف يصبح الأسود اوباما رئيسا لأكبر ابراطورية في التاريخ الامبريالي الأبيض.

بشاعة وتوحش الليبرالية الجديدة في حل المشكلة السكانية

يزعم كهنة الرأسمالية المتوحشة إن تحقيق معدلات نوعية في النمو ا الاقتصادي سوف يعود بالنفع على البشرية وهم في هذا المجال يمارسون اكبر أشكال الكذب والتضليل، وهم يسعون ليلا نهارا لزيادة معدلات النمو الاقتصادي لتحقيق اكبر معدل للربح والربحية ليس من اجل الأغلبية المقهورة والمحرومة وإنما من اجل الأقلية الرأسمالية التي تملك وتحكم في نفس الوقت.

ومن هنا فان الليبراليون الجدد تلاميذ مالتوس الأب الروحي لعلم السكان الذي تحدثنا عن نظريته التي تنطلق من إن السكان يتزايدون بمتوالية حسابية بينما الموارد تتزايد بمتوالية هندسية، ولذلك لابد من قهر النمو السكاني وبمعدلات متباطئة حتى يتم إعادة التوازن ما بين النمو السكاني والغلة، ومالتوس هو من ابرز الاقتصاديين الكلاسيك الذين ساروا على نهج اقتصاد السوق بقيادة الكاهن آدم سميث، وكما تفاجئنا بتلاميذ آدم سميث الجدد واستراتيجيهم الرامية إلى إبادة الفقراء وزيادة أرباح الأغنياء بأدوات ووسائل متوحشة ليهمهم عدد الضحايا والمتضررين جراء تضييق هذه السياسات الرعناء لا يأبهون بعذابات وآلام الشعوب المقهورة .

ومن هنا فقد نشط تلاميذ مالتوس الجدد أو الليبراليون المالتوسون الجدد بوضع " مانفست " مرعب لحل المشكلة السكانية ببشاعة قل نظيرها وخاصة إنها لا تتوافق مع أطروحاتهم التي أثبتت فشلها فهم يدعون إلى إطلاق الحريات الاقتصادية الرعناء ويمارسون أبشع أشكال الهيمنة والغطرسة والإبادة لشعوب الأرض فمن الهنود الحمر في امريكا إلى الشعوب العربية والإسلامية من فلسطين والعراق وأفغانستان أليست هذه أبشع أشكال الليبرالية الاقتصادية !!!.

إن برنامج المالتوسيون الجدد ينطلق من إن مشاكل العالم سببها النمو السكاني علما بان الصوامع ملأ بالحبوب ولكن العالم مهدد بالمجاعة والجوع وان خرافة

الجوع ماهي إلا أكذوبة من أكاذيب الرأسمالية المتوحشة، فمشكلات البطالة والطاقة والإسكان والتلوث البيئي كلها تعود إلى الانفجار السكاني وخاصة دول العالم الثالث فهم يعتقدون انه لاحل لهذه المشاكل إلا بالحد من الانفجار السكاني والعمل بشتى الطرق لتحقيق هذا الهدف، وفي إطار هذه الإستراتيجية المرعبة لا يتردد المالتوسيون الجدد إلى طرح الكثير من المقترحات والأفكار التي تتضح بطابعها اللا أنساني، وهنا تحاول المالتوسية الجديدة إن تكشف وتكشر عن أنيابها، ونحن بدورنا لا نقر إن الزيادة السكانية هي عنصر ايجابي بل لابد من إعادة التوازن بالوسائل الأخلاقية التي تعيد العلاقة إلى طبيعتها ما بين الزيادة السكانية والموارد.

في الصفحات القادمة سنطلع على برنامج هؤلاء الضواري الذين لا توجد في قلوبهم مثقال حبة وذرة من معايير الرحمة والإنسانية والشفقة تجاه شعوب العالم الثالث كونه هو المستهدف بهذه الإستراتيجية المتوحشة، إن هذه المعالجات هي جزء من صميم النظام الرأسمالي المتوحش الذي تناولنا فلسفته ونظرته للإنسان والمجتمع في الصفحات الماضية .

والسؤال الذي يطرح نفسه أليس من معايير الليبرالية وفلسفتها ومناهجها الحرية الفردية فلماذا المالتوسية الجديدة تناقض نفسها في موضوع الإنجاب وتحديد عدد الأطفال؟أليس الإنجاب حق إنساني وحق فردي وتحديد عدد الأطفال يعتبر من ابرز الحقوق الإنسانية، وان المجتمع الإنساني يحاول ألان السعي نحو وضع سياسات سكانية متوازنة ومعتدلة فمنهم من يتجه إلى تحديد النسل إلا إن هذه الوسائل من وجهة نظر الليبرالية الجديدة أصبحت غير كافية ولا تفي بطموحات هؤلاء الوحوش الذين ليس لهم شغل إلا سحق وإبادة الفقراء.

ومن هنا فان كاتبا ينتمي إلى هذه المدرسة المرعبة فعالم النفس " سيكنر" يرى إن الفردية غير المقيدة ستحملنا ثمنا فادحا من خلال الاكتضاض السكاني والاستعمال والنهم للموارد الطبيعية وتلوث الكرة الأرضية ويضيف قائلا: إن الوقت قد حان فعلا لأن نرى إننا لم نعد نطيق ثمن هذه الفردية فيما الدكتور جاريت هارودين يقول: إن الاختيار أو التطوعية جنون في الأجل الطويل وستكون النتيجة استمرار لنمو سكاني غير محكوم، فيما اعتبر المالتوسي الجديد هال هلمان انه من الضروري إن يتم تحديد النسل اجباريا هي فكرة غير مستحبة ولكن من الممكن إن البدائل عنها ستكون بالمستقبل أو عنها حاليا، ولذلك فقد نجد إذا استفحلت الظروف والأحوال فإننا من تلقاء أنفسنا نطالب بهذه القيود، بل إن الكاتب نفسه يقدم لنا حلا جنونيا يتجاوز جنون العقل نفسه حيث يقترح إجراء عمليات غسل دماغ هي من الضروريات لوضع حد للزيادة السكانية .

يتضح من أقوال هؤلاء المجانين أنهم لا يتورعون عن استخدام أساليب قسرية وإجبارية لتنفيذ توصياتهم مهما تعارضت مع ابسط مبادئ وقواعد الحرية إذ تتناقض مع القيم الاجتماعية والحضارية بل إن التعسف يصل مداه، لقد تجاوزت أطروحات هؤلاء المالتوسيون الجدد حدود العقل فالدكتور هارودين يعود إلينا بحلول ولكنها حلول إجرامية بشعة فهو يقترح علينا " إذا كانت الجماعة مسؤولة عن الحفاظ على حياة الأطفال فلا بد إن يكون لها كذلك سلطة تقرير متى يمكن إنجابهم.

المحور الرئيس الذي ينطلق منه هؤلاء المالتوسين الجدد هو انه يجب بشتى الطرق منع الزيادة السكانية بدول العالم الثالث فهي مصدر الانفجارات السكانية في العالم، ويمكن إن يتم ذلك من خلال منع المعونات الاقتصادية والغذائية لشعوب هذه الدول ذلك إن المعونات تسهم في تحسين مستوى المعيشة ومن ثم تسهم في تخفيض معدلات الوفيات في الوقت الذي لا ينخفض معدلات المواليد، ويؤيد هذه الخرافات المالتوسي الجديد " وليم فوجت الذي يرى انه طالما إن هذه الدول لم تضع بعد لنفسها سياسات سكانية رشيدة فانه ليس لها الحق في إن تنتظر المعونة من دول العالم المتقدم .

برنامج المالتوسيون الجدد

سنحاول إن نطلع على البرنامج الإجرامي الذي وضعه المالتوسيون الجدد والذي يعتبر خارطة طريق للرأسمالية المتوحشة وهو بمثابة منافسة للإبادة البشرية من خلال خطة عمل أي نفذ مايلي:

١ـ ضرورة تعقيم الرجال والنساء لإفساد قدرتهم الجنسية على الإنجاب، ويمكن لمهنة الطب إن تقدم خدمات جليلة في هذا المجال من خلال ابتكار حقن إجبارية ضد الخصوبة مع توفر أدوية مفعولها أي إن يتم تعقيم نوع من الغير دائم بالحقن أو بوسيلة أخرى بدلا من الجراحة الدائمة التي يتطلبها التعقيم ألان، ويرى البعض إن التعقيم هنا مناسب جدا للأمهات اللواتي أنجبن أكثر من طفل أو طفلين.

٢ـ التعقيم الجماعي: يقترح البعض هذا الإجراء دون إن يعلم الناس وذلك من خلال وضع مواد كيماوية أو فيروس مضاد للخصوبة يبث في مواد الطعام أو الماء وهنا يمكن للعلوم الطبية والكيمائية إن تقدم مساهمتها البناءة، على إن يتم ذلك دون علم الناس به.

٣ـ يقترح البعض إباحة الإجهاض قانونا، ويمكن استغلال منجزات التكنولوجيا الحديثة لتسهيل هذه المهمة، حيث أصبح بإمكان تكنولوجيا الأجهزة الطبية إن تحدد جنس الجنين في بدايته وإجهاض الجنين إذا لم يكن من الجنس المنشود وهذه مسألة يعول عليها كثيرا من المالتوسيون الجدد في تخفيض معدلات النمو السكاني بالبلاد المتخلفة حيث تعظم رغبة الوالدين في إنجاب الذكور بدلا من الإناث.

٤ـ قصر التعليم المجاني على الطفلين الأولين لأي أسرة وقصر الدعم السلعي للمواد التموينية "السكر الخبز الزيت " الشاي " في بطاقات التموين على الطفلين الأولين في الأسرة أي إننا هنا يجب إن نعاقب الأطفال الفقراء الذين شاء حضهم التعس إن ينجبوا من أبوين فقيرين" ٢١".

٥ـ يقترح احد الليبراليين المالتوسيون الجدد وهو " مندال" ضرورة وضع تشريع لمنع الزواج على الذين لا يثبتون إن دخولهم كافية للإنفاق على العائلة فليس من حق الفقراء إن يتزوجوا بل إن يتركوا هذا الحق للأغنياء.

٦ـ تعديل قوانين الضرائب التي تحابي المتزوجين وذوي الأطفال وذلك من خلال التدرج التنازلي في الإعفاء الضريبي المقابل له اقل، وهكذا حتى نصل إلى الطفل الثالث مثلا فلا يقرر له أي إعفاء ضريبي.

٧ـ ضرورة زيادة تكاليف الزواج وتربية الأطفال من خلال فرض رسوم كبيرة على شهادات الزواج، وان كان هذا يشجع الزواج العرفي ويزيد من إعداد الأطفال الغير شرعيين، والحد من توزيع المساكن التي تبنيها الدولة على أساس حجم الأسرة، فقد زعموا إن صغر المسكن عامل مهم في تخفيض معدل المواليد في السويد بوجه عام إذا لا يسمح لمعظم المتزوجين بأكثر من حجرة نوم واحدة للأطفال ومستلزماتهم من ملابس وأغذية وأدوية، وتزداد الصورة بشاعة حيث يقترحون فرض ضريبة على رؤوس الأطفال.

٨ـ ضرورة وضع حوافز للذين لا يتزوجون من النساء والرجال والذين يتجاوزون سنا معينا ولمن لا ينجبوا اطفالا حيث وصل الأمر بالكاتب المالتوسي " رايموند كاولنر" إن يقترح بتقديم منحة انعدام الأطفال كمكأفاة للنساء اللاتي لا ينجبن على إن لا تدفع إليهم إلا بعد نهاية سن الإنجاب أو يستلمنها على دفعات عن كل مجموعة من السنين التي لا يوجد بها إنجاب ولا يهم في ذلك، وما ينجم من فساد الأخلاق وتفشي الرذيلة بين الشباب الغير متزوجين .

٩ـ وتدعيم هذا الاتجاه يقترح بعضهم إصدار يانصيب يباع لمن لا أطفال لهم فقط وإعفاءات ضريبية لمن يتبنون اطفالا بدلا من الإنجاب ونوعا من التأمين الصحي والاجتماعي الإضافي للإباء الذين لا ينجبون لمساعدتهم في الشيخوخة "٢٢".

هوامش الباب الثاني / الفصل الرابع

١ـ الليبرالية المتوحشة، د. رمزي زكي، ص ٢٩
٢ـ انهيار الليبرالية، مرجع سابق، ص ٣٣
٣ـ مرجع سابق، ص ٣٥ـ ٣٦
٤ـ مرجع سابق، ص ٨٩
٥ـ مرجع سابق، ص ١٠٣
٦ـ مرجع سابق، ص ١١٣
٧ـ السيطرة الصامتة، تورينا هيريتس، ترجمة صدقي خطاب، ص ٢
٨ـ مرجع سابق، ص٢٧
٩ـ مرجع سابق، ص ٢٩
١٠ـ التجارة والأعمال، روبرت عاريا، صحيفة الايكونومست، عدد ٢٠ آذار ١٩٩٩
١١ـ مرجع سابق، ص ٢٣ـ ٣١
١٢ـ مرجع سابق، ص ٣١
١٣ـ مرجع سابق، ص ٣٣
١٤ـ الصنم، نيل فيرجيسون، ص ٥٥
١٥ـ مرجع سابق، ص ٣٤ـ ٣٥
١٦ـ مرجع سابق، ص ٥٦
١٧ـ مرجع سابق، ص ١٥
١٨ـ مرجع سابق، ص ١٨١١ـ ١٨١٦
١٩ـ مرجع سابق، ص ٥٨ـ ٦٤
٢٠ـ مرجع سابق، ص ٨٧ـ ٩١
٢١ـ خرافة الماتوسية الجديدة والمشكلة السكانية، د. روزي زكي، ص ٢٢١
٢٢ـ مرجع سابق، ص ٢٢٣ـ ٢٢٥

الباب الثالث. الأزمة الاقتصادية العالمية

الفصل الأول. بدايات اعراض الازمة

عبر تاريخ الرأسمالية العالمية كان لهذه المنظومة قيادة تاريخية مسؤولة عن الاستمرار في الخط الامبريالي والامبراطوري التوسعي، وهذه الدول يجب إن تتمتع بمواصفات فريدة كامتلاكها للقوة العسكرية والاقتصادية بين دول المنظومة الرأسمالية، وقياسا على الموقف التاريخي يلاحظ الباحث الحصيف انه لم تنتقل هذه الدولة من مرحلة الامبراطورية إلى مرحلة الضعف والانحطاط أو إن تتعرض هذه الدولة إلى منافسة شديدة من الدول التي تساندها في المنظومة الرأسمالية فان المنظومة نفسها سوف تتعرض للازمات والاضطرابات، وهذا ما هو حاصل الآن لمجموعة مراكزالليبرالية العالمية .

وكما اشرنا سابقا فان بزوغ الثورة الصناعيةوحتى بداية الحرب العالمية الاولى فان بريطانيا كانت تتصدر قيادة منظومات الرأسمالية العالمية وهي دولة النواة بالنسبة لليبرالية العالمية حيث كانت تتمتع باقوى قوة عسكرية واقتصادية، وكانت تسيطر سيطرة على مستعمرات كبيرة من خلال اذرعها المالية والتجارية، وكانت لندن هي مركز تسوية معظم الصفقات السلعية والنقدية العالمية، وتمكنت خلال هذه المرحلة من صياغة نظام اقتصادي نقدي دولي طبقا لنظامها النقدي المحلي " قاعدة الذهب " حيث اصبح الجنيه الاسترليني هو العملة الاحتياطية الدولية وبه تسوى غالبية المدفوعات العالمية .

وما بين الحربين العالميتين أصبحت بريطانيا تتنازع مع الولايات المتحدة قيادة المنظومة الدولية للرأسمالية العالمية، وخلال هذه الفترة شهدت صراعات دولية ما بين ضواري منظومات الرأسمالية العالمية، والتي توجت بالحرب العالمية الثانية، وخرجت معظم دول منظومة الرأسمالية العالمية من حالة الحرب واقتصادياتها منهكة ومدمرة بالرغم من انتصار دول الحلفاء بقيادة الولايات المتحدة والتي لم تشترك في الحرب إلا في الربع ساعة الاخيرة على دول المحور، وبذلك تكون بريطانيا قد خرجت أو اخرجت من قيادة المنظومة الرأسمالية العالمية ودخول الولايات المتحدة كقوة عسكرية واقتصادية صاعدة، وهنا قدمت الولايات المتحدة نفسها كقائد للمنظومة الرأسمالية الغربية برمتها وخاصة بعد بروز الاتحاد السوفياتي، حيث استفادت الولايات المتحدة من نتائج الحرب العالمية الثانية وحصدت جائزة التربع على عرش المنظومة الرأسمالية خاصة وان القوة العسكرية التي تمتلكها هائلة جدا واقتصادها في اوج نهوضه، ومن هنا ومنذ قيادة منظومة امريكا للمنظومة شرعت في عرض برنامجها واستراتيجتها لكيفية قيادة منظومة الرأسمالية العالمية، وقد تجسدت رؤيتها الاولى في اقامةمؤسسات اقتصادية كمؤسسة " بريتون وودز"، اذ تمكنت من إعادة صياغة نظام النقد الدولي بعد انتصار المشروع الأمريكي الاقتصادي " مشروع هوايت " على مشروع اللورد كينيز في مناقشات

مؤتمر بريتون وودزفي صيف ١٩٤٤، ومن هنا فان الانتصار الاقتصادي الأمريكي توج بفرض الدولار لكي يلعب الدور الرئيسي في العملة العالمية وعملة الاحتياط الرئيسية في العملة العالمية وعملة الاحتياط الرئيسية، وتمكنت امريكا من تحديد وصياغة اهداف مؤسسات بريتون وودزوالتي تشمل على صندوق النقد الدولي والبنك الدولي طبقا لمصالحها ورؤاها، والاستئثار باعلى قوة تصوتية لادارة وتوجيه تلك المؤسسات نظرا لضخامة نصيبها في رأسمالها، وكان الهدف الرئيسي الذي ارادت منه امريكا تحقيقه من وراء توليها مركزمراكزالقيادة للمنظومة وتحديد آليات عملها على الصعيد العالمي هو المحافظة على قوة الدفع التي كان يسير بها الاقتصاد الأمريكي خلال سنوات الحرب حيث كانت جميع الطاقات تعمل ليلا نهارا لامداد الحلفاء بالاسلحة والمواد الاستهلاكية الامر الذي رفع من معدلات نمو انتاجها ودخلها وجعله تتغلب على مشكلة البطالة ونقص التشغيل، وكان ذلك يتطلب استمرار فتح اسواق جديدة في العالم إمام منتجاتها واستثماراتها الخارجيةوالتوصل إلى نظام نقدي عالمي وإلغاء كافة القيود على المدفوعات الخارجية والتوصل إلى نظام تجاري حّر متعدد الاطراف خاصة وان امريكا كانت تتخوف من إن تتعرض صادراتها لمرحلة ما بعد الحرب إلى المنافسة أو وضع القيود عليها بسبب ضوابط النقد والاستيراد والاتفاقيات الثنائية وحروب تخفيض قيمة العملة، وهي السياسات التي توسعت في معظمدول العالم خلال سنين الحرب "١".

الاقتصاد الأمريكي لمرحلة ما بعد الحرب : استمرت قوة الاقتصاد الأمريكي للمرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وكان الاقتصاد الأمريكي هو المؤشر القوي للاقتصاد الرأسمالي العالمي بل إن الولايات المتحدةهي مركز مراكز الرأسمالية العالمية حيث سجلت مستويات المعيشة ارقاما قياسية وصلت إلى اعلى المستويات، وكانت منتجات امريكا تستند إلى تطبيق منجزات التكنولوجيا التي غزت العالم ما بعد الحرب، ونتيجةللارقام الفلكيةالناتجة من حجم الفائض الاقتصادي فقد استطاعت إن تكون اكبر مصدر لرؤوس الاموال في العالم فقامت بامداد دول اوروبا الغربية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية بموارد " مشروع مارشال " من ١٣ـ ١٥ مليار دولار، وارتفعت استثماراتها الخارجية في اوروبا والعالم الثالث وخاصةدول امريكا اللاتينية، كما وجعلت من نفسها الممول الرئيسي لحلف شمال الاطلسي وللقواعد العسكرية المختلفةالتي احاطت بها منظومة الدول الاشتراكية وزرعتها في مختلف اصقاع العالم، وساعد على تبؤ هذه المكانة واداء هذا الدور القيادي لمنظومة الاقتصاد الرأسمالي العالمي الضعف الشديد الذي خرجت به الاقتصاديات الاوروبية الرأسمالية الصناعية بعد الحرب وخاصة بريطانيا وفرنسا وابتعاد الاتحاد السوفياتي عن المشاركة في مؤسسات بريتون وودزلانه رأى فيها آنذاك ادوات لفرض الهيمنة الأمريكية على مختلف دول العالم، لكن العنصر الرئيسي الذي ساهم في فرض الهيمنة الاقتصادية الأمريكية هو انفراد عملتها "الدولار" بالعملة الدولية استنادا لقابلية تحويلها إلى ذهب على اساس سعر ثابت " ٣٥ دولار للاونصة " حيث تعهدت في ذلك من خلال ميثاق بريتون وودز فمن خلال الدولار استطاعت امريكا إن تتحكم بالسيولة الدوليةوان تنفرد بميزة لاينافسها أي دولة أخرى وهي امكانية تحويل عجزها الخارجي من خلال طبع الدولار دون إن تضطر إلى اجراء سياسات انكماشية تضر بمستويات الاستهلاك والاستثمار فيها بل استطاعت من خلال الثقة

العالمية بالدولار إن تمتلك العديد من الاصول والمشروعات المالية الاستثمارية الكبرى بالخارج.

وفي هذا المجال جاءت شهادة الاقتصادي الأمريكي جيمس توين إمام الكونغرس الأمريكي عام ١٩٦٣ حيث قال" في ظل نظام العملة الاحتياطية عندما يعمل بطريقة سليمة يكون المستفيد الاول من اي زيادة في المقدار المتاح من النقد الدولي هو بوضوح دولة العملة الاحتياطية ذاتها، ومن دواعي السرور إن يكون لدينا في فنائها الخلفي دار لسك النقود ومطبعة للعملة الورقية، وقد منحنا معيار الذهب التبادلي بمقدار لا يقل عن جنوب افريقيا، هذا الامتياز، وقد استطعنا إن نواجه عجزا في ميزان المدفوعات لمدة عشرة سنوات لأن صكوك مديونيتنا تقبل عادة كنقود""٢".

هذا وقد اعتبر الاقتصاديون إن العصر الذهبي للاقتصاد الأمريكي امتدد خلال المرحلة الممتدة من عام ١٩٤٥ـ ١٩٧١، أي خلال تطبيق الكينزية، وبعد ذلك تعرض مركزمراكز الرأسمالية إلى هزات عنيفة بسبب تغير مواقع القوى النسبية الفاعلة على خريطة العالم والتي افضت عبر تطوراتها السريعة والمتلاحقة وخاصة في العقود الثلاثة الماضية من القرن الماضي إلى تراجع الاهمية التي نشاءت على خريطة القوى العالمية بل إن التراجع يعود كما يقول الخبراء الاقتصاديون إلى السياسات الاقتصادية التي سارت عليها امريكا وبالذات في العقود السابقة والى طبيعة الاختلافات الداخلية التي تعاني منها "٣".

كل ما سبق ذكره يقودنا إلى تسليط الضوء على ابرز المراحل التي تعرضت خلالها الرأسمالية العالمية إلى هزات عنيفة، فقد تعرض النظام الرأسمالي بمنظوماته في العقد السابع من القرن الماضي لهزات شديدة على كافة الصعد المحلية والعالمية حيث اندلع صراع فكري ضخم بين الاقتصاديين حول النهج الاقتصادي الرأسمالي، وقد انحصر الصراع بانتصار وتفوق ما يسمى بالتيار الليبرالي المتطرف أو ما يسمى بالنيوليبرالية على حساب التيار الكينزي الذي يدعو إلى تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي، وبذلك تكون الرأسمالية العالمية قد دخلت حقبة السبيعينات من القرن الماضي وهي مثقلة بالمشكلات والآزمات المعقدة من منطلق إن هذه الآزمات لم تكن مألوفة ابان مرحلة الرأسمالية العالمية وخاصة خلال المرحلة الممتدة من ١٩٤٥ـ ١٩٧١، ومن هنا يمكننا ابراز اهم المؤشرات الاقتصادية التي كانت تطفو على سطح المشهد الاقتصادي الرأسمالي على النحوالتالي :"٤"

أولاـ الركود الاقتصادي الذي خيم على كل دولةرأسمالية والمصحوب بمعدلات مرتفعة من البطالة والتضخم .

ثانياـ تراجع معدلات الادخار والاستثمار ونمو شديد في العجز الداخلي والخارجي.

ثالثاـ امتازت مرحلة ما بعد السبعينات من القرن الماضي بانها وضعت نهاية عصر وازدهار لامع شهده الاقتصاد الرأسمالي العالمي في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية حيث نجم عنها تدهور معدلات التجارة العالمية وانتهاء عصر ثبات

اسعار الصرف واضطراب علاقات العجز والفائض بين الدول وتحولات اسواق النقد العالمية إلى ما يشبه بنوادي القمار والفائض واندلعت حمى التجارة والحماية .

اما الصراع الفكري فقد اشتعل ما بين الكينزية والليبرالية الجديدة حيث اصر الكينزيين على إن ادارة الأزمة يتطلب تدخلا قويا من الدولة لمواجهة المشكلات التي نجمت عن اضطراب قوى العرض وبين تيار الليبرالية الجديدة الذين شنوا هجوما ايدولوجيا مركزا على تدخل الدولة، واستخدموا في استراتيجيتهم اسلحة الليبرالية السياسية المستندة على افكار الحرية المطلقة والفردية ووصل الامر بهم للقول " إن الكوارث التي تعرض لها مركز مراكز الليبرالية الرأسمالية إنما يعود إلى سياسات التدخل الحكومي التي عطلت آليات السوق، وقزمت المبادرات الفردية وادت إلى تضخم حجم الحكومة وزيادة وزيادة انفاقها العام ومنافستها للقطاع الخاص واحتياجاتها الشديدة الموارد المالية مما ادى إلى زيادة الضرائب والدين العام المحلي والعبث بالتوازن النقدي وانفجار قوى التضخم، وان الحل لمواجهة هذه آلازمات لابد من انتهاج الليبرالية أي لابد من تحجيم دور الدولة والنقابات العمالية واطلاق حرية السوق بلا حدود، وقد اعتبر الاقتصاديون إن المنظرين الكينزيين قد فشلوا في الرد على هجوم الليبرالية الجديدة وعجزوا عن تفسير ما جرى وانهم لم يقدموا البدائل المناسبة، وازاء هذه التطورات تجمعت عدة عوامل اسهمت في اضعاف مكانة امريكا على مستويات المنظومة العالمية، وتشير كثير من المؤشرات إلى إن الوزن النسبي في هذه المنظومة يتطور آلان ليصبح وزنا عاديا مع الاقطاب الجدد الذي برز داخل المنظومة الرأسمالية العالمية، ويمكن اجمال ابرز عوامل التصدع التي ساهمت في منظومة مركز مراكز الرأسمالية " ٥" على النحو التالي:

أولاـ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كما اشرنا وخلال العقد الاول ما بعد الحرب تم إعادة اقتصاديات بعض الدول الاوروبية والتي بدورها استعادت عافيتها إضافة إلى تعافي الاقتصاد الياباني وكل هذا النهوض في مراكز الرأسمالية العالمية تسارعت معدلات النمو الاقتصادي بسبب نمو التراكم والانتاجية، وبذلك دخل مصطلح الاقتصاد السياسي الحديث المعجزات الاقتصادية حيث تمكنت بعض الدول من تحقيق ارقام مذهلة في حقل التكنولوجيا وخاصة المانيا واليابان فقد تحسنت مستوى معيشة هذه الدول واقتربت ارقامها، وتشير المصادر بان النصيب النسبي للاقتصاد الأمريكي في اجمال الناتج العالمي قد تدهور من ٢٧% عام ١٩٥٠ إلى ١٨% عام ١٩٨٤، وقد حدث ذلك لصالح المجموعات الاوروبية واليابان والدول الاشتراكية .

ثانيا- تدهور الصادرات الأمريكية في السوق العالمي فقد رصد الاقتصاديون والمحللون الماليون بشكل ملموس هذا التدهور والذي حصروه لسببين :

١- ظهور سيل دافق من السلع الصناعية والزراعية البديلة للمنتجات الأمريكية .

٢ــ تدهور مستوى انتاجية العامل الأمريكي في الساعة مقارنة مع الدول الصناعية الأخرى، وخاصة في صناعات السيارات والصلب والمنتجات الكهربائية فمثلا في ظل الاجور النقدية التي يتاقاضاها العامل الأمريكي لوحظ إن انتاجية عنصر العمل الأمريكي تدهورت خلال الفترة الممتدة من ١٩٧١- ١٩٩٢، وبالمقارنة

مع المنافسين الاخرين لأمريكا وخاصة الشركاء اليابانيين والالمان، كما زاد الطين بلة تزايد قيمة الدولار بسبب ارتفاع الفائدة الامريكيةابتداء من المنتصف الثاني من الثمانينات من القرن الماضي، وقد ترتب على ذلك كله تدهور نصيب الصادرات الأمريكية من ١٩% عام ١٩٥٦ إلى ٩% عام ١٩٨٦.

ثالثا- وقف قابلية تحويل الدولار إلى ذهب: حيث جاء قرار فك ارتباط الدولار بالذهب، الذي اتخذه الرئيس ريتشارد نيكسون سنة ١٩٧١، والذي وضع حدا " لبريتون وودز" وبقرار منفرد دون الرجوع إلى صندوق النقد الدولي، فقد بات واضحا إن استمرار التعهد بهذه القابلية سيؤدي إلى فقدان امريكا رصيدها الذهبي بسبب عدم التناسب الذي حدث بين حجم الدولار الورقي بالخارج من ناحية أخرى .

هذا وقد اعتبر الخبراء إن قرار نيكسون بفك ارتباط الدولار بالذهب عام ١٩٧١ بعد إن بداتء العمل به اكثر من ثلاثين سنة يعتبر اكبر سرقة في تاريخ العالم، حيث كان كل ٣٥ دولار يعادل اونصة ذهب تباع وتشترى على هذا الاساس، وعندها أصبحت اونصة الذهب تقدر ب٣٥٠ دولار أي بانخفاض قيمة الدولار تسع مرات، والاهم من ذلك إن من نتائج فك ارتباط الدور عن الدولار إن امريكا أصبحت طليقة في طباعة ما تشاء من الدولارات من اجل ادخال الدولارات في حركة الاقتصاد الرسمي.

هذا وقد اعتبر الخبراء إن عصر الثبات النسبي لاسعار الصرف ودخول العالم عصر التعويم بعد مؤتمر جاميكا عام ١٩٧٦، ومنذ ذلك التاريخ شهد العالم طوفانا هائلا من السيولة أصبحت تنبع من اسواق النقد الدولية " السوق الاوربية للدولار " وبعيدا عن رقابة وتدخل صندوق النقد الدولي حيث أصبحت الاسواق تتعامل يوميا بما لايقل عن ٤٢٠ مليار دولار وتنتقل من بلد لآخر في بضع دقائق، وعلى ضوء ذلك تعرض الدولار إلى ضغوطات شديدة انعكست في تقلب قيمته، ومن ناحية أخرى فان النمو الاقتصادي العالمي المتأثر بالكساد عام ١٩٧٤ - ١٩٧٥، ومن عام ١٩٨٠- ١٩٨٣عندما تفجر كساد اقتصادي جديد وشامل اثناء الانتقال من عقد الثمانينات إلى التسعينات فبعد إن كان حصة الفرد من الناتج العالمي تنمو بمقدار ٢,٧% في عام ١٩٨٨لم تتم إلا بمقدار ٣،% في عام ١٩٨٩، غير إن انها انخفضت بمقدار ٣،% عام ١٩٩٠، و٢% عام ١٩٩١، اما الإنتاج الكلي فقد ازداد بنسبة ٣% في عام ١٩٩١، هذه هي المرة الاولى التي يحدث فيها هبوط من هذا النوع في الإنتاج العالمي منذ الحرب العالمية الثانية .

ومن هنا نقول إن الاقتصاديات العالمية لمنظومة الرأسمالية دخلت مرحلة الكساد في اواسط عام ١٩٩٠، وهي في قمة تطبيق النموذج النيوليبرالي حيث أصبح معدل البطالة يساوي ٧% من دخل العمل البالغة ١٠ ملايين عامل، وان اكثر من ٦,٥ مليون عامل يعملون بنصف فترة العمل بينما يعيش ٢٥ مليون شخص على الاعانات الغذائية، وان ٥١% من السكان يعيشون تحت خط الفقر، ومن جانب آخر فقد قضت هذه آلازمة على بعض الشركات الكبرى مثل شركتي" تي واو ايه، راناما،" للنقل الجوي، والحقت اضرارا بالغة بشركة جنرال موتورز العملاقة التي سجلت خسائرها

٤,٥ مليار دولار مما ادى إلى اغلاق ١٢ مصنعا من مجموع مصانعها البالغة ٢١ مصنعا حتى عام ١٩٩٥، وتسريح ٧٤ الف عامل من وظائفهم .

الاقتصاد البريطاني : فقد دخل مرحلة الكساد منذ النصف الثاني من عام ١٩٩٠، ولم يدخل الاقتصاد البريطاني في هذه المرحلة فقد حقق نموا في الناتج القومي الاجمالي بمعدل ٤,٥ % في عام ١٩٩٠، وفي مرحلة الكساد في النصف الأخير من عام ١٩٩١، بينما سجل الإنتاج الصناعي للجزء الذي انظم إليها انخفاضا بلغ ٥٠%، انظر هذا الرقم ٥٠% يثبت على وجه اليقين إن غاية التروستات والكارتلات عندما تضم الاقاليم الجديدة لا تهدف إلى تحديث اقتصاديات هذه الاقاليم، وانما تسعى إلى تدميرها كوسيلة لفتح الاسواق لفرض تسويق المنجات الصناعية لمصانعها التي تعاني من الأزمة الاقتصادية، هذا وقد بلغت نسبة البطالة في المانيا اكثر من ثلاثةملايين عامل في بداية ١٩٩٢.

فرنسا: فقد حافظت على معدل البطالة فيها بحدود ١٠% تقريبا، وفي نهاية ١٩٩١ سجلت المجموعة الاوروبية معدلا للبطالة بلغ ٩,١%، وفي اليابان حيث لم يتأثر الاقتصاد الياباني في بداية الأزمة، وتأخر كثيرا للدخول في الأزمة وتبين ذلك من خلال المقارنة ما بين معدل نمو الناتج القومي الاجمالي الذي كان يسجل ٥% للاعوام ١٩٧٨ـ ١٩٩٠، وفي نفس العام لم يسجل سوى ٢%، وفي عام ١٩٩١ الذي يعتبر بداية الانذار في الاقتصاد الياباني .

القطاعات الاقتصادية والازمة المالية

لقد حققت البنوك ارباحا كثيرة خلال هذه المرحلة من خلال زيادة نسبة مساهمتها في الدخل العالمي من ١,٥% عام ١٩٦٥ إلى ٢٩,٤% في نهاية الثمانينات، فقد اسفرت الوثيقة التي اعدتها الامم المتحدة في عام ١٩٩١ في جدول اعمال مؤتمر الأرض الذي عقد في مدين ريودي جانيرو عام ١٩٩٢ عن وجود ١٥٧ ملياردير في العالم حاليا يملكون ثروات هائلة من الدولارات إلى جانب مليار ١,٥ شخص يعيشون بمستوى اقل من خط الفقر، ولهذا تعتبر هذه الأزمة الاقتصادية شاملة وعالمية وتحبط العالم باسره، وهذه هي المرة الاولى التي يحدث فيها هذا النوع من الازمات في التاريخ المعاصر، ومن هنا لا بد من الاشارة إلى إن الكساد الاقتصادي الكبير الذي ضرب الاقتصاديات العالمية ١٩٢٩ــ ١٩٣٣ حيث اصاب العالم الرأسمالي ولم نجح منه إلا الدول الاشتراكية التي تمتد على مساحة شاسعة، وظلت الكتلة الشرقية وعدد من دول العالم الثالث خارج تأثيرات الكساد،وخلال الاعوام ١٩٧٤ـ ١٩٧٥، ١٩٨٠ـ١٩٨٣ على التوالي، لكن الأزمة الاقتصاديةالتي ضربت الاقتصاديات العالمية "١٩٩٠" والتي شملت الدول الرأسمالية المتقدمة ودول الكتلة الشرقية التي تحاول حكوماتها الاخذ بالتحولات الرأسمالية، وبهذا لم يسلم من شرها احد، وعليه لم تكن هذه الأزمة عابرة مشابهة للازمات الدورية التقليدية التي كانت تصيب الاقتصاد الرأسمالي، وانما هي عبارة عن أزمة مستمرة وعميقةساهمت في زعزعة اسس الاقتصاد العالمي"٦".

ومن الجدير بالذكر اننا قد اشرنا سابقا انه قد تم امتصاص الأزمة العامة للرأسمالية التي حدثت بسبب الحرب العالمية الاولى، ولفترة طويلة من الزمن بفضل موجة التوسع الكبير الذي جرى بعد الحرب العالمية الثانية، واشرنا كذلك إلى إن الاسباب العامة جاءت بسبب التناقضات الرأسمالية في مرحلتها الامبريالية، والتي تفاقمت اساسا من الاندماج والحاجة إلى انتشار القوى الانتاجية وما يتبعها من تنمية اقتصادية واجتماعية وسياسية للانسانية جمعاء، والتي لم تكن منسجمة مع الحدود الضيقة التي تفرضها عليها العلاقات الرأسمالية للانتاج، ووفق الطريقة التنظيمية للنظام الرأسمالي، ولقد ضاعفت الامبريالية هذا التناقض في الوقت الذي سمحت فيه بالانتشار الكبير للعملية الانتاجية على الصعيد العالمي على اساس ما توصلت اليه من توحيد الاقتصاد العالمي الرأسمالي في اقتصاد واحد نجد إنها تعمل على احتكار الملكية وجعلها في أيدي حفنة من أصحاب المال في دول منظومة الرأسمالية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية .

وهنا يلاحظ الباحث إن الأزمة الاقتصادية العالمية توزعت على معظم منظومة الرأسماليةالعالمية وخاصة الليبرالية المتطرفة التي تجسدت افكارها ومبادئها بتحجيم الدولة في النشاط الاقتصادي، وفي خفض معدلات الضرائب على الدخول والثروات المرتفعة، وفي بيع القطاع العام إلى الخاص، واطلاق حرية السوق في بيئة يغلب عليها طابع الاحتكار، وقد توصلت إلى ما يلي:

١ـ إعادة توزيع شبه جذرية للثروة القومية والدخل القومي بالبلاد الرأسمالية الصناعية لصالح البورجوازية، وضد كاسبي الاجور والمرتبات من العمال والموظفين، وتشير الارقام في الولايات المتحدة إن الحصة المملوكة من الثروة التي يملكها اغنى الاغنياء ١% من الامريكيين قفزت من ٢٥,٩% عام ١٩٦٨ إلى ٣٤,٣٠% عام ١٩٨٣، وهذا المؤشر يعتبره الاقتصاديون بأنه رقم خيالي في التاريخ، وهذا التركيز الشديد للثروة حدث في بلاد أخرى وبدرجات متفاوته، وبعد إن كان النصيب النسبي للاجور المدفوعة من إجمالي الدخل القومي في البلاد الرأسمالية الصناعية قد ظل تقريبا ثابتا بعد تحسنه في أعقاب الحرب العالمية الثانية وحتى ١٩٦٨ أي في المرحلة الكنزية إلا إن النصيب تغير في ظل سياسات الليبرالية الجديدة نحو التدهور، وذلك من خلال مؤشرات الانخفاض النسبي الذي حدث في مستوى معيشة كاسبي الاجور والمرتبات وبخاصة بعد التخفيض الشديد الذي حدث في الإنفاق الحكومي الموجه للخدمات الاجتماعية، وتشير المصادر انه في المقابل ازداد عدد البليونيرات في امريكا عام ١٩٨٦ حيث ارتفع عددهم من ١٤ بليونير إلى ٢٦ بليونير، وترتب على ذلك إن الدخل القومي قد اعيد توزيعه بشكل اكثر تفاوتا في امريكا، وطبقا لبعض المصادر تبين إن دخل ٥% من الامريكيين اصبح يفوق دخول ٤٠% منهم .

٢ـ احدثت سياسات الليبرالية الجديدة انتعاشا واضحا في صفوف البرجوازية وزادت من قدرتها الاقتصادية، لكن الطرف الآخر تفاقم حدة وخاصة في توزيع الدخل والثروة الذي حدث في العقدين الاخيرين من القرن الماضي، وفي المستقبل العاجل بتفاقم أزمة التصريف بعد إن يظهر التأثير التراكمي لهذا التفاوت الذي يبدوان الاخطار التي تنتج عنه لم تكن بحساب هولاً الليبراليون الجدد، ومن هنا فقد تنبأ العلماء الاقتصاديين والخبراء بان منظومات الرأسمالية العالمية مقبلة على أزمة

تصريف ستتخذ طابعا فيما بعد مغايرا للأزمات التي مرت بها الرأسمالية في عالم ما بعد الحرب، وخاصة إذا ادخلنا في الاعتبار قضايا البطالة والتحول من عملية الافقار النسبي إلى الافقار المطلق داخل الدول الرأسمالية الصناعية، ومن هنا فانه من الواضح إن الليبرالية الجديدة تجاهلت وضع حلول لهذه القضية بل انها قبلت ضمنيا إن حل أزمات الرأسمالية وبالذات أزمة التضخم لن تتم إلا في ضؤ القبول الواسع بالبطالة بعد إن يتم التخلي عن هدف التوظف الكامل، وما دمنا بصدد الحديث عن البطالة فان المشكلة الرئيسية التي تواجهها مراكز الليبرالية تكمن في ما يلي :

١ـ إن الصناعات التي ستعتمد عليها موجة التوسع الرأسمالي القادمة من ذلك النوع الذي لن يوفر العمل الثابت للعمالة التي استند إليها الإنتاج الصناعي الضخم في مراكز الرأسمالية خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٧٠ـ ١٩٨٥، فالتصنيع الضخم يتراجع ألان إمام الخدمات التي تعتمدعلى فنون انتاجية موفرة لعنصر العمل والانتاج في الصناعات الجديدة التي ستعتمد على فنون مستحدثة كثيفة المعرفة، وسيتأثر من خلال اجهزة الإنتاج والادارة المبرمجة التي يقل فيها الجهد الانساني فهناك ألان ارتفاع شديد في درجة اتمتة العمليات الانتاجية، وبشكل متزايد عبر الزمن حيث حل العمل آلالي مكان الانساني، واصبحت خطوط الإنتاج في كثير من الصناعات لا تحتاج إلا تدخلا بسيطا أو تافها من جانب الانسان، وخاصة بعد ابتكار الريبون أي الانسان آلالي الذي جاء بعد التطور المذهل في صناعة الكمبيوتر وتكنولوجيا المعلومات، وازداد الطلب على خدماته بسسبب الوفر الهائل الذي يحققه في العمالة آلاجر المرتفع وبسبب ما يوفره من مزايا نسبية في خفض التكاليف وتحسين الموقع التنافسي للمؤسسات الاحتكارية باللارغم من ارتفاع سعره وتكلفته، والمؤشرات تشير إلى انه خلال عام ١٩٨٢ وصل إلى ٣١ الف ريبوت في كل الدول الرأسمالية عام ١٩٨٢، وتشكل اليابان اعلى نسبة حيث وصلت إلى ٤٢% أي ١٣ الف جهاز وتلتها امريكا ٢٠% أي ٦٢٥٠، و٢٥% في باقي الدول الصناعية، كما ولاحظنا فيما سبق إن اقتصاديات مراكز الرأسمالية المتطرفة لا تعتمد على العمالة الكلاسيكية، وانما على عمالة عالية المهرة وكثيفة المعارف وذات قدرة على التكييف والتدريب باستمرار على الفنون الانتاجية الجديدة، صحيح إن الموجة الجديدة للصناعات عالية التكنولوجيا قد تخلق فرص عمل جديدة للعمالة الماهرة جدا، لكنها في جميع الاحوال لن تستوعب تلك القدرة من قوة العمل الذي يوجد ألان اوغدا في مراكز الرأسمالية العالمية، بل والادهى من ذلك والامّر انه نتيجة لسرعة التقدم الفني فهولأ الذين سيجدون فرصة للعمل سيكونوا معرضين للبطالة في المستقبل إذا لم يواكبوا الحاجات المتغيرة لمهارات العمل والابداع المطلوبين .

كما إن المعضلة الكبرى تكمن في إن فرص العمل الجديدة لن تكون متاحة إلا إمام القادرين على دفع نفقة التعليم والتدريب والتعرف على مهارات الثورة العلمية والتكنولوجية المستمرة، وهنا إذا عرفنا إن الليبرالية الرأسمالية تصر على تقليل الإنفاق الحكومي الموجه للتعليم والتدريب، وجعلت التعليم خاضعا لاقتصاديات السوق .

وفي الختام ارجوا إن اكون قد اعطيت صورة وافية عن تحكم الليبرالية الجديدة وآلازمات التي تسببت بها من خلال احكام قبضتها على القاعدةالشعبية من العمال والموظفين والطبقة الوسطى، وحكمت عليهم بالبطالة الدائمة، ومعنى هذا إن مشكلة

البطالة تحولت لأن تصبح أزمة هيكلية لا تجدي امامها الوصفات الكينزية الكلاسيكية والوصفات السطحية النقدية منها والمالية التي تنطلق منها الليبرالية المتطرفة .

إن مشكلة البطالة هي القنبلة الخطرة التي يتعين على الليبرالية الجديدة إن تحسب لها الف حساب نظرا للاخطار المحدقة التي تنتظرها من قيام العنف والتطرف والعنصرية وحوادث الشغب والجريمة، ومع ذلك فان مواجهة هذه الليبرالية لن يتم إلا بانبعاث الحركة العمالية خلال تجربة ما بعد ١٩٤٥ـ ١٩٧٠، والتي اعتقدت الرأسماليةانها دفنت، إن احياء الكنزية المتطورة هو الحل من وجهة نظر الخبراء بعد إن تورطت الكرة الارضية بحلول الليبرالية المتوحشة والتي تفجرت بشكل علني فيما يسمى بالازمة المالية العالمية وازمة الاقتصاد الأمريكي، والذي سيكون مدار البحث في الفصل اللاحق من هذه الدراسة .

هوامش الباب الثالث الفصل الاول

١ـ الليبرالية المتوحشة، د. رمزي زكي، ص ١٢٦ـ ١٢٧

٢ـ مرجع سابق، ص ١٢٨

٣ـ مرجع سابق، ص ١٢٨

٤ـ انهيار الليبرالية الجديدة، نيلسون اورو، ص ٢١ـ ٢٢

٥ـ محاضرة في المنتدى العربي، د.عبدالحي زلوم، العرب اليوم تاريخ ٢٠٠٨/١١/٢٠

٦ـ مرجع سابق، ص ٣٩ـ ٤٠

الفصل الثاني ـ الباب الثالث

الأزمة المالية والاقتصادية الأمريكية

لمحة تاريخية عن ابرز الازمات التي تعرض لها الاقتصاد الأمريكي: قبل إن ندخل في قراءة هذا الملف يستوجب علينا إن نوضح ابرز المحطات التي مّر بها الاقتصاد الأمريكي منذ إن تسلم قيادة مركزمراكز الليبرالية العالمية، وتشير الدراسات الاقتصادية إلى إن أزمة الاقتصاد الأمريكي بدأت منذ عام ١٩٧١ عندما اتخذ الرئيس الأمريكي ريتشاردنيكسون قراره بفك ارتباط الدولار بالذهب، وهذا يعني إن امريكا اتخذت قرارا من طرف واحد بالغاء الاتفاقيات الموقعة في " بريتون وودز"، والتي تم فيها اعتماد بنود النظام الاقتصادي الدولي بعد الحرب العالمية الثانية، ولذلك فان هذا الموقف يعتبر إن الرأسمالية تعبر عن علنية ازمتها وشيخوختها، ولذلك فقد وصف الخبير النفطي العربي عبد الحي زلوم بان هذا القرار يعتبر اكبر عملية سرقة مالية في التاريخ، وبذلك فان أزمة الاقتصاد الأمريكي بدأت تظهر بشكل واضح وجلي، ففي الفترة ما بين ١٩٨٠ـ ١٩٨٥ ارتفع المعدل الفعلي لسعر صرف الدولار بنسبة ٦٠% وهو الان يتعرض للهبوط والارتفاع حسب حالة العجز الأمريكي، وتطورت اسعار الفائدة الأمريكية، وفي اللحظة الذي اهتزفيه الدولار تحسنت عملات أخرى، وبذلك لم يصبح الدولار هوالعملة الوحيدة في الاحتياطات النقدية بل شاركته في ذلك عملات أخرى يتزايد وزنها النسبي عبر الزمن في جملة تلك الاحتياطات، وهنا اشار بعض الاقتصاديين إلى انه في ضؤ الشك الكبير الذي يحيط بمستقبل الدولار كعملة دولية برزت محاولات عالمية واقليمية محدودة للوصول إلى بديل له، خاصةمع بروز حقوق السحب الخاصة التي ظهرت سنة ١٩٦٨ باعتبارها وسيلة جديدة للسيولة الدولية، ولكي تحل تدريجيا مكان الدولار لكنها اجهضت عن طريق التكنولوجيا الاتصالية، وتنتهي بذلك شرعية صندوق النقد الدولي الذي استهدفت حسب ميثاق بريتون وودزتحقيق الاستقرار في اسعار الصرف وتنظيم اموال السيولة العالمية باعتباره بنك البنوك المركزية في العالم، ولم يعد للصندوق أي دور فاعل في التأثير على الدول الرأسمالية الصناعية، وان كان بقي يفرض هيبته وجبروته على الدول الفقيرة وذلك من خلال سياسة الهروات، وبانتهاء عصر بريتون وودز واختفاء الوظائف الحقيقية التي قام على اساسها صندوق النقد الدولي فلم تعد تنفرد بتحديد حجم السيولة الدولية الذي كان يتحدد سابقا من خلال عجز ميزان المدفوعات الأمريكي، وبسلطتها الضخمة في توجيه الصندوق، واصبحت قضايا النقد الدولي والسيولة الدولية تحدد وتنسق من خلال التشاور الجماعي فيما يسمى بمجموعة الدول العشرة الصناعية "١"،هذا وقد جرى محاولة أخرى، وهي ابتكار وحدة النقد اوروبي " ايه سي يو"، والتي تم التعامل بها بشكل متزايد بين دول المجموعة الاوروبية، هذا ويتفق عدد من الخبراء في شؤون النقد الدولي على إن خروج العالم من ورطة الدولار كعملة دولية يجب العودة إلى معالجات اللورد كينيز بضرورة استحداث عملة دولية سماها كينيز"

البـانكور"، وهـي لا تنتمـي لـي بلـد، وان ينشـاء بنـك مركـزي عـالمي يتـولى مهـام اصدارها وتغطيتها وتوزيعها، ولو حدث ذلك فستفقد امريكا اهم آلية من آليات فرض الهيمنة على المنظومة الرأسمالية .

اهم العوامل التي ساهمت في تأزيم الاقتصاد الأمريكي

يمكن اجمال اهم العوامل إلى عاملين اثنين هما :

أولا العوامل الخارجية : أولا- تشير المصادر إلى انه منذ عام ١٩٨٥ تحولت امريكا من دولة دائنة إلى دولة مدينة، فقد اشارت المصادر الاقتصادية إلى تدهور موقف المدفوعات الخارجية " عجز الحساب الجاري " للاقتصاد الأمريكي على نحو سريع وبشكل دراماتيكي منذ عقد الثمانينات من القرن المنصرم حتى وصل إلى ١٥٥ مليار دولار أي مانسبته ٣,٥% من الناتج المحلي الاجمالي الأمريكي، وكان من جراء هذا التدهور إن انقلب الصافي للاستثمار الاجنبي للاقتصاد الأمريكي ففي عام ١٩٨٤ حيث اختفى الفائض الذي كانت تسجله الاصول الأمريكية بالخارج على حجم ما يملكه الاجانب من اصول واستثمارات خاصة وحكوميةداخل امريكا، وابتداء من ١٩٨٥ أصبحت المديونية الأمريكية تقدر ب ١١٢ مليار دولار ثم قفزت إلى إلى ٢٦٣,٦ مليار دولار عام ١٩٨٦، والى ما يزيد عن ٥٠٠ مليار دولار عام ١٩٨٨ ففي هذه السنة كانت قيمة الاصول التي يمتلكها الاجانب داخل امريكا قد وصلت إلى ١,٧٠٠,٠٠٠ مليار دولار أي ترليون و٧٠٠ مليار في حين إن قيمة الاصول الأمريكية بالخارج على شكل قروض واستثمارات خارجية قد وصلت إلى ترليون و٢٠٠ مليار، ودلالة ذلك كله هي إن اقتصاديات الولايات المتحدة الأمريكية شأنها في ذلك شأن اقتصاديات العالم الثالث، وهذه مفارقة صارخة، حيث اصبح الاقتصاد الأمريكي ينفق اكثر مما ينتج ويدخر، وهذا معناه إن الامريكيين اصبحوا آلان يعيشون في مستويات معيشية تفوق بكثير من امكانيات الاقتصاد الأمريكي .

ثانيا- ومن هنا فقد تمكن الامريكيين من القاء كلفة تدبير هذه الفجوة في الموارد على العالم الخارجي من خلال الدور الذي ما زال يلعبه الدولار كعملة دولية، ومن خلال سعر الفائدة فقد كفل لهم ذلك القدرة على اجتذاب الفوائد المالية العالمية التي تهيم على وجهها في الاسواق النقدية بحثا عن فرص سريعة للربح والعائد مع الضمان المرتفع، وهذا الدين الخارجي الصافي المستحق على امريكا قد ادى إلى نتيجيتين :

اولهما: إن امريكا تحملت دفع الفوائض وارباح وتوزيعات المستثمرين الاجانب بعشرات المليارات سنويا واصبحت هذه المبالغ المنسابه للخارج سببا رئيسا من اسباب نمو عجزالحساب الجاري.

ثانيهما: نتيجة للشك في قيمة الدولار عالميا بداء المستثمرون داخل امريكا يحولون استثماراتهم من شكلها المالي إلى الودائع والسندات إلى استثمارات واصول

عينية، وهذا ما رصده الباحث د. رمزي زكي تحديدا من سلوك اليابانين باعتبارها أكبر دائنين لأمريكا، حيث عمدوا إلى شراء كثير من الشركات الأمريكية العملاقة مثل شركة كولمبيا ونصف اكبر بنوك كاليفورنيا، والكثير من العقارات في لوس انجلوس وجزيرة هاواي، والعديد من شركات الخدمات والمؤسسات الصناعية، وهكذا استولى المستثمرون الاجانب على بعض الوحدات التي كانت تهيمن عليها الشركات الأمريكية، واصبح كثير من الامريكيين عمالا لدى ارباب العمل الاجنبي، ويرى الاقتصادي الأمريكي "فرد برجستون " إن العالم قد يشهد أزمة ثانية في المديونية العالمية حيث تتجاوز ديون امريكا ديون العالم الثالث فهو يعتقد إن الوضع الدولي للاقتصاد الأمريكي يتطور منذ فترة على نحومشابه للتطور الذي سارت عليه البلاد النامية خلال اعوام ١٩٧٣ـ ١٩٨٢، وادى في النهاية الة تفجير أزمة ديونها .

ثالثا- الاقتصاد الأمريكي مرّ بازمة سميت تعاظم حركة التدويل للاقتصاد العالمي الرأسمالي فقد بدأت امريكا تفقد تدريجا تلك المكانة القيادية التي كانت تحتلها في المنظومة الرأسمالية لعالم ما بعد الحرب، فقد تزايد اندماج وتكامل الاسواق المالية والنقدية والصناعية والتكنولوجية على نحو هائل وزادت درجة التسابك والترابط بين مختلف اقتصاديات دول العالم مهما تنوعت درجات تطورها واختلفت طبيعة نظمها الاقتصادية، حيث إن بعد التحول العاصف لحركة التدويل التي قادتها شركات متعددة الجنسيات فان تلك الحركة أصبحت تتجاوز مصالح الحدود الوطنية الضيقة ويبدو للباحث إن هناك الان قوانين موضوعية تخضع لها، ومطلوب من الاقتصاد ومؤسسات بريتون وودز التي سيطرت على امريكا ولا الكنزية العالمية قادرة على ادارة الاقتصاد العالمي، والتناقض الذي لاحظه المفكرين الاقتصاديين هو انه في الوقت الذي ضعفت فيه قواعد وآليات تشغيل المنظومة في صعيدها العالمي حسبما خططت امريكا في مرحلة ما بعد الحرب، تتزايد الان الحاجة إلى وجود مثل هذه القواعد وآليات وهي مهمة تتطلب القبول بانتقال المهام التنظيمية ووضع السياسات من اطارها الوطني إلى اطارها العالمي كما يقول الاقتصادي " كريستيان بالوا" " الارتضاء بالتخلي عن جزء من السيدة القطرية لصالح تشغيل المنظومة الرأسمالية ليس من المتوقع إن تنفرد دولة اومجموعة من الدول بتحديد وصياغةهذه لآليات والسيطرة على المؤسسات الملائمة لها والامر المرجح إن المنظومة الرأسمالية في المرحلة القادمة ستشهد نوعا من التنازع على القيادة بين مراكزالليبرالية العالمية ".

رابعا- التغيرات التي جرت بانحلال المنظومة الاشتراكية : تعتبر هذه أزمة اثرت على الاقتصاد الأمريكي حيث انه باستثناء كل من الصين وكوبا وكوريا الشمالية فان المنظومة الاشتراكية قد تم تفكيكها والتي كانت تتبع الاتحاد السوفياتي سابقا، والاهم من ذلك انحلال عقد حلف وارسو وتقسيم الجمهوريات السوفياتية إلى جمهوريات مستقلة، وانفراط عقد دول اوروبا الشرقية عن الكتلة الشرقية والاشتراكية، كل ذلك ساهم في كشف القناع عن الاوروبين بان ما بعد انهيار وتفكيك الاتاد السوفياتي واقبال الدول على اقتصاد السوق، واصبح دور الدولة محدود أي إن مبررات الهيمنة الأمريكية بعد سقوط الاتحاد السوفياتي أصبحت غير مقنعة بالمطلق باعتبارها حامية العالم الحر من الماكرثية أي إن مبررات الإنفاق العسكري والامني الهائل ساهم في اهتزاز اقتصاد مراكز الرأسماليةحيث إن هذا الإنفاق احدالمحددات للنشاط

الاقتصادي، ورغم إن نسبة الناتج الاجمالي القومي لا تتجاوز ٦% إلا أن المسألة لا تقف عند هذا الحد فقطاع الإنتاج العسكري يعمل ويعيش على محيطه انشطةوشركات صناعية أخرى، وهذه الشركات تعتمد على العقود التي يبرمها البنتاجون معها لانتاج كثير من السلع والمعدات الحربية، وتنبع اهمية هذه العقود ليس لكميتها الضخمة، وانما بسبب الارباح الهائلة التي تحصل عليها الشركات، إضافة إلى الدعم المالي في مجال البحوث والتطوير للاسلحة الحديثة .

كما إن صادرات السلاح الأمريكي للعالم الثالث من اهم ادوات نهب فائضه الاقتصادي وضمان السيطرة عليه أي إن المجمع الصناعي العسكري لا يتأثر ولا يمكن إن يتأثر بما جرى بعد انهيار المنظومة الاشتراكية بل إنه سيزيد من انتاجه وفعلياته، وهذا ما ثبت بالفعل في عمليات تفكيك يوغسلافيا سابقا، واحتلال العراق وأفغانستان، كما إن تحويله من مجمع عسكري إلى مدني صعب للغاية .

خامسا- الضعف النسبي الذي آلت اليه قيادة امريكا للمنظومة الرأسمالية العالمية سوف يصل إلى ذروته بظهور عامل جديد هو ولادة اوروبا الموحدة حيث ستؤثر هذه الوحدة على السياسات الأمريكية، وقد تتحول هذه القوة الاقتصادية التي تمثل ٢٢٠ مليون نسمة، ومجموع الدخول القومية فيه اكثر من اربعة ترليون دولار فيما يبلغ الدخل القومي الأمريكي ٥ ترليون، وسيكون لهذه المجموعة كلمة الفصل في المستقبل سواء في المجال السياسي والعسكري والاقتصادي "٣"، وهذا بالتالي يقودنا إلى طرح السؤال التالي : هل قيام اوروبا الموحدة يقلق الامريكيين؟ خاصة بد ما قامت هذه الوحدة والتي ساهمت في اثارة المخاوف الأمريكية حيث اعتبر الخبراء إن مكمن الخوف الأمريكي يكمن في المحاور التالية :

١- إن اوروبا الموحدة سوف تتيح للمشروعات الاوروبية العملاقة فرصا افضل في الكفاءة والتطوير بسبب حجم اقتصادياتها مما يساعدها على اكتساح العالم حيث سيمكنها من اكتساح السوق العالمي واضعاف تدفق السلع الأمريكية .

٢- ستكون اوروبا اكثر جاذبية للاستثمارات العالمية، وهذا بحد ذاته يعني ضعف قدرة امريكا على استقطاب استثمارات اجنبية .

٣- يتوقع الخبراء الامريكيين إن درجة النموالتجاري بين الدول الاوروبية ستكون اعلى من درجة نمو هذا التبادل مع دول العالم أي انه سيساهم في نقصان الصادرات الأمريكية لاسواقها.

٤- إن ظهور اوروبا الموحدةسيتطلب ادماج وتوحيد النظم النقدية باوروبا وايجاد بنك مركزي لوروبي، وهذا ما حصل، وبالتالي اضعاف الدولار، وتاريخيا كانت الاقتصاديات الاوروبية تمثل قلعة هامة للاستثمارات الأمريكية حيث وصلت عام ١٩٨٧ إلى ١٢٢,٢ مليار دولار أي مانسبة إجمالي الاستثمارات الأمريكية المباشرة في العالم، وهذه الاستثمارات ستكيف اوضاعها طبقا لمراكزها الرئيسة في امريكا"٤".

هذا فقد اجمع الخبراء إن احتلال العراق وأفغانستان من اهم العوامل التي ساهمت في زعزعة الاقتصاد الأمريكي، ومن هنا فاننا سنعرض صورة للاقتصاد الأمريكي قبل الحرب على العراق وما بعده وهو من اهم العوامل الخارجية .

اجمع خبراء الاستراتيجية الأمريكية إن احتلال العراق كان قرارا حتميا ليس له علاقة بكل المسوغات التي اعلنتها الادارة الأمريكية الحالية عبر الماكنة الاعلامية، وان احتلال العراق جاء لتصحيح خطاء تاريخي كما يزعم المحافظون الجدداو المجانيين الجدد " لتصحيح خطاء الرب"، آن الاوان القيام بهذا القرار وليس له علاقة فيما يسمى بتغيير النظام العراقي السابق اوالبحث عن اسلحة الدمار الشامل فكل هذه الاساطير والخرافات الأمريكية اثبتت إن اهداف الادارة الأمريكية هي اهداف تضليلية كاذبة وان الهدف الحقيقي لاحتلال العراق كما يقول عدد من الخبراء الاستراتيجين الامريكيين إن وراء الاندفاعة الأمريكية طاقة دفع قوية لا تستطيع الادارة الأمريكية نفسها إن توقفها لو ارادت لأن القوات الأمريكية قد بدأت بالفعل عمليات القتل الاستراتيجي حول العراق لأن منظومة القوة التي تمسك بالقرار الاستراتيجي الأمريكي والموصولة بالقوى الاقتصادية والاجتماعية المسيطرة لاترى مخرجا لازمة اقتصادية اجتماعية متفاقمة ومتصاعدة بغير هذه الاندفاعة، والخارطة الاقتصادية قبل الاحتلال الامريكي للعراق تشير إلى إن الاقتصاد الامريكي كان على حافة الهاوية، ولذا جاءت مسوغات التدخل الأمريكي في المنطقة " الخليج والعراق"، تحت مسوغات تحرير الكويت من العدو العراقي وتحرير الشعب العراقي من الدكتاتور صدام حسين!!، لكن الحقيقة التي اثبتتها الايام إن المستنقع العراقي يشكل احد اهم الاسباب الرئيسة في أزمة المشهد الاقتصادي الأمريكي، لانه جاء بعكس احلام اعلام مسوغي الحرب، لنقراء بعض المؤشرات الاقتصادية للاقتصاد الأمريكي وعلى النحو التالي :

خلال عام ٢٠٠١ استوردت امريكا ١٠,٨ مليون برميل بترول يوميا، إضافة إلى انتاجها ٦ ملايين برميل يوميا، وبذلك ارتفعت وارادتها من البترول قياسيا إلى عام ٢٠٠٠ بنسبة ٩٠% وان كانت قد استوردت خلال عام ١٩٩٨ ما قيمته ٥٠,٦ مليار دولار فقد دفعت خلال عام ٢٠٠٠ ثمنا لوارداتها من البترول ما يتجاوز ١١٩ مليار دولار، وان كانت قد اطلقت من احتياطاتها الاستراتيجية مليون برميل يوميا لاحتواء تذمر المستهلكين وارتفاع الاسعار فانها لا تستطيع إن تواصل نموها في ظل أزمة اقتصادية هيكلية بمزيد من استنزاف الاحتياطي أو بتضخم مضاعف في فاتورة وارداتها البترولية .

وفي ضوء ذلك ووفق الدراسات والابحاث التي اجرتها مراكز الدراسات والابحاث والمؤسسات المالية والبنوك الاستثمارية الأمريكية والبريطانية فليس ثمة بديلا عن الحرب شرط إن تكون سريعة، وان تحقق نصرا، وهذا يفسر لنا سر التحالف البريطاني الأمريكي في المفاصل التي خاضتها وتخوضها امريكا في المنطقة، فمثلا مؤسسة " كونسن" دعت من خلال دراسة اجرتها إلى حرب سريعة لانه سيتبعها انخفاض في اسعار النفط ويليها بداية انتعاش للاقتصاد العالمي، فيما اعتبر معهد المديرين في لندن إن احتلال العراق سيؤدي إلى هبوط اسعار النفط إلى عشرين دولار وارتفاع اسعار الأسهم لا يقل عن ٥%، ولهذا توصل هذا التقرير الذي اعده المعهد إلى إن احتلال العراق افضل من عدم احتلاله، بل إن تقارير

امريكية اكدت إن خسائر كبيرة مؤكدة سوف تحدث للاقتصاديات العالمية من جراء التأخير في تنفيذ العمليات العسكرية، وان هذه آلاثار لن تطول الاقتصاد الأمريكي وحده، لأن تأجيل الحرب على العراق لمدة ستة اشهر فقط سوف يؤدي إلى تخفيض النمو في الاقتصاد الاوروبي بنسبة ٠,٦% اعتمادا على الزيادة في اسعار البترول وحده، ويصعب فهم هذا الالحاح الأمريكي للحرب من جانب ارتفاع اسعار النفط وحدها لأن الاقتصاديين الامريكيين توصلوا إلى إن الاقتصاد الأمريكي يترنح منذ صعود الرئيس جورج بوش الابن إلى البيت الابيض وهو ألان في غرفة العناية المركزة، ويستشهد من خلال هذا التحليل للمؤشرات الاقتصادية التالية:

١- انخفاض الدولار إمام الين بنسبة ٢٠%

٢- انخفاض الفائدة في البنوك الأمريكية من ٦% ولغاية ١,٢٥% وهي لم تعد للتخفيض اكثر من ذلك .

٣- عجز رسمي معلن في موازنة ٢٠٠٣ بلغ ٣٠٠ مليار دولار لكن بعض التقديرات المحايدة قدرته ب ٤٧٥مليار دولار

٤- الاقتصاد الأمريكي يهوي إلى قاع الكساد فقد بلغ الهبوط الاجمالي نحو ١٣% وزاد في البطالة بمعدل ٤٠% أي من ٤,٢% - ٦%

٥- انخفضت قيمة الاستثمارات التكنولوجية بنسبة ٦٠% من قيمة الأسهم الأمريكية فقد انحدرت خلال عامين من ١٤,٧% إلى ٩,٦% تريليون دولار، وبذلك تكون قد خسرت ٥ ترليون دولار من قيمتها فضلا عن المؤشرات الرئيسة لسوق المال الأمريكي فقد انخفضت بمعدل ٣٣% ما لم يحدث في عهد أي رئيس امريكي .

٦- بروز بنية هائلة للكساد على شكل ديون متضخمة سواء لدى الشركات أو لدى المستثمرين سوف تزيد من تراجع حاد في الطلب على الاسواق الأمريكية ز

والسؤال الذي طرحه احد الخبراء الاستراتيجين الامريكيين هل الحرب على العراق ستحل مشكلة الاقتصاد الأمريكي ؟، فقد جاءت الاجابات على محورين :

الاول : اعتبر انها ستحقق انتعاشا مؤقتا لأن هناك أزمة اقتصادية هيكلية سوف تتكفل الحرب بتدويرها وتأجيل انفجارها وبالشروط نفسها إن تكون الحرب سريعة وخاطفة وان يكون الانتصار كبيرا، هذا وقد اعتبر هذا الاتجاه المتفائل في الادارة الأمريكية .

الثاني : وهو الاتجاه المتشائم وهو السيناريو الاسواء لدى خبراء الاستراتيجية العسكرية الأمريكية وهو ماحصل بالفعل، فقد قدر مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن إن نسبة حدوثه من ٥%- ١٠%، وان اسعار النفط سوف تتجاوز سقف المئة دولار للبرميل الواحد وسوف تنهار الأسهم الأمريكية بنسبة ٣٠%، وهذا حدث آخرجرى وزلزل الاقتصاد الأمريكي حاليا والعالمي معا، كما إن الناتج القومي الأمريكي سوف ينخفض إلى ٢٠% وسوف يكون بمجمله كارثيا على الاقتصاد العالمي، وهذا ما نعيشه ألان بالفعل، واذا طال سقف الحرب في العراق اكثر من من التقديرات الأمريكية ومراكز الدراسات الاستراتيجية وان نسبة حدوثه سيصل إلى ٥٠% فان النتائج لن تكون مواتيه لهذا الازدهار المؤقت الذي يريده الامريكيين بان يصنعوا جبالا من الخراب والدمار وبحار من الدم كي يتمكنوا من تحقيقه، وبالفعل تحقق هذا المشهد الدموي فكأس الدم توازن مع كأس النفط، فالحرب

وقعت والامريكيين لم يأتوا محررين بل محتليين وليسوا عابري سبيل بل جاءوا لضم ثروات كل الاقليم إلى حدود الامبراطورية الأمريكية " نظرية مورغان"، تشحنهم في ذلك ذاكراتهم التاريخية منذ الهنود الحمر إلى احتلال اسبانيا واندونيسيا والفلبين، وتوسعة حدود امبراطوريتهم سواء بالشراء اوبالقوة، ويدفعهم فوق ذلك كما قلنا أزمة متحكمة واطماع دانية والذين حاولوا منع نشوب هذه الحرب، ووقف الخراب والدمار الأمريكي لم يتمكنوا من اقناع الامريكيين من إن الحرب على العراق سيكون ثمنها قاسيا، وهي اكبر من كنز العراق نفسه سواء على الصعيد المالي أو على الصعيد الدموي، والدم سال إمام عيون الامريكيين بفعل مناجل رامسفيلد وتشيسني وبوش وكوندليزا رايس، وسوف تبقى حسابات التكلفة لا غيرها هي العنوان الرئيسي الاكثر حسما، وتأثيرا في إيقاف اندفاعة هذا المشحون في الفضاء قبل اصدامه بقلب كوكب الأرض في الشرق الأوسط .

النتيجة للحرب كانت خرابا ودمارا وكانت نتيجة الحرب التي اشتعلت منذ ٢٠٠٣ ولغاية الان أي منذ سنوات الحرب العجاف والتي استمرت اكثر من ست سنوات نتج عنها اكثر من مليوني قتيل عراقي وتشريد اكثر من خمسة ملايين عراقي ومقتل حسب الارقام الرسمية الامريكيةاكثر من خمسةآلاف امريكي بل وعشرات وآلآف الجرحى من المصابين بل وعشرات آلآف من المرضى النفسيين، وان فاتورة الحرب تجاوزت ٢ تريليون دولار كل هذا الخراب الأمريكي ينطبق عليه قول شكسبير " من هذا المجنون الذي صنع الضوضاء والجلبة والدم "، فيما يصف الرئيس الأمريكي نيكسون في اعقاب الحرب الباردة ما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والتي انتهت كما يقول انه نصر بلا حرب، ونحن نقول إن حرب بوش في العراق وأفغانستان ستكون حرب بلا نصر بل حرب وهزيمةلامريكا"٦".

ثانيا . العوامل الداخلية : خلال الصفحات الماضية تحدثنا عن العوامل الخارجية التي ساهمت في أزمة الاقتصاد الأمريكي، والان سنناقش العوامل الداخلية والتي شكلت اهمية خاصة في هذا التصدع والناجمة اصلا عن الاختلالات الهيكلية التي اصابت الاقتصاد الأمريكي، والتي تم تجاهلها نهائيا في عهد الرئيس الأمريكي ريغان ابرز المحافظين الجدد الذين تبنوا السياسات النيوليبرالية، وسار على نهجه بوش الصغير، ويمكن القول إن جانبا من التدهور الذي اصاب الماكنة القيادية لأمريكا في المنظومة الرأسمالية كان راجعا لتلك الاختلالات، وعدم رغبة أو استعداد صانعي السياسة الاقتصادية الأمريكية للتصدي لها واتهمها:

أولا ١ـ اتساع الفجوة بين الادخار والاستثمار : بداء الاقتصاد الأمريكي في التدهور مع بروز ما يسمى بالمحافظة الجديدة أي من عهد ريغان فقد تدهور هذا المعدل من ١٧,١% عام ١٩٨١ إلى ١٣,١% عام ١٩٨٨، هذا وقد اجرى الباحثين الاقتصاديين دراسات معمقة اكثر وتوصلوا إلى انه واثناء حساب هذا المعدل على اساس صافي، أي بعد استبعاد الاختلال في الاصول الثابته فان التدهور يكون مذهلا حيث ينخفض هذا المعدل من ١١% عام ١٩٧٣ من الناتج القومي الأمريكي إلى ٢,٤٥١ بين عامي ١٩٨٧، ١٩٨٨، وخلال هذه المرحلة برز نجم الليبرالية الجديدة

حسب تقديرات الاقتصادي الأمريكي " نورد هارس" وكان ذلك راجعا إلى التدهور الذي حصل في مصادر الادخارات القطاعية وخاصة العائلية والحكوميةفالعائلي تدهور ادخاره من ٥,٦% خلال الفترة من ١٩٧٣ـ ١٩٧٩ إلى ٣% عام ١٩٨٨ وسبب هذا الانحدار يعود إلى مايلي :

١ـ الاستهلاك العائلي الشره بسبب تحفظ نظام الضرائب على الاغنياء في عهد ريغان

٢ـ زيادة ثروة هذا القطاع نتيجة للسبب الاول

٣ـ شمول مظلة الضمان الاجتماعي لهذه العائلات

٤ـ انهيار بورصة الاوراق المالية خلال خريف ١٩٨٦ الذي اطلق عليه الانهيار الاسود أو الاثنين الاسود

٥ـ ثبات قطاع الاعمال لكن معدل الادخار تدهور تدهورا مذهلا فقد انخفض من ٤,٥% في عقد الستينات إلى ٢,٧٥في عقد السبيعينات، والى ١% عام ١٩٨٨ وهو الامر الذي انعكس في التدهور المستمر لمعدل تراكم رأسمال في الصناعات التحويلية خصوصا معدل الربح في الاقتصاد الأمريكي، اما الادخار الحكومي فانه بعد اختفاء الفائض بالموازنة الفدرالية خلال الفترة من ١٩٥٠ ـ ١٩٨٠ فانه يتحول إلى ادخار سلبي وبشكل سريع جدا وخاصة في عهد ريغان .

والسؤال المطروح ماذا يعني هذا؟

إن الاقتصاد الأمريكي يعيش فجوة ضخمة كبيرة بسبب الفرق ما بين الاستثمار والادخار، وهذا الفرق يمول من خلال جذب المدخرات والفوائض الأجنبية أي من خلال إحداث عجز في ميزان المدفوعات وهذا يعني تحول الاقتصاد الأمريكي إلى اقتصاد ذي مديونية خارجية "٧".

ومرة أخرى نطرح السؤال التالي كيف يمكن للاقتصاد الأمريكي إن يستعيد توازنه المفقود؟

الخبراء الاقتصاديون رسموا السيناريوهات التالية :

الاول: نتيجة لنمو نزعة الحماية التي تنتهجه مختلف الدول الصناعية إضافة إلى ضعف قدرة الدول النامية الحديثة اصلا على استيراد السلع الأمريكية بسبب ضخامة اعباء ديونها وسياسات التقشف الانكماشية التي تطبقها حاليا.

الثاني : ارتفاع سعر الصرف للدولار ساعد الامريكيين على زيادة وارادتهم من الخارج حيث اصبح الكثير من السلع المستوردة ارخص من السلع الأمريكية، وهكذا اختلت الصادرات ونمت الواردات .

هذا ويعتبر الاقتصاديون إن العجزالتجاري الكبير الذي حققته امريكا مع شركائها التجاريين، والذي تبلور على شكل فائض لهذه الدول قد ساهم في ازدهار هذه الدول

" اوروبا واليابان"، ويؤكد هذا التحليل الاقتصادي " بول ديفيد سون" حيث يقول : إن عجز الموازنة والعجزالامريكي بمثابة الرافعة التي استخدمتها امريكا لكي تخلص العالم من تكرار حدوث الانكماش مرة أخرى، وهذا في الحقيقة اعتراف بوجود أزمة اقتصادية، وبان الليبراليين الجدد قد فشلوا في حلها"، هذا وقد وضع الخبراء عدد من السيناريوهات لاعادة التوازن للاقتصاد الأمريكي :

السيناريو الاول : تخفيض الاستهلاك القومي حتى يزيد معدل االادخار ليساوى مع الاستثمار مع ما يتبعه من اجراءات وسياسات تقشفية مثل زيادة الضرائب وخفض الإنفاق الحكومي وتشجيع الادخار .

السيناريو الثاني : الاستثمار في حدود الادخار، وهذا بالضبط يتطلب خفض شديد في معدلات النمو الاقتصادي، واما ما يخص بمواجهة نمو العجزالخارجي فقد اشارت الدراسات إن الاقتصاد الأمريكي منذ عقد الثمانينات وهو يعاني من العجز الخارجي، فطبقا لاحصائية ١٩٨١ بلغ ٣١ مليار بينما في عام ١٩٨٧ ١٧٠ مليار دولار أي ما نسبته ٣% من الناتج القومي، وقد عالج المحافظون الجدد الذين تبنو نهج الليبراليون الجدد هذا العجزمن خلال زيادة اسعار الفائدة، وهذا التوجه يزيد الطلب على الدولار مما يؤدي إلى ارتفاع قيمته فان ذلك يؤدي إلى زيادة اسعار الصادرات الأمريكية في الاسواق الخارجية، ومن ثم تضعف قوتها التنافسية في الاسواق الخارجية، وزاد الطين بلة ما تعانيه الصادرات الأمريكية في الاسواق الخارجية، هذا وقد طرح الخبراء عدة خيارات إمام الاقتصاد الأمريكي من اجل التكييف مع هذه آلآزمات كي يتمكن من تحقيق فائض في الميزان التجاري ما بين ١٠٠ مليار- ١٥٠ مليار دولار، وهنا سنعرض ابرز هذه الخيارات :

١ـ إعادة تخفيض الموارد بالداخل على نحو يمكن من زيادةالطاقات المنتجة للتصدير، والطاقات التي تنتج انتاجا بديلا للوردات مع ما يتطلبه ذلك من تطوير شامل في جرد هذه المنتجات وزيادة متوسط انتاجية عوامل الإنتاج المستخدمة، حتى يمكن تقوية القدرة التنافسية لهذه المنتجات في الاسواق الخارجية وهي مهمة تتطلب تغيرات هيكلية وشاملة في الاقتصاد الأمريكي .

٢ـ خفض قيمة الدولار حتى تنخفض اسعار الصادرات في العالم، وتزيد من قدرتها التنافسية، وفي نفس الوقت حتى يمكن كبح جماح الاستيراد من الخارج، لكن هذا الحل يساهم في عودة التضخم المرتفع وناهيك إن سياسة خفض قيمة الدولار سياسة عدوانية تجارية تؤدي إلى حدوث حروب ينجم عنها تخفيضات في العملة الأجنبية وعلى نحو يهدد العلاقات النقدية والتجارية الدولية يزيد من عدم الاستقرار والاضطراب.

٣ـ التوسع في العقود الجمركية والكمية حتى يتم الحد من الاستيراد، وهذه السياسة تلوح بها امريكا بين الحين وآلآخر في وجه اليابان التي تعاني عجزا تجاريا كبيرا، إن هذه السياسة تتعارض مع نهج الليبراليين الجدد التي راهنت عليها مدرسة شيكاغوا وتبنتها السياسة الاقتصادية الأمريكية في عهد الادارة الريغانية وما زالت تدافع عنها لغاية الان الادارة الأمريكية .

٤ـ تفاقم الدين الداخلي: تشير الارقام إلى إن الدين الداخلي وصل إلى ٨,٤ مليار دولار ترليون في حين كان هذا الدين حوالي ٢,٥ ترليون عام ١٩٧٤، ولو حسبنا رصيد الدين إلى الناتج القومي الاجمالي ٥ ترليون دولار فسوف نجد إن هذه النسبه ٦٨% وهذا يعني إن زيادةالدخل بمقدار دولار واحد أصبحت تؤدي إلى زيادةفي الدين مقداره ٨٠ سنتا، وهذا الدين يتوزع بين القطاع العائلي ويستأثر بحوالي ٣,١ ترليون دولار أي بنسبة ٣٧% من الاجمالي، والواقع إن سياسة الدين كانت وما تزال آلية رئيسية في هيكلة الرأسمالية الأمريكية، وان الدراسات تعتبر إن تراجع السياسات الاقتصادية الأمريكية عن النهج الكينزي هو السبب في هذا الاختلال، وان المطلوب هو وضع حل لها من خلال زيادة الطلب الاستهلاكي بدون زيادة الاجور على النحو الذي لا يهدد معدل الربح الاحتكاري داخل الاقتصاد الأمريكي بالانخفاض، هذا وقد قدمت الرأسمالية الأمريكية اجراءات لحل هذه المشكلة من خلال المحاور التالية :

المحور الاول زيادة الإنفاق العام : وهذا الحل هو ما تريده الكينزية وخاصة في مجال النشاطات الاقتصادية وفي المجالات العسكرية .

المحور الثاني تحويل المجتمع الأمريكي إلى مجتمع استهلاكي يعتمد على القروض أي يبقى تحت الدين: أي على القروض الائتمانية حيث تم التوسع في مختلف انواع القروض وخاصة قروض للمستهلكين وقروض للشركات والمنتجين وقروض للحكومة لزيادة مستوى الإنفاق دون الحاجة لزيادة مستوى الإجور وقد نتج عن ذلك انفجار عرض النقود والى ارتفاع التضخم في السبيعينات، بالرغم من إن ادارة ريغان خفضت التضخم إلا إن حجم الدين استمر في النماء أي دون تضخم بسبب تعويض امريكا لنقص مواردها من خلال التوسع في جذب الفوائض والمدخرات الأجنبية وزيادة معدلات البطالة "٩"، وهكذا تبين لنا إن خفض الدين الخارجي يتطلبان خفض الإنفاق الحكومي وخاصة الاستهلاكي والعسكري وزيادة الضرائب وهي امور ستؤدي في الاجل القصير إلى ضعف الطلب الكلي والنمو الاقتصادي والى ظهور شبح الركود.

:٣ـ التعاون في توزيع الثروة والدخل: خلال تطبيق نهج الليبرالية الجديدة تدهورت معدلات النمو الاقتصادي وانخفض معدلات النمو الاقتصادي وانخفض معدل الادخار المتحقق واتسع الفرق بين الاستثمار المستنفذ والادخار المتحقق فزادت فجوة الموارد التي مولت عن طريق الاستدانة، واستقدام رؤوس الاموال الأجنبية واتسع عجز الحساب الجاري بميزان المدفوعات وزاد عجز الموازنة الفدرالية وتدهورت القدرة التنافسية للصادرات الأمريكية، فالسياسات الليبرالية التي طبقت وخاصة تخفيض الضرائب على الشركات الكبيرة وكبار الاثرياء التي حدثت خلال الفترة ١٩٨٠ـ ١٩٨٦، وادت إلى تركيز شديد في توزيع الثروة بين أيدي محدودة من السكان، كما إن الارتفاع الفلكي الذي حدث في اسعار الفائدة خاصة خلال منتصف الثمانينات ادى إلى تحقيق مكاسب هائلة لاصحاب رؤوس الاموال وبذلك اتسعت الفجوة ما بين الاغنياء والفقراء، وطبقا للتقديرات فان اغنى واحد بالمئة من الامريكيين يملكون ثروات تفوق قيمتها مجمل قيمة ما يملكه ٩٠% من الشعب الأمريكي، ونتيجة لتركز الثروة على هذا النحو تمكنت نسبة ١% الاغنى من

مضاعفة دخلها خلال الفترة الممتدة من ١٩٧٧ـ ١٩٨٨، كما واصبح دخل ٥% من الامريكيين يزيد عن مجموع دخول ٤٠% من الامريكيين، ونتيجة الكساد الحاد وخفض الإنفاق الحكومي الموجه للخدمات الاجتماعيةفان نصيب افقر ٢٠% من الامريكيين من الدخل القومي قدهبط بنسبة ١٠% خلال الفترة من ١٩٧٧ـ ١٩٨٨، ومن المفارقات المدهشة إن نسبة ٤٠% من الافقر في المجتمع الأمريكي، قد دفعت ضرائب ضعف ما دفعته نسبة ١% الاغنى، كما تبين إن معدلات الضرائب التي دفعتها نسبة ١% الاغنى انخفضت في اجمالها بنسبة ٨% خلال ١٩٧٧ـ ١٩٨٨، بينما بقيت الضرائب التي تدفعها نسبة الارعين بالمئة الافقر كما هي .

من جهة أخرى أخرى اعتبر المفكرين الاقتصادين الامريكيين أن معدلات زيادة التفاوت في توزيع الثروة والدخل ليس هو المؤشر الوحيد الذي يعكس حدة الاختلالات الاجتماعية في الاقتصاد الأمريكي فثمة مؤشرات أخرى لاتقل اهمية فمعدل البطالة ظل مرتفعا، وكان متوسطه في حدود ٦,٥% من حجم القوى العاملة خلال الفترة من ١٩٨٤ــ ١٩٩١، ووصل إلى ٧,١% في اوائل ١٩٩٢ أي ما يعادل٥,٦ مليون عاطل عن العمل، ويرتبط بظاهرة البطالة طول فترة التعطل فبعد إن كان متوسط هذه الفترة ١٥,٣ اسبوع في تشرين ثاني عام ١٩٩١ ارتفع هذا المتوسط إلى ١٦,٤ اسبوع في كانون ثاني ١٩٩٢، ونتيجة لارتفاع معدلات البطالة وخفض الإنفاق الحكومي الموجه للخدمات الاجتماعية فقد تردى مستوى معيشة قطاعات واسعة من الامريكيين، وزاد عدد كبير من العمال ومعظمهم من الطبقة الوسطى القبول باجور اقل للمحافظة على وظائفهم فانخفضت الاجور الحقيقية بينما تصاعدة دخول أصحاب رؤوس الاموال، كما اضطر الكثيرون للعمل فترات اكثر وبذل جهد اكبر للحصول على نفس الدخل، واضطر عدد كبير من النساء لدخول سوق العمل لتوفير الحد الادنى لمعيشة الاسرة وزاد عدد المشردين الذين لا مأوى لهم باعداد تتراوح ما بين مليون فرد حسب التقديرات الرسمية وبين ستة ملايين حسب مصادر أخرى ولم تعد جيوب الفقر تقتصر على السود بل امتدت لتشمل اعداد كبيرةمن الطبقة الوسطى والعمال المهرة، كما وزاد ادمان المخدرات واعمال العنف والجريمة، وفي ضوء ذلك اصبح الشعب الأمريكي اكثر تشاؤما من المستقبل ثم جاءت إحداث الشغب في لوس اجلوس عام ١٩٩٢ لتكشف النقاب عن الخلل الاجتماعي الذي طراء على المجتمع الأمريكي بسبب سياسات النيوليبرالية التي حملت العمال والطبقة الوسطى، لكن الحقيقة بخلاف ذلك حيث إن المعالجات الاقتصادية الفاشلة التي تبنتها النيوليبرالية نحو ثلاث عقود والتي انحازت انحيازا متطرفا واعطاء المزايا السخية للقطاع الخاص وإلغاء دور الدولة والقطاع العام في الاستثمار وتخفيض الخدمات الاجتماعيةفي الوقت الذي هرب فيه رأس المال الأمريكي في الاستثمار إلى الخارج حينما كان معدل الربح اعلى من متوسط دخل المجتمع الأمريكي "١٠".

من جهة أخرى فقد برزت مؤشرات اقتصادية أخرى ساهمت في زيادة وتوسيع الأزمة من خلال مؤشرات معدل انتاجيةالعمل خلال العشرين سنة الماضيةحيث لم يتجاوز ٦% في امريكا سنويا، وان اليابانيين عبروا الامريكيين واكدوا إن مساءلة فقدان البضائع الامريكيةلقدرتها التنافسية إلى ماكانوا يسمونه بكسل العامل الأمريكي،

وفي الواقع فان المعتقد للمنافسة الأمريكية ليس له علاقة بكفاءة العمال الامريكيين بل إن السبب الحقيقي لا يكمن في عجزالفاعلية التكنولوجيةفحسب بل هناك انواع أخرى من الممارسات مثل سياسة الاغراق وتقليص الرواتب واستخدام مصادر رخيصةللمواد الاولية وانشاء اسواق محتكرة، وعلاوة على كل ما تقدم فان القدرة التافسية الكبيرة للاقتصاد الياباني في السوق الدولية لا يكمن في تفوقها التكنولوجي في تفوقها التكنولوجي بل يعود إلى الاستغلال البشع والواضح الذي تمارسه الاحتكارات اليابانية ضد قوة العمل من خلال زيادة متوسط ساعات العمل الاضافية التي نادرا ما ترفع اجورها ٣٠ ساعة عام ١٩٧٠ إلى ١٨٥ ساعة عام ١٩٩٢، وكذلك تقليص عدد ايام العطل التي يتمتع بها العاملون من ٨,٨ يوم إلى٧,٩ يوم في كل عام، ونتيجة لذلك ارتفع عدد العمال اليابانيين الذين يموتون بسبب الاجهاد بصفة دائمة ٦٤% من السكان عام ١٩٩٢ مقابل ٤% عام ١٩٨٥" ١١"، ولكن السبب الرئيسي في الأزمة الاقتصادية التي يتعرض لها العالم في الوقت الحالي، والتي سنتحدث عنها لاحقا تكمن في فقدان الاقتصاد الأمريكي لدوره في ريادة التكنولوجيا، والاهم من ذلك إلى إن المفكرين الاقتصاديين عزو في قوة الاقتصاد الأمريكي وخاصة في مرحلة السبيعينات من القرن الماضي تكمن في الريادة التكنولوجية وان قوة الدولار ودوره في النقد العالمي هما اللذان عززا هذه القوة في الاقتصاديات الأمريكية والذي كان يمثل في عام ١٩٧٠ ٤٠% من الإنتاج الصناعي في العالم الرأسمالي ولا زال يمثل ٤٠ % من السوق العالمية وهذا بحد ذاته يمكن قوة الدولار التي كانت تستند إلى انتاجية العمل الكبيرة في امريكا فان ذلك أدى إلى زيادة القدرة التنافسية الدولية للبضائع الأمريكية بحيث حققت امريكا بموجبها فائضا في ميزانها التجاري مكنها من اجتذاب الذهب والسندات التجارية التحويلية من الدول الأخرى على انها كانت تستخدم كمنطاد لحفظ التوازن من اجل ضمان معادلة الدولار والتحويل الحر .

هذا وقد اعتبر بعض الاقتصاديين إن الأزمة الاقتصادية الأمريكية عميقة جدا بحيث زعزعت الاقتصاد العالمي، ولكن هذا لا يعني عدم وجود بعض التحسن الوقتي هنا أو هناك فمثلا حققت اقتصاديات امريكا واليابان نموا في بعض السنوات من العقد الماضي عندما كان الركود الاقتصادي يخيم على امريكا اللاتينية واوروبا، وعلى الرغم من هذه الموه من النمو التي حصلت عليها قد انعش اوهام المدافعين عن النظام الرأسمالي إلا انها كانت بمثابة المقدمة للكساد الجديد والاعمق الذي انتشر بكافة انحاء العالم في النصف الاول من العقد الماضي في التسعينيات حيث برر دهاقنة الرأسمالية الخلل الأزمة على الثورة التكنولوجية وما صاحبها من تقدم تكنولوجي وان السبب الحقيقي هو امتصاص اموال ووفورات العالم بأسره من قبل الاقتصاد الرأسمالي، وعلى سبيل المثال إن ٢٤% من المدخرات السائلة لأمريكا عام ١٩٨٢ كان مصدرها الودائع القادمة من الخارج، وان ٣٠% من العجزالعام الأمريكي تم تمويله باموال يابانية "١٣".

وفي عقد الثمانينات تعرض الاقتصاد الأمريكي لازمة حادة حيث طرح ريغان سياسة الادخارات الأجنبية فهي من جانب جذبت اموالا من البلدان المتقدمة الأخرى لغرض توضيفها في سندات ديون الحكومة الامريكيةذات العوائد الكبيرة، ومن جانب

آخر حيث رفعت قيمة تكاليف الديون الخارجية لبلدان العالم الثالث ومن دول امريكا اللاتينية التي كانت خلال عدة سنوات من العقد الماضي تدفع لوحدها الفائدة إلى الدائنين بلغت ٤٠ مليار دولار سنويا، ولذلك فان التحسن الظاهري للاقتصاد الأمريكي الذي يرى فيه الكثير من اولئك الذين يتسم تفكيرهم بالسطحية على إنه مؤشر لمرحلة جديدة من الرخاء انما جاء ليزيد من خطورة القوة العاملة اللازمة لانه عندما استند إلى امتصاص الاموال من بقية العالم فانه حقق ذلك الى امتصاص الاموال من بقية العالم فانه حقق ذلك على حساب ما يعانيه العالم من تضخم اقتصادي .

إن الانتعاش الاقتصادي الأمريكي في الثمانينات الذي تحقق على حساب ما كان يعانيه العالم من تضخم اقتصادي لم يدم طويلا وخاصة في مرحلة تطبيق الليبرالية المتوحشة، علاوة على ذلك فان اقدام الاقتصاد الأمريكي على قتله بيضة الدجاج التي كانت تبيض له ذهبا "العالم الثالث" فانه قد سبب له تراكم ديون خارجية صافية مساوية للديون الخارجية للعالم الثالث برمته، كما إن الكلف الهائلة لهذا الدين بامكانها إن تقضي على أي سياسة ثابته للاستثمارات العامة مما ادى إلى تفاقم هذه الصعوبات هو العجزالمستمر في الميزانية العامة والبالغة ٣٠ مليار دولار، ولتلافي هذا العجزحاولت الادارة الأمريكية الديمقراطية بعهد كلينتون العمل على تغيير هذه الصورة،لكنها لم تتمكن تحقيق هذا النجاح، ولم تكتفي الادارةالامريكية بذلك بل طرح "بيل كلينتون" برنامجا اقتصاديا من خلال عودته إلى السياسة الكنزية للانفاق العام حيث ادى هذا البرنامج إلى تحسن طفيف في الاقتصاد الأمريكي، ولكن هذا التحسن سرعان ما اصطدم بارتفاع معدلات الفوائد المعلنة من قبل البنك الفيدرالي الاميركي في محاولة منه لابقاء الضغط على الاسعار، الامر الذي بين حجم الصعوبات التي تواجه الاقتصاد الأمريكي الذي يعتبر من اهم الاقتصاديات العالمية، وعلى ضوء ما سابق ذكره فقد توقع رئيس البنك لبفدرالي الأمريكي " آلن غرسبان" في اواسط عام ١٩٩١ إن يحصل تجاوز سريع للازمة العالمية عندما اكد إن الحالة السيئة للاقتصاد الأمريكي قد تم تجاوزها، لكن هذه التوقعات لم تكن إلا عبارة عن اوهام عابرة وفارغة لأن الحقيقة عكس ذلك تماما، فقد اشار " بول فولكر" رئيس البنك الفدرالي الاميركي للفترة ما بين ١٩٧٩ـ ١٩٨٧ في مقالة تحت عنوان بارز ليس هناك حل سريع للازمة الاقتصادية الأمريكية كان قد كتبه عام ١٩٩٥ حيث يقول" ليس هناك امكانية للضغط على الزر ما يجعل الاقتصاد الأمريكي إن ينطلق إلى الامام في الحالة الراهنة وبالرغم من فترة الاعداد للانتخابات ليس هناك حل سريع" "١٣".

اما باقي منظومة الرأسمالية العالمية فقد اعدت وكالة التخطيط الاقتصادي الياباني عام ١٩٩١ إلى إن الاقتصاد الياباني يتجه فعلا إلى الكساد، بينما في المانيا فقد اكد رئيس البنك الالماني خلال الفترة الممتدة ما بين ١٩٨٠ـ ١٩٩١ " كارل اوتو بويهل" الذي شغل هذا المنصب فقدكتب عام ١٩٩٢ مقالة تحت عنوان بارز التوقعات في المدى القصير ستكون قائمة في اوروبا اذ يقول" إن التقدير الرسمي لمعدل النمو يتراوح بين عام ١٩٩٣ ما بين ١,٥ % إلى ٢%"، وهو ما اعتبره مؤشرا يبعث على التفاؤل، ولكنه ذهب اكثر من ذلك عندما قال " بان المنظور الاقتصادي المباشر للدولة الصناعية الرئيسية سيكون بالواقع منظورا قائما، وهذه

المرة الاولى التي اعتقد فيها ان جميع الدول تسمى بمجموعة الكبار ستدخل في مرحلة الكساد والمرحلة قريبة منها جدا" "١٤".

من جهة أخرى اعتبر البنك الدولي للانشاء والتعمير سنة ١٩٩١ بان الاقتصاد العالمي سوف ينمو في هذا العقد بوتيرة اقل من وتيرة النمو الذي حصل في العقد السابق، وان إجمالي الناتج القومي للدول المتقدمة كان ينمو بنسبة ٣! % سنويا، وفي الثمانينات سوف لن ينمو إلا بنسبة ٢,٢% حتى سنة ٢٠٠٠ مع استبعاد زيادة النمو السكاني لأن الزيادة السنوية من الناتج القومي الاجمالي تقترب من الصفر .

إن هذا التشخيص من وجهة نظر البنك الدولي جاء نتيجة لكون الوضع العام للاقتصاد العالمي سيظل غير موات خلال هذا العقد، وذلك لأن معدلات الفوائد ستبقى مرتفعة، ولن يكون هناك مخرج سريع لأزمة الدين الخارجي، إضافة إلى انكماش تدفق الاموال من نصف الكرة الارضية الشمالي إلى النصف الجنوبي لها كما حصل في الثمانينات، وتأسيسا على هذا الاتجاه استنتج زعماء الدول الرئيسة الذين اجتمعوا في عام ١٩٩٢ بان عصر التردد والارتياب في العالم قد بدأ مع نهاية القطبية الثنائية العالمية، وعلى ضوء ذلك فقد تنبأ اشهر الاقتصاديين الامريكيين "جيمس دالي ديفيد" رئيس النقابة الوطنية لدافعي الضرائب" والانجليزي " وليم ريس موغ " نائب رئيس التحرير السابق لصحيفة فايننشال تايمز ومدير تحرير التايمزحيث اكدا في كتابيهما " التسوية الكبير للحسابات " بان الكساد الحاصل في الوقت الحاضر ما هو إلا عبارة عن مقدمة لما سيحصل من اوقات صعبة في المستقبل، كما إن الاقتصاد العالمي يسير نحو كساد عارم وسيصاحبه في ذلك كارثة اجتماعية ليس لها مثيل بالتاريخ، وقدجاء على لسانهما إن الكساد العظيم الذي ساد حدث عام ١٩٢٩ـ ١٩٣٣ لايمثل إلا شرا هينا إمام ما يسمى بزلزال التسعينات، كذلك توقعا بعد نهاية التسوية الكبيرة للحسابات إن يظهر عالم افضل بالنسبة لاولئك الذين سيبقون على قيد الحياة .

إن هذه الصورة الاقتصادية المفجعة التي تنتظر العالم، فان هذه الحقيقة لمسناها وعشناها الان مع أزمة العقارات اومايسمى تسونامي الاقتصاد العالمي عام ٢٠٠٨، ومع ذلك فان كهنة الليبرالية الجديدة قد تنبأوا بالشكل الذي سيكون عليه المجتمع الانساني بالمستقبل، وهذا الشكل سيكون عالما بلا حدود واقتصاد واحد، صحيح الرأسمالية قد خطت خطوة باتجاه عولمة الاقتصاد، ولكن ما هي هذه العولمة التي يمتدحها كهنة الليبرالية الجديدة من خلال ادبياتهم واشعارهم .

نعم انها حقا عولمة واحدة فقط تلك التي تعمل فيها الترستات والكارتلات على خلق مناطق للنفوذ بقيادة المؤسسات المالية للدول الرئيسة من خلال احتكارها لوسائل الإنتاج ومصادر المواد الاولية والتكنولوجيا والاسواق وسحق الدول الضعيفة ولم تأتي اقتراحاتها بشأن انشاء انشاء مناطق للادولاروالمارك والين واليورو لاحقا، وجعلها اسواق اقليمية واسعة الامن اجل القيام باعادة تقسيم العالم تحت قيادةالاحتكارات الاقتصاديةالرئيسية الثلاث، وهذا يعني تعزيز الحدود الاقتصادية الواقعة تحت سيطرة هذه الاحتكارات وإلغاء الكامل لحدود الدول الاكثر ضعفا، والتي لاتعدوكونها اسواقا ومصادر للمواد الاوليةوالايدي العاملة الرخيصة، وذلك

من اجل تحقيق المكاسب الخاصة لهذه الاطراف الاحتكارية،وعلى هذا النحو ستزداد قوة الدول الامبريالية وستسحق بالمقابل الدول الواقعة خارج رقعتها .

إن أكذوبة الليبرالية الجديدة عالم بلا حدود سيعني بالضرورة عملية غير سليمة لانها بعد الاختفاء المؤقت على الاقل للخلاف ما بين المعسكر الاشتراكي ستظهر النزاعات بين المعسكر الامبريالي اوما يسمى بمراكز الرأسمالية العالمية بكل قوة، وان ما يحصل في امريكا واليابان من توتر بما فيه الرجوع إلى العوامل ا لعنصرية ما هو الا تعبير واضح عنهذه الظاهرة كما إن العديد من دول العالم الثالث واوروبا تقاومه ايضا لاعادة تقسيم العالم .

إن العالم اليوم يعيش وضعا اقتصاديا مشابها لمل يدعونه بالعولمة فهذا الوضع هو عبارة عن تكامل متنام للدوائر المالية على الصعيد الدولي اوما يسمى بسهولة متزايدة في انتقال الاموال السائلة بطريقة التمويل من دولة لاخرى، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال الحركة اليومية لرؤوس الاموال التي يتم المضاربة بها في العالم التي تصل إلى تريليون دولار فقط أي قيمةما يتم ابرامه من صفقات تجارية عالمية، ولكن هذا لا يدل على انه عامل ايجابي بالنسبة لنشاط الرأسماليةالعالميةبل على العكس انه يعني عمليةلانتزاع كميات كبيرة ماليةمن ميدان الإنتاج لغرض توظيفها في ميدان المضاربة أي بمعنى وضع اليد على الاموال وحرمان العملية الانتاجية منها حيث يجري انتزاع ١٣ ترليون دولار تقريبا من ميدان الإنتاج وهو ما يعادل ضعفي إجمالي الناتج القومي الأمريكي ولكي يتعثر بسرعة الضوء في جميع انحاء العالم" ١٥".

إن هذه العملية اضافة إلى مساهمتها في خفض القدرة الانتاجية تعمل على اضعاف الاقتصاد العالمي لأن التنقل السريع لهذه السيولة الكبيرة بين مختلف ارجاء العالم سيعمل على خلق ازمات كبرى هنا وهناك ويهيىء المجال لازمة كبرى في المستقبل وهذا ما جرى بالفعل.

نخلص في النهايةالى إن وجود رأس المال الاحتكاري بتركزه وتمركزه لا يسمح بتحقيق العولمة الفعالة للاقتصاد، ولذلك فان تنامي اهمية قوى الإنتاج على الصعيد الدولي والتي تشهد عرقلة واضحة من قبل نشاطات الاحتكارات لايمكن ان تتحقق إلا عندما تستبدل العلاقات الاقتصادية الحالية التي تهيمن عليها هذه الاحتكارات بما هوافضل منها، وهي تحقيق اهمية علاقات الإنتاج التي ينبغي في تخليصها من هيمنة الاحتكارات وانتقال وسائل الإنتاج لتصبح تحت الاشراف المباشر للمنتجين من خلال مجتمع منظم يضم في البداية بعض الدول ثم يتوسع فيما بعدتدريجيا على المستوى الدولي .

إن الليبرالية الجديدة تحاول اقناعنا بان الدين الجديد الاقتصادي والمتمثل في حرية السوق وإلغاء دورالدولة ما هو إلا الطريق الذي سيؤدي إلى مزيد من الاحتضارات الاقتصادية والمالية والاجتماعية وستجد البشرية نفسها في وضع مأساوي شرس، ولذلك ليس امامنا إلا خيارين اما هيمنة الاحتكارات وسيادة الاعمال البربرية والوحشية وهذه السياسات النيوليبرالية المتوحشة امامكم من توحش اقتصادي وسياسي وعسكري وثقافي، وبالتالي تدمير حياتنا، اوهيمنة العمل الواعي للانسان وسيادة مملكة الرخاء

والحرية، وبمعنى آخر اما سيادةالانسانية وكما قالت روزا لكمبروغ فيعام١٩١٧ واما فوضى عارمة اوخلاقة ومتوحشة واما عدالة اجتماعية .

الرأسمالية هل وصلت إلى مرحلة الانحطاط الاقتصادي والاجتماعي والاخلاقي ؟

لاحظنا فيما سبق إن الليبرالية الرأسمالية بشقيها الكلاسيكي والنيوكلاسيكي جاءت كما يزعم كهنتها للدفاع عن القيم الانسانية، والحقيقة تقول عكس ذلك كما بينا في الصفحات السابقة حيث انها جاءت لتحقيق هدف واحد فقط وهو هدف استراتيجي والمتمثل في الاستفراد بالبشرية والهيمنة والسطوة على مقدرات البشرية في جميع انحاء العالم، فقد كشرت عن انيابها كما لاحظنا وهذه هي صورتها الحقيقية، وبالاحرى هذه هي اخلاق الرأسمالية والتي تشكلت من خلال اخضاع الكل الاجتماعي للسوق وللتجارة أي مجال تحقيق الربح النقدي الفردي الذي هو هدف الليبرالية الرأسمالية خاصة في شكلها التاريخي المعاصر أي نموذج الشركة الدولية ذات النشاط في انتماءها من خلال مجموعات مالية عملاقة تستهدف في بحثها عن الربح المالي في كافة انحاء العالم بثلاثية وعلى النحو التالي:

فعلى الجانب الاقتصادي تسعى الليبرالية وتنطلق إلى تحقيق الربح النقدي وتعيد كل ماهو قوة شرائية تمثل طلبا على سلعة تبيعها، وعلى الجانب السياسي تسعى جاهدة لبلقنة الدول إلى وحدات سياسة واهية، وعلى الجانب الاجتماعي تسعى إلى شرذمة المجتمعات وتحويلها إلى جزئيات عرقية وطائفية لاهية عن دورها واغراقها بصراعاتها البينية النافية للوجود الاجتماعي، هذه الثلاثية هي المميزة لحركة رأس المال تتبلور عبر صراع عالمي بين ثلاث نماذج رأسمالية وهي النحو التالي:

الأولى : الرأسمالية الجديدة الانجلو سكسوني التي تطلق العنان لقوى السوق تمتطيها امريكا، وهذه الليبرالية ورثت الليبرالية البريطانية بنت القرن التاسع عشر مع فارق كيفي تاريخي، فاذا كانت سياسة بريطانيا تدعو لها بقفازات الدبلوماسية الاستعمارية ذات البوارج الحربية بينما تقذف امريكا بالليبرالية الجديدة عبر بربرية لقوى السوق تتفق ومفاهيم مجتمع فاقد لأي جذور حضارية اقام نفسه ونصّب جبروته على تعاسة المجتمعات البشرية الاصلية ثم توسع في الفضاء الجغرافي الذي خلقه بعقلية القوة البدائية العارية .

الثانية - رأس مال الدولة الحانية الاوروبية : نموذج لرأسمالية يتفتت عبر صراعات الحركة الاجتماعية منذ القرن التاسع عشر، وان الحيلولة دون التغيير على حساب رأس المال لا تتحقق إلا بدور الدولة والذي يضمن توزيع الدخل تصحيحا للاداء وهو الانموج لاقتصاد السوق، وهو التموذج الذي لا يسلم الان من أزمة اجتماعية سياسية يعيشها في تناقض رأس المال بين علاقاتها مع القوى الاجتماعية الأخرى داخل كل بلد اوروبي وتناقضاته داخل التكتل الاوروبي وتناقضاته على الصعيد العالمي .

ثالثا_ رأسمالية الدولة التوجيهية الساعية إلى افادة المشروع الرأسمالي من اخلاقيات على العمل في المجتمع القديم والحريصة على الحد من التناقضات بين المشروع بقصد اداء اقتصادي اكفاء خاصة على صعيد السوق العالمية ليس فقط

كقوة تصديرية، وانما كقوة مالية، والعهد الرأسمالي الجديد هو عهد النازية الجديدة بل انها اكثر تطرفا ووحشية من النازيون الأوائل واكثر بشاعة "١٦".

ومن هنا فان اخلاقيات الرأسمالية المتوحشة بلغة الارقام في نهاية القرن السابق وبعد ستة قرون متتالية من التطور الرأسمالي يبرز توزيع الثروة الاقتصادية على الصعيد العالمي من خلال المؤشرات التالية :

القارة	عدد السكان	النسبة المئوية في الثروة الاقتصادية
آسيا	٣٦٠٤ مليون " ٦١% "	٢٥,١%
افريقيا	٧٦٣ مليون "١٣% "	٣,٩ %
امريكا اللاتينية	٥١٠ مليون "٨,٥% "	٧,١ %
اوروبا وروسيا	٧٢٨ مليون "١٢,٢ %"	٣٣,٦ %
امريكا الشمالية	٣٠١ مليون "٥,١ % "	٢٨,٨ %

هذا وتشير خارطة توزيع الدخل على الصعيد العالمي على النحو التالي : اغنى ٢٠% من سكان العالم يحصلون على ٨٢,٧% من الدخلا العالمي خلال عام ١٩٩٢و٨٤,٧% عام ١٩٩٩ و٢٠% افقر السكان يحصلون على ١$% من الدخل العالمي سنة ١٩٩٢، وعلى ١,١% عام ١٩٩٩، وهنا نلاحظ الفرق الصارخ والشاسع بين الافقر والاغنى على الصعيد العالمي حسب تقدير برنامج الامم المتحدة لعام ١٩٩٩ في اكثر من ٨٠ دولة يقف متوسط دخل الفرد عند المستوى الذي كان عليه عام ١٩٨٧، اما فيما يخص نصيب دول منظمة التعاون الاقتصادي للتنمية التي تضم الدول الصناعية المتقدمة في الاقتصاد العالمي فهي التي تضم ١٩% من سكان العالم وتسيطر على ٧٠% من مبادلات السلع المادية والخدمات في العالم وتستقبل ٥٨% من الاستثمارات الأجنبية المباشرة، ويوجد داخلها ٩١% من المستخدمين لشبكة الانترنت، وبالمناسبة فان ثمن الكمبيوتر الشخصي يعادل في المتوسط اجر عامل من بنجلاديش لاكثر من ثمانية اعوام بينما لا يعادل هذا الثمن إلا ما يعادل اجر العامل الأمريكي في شهر واحد، هذا وتشير الاحصاءات إلى إن مؤشرات ملكية الثروة والدخل القومي من دول الرأسمالية " النموذج الفرنسي"

اعلى نسبة من السكان	ملكية الثروة %	الدخل القومي بالمئة
اعلى ٢٠% من السكان	%٦٨,٨٧	%٤٣,٨٥
اعلى ٢٠% من التالية	١٩,١٧	%٢٣,١٩
ال ٢٠% التالية	%٩,١٧	%١٥,٩٩
ال ٢٠% التالية	%٢,٣٣	%١٠,٩٦
ادنى ٢٠% من السكان	%.٤٤و	٦,٠١

نلاحظ هنا الفرق بين اعلى شريحة تتمثل بالنسبة لتوزيع الثروة في ١٥٦ مرة بالنسبة لتوزيع الدخل في الجدول المشار اليه سابقا، بعبارة أخرى ٥٠% من السكان يحصلون على ٥٠% من الدخل أي ٢٩ مليون بينمات يحصل ١٠% من السكان أي ٥,٥% على ٧٢% و٢٧% من إجمالي الدخل .

كما وظهر مؤشرات انعدام العدالة الاجتماعية تتمثل في البطالة التي تقع معدلاتها في اقتصاديات اوروبا الغربية بين ٦% و١٣% في النصف الثاني من التسعينات، وتصل معدلاتها إلى ٤٠% في بعض البلدان المتخلفة ويصل عدد المتعطلين في فرنسا ٣,٠٦% مليون حسب ارقام ١٩٩٩ يضاف إليهم ١,٥ مليون في حالة عمالة هشة أي عمالة مؤقتة معرضة للضياع في اتي لحظة، واذا اضفنا إلى ذلك الأنظمة المالية في الاقتصاديات الرأسمالية باستقطاب اكبر دخول الطبقات ذات الدخول المتدنية سواء عن طريق الضريبة أو عن طريق اقتراض الدولة بفائدة يحصل عليه أصحاب الثروة لتدفع لهم الفوائد واصل الدين من حصيلة الضرائب التي يتحمل العبىء الأكبر منها أصحاب الدخول الاولى وعلى سبيل المثال يوزع العبىء الضريبي في فرنسا على النحو التالي:

ـ ٦١% من حصيلة الضرائب الغير مباشرة على الشركات تعطى ٣% من الحصيلة

ـ الضرائب على الثروة تعطى ٥% والضرائب على دخول العائلات وغالبيتهم من غير المالكين تعطى ٣١% وتتطور نسبة الدين العام إلى إجمالي الناتج المحلي من ٢٧,٥% في بداية التسعينات بالنسبة لفرنسا، ويزيد الدين العام الداخلي لمصر ٢٥% خلال عام ١٩٩٤/١٩٩٣ حتى اعوام ١٩٩٨ـ ١٩٩٩، هذا بالاضافة إلى الدين

الخارجي الذي يدور حول ٣٠ مليار دولار امريكي، وينجم عن صورة انعدام العدالة تفاوت هائل في فرص الحياة ومستويات المعيشة وففي فرص الصحة والتعليم والثقافة والاستهلاك المادي والمسكن، فاذا ما اخذنا فرصة التعليم يبدو التفاوت بين البلدان في معدل دخول المدارس في سن المدرسة الابتدائية والثانوية على النحو التالي بالنسبة لعام ١٩٩٧ حيث كانت البلدان الصناعية المتقدمة ٩٩,٩% - ٩٦%، وفي امريكا اللاتينية، ٣ - ٦٥,٢% ٩٣، وفي البلدان العربية من ٨٦,٤ - ٦١,٧%، وفي بلدان جنوب آسيا من ٧٨% - ٥٦,٥%، هذا التفاوت في فرص التعليم بالنسبة لشرائح المجتمع الفرنسي على النحو التالي في النصف الثاني من التسعينات النصيب النسبي لاولاد كل شريحة اجتماعية للطلاب وفي الحصول على البكالوريا وفي الطلاب المهنيين وعلى النحو التالي"١٧":

	اولاد المدارس	بكالوريا	الطلاب المهنيين
اولاد المزارعين	٤%	٣,٧%	٦,٢%
اولاد الموظفين	١٠,٧%	١٢,٦%	٩,٢%
اولاد العمال	١٤,٦%	١٦,١%	٦,٥%
اولاد الاقتصاديات المتوسطة	١٩,١%	١٦,٦%	١٩,٩%
اولاد الاقتصاديات العليا	٢٨,٤%	٢٤,٧%	٤٩%

يلاحظ من الجدول السابق إن عدد العائلات المكونة لكل شريحة من هذه الشرائح حيث عدد العائلات المكونة لكل شريحة من هذه الشرائح حيث عدد العائلات العمالية اكبر بكثير .

اما بالنسبة لمعدل الزيادة السنوية في استهلاك العائلات فنجده بالنسبة لفرنسا يتناقص من ٣,٦% في سنة ١٩٨٦ حتى يصل إلى ٦و٠% عام ١٩٩٣ ليعاود الزيادةالطفيفة ليعود إلى ٢% في عام ١٩٩٧، وهو ما يتوافق مع تناقص معدل زيادة القوة الشرائية لدخول العائلات من ٣,٩% عام ١٩٨٩ إلى ١و٠% في عام ١٩٩٦ إلى ١,٧% عام ١٩٩٧، وبهذا يكون من الطبيعي إن تتبدى مؤشرات انعدام العدالة الاجتماعية من خلال الفقر المطلق والنسبي والمادي والمعنوي بالاضافة إلى الفقر النسبي والمطلق في البلدان الرأسمالية المتقدمة حيث يعيش قرابة ١,٣ مليار نسمة على اقل من دولار في اليوم الواحد، وما يقرب من مليار نسمة لا يستطيعون تلبية احتياجاتهم الاستهلاكية الاساسية، ويشير تقرير مركز دراسات الغذاء في امريكا والمنشور في شهر آذار عام ٢٠٠٤ إن ٣,٧% من كل عائلة تعاني من الجوع و١٠,٥% مليون عائلة لا تحصل على الغذاء الكافي، وبذلك يصل عدد الذين لا

يحصلون على الغذاء الكافي في امريكا إلى ٣١ مليون من السكان، ويضيف التقرير إن الجوع لا يظهر في امريكا على شكل مجاعة ولا يؤدي إلى الموت وانما يمكن تخفيف العدد إلى النصف لو انفقت الحكومة ٥ مليارات دولار سنويا، وفي العالم يعاني ٨٤٠ مليون نسمة من سؤ التغذية في الوقت الذي يبلغ فيه الاستهلاك الاجمالي لاغنى خمس من سكان العالم ستة امثال ما يستهلكه افقر خمسه، كما ويعاني زها ١٦٠ مليون طمن سؤ التغذية، ففي مصر يعيش ٤٠% من سكان القاهرة تحت خط الفقر، وتزيد على نسبة الاسكندرية حيث يعيش فيها ٣٨% من السكان في انواع مختلفة من العشوائية .

وفي عام ١٩٩٧ كان يناهز ٨٥٠ مليون من البالغين اميين على مستوى العالم، وفي العالم الصناعي اكثر من مئة مليون نسمة اميين، وكان ما يناهز ٥٦٠ مليون طفل خارج التعليم المدرسي على المستوى الابتدائي والثانوي، وفي المجال الصحي يحصل خمس سكان العالم على مياه شرب فقط، وخلال الاعوام ١٩٩٠ـ ١٩٩٧ زاد عدد المصابين بفيروس الايدز وتجاوز العدد إلى ٣٣ مليون، ولا يتوقع إن يعيش زها ١,٥ مليار نسمة إلى إن يبلغوا الستين، وكذلك يفتقر ٨٨٠ مليون إلى الخدمات الصحية كما ويفتقر ٢,٦ مليار نسمة إلى مرافق الصرف الصحي، ويموت كل عام ٣ ملايين نسمة نتيجة لتلوث الهواء الداخلي، ويموت اكثر من خمسة ملايين نسمة نتيجة للاصابة بامراض الاسهال الناجمةعن تلوث المياه"١٨".

بعد كل هذا الذي قيل هل وصلت الرأسمالية إلى الشيخوخة ؟

إن هذا الوجه القبيح والبشع لليبرالية الرأسمالية هو الوجه الحقيقي والذي يتمثل تحت العنوان التالي : العنصرية الرأسمالية والتي بدأت كما اشرنا من افريقيا حينما حولت الملايين من سكانها الاحرار إلى عبيد كل ذلك من اجل تغذية النشاط الاقتصادي والزراعي والصناعي بقوى عاملة رخيصة وتحولت انماط تعامل مع شعوب المستعمرات واشباه المستعمرات في آسيا وافريقيا وانتهت عنصريتها في مواجهة غير الاوروبين طوال الفترات الفاشية النازية ووتمتد عنصريتها إلى العالم العربي متمثلة بظاهرة الصهيونية التي صدرها رأس المال الاحتكاري تحت مظلة المال المهيمن دوليا منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى الان، وتقوم على الاغتصاب والابادة والتدمير، وازاء العجزالتاريخي لديمقراطية رأس مال التناقضات الداخلية في مرحلة الأزمة الاجتماعية التي تعم معظم انحاء العالم، وتتمحور حول الاستقطاب الاجتماعي وتتزايد البطالة والاستبعاد الاجتماعي للقوى العاملة واتساع دائرة الفقر النسبي والمطلق بعد مرحلة كانت احتياجات تراكم رأس المال في اوروبا تستدعي الملايين من القوى العاملة من خارج اوروبا، وفي افريقيا وبالذات شمال افريقيا ومن تركيا وايران ومن بلاد آسيوية أخرى، ازاء هذا العجز التاريخي الذي تبرزه الأزمة العنصرية الرأسمالية عن انيابها لتمكن اليمين النازي بعنصريته الفكرية والممارسين من الوصول إلى المؤسسات القانونية للدول الرأسمالية كاحدى الممارسات اليومية في كل انحاء اوروبا وهي ممارسات تتبدى على مستوى الشارع الاوروبي، فيما اليمين الثقافي والسلوكي ضد غير الاوروبين من القوى العاملة وفي ممارسة العنف

الاجرامي، كما تمت ممارسات في جنوب اسبانيا في مواجهة القوى العاملة المغربية "١٩".

العنف الاقتصادي : حيث تسعى الرأسمالية المتوحشة بتنظيم حروب الابادة للبشرية في المرحلة الحالية بعد ما عرفته تاريخ الرأسمالية الكولونية والامبريالية في حروب للاخضاع باسم التحضر إلى منظومات اخلاقيات الرأسمالية، وعلى سبيل المثال حروب الابادة الجماعية لما يجري في العراق وفلسطين وخاصة مجزرة غزة الاخيرة التي تجاوزت في غطرستها النازية الكلاسيكية حيث يتم ابادة الشعب الفلسطيني بطريقة قذرة ومن خلال الغطاء السياسي الأمريكي والاوروبي في مجلس الامن الدولي !!، وما زالت العدوانية الرأسمالية والشرعية الدولية ما هي إلا شرعية رأس المال مستمرة بالرغم من عدم مشروعية كل هذه الحروب وتحت أي مسميات وحماقات ارتكبتها الرأسمالية العالمية والشرعية الدولية هي الفاقدة للمشروعية الانسانية، ناهيك عن الاماكن التي تعرضت للحفاظ في نهاية عام ١٩٩٧ وقضايا اللاجئين والذين تجاوز عددهم الملايين لاجيء يضاف إليهم اللاجئون من ديار كوسفو والكونغو والسودان ونيجيريا وتيمور الشرقية إضافة إلى الاكراد "٢٠".

إن قوة مراكز الرأسمالية العالمية الممثلة بالولايات المتحدة الأمريكية لا يمكن إن تشكل إلا قمة الجبل الجليدي الذي يمتد عليه تفوق هذه البلاد في جميع المجالات ولا سيما الاقتصاديةوحتى السياسية والثقافية والخضوع للهيمنة التي تطمح إليها وبناء على ذلك الواقع الذي لا مناص منه، ومن خلال نظرة سريعة حيث تشكل الولايات المتحدة الأمريكية ٦% من سكان العالم، ومع ذلك تساهم ب ٣٠% من الناتج الاجمالي العالمي أي مجموع إجمالي الدول مجتمعة أي اكثر من ثلاثة اضعاف ما تنتجه الدول التي تليها في الترتيب كما إن الولايات المتحدة تتفوق على كل دول العالم وخاصة في الحقول الاقتصادية واعمال المناجم وقطاع الاتصالات، لكن اليابان حققت ارقام تجاوزت القوة الأمريكية بعبارة أخرى حصة الفرد من الناتج الزراعي إلى الكتب المنشورة سنويا إلى حاملي جائزة نوبل اكثر من ٤٢% من حاملي نوبل امريكيين "٢١".

وعودة إلى الإنفاق العسكري والذي يعتبر اكبر العوامل المساهمة في أزمة الاقتصاد العالمي وهو الفيروس الذي ساهم في خلق ما يسمى شيخوخة الرأسمالية العالمية فالمؤشرات تقول إن الإنفاق العسكري الأمريكي يتجاوزمجموع موازنات الدفاع للاتحاد الاوروبي والصين وروسيا معا، لكن التكاليف العسكرية انخفضت من معدل بلغ ١٠% من الناتج المحلي الاجمالي في الخمسينات إلى مجرد ٤% في التسعينات، ويتوقع إن تهبط إلى ٣,٥% في النصف الاول من العقد الحالي، هذا ويشير الخبراء إلى إن حرب الخليج غطت ٨٠-٩٠ % من إجمالي التكاليف.

هذا وتشير الارقام كذلك انه قبل احتلال العراق فان للولايات المتحدة ٧٥٢ منشأة عسكرية في اكثر من ١٣٠ بلدا في العالم، وهذا المؤشر هو نسف للخطاب الرسمي الأمريكي القائل بأنه بعد انزال الهزيمة بالاعداء لا نترك وراءنا جنود وجيوش محتلة "٢٢"، إن هذا الخطاب ا لرسمي الأمريكي كله افتراء وكذب حيث يوجد في العراق اكثر من ١٥٠ الف جندي امريكي لغاية الان، كما إن هذه الاكاذيب يقاس عليها ففي

اعقاب الحرب العالمية الثانية تم نشر ٧٠ الف جندي في المانيا و٤٠ الف جندي في اليابان و٣٦,٥٠٠ جندي في كوريا الجنوبية .

إن ميزانية وزارة الدفاع الأمريكية تعادل الميزانية العسكرية المجتمعة لاثنتي عشرة وخمسة عشرة دولة التالية للولايات المتحدة وانها تساوي نسبة تتراوح ما بين ٤٠ـ ٤٥% من حجم الإنفاق العسكري لكافة دول العالم "٢٣".

هذه القياسات الامريكية المالية بدت مثيرة ومؤثرة لا تظهر، رغم حقيقة ذلك ومدى تفوق القوات الأمريكية المسلحة ففي البر تملك امريكا ٩٠٠٠ دبابة من نوع ام ابرامز وليس لدى العالم ما ينافسها، وفي البحر تمتلك تسعة مجموعات قتالية من الحاملات المنقولة ولا يملك العالم مجموع ما يمثالها، وفي الجو تمتلك امريكا ثلاث طرازات مختلفةمن نوع ستيلث المتخفية التي لا يكشفها الرادار، وليس لدى العالم أي طائرة من هذا النوع وهي متفوقة بمراحل عديدة ففي مجال القنابل الذكية وطائرات الاستطلاع دون طيار التي تحلق على ارتفاعات عالية، هذا التفوق العسكري هو الذي منح امريكا قوة مهيمنة في العالم لكن هذا التفوق إذا بقيت ازمتها الاقتصادية تنزف فانها ستكون في نهاية المطاف مطلوب منها إعادة النظر بهذه القوة العسكرية الضخمة والتي ستلعب دورا في الضغط على صدر الاقتصاد الأمريكي .

ومن هنا فان الخبراء الامريكيين يرون خلال اعوام ٢٠٠٨,٢٠٠٩ فان الصين ستتجاوز امريكا كاكبر اقتصاد عالمي لكن من المستبعد حسب رأي هولأ الخبراء إن تظل معدلات النمو الاقتصادي في البلد على حالها الذي كانت عليه في العقدين القادمين وكل ما يمكن قوله على ضوء المعطيات الاكيدة وهو إن الناتج المحلي الاجمالي الأمريكي لعام ٢٠٠٢ محسوبا باسعار الدولار العالمية ومعدلا على اساس تكافؤ القوة الشرائية كان يساوي ضعفي الناتج العالمي والبالغ ٢,٤% أي يتجاوز المجموع الكلي لناتج حصة اليابان والمانيا وبريطانيا مجتمعة، وهذا يتجاوز اعلى حصة من الناتج العالمي الذي حققته بريطانيا باكثر من الضعفين، وفي الحقيقة فان حصةامريكا من الناتج الاجمالي العالمي محسوبا بالاسعار الحالية تقترب من الثلث أي ٣٢,٢% أي ضعف حصةالاقتصاد الياباني والصيني كما إن الاقتصاد العالمي خاضع لهيمنةشركات معظمها امريكية الأصل وما تزال مراكزها في امريكا بدء من اكسون موبيل وجنرال ماتورز ومكدولاند وكوكا كولا وميكروفوست وتايمز ورينر، وهنا يمكننا القول انه بعد ٢٠٠٣ نشرت وزارة الدفاع الأمريكية إن يبقى المجموع الكلي للانفاق الدفاعي في استمرار عند ٣,٥% من عام ٢٠٠٦، وهذا يجب مقارنته مع الرقم المتوسط خلال الحرب الباردة والذي وصل ٧% .

نخلص من كل ما سبق ذكره إلى قول" بول كينيدي " إن الدولةالتي تخصص على المدى البعيد ١٠% من الناتج المحلي الاجمالي للتسلح فانه من المرجح إن يحد من نموها "

وبالمقابل فان المشهد الاقتصادي لمركزمراكز الرأسمالية بعيدا عن إن يكون اكثر فعالية في العالم على عكس ما يتخيل الاقتصاديون الليبراليون تقريبا لأي جزء من اجزائه إن يكون على يقين من إن التغلب على منافسيه في ظل سوق مفتوح حقا والدليل على ذلك العجز التجاري الذي يتفاقم من عام لآخر ففي عام ١٩٨٩ كان

العجز ١٠٠ مليار دولار بينما في عام ٢٠٠٠ ٤٥٠ مليار دولار والحبل على الجرار كما يقول المثل الشعبي وعلاوة على ذلك فان العجز الذي كانت تنتفع به الولايات المتحدة في مجال السلع العالية التقنيةوالذي بلغت ٣٥ مليار عام ١٩٩٠ فقدحصل العجزمحله من بعد، كما وتشهد المنافسة بين اوروبا واليابان وامريكا، من جهة أخرى لن تستطيع امريكا كسب المعركةفي مواجهة اليابان واوروبا فيما يتعلق بالتقنيات التكنولوجية، وفي مواجهة الصين وكوريا والدول الصناعية في آسيا وامريكا اللاتينية، امريكا لا تستطيع إن تستفيد من المزايا الثابته إلا في قطاع المعدات الحربية والعسكرية وبالتحديد لأن هذا القطاع يفلت بدرجة كبيرة من قواعد السوق، وينتفع من حماية الدول ووبلا شك إن هذه الميزة تجر ورائها بعض العواقب السيئة بالنسبة للقطاع المدني لكنها هي السبب في توترات جادةتشكل عائقا بالنسبة لكثير من القطاعات الانتاجية .

في الحقيقةان الاقتصاد الرأسمالي والامريكي خاصة يعيش متطفلا على حساب شركائه في النظام الدولي وتعتمد امريكا بنسبة ١٠% من استهلاكها الصناعي سلع لاتتم تغطية وارادتها عن طريق صادراتها من منتجات وطنية، وهذا ما يقودنا إلى حفرة الانهدام التي جرت في اقتصاديات الرأسمالية العالمية ومراكزها الثلاث، وهذا دليل يثبت إن الرأسمالية وصلت إلى حالة الشيخوخة والانحطاط تمهيدا إلى السقوط المرعب والذي عرف بازمة العقارات والاوراق المالية الأمريكية وهو ما سنركز عليه في الصفحات اللاحقة .

أزمة الاقتصاد الأمريكي أو الأزمة المالية العالمية أي أزمة الليبرالية المتوحشة

تحدثنا فيما قبل احتلال العراق وما بعد احتلال العراق حيث تبين لنا انه من اهم الاسباب في حدوث التسونامي الاقتصادي الذي عصف بالاقتصاديات العالمية وعلى رأسها الاقتصاد الأمريكي والذي يشكل العمود الفقري للاقتصاد الدولي، إن الاخفاقات التي سيتعرض لها الاقتصاد الأمريكي ستكون نتائجه الوخيمة على شعوب العالم الثالث وخاصة الدول الفقيرة حيث شظاياه المدمرة بدأت بالفعل تهيمن على كل النظم السياسية والاقتصادية معا .

سنعالج في هذه الصفحات تشخيص هذا الاخفاق بالرغم من اننا قمنا بتشخيص اورام الاقتصاد الأمريكي في مقالة نشرت في صحيفة الرأي الاردنية والتي نشرت بتاريخ ٨ نيسان ٢٠٠٨ وتحت عنوان جحيم الاسعار العالمية حيث قمت بتشريح الجوانب والعوامل الخارجية التي ادت إلى تفجر اورام الاقتصاد الأمريكي، وان السياسة الخارجية الأمريكية تتحمل جزء من هذا الاخفاق وليس كل هذا الاخفاق بل إن هناك جوانب داخلية لهذا الاخفاق، وكما تعلمنا من كهنة السياسة الخارجية وعلى رأسهم مهندس السياسة الخارجية في الحرب الباردة هنري كسينجر الذي تعلمنا منه إن الاعراض التي تعاني منها الدولة على الصعيد الخارجي ما هو إلا امتداد للسياسة الداخلية للدولة ذاتها، وعلى هذا الاساس سنقوم بتشخيص الاسباب الداخلية للازمة الاقتصادية والمالية العالمية من خلال ما يلي:"٢٤"

أولا ـ ما جرى من انفجارات في السوق العقاري الأمريكي حيث تعرضت العديد من البنوك الاستثمارية واسواق المال العالمية إلى هزات متسارعة، ناهيك عن الانخفاض الحاد في قيمة الدولار .

ثانيا ـ نتج عن هذه الانفجارات حريق ضخم جدا ساهم في خلخة توازن القوى الاقتصادية على الصعيد العالمي، واستدعى ذلك إعادة ترتيب المقاعد حول مائدة الثروة في ظل ارتفاع اسعار النفط العالمية والذهب .

ثالثاـ كل ذلك ادى إلى تراكم الفوائض المالية التجارية والبترولية عند البعض في مواجهة ارقام متزايدة للعجز النمالي والتجاري لدى الآخرين .

ومن هنا لا بد وان نشير إلى إن هذه الأزمة كشفت عن الاثر السلبي للعولمة في سرعة انتقال هذه الأزمة المالية من دولة لاخرى متجاوزة في ذلك حجم التأثير الفعّال لمجموعة الدول الصناعية السبعة الكبرى حيث انحسر نفوذ رؤوساء بنوكها المركزية في ادارة حركة التدفقات المالية وتقلبات اسعار الصرف العالمية، بل إن بعض التصريحات والاجراءات التي اتخذت لمواجهة المشكلة على الصعيد القومي وتصديرها إلى الصعيد العالمي .

كيف تم معالجة الأزمة المالية الأمريكية ؟

بعد تشخيص الأزمة لا بد من وضع العلاج، وقد اشرنا سابقا إن الاقتصاد الأمريكي يرقد على سرير الشفاء، وهو الذي كان يداوي الاقتصاديات العالمية، وهو الذي كان يشخص الاورام الاقتصادية، فما الذي جرى له ؟ وماذا قدم له اشهر الاختصاصيين والاستشاريين في معالجة اورام الرأسمالية العالمية، فقد تداعت الرأسمالية العالمية من خلال اشهر خبرائها وتوصلوا إلى انه لابد من معاجة اورام الاقتصاديات الرأسمالية وخاصة الاقتصاد الأمريكي من خلال الوسائل التالية :

أولاـ حقن الاقتصاد الأمريكي ب ٤٣٠ مليار دولار كجرعة اولى لعلا وعسى إن يعود نبض الاقتصاد الأمريكي وان يتحسن الضغط وتعود درجات الحرارة إلى وضعها الطبيعي .

ثانياـ انعاش الاقتصاد الأمريكي من قبل المؤسسات الدستورية الأمريكية، وعلى رأسها الكونجرس الأمريكي حيث قدم الاخير مؤخرا صفقات محدودة لانقاذ ما يتم انقاذه ولكن سرعان ما تبخرت نتائج هذه الصفقة، وبدأت أزمة الثقة في البورصة والعملة الأمريكية من جديد، كذلك فان تصريحات محافظ البنك الفدرالي الأمريكي " بن برنانك " والذي طالب البنوك بضرورة اعانة المقترضين وإلغاء جزء من الديون العقاريةمما ادى إلى انخفاض حاد في الاسهم الأمريكية مما اثر على الاسواق العالمية الأخرى، وزاد الطين بلة التصريحات التي ادلى بها الملياديرالأمريكي، وارن بيفيت " والتي اعرب فيها بان الاقتصاد الأمريكي يمر في حالة ركود، وان الدولار سيعاني مزيدا من الضعف والانخفاض، فقد ادت هذه التصريحات مزيدا من الضعف في قيمة الدولار.

من جهة أخرى فان ما جرى من تغيرات على الاوزان النسبية للقوى الاقتصادية العالمية بالرغم من الاقتصاد الامريكي ما زال يحتل المركز الاول على اقتصاديات العالم يليه الياباني والاوروبي إلا إن الاوزان الاقتصادية النسبية لكل منها على الصعيد العالمي لم يعد قائما كما كان، كما وانخفضت نسبة الاعتماد المطلق على الطلب الأمريكي من صادرات العالم لانعاش الاقتصاد الدولي بسبب تعاظم الطلب المحلي في الدول الصناعية الجديدة وخاصة القارة آلاسيوية حيث إن انتاج هذه الدول اصبح مدفوعا بارتفاع معدلات نموها وتحسن مستوى معيشة افرادها، ناهيك عن الزيادة السكانية لتصبح اكبر سوق استهلاكية في العالم، ومن ناحية أخرى فقد انكمشت الاهمية النسبية التي تمثلها الصادرات الأمريكية بالنسبة للانتاج الاجمالي " الناتج المحلي الأمريكي "، ومن ثم فان الاعتماد على مقولة إن انخفاض الدولار الأمريكي سيؤدي إلى انعاش الصادرات لا ينطبق بالصورة النمطيةالتلقائية لانها لا تشكل سوى ١٢% من الناتج الاجمالي واثرها في زيادة الإنفاق الاستهلاكي، لايمثل نسبة الدول الصناعية الجديدة عليه "٢٥".

نعود إلى الانفجارات التي جرت في المجمع العقاري الأمريكي فهي السبب المباشر للازمة، وقد اعتبر الخبراء إن هذه الأزمة على نسق الأزمة الاقتصادية اليابانية في التسعينات في القرن الماضي، والذي اطلق عليه " بالعقد المفقود "، وهذه الأزمة تعتبر الاولى منذ ١٩٦٠ نتيجة التوسع في الاقراض من خلال قروض مصرفية يتم تحويلها عبر سندات مضمونة بهذه العقارات، ويتم التأمين على هذه السندات، وبالتالي القروض من جانب شركات تأمين عالمية عملاقة ذات جدارة ائتمانية مرتفعة، وقد شملت الأزمة مليوني رهن عقاري تقدر قيمتها ب ٣٥٠ مليار دولار وباسعار فائدة مرتفعة حتى عام ٢٠١٠.

مظاهر الأزمة

ترجمت مظاهر الأزمة إلى ما يلي"٢٦" :

أولاـ تجاوزت قيمة القروض الممنوحة لقيمة الملكيات اوالعقارات المرهونة نتيجة انخفاض اسعارها وتزايد حالات العجز عن السداد وبالتالي نزع الملكيات

ثانياـ لقد ارتبط إطراف الأزمة فيما بينهم إلى حلقات مفرغة فقد ادت أزمة القروض إلى زيادة الديون المعدومة لدى البنوك نتيجة التوسع في الاقراض والاستثمار في السندات المحولة لهذا الاقتراض، وبالتالي زادت الديون المعدومة لدى شركات التأمين الضامنة لها مما انعكس على قيمة الدولار في الاسواق العالمية، وكذلك اسعار الأسهم خاصةاسهم البنوك والشركات المتورطة في الأزمة العقارية، ومن الجدير بالذكر إن شركات التأمين الضامنة للسندات تبلغ قيمتها ١٢,٤ مليار دولار، وان احد البنوك الرئيسية المتأثرة بهذه الأزمة وهي مجموعة جروب والتي شطبت ١٨ مليار دولار وعانت من خسائر مالية تقدر " ٩,٨" مليار دولار، كما وتتوقع خسائر اضافية في الربع الاول من العام الحالي يصل إلى ١٢ مليار دولار،

هذا وقد انخفضت اسهم هذه المجموعات إلى ادنى مستوى لها على مدى عقد كامل في شهر آذار ٢٠٠٨.

هل الاجراءات التي اتخذتها الولايات المتحدة ساهمت في انقاذ الاقتصاد الأمريكي؟

يعتبر المحللين الاقتصاديين والماليين العالميين إن الاجراءات التي اتخذت من قبل الادارة الاقتصادية والسياسية الأمريكية لم تتمكن من انقاذ الاقتصاد الأمريكي بالصورة المتوقعة بل زادت في إحداث تداعيات سلبية على الصعيد العالمي، ومن وجهة النظر الأمريكية والاوروبية فقد تزايدت مخاطر فقدان القيادة والسيطرة في منظومة الاقتصاد العالمي من خلال ما يلي"٢٧" :

أولا ـ إن التخفيض المتتالي لاسعار الفائدة الأمريكية هدفه تقليل عبىء المديونية العقارية المتراكمة، إلا إن هذا الاجراء ادى إلى الاعراض التالية :

١ـ تدهور الدولار

٢ـ تدافع الاستثمارات في قطاع النفط والذهب كمخزون وقت الازمات المالية وخاصة إن البورصة الأمريكية والاوروبية شهدت تقلبات حادة نتيجة خسائر البنوك الأمريكية

٣ـ هذه الاجراءات شكلت مراكز ضغط اضافية على الاقتصاد الأمريكي، وجعلت اجراءات انعاشه وتدعيمه واسناده كفقد مفعولها بعد فترة محددة، ويتلاشى تأثيرها المشكوك فيها لصالح المضاربات السلعية على البترول والذهب والسلع اولية بصفة عامة.

ثانيا ـ إن السبب العميق للازمة يعود إلى عجز الاقتصاد الأمريكي المتراكم في الميزان التجاري أو ميزان حساب المعاملات الجارية، بينما تزخر العديد من الدول الأسيوية وعلى رأسها الصين بالاضافة إلى الدول الخليجية بتراكم في الفوائض المالية التجارية والبترو دولار، وتبحث الاخيرة عن افضل فرص استثمارية خارج نطاق اقتصادياتها سواء اكان ذلك على شكل مزيد من الدولارات أو الاستثمارات في الادارات المالية الأمريكية كاذون الخزانة أو العقارات .

ومن هنا يمكننا القول إن إن قرارات خفض سعر الفائدة وانكماش سعر صرف الدولار تؤدي إلى انكماش القيمة الحقيقية لتلك الاستثمارات، وبالتالي يدفع بالكثير من حاملي هذه الفوائض إلى إعادة النظر في ترتيب اولوياتها الاستثمارية والتخلص من الشكوك، واذا علمنا إن انفاق الاسر الأمريكية يشكل ٧١% من إجمالي الناتج المحلي فستتضح الصورة لنا اكثر من خلال إبعاد الحلقة المفرغة المترتبة على الأزمة العقارية الأمريكية، والتي دفعهت بارقام البطالة خلال شهر اذار ٢٠٠٨ إلى اعلى مستوياتها في غضون خمسة اعوام حيث تم الاستغناء عن ٦٣ الف وظيفة، وفيما كشفت آخر الاستطلاعات بان الامريكيين خلال عام ٢٠٠٨ بأنهم متشائمون من

انعكاس ما جرى من آزمات للاقتصاد الأمريكي ادى إلى شعورهم بعدم الاطمئنان على مستوى معيشتهم، كما واشارت دراسات خلال عام ٢٠٠٧ إلى إن دخل المواطن الأمريكي السنوي تجاوز سقف ٤٤ الف دولار، إن أي عبث بهذا السقف يعني للامريكيين أنهم مقبلون على صدمة عنيفة ومقبلون على أوضاع لم يعهدوها من قبل فماذا نعمل نحن فقراء العالم الثالث إذا كان الامريكيون متشائمون!!!.

ثالثاـ هناك مؤشر على انخفاض ثروات العائلات الاوروبية حيث وصل إلى ٣٤٧ مليار دولار خلال الربع الاخير من عام ٢٠٠٧ نتيجة انخفاض اسعار العقارات والاسهم والادارات المالية، حيث ادى ذلك إلى انخفاض انفاق هذه العائلات خاصة بعد اتباع البنوك سياسة ائتمانية متشددة تقلل من فرص الاقتراض وانتهاج الشركات سياسة تقشفية في مجال الاستثمار واللجوء إلى خفض اعداد متزايدة من العمالة .

وفي نهاية القول إن تدخل الرئيس الأمريكي بوش من خلال صفقة الكونجرس بالرغم من الجهود الأمريكية والاوروبية في انعاش الاقتصاد الأمريكي من خلال مقايضة الدولار باليورو والتي اعلنت في ديسمبر ٢٠٠٧ للخروج من عنق الزجاجة، فان هذه الجهود فشلت في إخراج الاقتصاد الأمريكي من غرفة العناية المركزة والعناية التاجية، والسنوات اللاحقة اثبت إن الاقتصاد الأمريكي في حالة غيبوبة ويمر في حالة كساد .

ما طبيعة الاجراءات الجراحية التي لجأ إليها مستشفى البنك الفدرالي الأمريكي ؟

فقد اتخذ اخصائييوا مستشفى البنك الفدرالي حزم جراحية اقتصادية تمثلت فيما يلي:

١ـ سياسة الخفض المتتالي لاسعار الفائدة مما عمق من ضعف قيمة الدولار في الاسواق العالمية وتحديدا في مواجهة كل من اليورو والين .

٢ـ تدخل سياسي من قبل الرئيس بوش للمساهمةفي ما امكن من وقف الاورام السرطانية التي ازدادت خطورتها فقد اعلن الرئيس بوش عن صفقة الانعاش التي دعمها الكونجرس الأمريكي بالاضافة إلى الحقن المتتالية لكميات ضخمة من الاموال من جانب الفدرالي الأمريكي للبنوك وباسعار فائدة منخفضة، وقد شهد شهر اذار عام ٢٠٠٨ ضخ ٢٠٠ مليار دولار، وفي السابع من الشهر المذكور، كما وتم ضخ ٢٣٠ مليار في الحادي عشر من الشهر ذاته، وبذلك يصبح مجموع ما تم ضخه نحو ٤٣٠ مليار خلال شهر اذار.

وفي ضؤ ما تقدم ذكره يطرح السؤال نفسه هل الاقتصاد العالمي دخل في مرحلة دوامة الكساد ؟، يجمع بعض المحللين السياسين إن هذه الأزمة الاقتصادية التي تشهدها امريكا تشكل تهديدا مركبا للولايات المتحدة في المقام الاول كونها تمثل دولة المركز بالنسبة للاقتصاد العالمي وثانيا لاطراف المجتمع الدولي المرتبطةبالاقتصاد الأمريكي، وهذه الأزمة شبيهة بازمة الكساد العالمي عام ١٩٢٩ .

خسائر الازمة : قدرت المصادر الأمريكية الاقتصادية خسائر الأزمة المالية حيث اعلن وزير الخزانة الأمريكي هنري نيلسون إن خسائر الاقتصاد الأمريكي تجاوزت ال ٤٠٠ مليار دولار، في حين اعلنت مصادر مالية أخرى بنحو ترليون دولار، ومن هنا فان قنابل الرهن العقاري هي التي اشعلت الأزمة الخارجية أي إن تعثر هذا القطاع ادى إلى تعثر قطاع البنوك وبالتالي ضرب سوق البورلاصة الأمريكية، هذه العدوى انتقلت إلى السوق الاوروبية وبالتالي إلى الاسواق الأسيوية وبالتالي إلى العالم العربي، من جهتها توقعت منظمة التعاون والاقتصاد الدولي والتنمية بان الاقتصاد الأمريكي توقف في الربع الثاني من عام ٢٠٠٨ إلى مستوى الصفر .

اسباب التوسع المالي : يرى الخبراء إن اسباب التوسع المالي قد يكون اهم اسباب الانفجار العقاري وعلى النحو التالي : "٢٨"

١ـ تطوير الادوات الائتمانية المدفوعة بالوكلأ والبنوك والسماسرة " صناديق التحوط وشركات الأسهم الخاصة .

٢ـ الديون الكبيرة والادوات الاستثمارية والقروض غير المأمونة .

٣ـ خروج ضوابط الاقتراض عن المسار المنطقي سواء اكان الاقتراض من الشركات أو الافراد واصبح بامكان أي شخص أو بنك توفير التأمينات بغض النظر عن جدوى الاقتراض اوامكانيات سداد القرض .

٤ـ هذا الموقف ادى إلى تقليل واضح بالنسبة للمخاطر وتدفق نقدي هائل وارتفاع كبير في حجم المديونيات وعجز كبير في تسديد القروض غير المأمونة منذ بداية عام ٢٠٠٧ .

٥ـ كل ذلك مما سبق ذكره ادى إلى انهيار كبير في الكثير من المؤسسات المالية وخسائر كبيرة في البنوك الأمريكية ومنها إلى البنوك والمؤسسات المالية العالمية إضافة إلى تعرض اسواق المال العالمية لانخفاضات حادة بعد الهبوط الكبير في اسواق المال الاميركية .

إن تعرض رأس مال الاقتصاد الاميركي إلى ضربتين في الرأس يعني إن هناك مشكلة كبيرة، وتكمن ابجديات المشكلة بالمحورين التاليين:

اولهما: أزمة سوق العقار وقد سلطنا الضؤ عليه

ثانيهما : انخفاض سعر صرف الدولار لنرى متى بداء؟

يقول المؤرخون الاقتصاديون إن سعر صرف الدولار انخفض منذ ٢٠٠٢ بل انه تعرض لانخفاضات عديدة وصلت إلى ادنى مستوى مقابل العملات الرئيسة " اليورو، الين " فقد سجل اليورو عدة مستويات قياسية مقابل الدولار ليصل إلى ١,٥٩ دولار لاول مرة في تاريخه، فيما انخفض الدولار إمام هيبة الين ليصل إلى اقل من ١٠٠ ين ياباني مقابل الدولار محققا بذلك هبوطا حادا .

نتائج هبوط الدولار

إن هذا الهبوط كما يراه الاقتصاديون ادى إلى ارتفاع اسعار النفط العالمية ليصل إلى ارقام خيالية تجاوزت سقف ١٤٠ دولار للبرميل الواحد مما ادى إلى ارتفاع فاتورة واردات امريكا النفطية، وبالتالي لرتفاع اسعار السلع الأخرى نتج عن انخفاض في قيمة الصادرات الأمريكية، كل ذلك ادى إلى ارتفاع حجم العجز التجاري الأمريكي حيث قدرت هذا العجزمن قبل الميزانية الأمريكية التابعة للكونجرس ٣٩٦ مليار دولار خلال السنة المالية لعام ٢٠٠٨، ومن الجدير بالذكر إن السنة المالية تنتهي في شهر ستمبمر ٢٠٠٨، وبلغة المعادلات الرياضية فاننا نضع المعادلات التالية :

هبوط الدولار + انخفاض قيمة الصادرات = ارتفاع حجم العجز التجاري والذي قدر ب ٤٠٠ مليار حتى نهاية شهر سبتمبر ٢٠٠٨ .

ومن ناحية أخرى فانه نظرا لارتفاع النفقات دون موارد لتغطيتها في عام ٢٠٠٧ بالاضافة لتباطؤ نمو الايرادات عزز فرض العجز في الموازنة إلى ٢٦٢ مليار دولار خلال الخمسة اشهر من موازنة ٢٠٠٨ أي إن زيادة العجزخلال موازنة الاشهر الاربع الأولى من ٢٠٠٨ مقارنة مع موازنة ٢٠٠٧ تجاوز المئة مليار دولار .

حجم الاقتصاد الأمريكي بالارقام :

١- الاقتصاد الاول في العالم فحجمه يقدر بنحو ١٤ ترليون دولار

٢- تشكل تجارة امريكا ١٠% من تجارة الكوكب

٣- السوق المالي الأمريكي هو قائد الاسواق المالية العالمية

٤- كل هذا يعني إن أي اهتزاز سيزلزل الاقتصاديات العالمية وخاصة الاوروبية والاسيوية ٥- انه الاقتصاد الجاذب الاول لسوق الاستثمارات العالمية، ومن المبكي إن الولايات المتحدة الأمريكية تستأثر ب ٧٠% من الاموال العربية المستثمرة في الخارج والبقية موزعة على العالم .

كيف قفز سعر النفط ووصل الى رارقام خيالية ؟

نتيجة للانهيارات في سوق العقار وانخفاض سعر سعر صرف الدولار والاهم من ذلك انه جرى العرف لدى البنوك المركزية في اغلب دول العالم بالاحتفاظ بجزء من احتياطاتها النقدية على صورة سندات الخزانة الأمريكية لأن الاكثر امنا في العالم مع انخفاض سعر الدولار فقدت هذه الاستثمارات من قيمتها وهربت الاستثمارات إلى مجالات أخرى وأهمها المضاربة بالنفط والاتجاه صوب سوق الذهب، إن ارتفاع

فاتورة النفط بسبب سياسة المضاربات الناتجة عن الهروب كما ذكرنا سابقا وليس بسبب زيادة الطلب على النفط.

كما إن انخفاض الدولار سبب الأزمة الحقيقي في رفع اسعار النفط العالمية لأن الدولار هو الاب الروحي للاقتصاد العالمي من خلال مايلي:

١- يسيطر على ثلثي احتياطات النقد الاجنبي في العالم .
٢- يشكل ٨٠% من مبادلات سعر الصرف الاجنبي .
٣- يتم دفع اكثر من ٥٠% من صادرات العالم بالدولار .
٤- إن حجم التداول بالدولار حول العالم يصل إلى ثلاثة ترليون دولار .
٥- أي تحرك لسعر صرف الدولار يؤثر على اسعار السلع والخدمات في كافة انحاء العالم، ومن ثم فاتورة الصادرات والواردات والاستثمار لكل دولة .

تأثير هذه التدعيات على اقتصاديات النفط العربي - امريكا تسفح الدم العربي والمال العربي يلهث ارضاء لانقاذ الاقتصاد الأمريكي

اعتبر خبراء المال والنفط العربي انه كان من المفروض إن تستفيد الدول النفطية من السيولة بسبب فرق اسعار النفط ’، ولا تتأثر بانخفاض السوق الأمريكي لانه يفترض إن يكون اتجاه الاسواق العربية صعوديا لأن البورصات تعكس الوضع الاقتصادي، وعلى الرغم من استفادة الدول العربية بصورة مباشرة من زيادة الايرادات النفطية بشكل متنام إلا إن هذاه الزيادة في الايرادات نتيجة الارتفاع المذهل في اسعار السلع والخدمات كنتيجة مباشرة لانخفاض سعر الدولار عالمياً، هذا يعني ارتفاع قيمة الواردات من قبل اوروبا واليابان والصين وبعض دول جنوب غرب آسيا حيث ادى انخفاض قيمة الدولار إلى انخفاض قيمة الاستثمارات العربية في اسواق المال والبنوك الأمريكية خاصة إذا علمنا إن ٧٠% من إجمالي الاستثمارات العربية في امريكا، وبالتالي فان المال العربي تحرك بسرعة جنونية ليس للمحافظة على امريكا بالذات ولكن للمحافظة على اموالها سواء اكانت المستثمرة ام لاحتياطاتها في البنوك الأمريكية، وتخفيضا بالتالي للاسعار العالمية للسلع والخدمات، ولذلك هب المال العربي لمساعدة امريكا عن طريق الاستثمار بالمليارات في هذه البنوك، وعلى سبيل المثال تحرك الملياردير السعودي الوليد بن طلال بن عبد العزيز رسميا واعلن عن نيته شراء اوراق مالية قابلة للتمويل إلى اسهم يعتزم بنك " سيتي جروب" بيعها ١٢,٥ مليار دولار وذلك لانقاذ هذا البنك المتعثر ماليا والذي يملك منه ٣,٦% .

اما دولة الكويت وعبر الهيئة العامة الكويتية بالتعاون مع سنغافورة قامت بنجدة البنك الأمريكي " ستي بنك " حيث تعهدت الدولتان بامداد البنك ب ١٢,٥ مليار دولار، من جهة أخرى ذكرت تقارير صحافية إن مجموعة " ميريل لينيش" ستستقبل سيولة مالية على شكل استثمارات من صناديق مالية عربية وعالمية وفي مقدمتها الكويت بقيمة ٦,٦ مليار دولار على شكل استثمارات، كما إن مجموعة " سيتي بنك" اكدت إن جهازابوظبي للاستثمار استحوذ على حصة ٤,٩% من اسهم المجموعة بقيمة ٥,٧ مليار دولار في صفقة قد تنقذ المصرف المتعثر على جمع السيولة التي

يحتاجها بشدة للخروج من الأزمة بسبب أزمة العقار، هذا وسنقدم فصلا كاملا عن تداعيات الأزمة المالية العالمية على الاقتصاديات العربية .

الاوروبيون

إن انخفاض سعر الدولار يعني إن ارتفاع سعر اليورو لكن هذا الارتفاع ليس عامل ايجابي بل سلبي على اقتصاديات الاتحاد الاوروبي بسبب انخفاض حجم الصادرات من السوق الاوروبية والاتجاه صوب الدولار فقدوصل العجزالاوروبي إلى ذ٦، ٩ مليار دولار في كانون الثاني من عام ٢٠٠٨، وان انخفاض سعر الدولار بداء يأخذ مفعوله لدى سوق الاتحاد الاوروبي " صادرات الاتحاد " ومن جهة أخرى فان كل ارتفاع سعر الدولار بعشر سنتات مقابل اليورو يقلص معدلات النمو بنصف نقطة كاملة، وهذا ما يفسر موقف اوروبا في دعم الاقتصاد الأمريكي حيث تم ضخ ٣٠٠ مليار دولار خلال ستة اشهر من عام ٢٠٠٨ .

الليبرالية المتوحشة إلى اين ؟

من خلال ما تقدم ذكره يطرح السؤال التالي اليس هذا كافيا لاقناع الليبرالية الجديدة انها اخفقت وساهمت عبر سياستها المتوحشة في تأزيم الاقتصاد الأمريكي والذي هو عنوان الاقتصاد الرأسمالي العالمي ؟ ورغم ذلك ما قيل من اجراءات لمواجهة الأزمة الظاهرية التي يتشدق بها كهنة الليبرالية الجديدة، فان أزمة الرأسمالية المتوحشة هي ليست أزمة سطحية وانما أزمة داخلية وهيكلية في باطن قاع بحر الرأسمالية أو بعبارة أخرى إن أزمة الرأسمالية هي أزمة طاحنة في قاع جبل الجليد وليس في قمته كما يلاحظ المراقب السطحي.

هذا بالطبع يقودنا إلى خارطة الرأسمالية ومراكزها المتوحشة، فالارقام تؤكد بان الفقراء في الرأسمالية الجديدة ازدادو فقرا حيث اشارت التقارير الصادرة عن البنك الدولي بان عدد الجياع في العالم بعد أزمة العقار الاولى وارتفاع اسعار النفط والمواد الغذائية والمعادن إلى مليار نسمه ونضيف إليهم ٧٥ مليون بسبب ارتفاع الاسعار، وهذه الزيادة في اعداد الجوعى قابلتها زيادة هائلة في ثروات الاثرياء، اذ يكشف تقرير الثراء العالمي لشركة " ميرل لينش" إن ارتفاع قيمة الأسهم في الاسواق زاد الاثرياء ثراء بنسبة ٩,٤% ليبلغ مجموع اموالهم ٤٠,٧ ترليون دولار في عام ٢٠٠٧، وقد زاد عدد الاثرياء في العالم بنسبة ٦% في عام ٢٠٠٧ ليصل إلى ١٠,١ مليين شخص، ولأول مرة في تاريخ التقرير تجاوز متوسط قيمة الثروات الفردية عتبة اربعة ملايين دولار،وعلى صعيد المناطق الجغرافية لا تزال امريكا الشمالية تحتكر القسم الاعظم من الثروات وعدد المليونيرات حيث يوجد فيها ٣,٣% ملايين مليونير يملكون نحو ١١,٧ ترليون دولار تليها في المركز الثاني اوروبا بعدد مليونيرات وصل إلى ٣,١ ملايين تقدر ثرواتهم بنحو ١٠,٦ ترليون دولار "٢٩".

ناهيك عن انخفاض معدل النمو إلى ١%، ومن المتوقع إن ينخفض معدل نمو البلدان النامية إلى ٤,٥% مقارنة مع ٦,٥ % كان مقدرا سابقا، وسينخفض معدل نمو التحويلات وهو مصدر اساسي للاسر في الدول الفقيرة من ٦,٧% في عام ٢٠٠٨، بينما يتوقع إن يصل في عام ٢٠٠٩ إلى ٠,٩، علما بان حوالي ٢٠٠مليون مهاجر في جميع انحاء العالم حولوا ٢٨٣ مليار دولار لعام ٢٠٠٨ في مقابل ٢٦٥ مليار دولار عام ٢٠٠٧.

ومن جهة أخرى فقد قدر جوزيف ستغليتز كلفة الحروب الاميركية سواء في افغانستان والعراق، وهذا بطبعه يتطلب تمويلا عبر خلق النقود " الدولار" مما ادى إلى رفع قيمة العجز في الميزان الاميركي إلى ٨٠٠ مليار دولار، ويدعم هذه الارقام مانشرته صحيفة يو اس تودي انه إذا استخدمت الولايات المتحدة معايير محاسبية شفافة فان دين امريكا سيبلغ اكثر من ٥٩ ترليون دولار، وتعد الهيمنة الأمريكية على العالم فرصة كبيرة للمزيد من الإنفاق أي الديون، ولمزيد من الارباح البنكية، ولمزيد من تضخم الدولار أي إن جميع مستخدمي الدولار في العالم هم الممولون الحقيقيون للهيمنة الأمريكية ففي النظام النقدي القائم لا يجري خلق النقود إلا إذا اقترضها احدهم ونحن جميعا نتعامل بنقود محملة بديون تدفع عنها فوائد، ولكن لم يحدث في التاريخ إن اصبح رأس المال يولد المزيد من نفسه دون أي رابط بالانتاج أو أي التزام بنظام اجتماعي، وقد ارتفعت الديون الخارجية للعالم الثالث من ١٩٥١,٤ مليار دولار عام ١٩٩٥ الى٢٩٨٣,٧ مليار دولار عام ٢٠٠٦، كما وفرت المدخرات الأسيوية اكثر المبالغ اللازمة للانفاق غير المقيد في البلدان الغربية، ولا سيما امريكا فقد تراكم ما يزيد على ٤ تريليون دولار من الارصدة الاحتياطية الدولية لدى بلدان غرب آسيا المصدرة للنفط، وكذلك لدى بلدان شرق لآسيا، وفي الوقت نفسه كان هناك اكثر من ثلاث تريليون دولار تملكها جهات اجنبية موظفة في الاوراق المالية لدى خزانة الولايات المتحدة الأمريكية والوكالات الحكومية الأمريكية بحسب احصاءات وزارة الخزانة الأمريكية عام ٢٠٠٧٢٩"٣٠"،هذا ووفقا لتقديرات البنك الدولي يمكن إن ينخفض صافي تدفقات رؤوس الاموال إلى البلدان النامية من حوالي ترليون عام ٢٠٠٧ إلى ٥٠٠ مليار دولار عام ٢٠٠٩، فيما اشارت دائرة الابحاث العالمية في شركة ميريل لينش امعدل النمو الاقتصادي العالمي في عام ٢٠٠٩ بالمقارنة مع ٣% في عام ٢٠٠٨، وهذا المستوى من النمو سيعادل نصف واحد بالمئة ادنى من متوسط السنوات الاربع الماضية، وتقول هذه المؤسسة إن الادخار في الاسواق الناشئة لن يمول فائض الاستهلاك في امريكا، ولذلك من المتوقع إن يتهاوى النمو العالمي إلى ادنى مستوى بلغه منذ عام ١٩٨٢ قبل إن يستأنف ارتفاعه المتوقع في عام ٢٠١٠.

السؤال المطروح ماذا فعلت منظومات الرأسمالية العالمية ومراكزها المتوحشة لمواجهة الأزمة الثانية التي انفجرت في نهاية عام ٢٠٠٨ ؟

المصادر اشارت إلى إن مراكز الرأسمالية انفقت ما قيمته ٣,٣ ترليون للتصدي للازمة المالية الحالية في البلدان المتقدمة مقارنة ب ١٠٣,٧ مليار دولار مجموع تدفقات المساعدات الانمائية الرسمية، وتجدر الاشارة إلى إن الموارد العامة كانت تمثل ٧٠% تقريبا من تدفقات الموارد من الشمال إلى الجنوب في عقدي الخمسينات

والستينات من القرن الماضـي، فيمـا مثلت الموارد الخاصـة ٣٠ % إلا إن الاستثمار الخـاص فـي الاسـواق الناشـئة وفـي العـالم الثالـث زاد اثنـاء مرحلـة العولمـة فـي التسعينات، في مستويات المساعدة الانمائية الرسمية ظلت علـى حالهـا، وفـي اقل من عقد واحد من الزمن انعكست النسبة فاصبحت ٣٠% من القطـاع العام في مقابل ٧٠% من القطاع الخاص "٣١".

تـرى مـاذا فعلـت امريكـا لمواجهـة الأزمـة الماليـة التـي تفاجـاء بهـا العـالم حيـث انخفضـت اعـار الـنفط وبشـكل متسـارع مـن ١٤٨ دولار للبرميـل إلـى ٣٥ دولار للبرميل وانخفضت معه أزمة ارتفاع اسعار المواد الغذائية وهذا بحد ذاته يعني إن الاقتصاد الأمريكي دخل في ازمةعنيفة جدا وهي اصعب من أزمة الكساد العالمي ١٩٢٩_ ١٩٣٣؟

فقـد اتخـذت الادارة الأمريكيـة جملـة مـن الخطـط، حيـث نشـط وزيـر الخزانـة الأمريكي هنري بولسن من وضع خطة لانقاذ ما يتم انقاذه من خلال شراء القروض المعدمةالتي خلفتها أزمة الرهن العقاري من خلال عدم الاشارة إلى تفاصيل الخطة لتفكيك الأزمة المالية الأمريكية، واكتفى بقوله" إن هناك عددا من الادوات المتنوعة التي تمتلكها الادارة لوضع الخطة موضع التنفيذ تتسق مع القانون "٣٢".

من جهة أخرى طرح خلال الأزمة اسئلة مشروعة اين تبخرت المليارات التي كانت في المؤسسات والبنوك الأمريكية بل بالاحرى اين تبخرت الترليونات التي خسرها العالم بسبب الأزمة المالية ؟

الخبـراء الاقتصـاديون اجـابوا عـن هـذه التسـاؤلات لكـن هـذه الاجابـات اصـابت الخاسرين بخيبة امل خاصة إذا علموا إن اموالهم منذ البداية لم تكن اموالا حقيقة فيقولون الاموال في اسواق المال والاسهم ليست اموالا نقدية وانما هو مجرد قيمة لهذا السهم أو ذاك ليس اكثر ويوضح الخبراء المساءلة كالتالي" يخمن احدهم قيمة منزل حاليا بانها تصل إلى ٣٥٠ الف دولار بينما كانت على سبيل المثال قبل اسبوع واحـد تصـل إلـى ٤٠٠ الـف دولار بمعنـى إن الفـارق فـي القيمتـين أي خمسـين الـف دولار اختفت وتبخرت، ولكن العملية كلها عملية عقلية فقط لا اكثر ولا اقل، وقيمة السهم أو المنزل ليس في جيبك بالتأكيد، ولكن إن تنخفض قيمتها فهذا يشكل خسارة اموال من الممكن إن تستخدمها لو كانت على شكل سيولة نقدية أو لو انك قمت بعملية البيع لهذه الأسهم أو ذلك المنزل في هذه الفترة فان عدم قيامك بالبيع أو الشراء قبل الأزمة يشكل خسارة نظرية أو افتراضية "٣٣".

من جهة أخرى يقول المحللون الاقتصاديون " إن الخطاء الأكبر الذي يقع فيه الناس هو اعتقادهم إن تلك الاموال الافتراضية تعادل قيمتها تعادل قيمتها المادية، فهي ليست كذلك ابدا، فهناك فرق واضح بين الامرّين اذ في حين إن الاموال الحقيقة في محفظتك لا يمكن إن تتبخر في الهواء فان الاموال التي كانت من الممكن إن تحصل عليها إذا بعت منزلك يمكنها إن تتبخر فعلا فهي لم تعد مطروحة أو متوفرة حاليا "، ويشير هولاً الخبراء إلى انه قبل ظهور الاموال الورقية في الصين في القرن التاسع الميلادي لم يكن هناك ما يمكنه إن يقلق على ما سيحدث للاموال، فالاموال شيء معلوم لها قيمة حقيقة مثل العملات الذهبية، وفي ذلك الوقت إذا اختفت

اموالك فجاءة فلا بد من سبب وراء ذلك وهو انك انفقتها أو سرق احد منك أو اضعتها، ولكن في هذه الايام فهناك الكثير من الامور التي لها قيمة مادية، ولكن لا يمكنك إن تحملها بيدك مثل استثمار اموالك في سوق الأسهم والتي يمكنك تتبعها حيث ترتفع قيمة هذه الاموال، وربما تستطيع إن تبيعها عندما ترتفع قيمة تلك الأسهم .

ويوضح الخبراء والمحللون الماليون انه مع انتفاء الثقة بتلك الاسواق، وبالنظام المالي فان الكثير من المستثمرين سيبيعون بأي سعر للحد من الخسارة، وهنا فان قيمة استثمارك يكون قد تبخر، وخلال هذه العملية تكون قد فقدت ثروتك "٣٤"، وهنا يطرح التساؤل التالي : هل هذا يعني إن هناك بالضرورة من حصل على تلك الاموال الافتراضية التي كانت بحوزتك ؟ الجواب بالقطع كلا اذ ببسلطة فان قيمة الاموال هنا تضاءلت، ومن كانوا يقومون بالاستثمار والمضاربة خسروا رهانهم بعد إن خاطروا وهم الآن يعانون جراء تلك المخاطرة .

ابرز الاضرار التي نتجت عن الأزمة المالية

يجمع الخبراء الاقتصاديين والماليين بان العالم مقبل على أزمة غذاء ومجاعة وفقر فيقول احد الخبراء بان المستهلكين بداءوا بتخفيض نفقاتهم الغذائية والمنزلية بدليل اعلان اسواق مثل " ماركس آند سبنسر" حيث انخفضت مبيعاتها بنسبة ٩,٥%، واعلان اسواق " وايت روز" وهي اسواق غذائية للبيع بالمفرق يرتادها ابناء الطبقة الوسطى بان مبيعاتها الاسبوعية انخفضت بنسبة ٧،%، بينما لوحظ انخفاض الطلب على المواد الاستهلاكية الرخيصة الثمن بشكل ملحوظ"٣٥"، اما فيما يتعلق بالمساكن حيث اشارت التقارير الغربية في بريطانيا إلى انخفاض اسعار المنازل العادية بمقدار ٢٣ الف جنية استرليني عن اعلى الاسعار التي بلغت عام ٢٠٠٨ حسب ما يقول " ناشين وايد" أي ما نسبته ١٢,٤% وهي أعلى نسبة انخفاض سنوية يشهدها قطاع البناء، وهذه الارقام مبنية على عدد قليل من العمليات فعمليات قروض الرهن انهارت بنسبة تزيد عن ٩٠% والصورة الحقيقة قد تكون اسواء بكثير، وهناك مؤشرات تشير الى أن الشقق السكنية المشيدة حديثا في المدن الشمالية قد بيعت بنصف اسعارها الاصلية، وتشهد عمليات إعادة الاستحواذ أو إعادة التملك تزايدا سريعا في شمال غرب انجلترا حيث ادت عمليات زيادة الطلب وقلة العرض إلى المزيد من عمليات الاستعراض، ويقول الخبراء إن الفرصة أصبحت سانحة لمزيد من انخفاض الاسعار، واما التوقع الرهيب فهو إن الاسعار ستنخفض بنسبة ٣٥% عن مستواها الاعلى، وذلك يعني إن انخفاض سعر البيت العادي بقيمة ٤٠ الف جنية استرليني " ٣٦".

والاهم من ذلك إن تجار التجزئة أو المفرق في معظم دول اوروبا بداءوا يتأثرون جراء تناقص انفاق المستهلكين، ومثال ذلك إن خضعت كل من سلسلة " مس سكستي للازياء " ومجموعة " روز بايز" العاملة في مجال بيع الستائر والاغطية لاجراءات التقييم المالي، وتشهد شركة " جاي جاي بي" في تجارة التجزئة الرياضية ضائقة

رهيبة، كما وحذر الاقتصاديين بان تجار التجزئة في اوروبا سعلنون افلاسهم حيث إن ٣٢٣ من تجار التجزئة في بريطانيا قد ادرجوا على اللائحة التحذيرية، حيث وصلت نسبة فشل اعمالهم إلى ٧٠% في سنة ٢٠٠٩، ويقول احد الخبراء إن البنوك ستطالب باسترداد دينها من سلسلة المحلات ذات الاداء الضعيف عند قيامها بتقليل مخزونها ما امكن، ويتوقع هولأ الخبراء إن يعاني اكثر تجار التجزئة الاوروبيين الذين فشلوا في تأسيس وجود قوي في السوق، وان تقوم بعض الشركات بدعم تجار التجزئة للازياء عبر الانترنت كمحلات " آسوس""٣٧".

اخطر آزمات الأزمة المالية العالمية

اجمع الخبراء إلى إن اخطر ما في الأزمة العامية المالية هي البطالة، واشارت الادبيات الاقتصادية في هذا الميدان إلى إن البطالة تجاوزت امواج الأزمة المالية " البورصات والتعاملات النقدية " لتصل إلى أزمة الاقتصاد الحقيقي، وبدأت اثارها واضحة للعيان في حياة الناس اليومية، ومن مظاهرها إن الملايين

من العاملين عبر العالم وجدوا انفسهم ضحية هذه الأزمة التي اجبرت المؤسسات المشغلة لهم على التضحية بهم وتسريحهم للحفاظ على توازناتها وتفادي الانهيار حيث وصلت الامور إلى إن رئيس البنك الدولي روبرت زوليك يحذر من تحول الأزمة الراهنة إلى أزمة بطالة بكافة انحاء العالم مؤكدا إن البطالة ستزيد من تفاقم ازمتي الغذاء والوقود مما قد يؤدي إلى تدهور الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والانسانية .

ومن جهة أخرى كشفت مصادر في منظمة العمل الدولية بان يصل عدد الذين ليس لهم عمل في عام ٢٠٠٩ إلى عشرين مليون، وان يتزايد اعداد العمال الفقراء الذين يعيشون باقل من دولارين يوميا .

مشهد البطالة في مراكز الرأسمالية العالمية

الأزمة المالية العالمية تفجرت اصلا من مراكزالرأسمالية العالمية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية واوروبا وومن هنا فان المشهد العالمي يؤطر إلى بروز أزمة حقيقة للبطالة ستكون خانقة جدا، فقد اشارت التقارير إلى إن العدد الكامل للوظائف التي فقدت خلال عام ٢٠٠٨ ما يقرب من مليوني وظيفة، وقد كشفت مصادر وزارة العمل الأمريكية بان اعداد العاطلين عن العمل خلال نهاية تشرين اول عام ٢٠٠٨ بلغ ١٠، ١ مليون شخص إضافة إلى إن ٥٤٠ الف تقدموا بطلبات للحصول على اعانة بطالة منتصف تشرين ثاني فقط ما يمثل اعلى رقم منذ ١٨ عاما " ٣٩"، ومن جهة أخرى ذكرت مصادر إن معدل البطالة في امريكا يصل حاليا إلى ٦,٥ % وهو اعلى رقم منذ ٤١ عاما ويتوقع إن يرتفع هذا المعدل إلى ٨,٥% عام

٢٠٠٩، هذه الارقام الملاعبة هي التي حرضت الرئيس الأمريكي اوباما للقول بأنه سوف يوقع خطة الانعاش بعد تنصيبه والتي ترمي إلى ايجاد ٢,٥ مليون وظيفة خلال عامين .

اما في الاتحاد الاوروبي ففي سبتمبر ٢٠٠٨ فقد ارتفعت البطالة إلى ٧% ففي بريطانيا كانت نسبة البطالة ٥,٧% مقابل ٢,٥% خلال الربع الاول من عام ٢٠٠٨، واشارت مصادر مكتب الاحصاء الوطني إن عدد العاطلين عن العمل تزايد بشكل حاد بالربع الثاني من عام ٢٠٠٨ ليصل إلى مليون و٧٩٠ الف عاطل عن العمل خلال عام ٢٠١٠ "٤٠"، وفي المانيا اعلنت نتائج استطلاع للرأي شمل ٥١ قطاعا اقتصاديا حيويا إن نحو ٢١٥ الف وظيفة مهددة بالالغاء خلال عام ٢٠٠٩ بسبب تداعيات الأزمة المالية، حيث زاد معدل البطالة في المانيا في إطار متوسط نسبتها في الاتحاد اوروبي حيث ارتفع من ٧,١% في آب من عام ٢٠٠٨ إلى ٧,٢% في سبتمبر من نفس العام، كما واشار الاستطلاع إلى تراجع الناتج المحلي الاجمالي الالماني صاحب اكبر اقتصاد اوروبي بمعدل ٢٥و.% في الربع من نفس العام حيث انكمش الناتج المحلي الاجمالي لالمانيا بنسبة ٥،.%، ومن شأن هذا التراجع الجديد إن يضع الاقتصاد في حالة ركود فني نظرا لانكماشات فصليين متتاليين، فيما شمل معدل البطالة ارتفاعا بدرجة اكبر، ففي اسبانيا بلغ ١١,٩% مرتفعا عن شهر آب، فيما ارتفعت البطالة في ايرلندا من ٦,٢% إلى ٦,٦%، وما الاحداث العاصفة التي قادتها النقابات المهنية والعمالية في اليونان والتي تسببت في تفجر الشارع اليوناني لهي اكبر دليل على الأزمة المالية العالمية .

هوامش الفصل الثاني / الباب الرابع

١- الليبرالية المتوحشة، د.رمزي زكي، ص ١٣٠
٢- مرجع سابق، ص ١٣٨- ١٣٩
٣- مرجع سابق، ص ١٤٢-١٤٣
٤- مرجع سابق، ص ١٤٤- ١٤٦
٥- مقالة كتبت للباحث في صحيفة السبيل الاردنية الاسبوعية٦- مجلة الوطن العربي
٦- مرجعه سابق
٧- الليبرالية المتوحشة، مرجع ساتبق، ص ١٥٩- ١٥٧
٨- مرجع سابق، ص ١٥٩- ١٦١
٩- انهيار الليبرالية الجديدة، د. اروو، ترجمة علي السوداني، ص ٤٨
١٠- مرجع سابق، ص ٥١- ٥٢
١١- مرجع سابق، ص٥٣- ٥٤
١٢- مرجع سابق، ص٥٤
١٣- مرجع سابق، ص ٥٥-٥٦
١٤- الطريق إلى عولمة بديلة ديمقراطية، مجلة مقاومة الهيمنة الأمريكية، ص١٣٣،١٣٤
١٥- مرجع سابق، ص١٣٥- ١٣٦
١٦- مرجع سابق،ص١٣٦
١٧- مرجع سابق،ص ١٣٧
١٨- مرجع سابق، ١٣٨- ١٤٥
١٩- الامبراطورية الأمريكية، الجزء الاول، جون ستيل جوردن، ترجمة مجد الدين باكير، ص ٨
٢٠-الصنم وسقوط الامبراطورية الأمريكية، نيل فيرجسون،ص٤١
٢١- مجلة السياسة الدولية
٢٢- مرجع سابق
٢٣- مرجع سابق
٢٤-مرجع سابق
٢٥- مرجع سابق
٢٦- مرجع سابق، ص ١٨٩
٢٧- كارل ماركس، الرجل الذي رأى، منشورات حركة اليسار الاجتماعي الاردني، ص ٥٥
٢٨- مرجع سابق، ص ٥٧- ٥٨
٢٩- مرجع سابق، انظر من ص ٦٢- ٦٣
٣٠- مجلة المجلة، ص ٢٤- ٢٧ عدد ١٤٩٦ تاريخ ١٢- ١٨- ١٠- ٢٠٠٨
٣١- مجلة الوطن العربي، تاريخ ٢٢- ١١- ٢٠٠٨، ص ٤٦
٣٢- مرجع سابق، ص ٤٦
٣٣- مرجع سابق، ص ٤٧
٣٤- مرجع سابق، ص ٤٧
٣٥- مرجع سابق، ص ٤٨

٣٦ـ مجلة الوطن العربي، عدد تاريخ ٣ـ١٢ـ٢٠٠٨، ص٤٦٤٧
٣٧- مرجع سابق، ص ٤٦

الفصل الثالث. الباب الثالث

الأزمة الاقتصادية العالمية وتأثيرها على الأقتصاديات العربية

اشارت التقارير بان الاقتصاديات العربية تعرضت إلى آزمات وخسائر مالية بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية وخاصة اقتصاديات الدول النفطية، فقد شهدت منطقة الخليج خلال هذه الأزمة تدهورا كبيرا في اسواقها المالية بسبب انعكاسات الأزمة المالية العالمية على اسواقها وتوقع الخبراء والمحللون الاقتصاديون إن تتزايد نتيجة هذا التطهور وتيرة تأجيل الاكتتابات الاولية في اسواق المال الخليجية خلال الفترة المقبلة حيث تتزايد خلال الشهرين الماضيين قبل نهاية عام ٢٠٠٨ قرارات الشركات بتأجيل اكتتابات كانت تعتزم طرحها في اسواق المال سواء طروحات اولية اوعمليات زيادة رؤوس اموالها من خلال طرح اسهم جديدة خصوصا في المملكة العربية السعودية والكويت والامارات والبحرين وقطر"١".

من جهة أخرى كشفت مصادر في صندوق النقد الدولي بان خسائر الاقتصاديات العربية التي استثمرت اموالها في الصناديق الأمريكية تجاوز ٣٥٠ مليار دولار "٢"، ومن ناحية أخرى وكنتيجة للازمة الاقتصادية العالمية على الاقتصاديات العربية كشف سمو الامير الحسن رئيس منتدى الفكر العربي في مقابلة مع قناة الجزيرة على ضؤ الاحداث الدامية التي جرت في غزة حيث قال بالحرف الواحد " انه خلال عام ٢٠٢٥ فان عدد العاطلين عن العمل من الشباب العربي سيصل إلى ٥٥ مليون مواطن، ومن جهة أخرى فقد وجه رجل الاعمال " ليد نسي ويليامز" وهو من رجال الاعمال والاقتصاد الذين عملوا في شركات البترول الأمريكية واختلط بصفوة رجال الاعمال والاقتصاد وصناع القرار ومن هم المتحكمون من وراء الستار في امريكا نداء في مقابلة نشرت على شبكة الانترنت في شهر تموز عام ٢٠٠٨ وكان وقتها سعر برميل النفط وصل إلى ١٤٠ دولار للبرميل حيث قال" لقد علمت ممن يمسكون باقتصاديات العالم أنهم سوف يوصلون سعر برميل النفط إلى ٥٠ دولار خلال اشهر معدودة، وانه سيكون هناك انهيار كبير للاقتصاد الأمريكي، وحين سألت والكلام ل ويليمز لماذا تفعلون ذلك كان الجواب لكي نفلس العرب ونعيدهم للركوب على الجمال كما كانوا قبل مئة سنة" ٣"

كما واشارت المصادر إلى إن الملك عبدالله بن عبد العزيز ملك السعودية لمح إلى إن الأزمة الاقتصادية موجهة للعرب خاصة لأن دول الخليج لا تستطيع إن تسحب اموالها الموجودة في البنوك الغربية في الخارج بحجة انها قد تسبب في مزيد من الانهيار، وان الاستثمارات الخارجية لا تستطيع تصفيتها، كذلك لا ننسى إن النفط يباع مقابل النقد بالدولار، وامريكا الان ليس معها النقد الكافي لذلك كله على الديون وفي النهاية ممكن إن يشطبوا تلك الديون وتكون ضربت عصفورين بحجر واحدمن خلال مايلي : أولا ـ حصولها على النفط مجانا" تسول"، وثانيا هبوط اسعار النفط وضرب العرب.

هذا وبتاريخ ٢٦ـ ١٠ـ ٢٠٠٨ نقلت وكالة الانباء السعودية تصريحات منسوبة للعاهل السعودي الملك عبدالله بن عبد العزيز قوله " إن الأزمة الاقتصادية العالمية هي حرب خفية، ونحن هدف لها، واشارت الوكالة إلى إن العاهل السعودي لمح إلى إن الأزمة الاقتصادية تستهدف استنزاف ضحاياها، وحذر من ضياع النعمة "واليكم الكلمة كما نقلتها وكالة الانباء السعودية الرسمية كما يلي"الرياضـ حمل العاهل السعودي الملك عبدالله على الاطراف الدولية التي تقف وراء الأزمة المالية الاقتصادية العالمية ووصفها بانها حرب اقتصادية خفية"، وكان العاهل السعودي يلمح بذلك إلى إن هذه الحرب تحاول إن تستنزف القدرات المالية للدول التي تقع للدول التي تقع ضحيتها، وقال العاهل السعودي في كلمة خلال استقباله وزير الثقافة والإعلام السعودي " اياد بن مدني " والمسؤوليين في الوزارة عن قطاع الصحافة ورؤساء تحرير الصحف والمجلات السعودية " اعتقد إن العالم الان في حرب خفية، حرب اقتصادية، ولا بد إن تراعوا هذا الشيء ومصلحة الدين والوطن لا مصلحة اشخاص لأن الاقتصاد هو كل شيء"

من جهة أخرى وفي ذات السياق اشار الملك السعودي خلال استقباله وزراء المالية ومحافظي البنوك المركزية في دول مجلس التعاون الخليجي إلى إن الخليج يتابع مسيرته لكنه هدف، واضاف في كلمة نقلتها وكالة الانباء السعودية قائلا" إن بلادكم هدف لزعزعة هذه النعمة، لا بد وان نقدرها ونحترمها، ولا بد إن نراعيها، ولا بد إن نحافظ عليها بلا تهور وبلا وطنية مزعومة، وبلا ظهور غير نافع، نريد إن يضع الواحد إمام عيونه مخافة الله وشكره ومصلحة وطنه هذا الذي نريده .

هذا ويتفق خبراء الاقتصاد والمال إن السبب الرئيسي الذي ادى إلى اندلاع الأزمة هو إن العديد من المصارف الاميركية باعت سندات ديون قروض لعقارات وتأمين تقدر بمئات المليارات من الدولارات إلى مصارف في مختلف انحاء العالم قبل إن يتضح إن هذه السندات لا قيمة لها في الواقع وهو الأمر الذي سبب أزمة الرهائن العقارية، وهي ما عرض معظم مصارف العالم وخزائن الدول الوادة من اكبر عمليات التحايل في تاريخ الاقتصاد والمال .

من ناحية أخرى فقد زعم بعض المحللين الماليين والاقتصاديين في دول الخليج من إن الاقتصاديات الخليجية لم تتضرر الابشكل طفيف جراء الأزمة المالية العالمية وانخفضت الاسعار العالمية دون النصف حيث جاءت هذه التحليلات والتصريحات والتي اكتفت بالقول إن اقتصاديات دول الخليج تأثرت بشكل طفيف بالازمة المالية العالمية، وهناك من رفض هذه المقولة على اعتبار إن العولمة الاقتصادية باتت سمة عالمية، وان ثمة شراكة استثمارية بين المال الخليجي، حيث لم تعلن الشركات والمؤسسات المالية الخليجية خسارتها المؤكدة، ولم تفصح عن ذلك لاسباب عديدة لعل من اهمها قدرتها على تحمل هذه الخسائر، ولعدم اهتزاز الثقة بها، ولكن ثمة شيئا رئيسا لا بد من الاشارة اليه وهو إن هناك غيابا شبه تام للشفافية المالية، وعدم الافصاح عنها مما سبب في تضارب التحليلات وفي قصورها في المعرفة والتحليل المتقدم للازمات المالية المقبلة وكيفية التحوط منها وكذلك غياب المؤسسات البحثية والاستراتيجة العملاقة التي تقدم خدماتها الاستشرافية لهذه المؤسسات "٤".

وسبق إن اشرنا إلى إن مصادر صندوق النقد الدولي والبنك الدولي بان خسائر العرب في الأزمة المالية تجاوزت ٣٥٠ مليار دولار، لكن مصادر اشارت إلى إن خسائر العرب في الأزمة المالية اكثر من هذا الرقم بكثير جدا، ويستدل على هذا ما اشرنا اليه من كلام العاهل السعودي سابقا، والمصادر اشارت إلى إن الاموال التي تتعامل بها هذه المؤسسات ضخمة ووجود مؤسسات استشرافية مساءلة غاية في الاهمية وغيابها يؤكد إن القرار الاقتصادي ما زال يخضع في العديد من جوانبه لعوامل ذاتية وشخصية، وهو بذلك يسهم في تعزيز الهوة والازمة الاقتصادية بدلا من تلافيها وتجاوزها بحكمةومعرفة وتخطيط مسبق.

إن قيمة الخسائر العالمية لقطاعات الأسهم والعقارات منذ بداية الأزمة عام ٢٠٠٧ ولغاية الان بلغت ما يقارب ١٩ ترليون دولار كما إن خسائر المستثمرين الاجانب في البنوك الأمريكية كانت عالية جدا، فاليابان خسرت ٨٠٠ مليار دولار والصين ٤٠٠ مليار دولار، وخطة الانقاذ الأمريكية بلغت ٧٠٠ مليار دولار الذي وافقت عليه الحكومة الأمريكية على ضخه في الاسواق المالية لن يحل الاجزء بسيط من الأزمة المالية للمؤسسات والمصارف الأمريكية بينما يتطلب حل الأزمة للمصارف الوطنية في امريكا ما يقارب ١,٢ ترليون دولار .

والسؤال المطروح كيف يمكن اقناع المحللين الذين يعتبرون إن الأزمة الاقتنصادية العالمية لم تؤثر على الاقتصاديات العربية وخاصة الخليجية ؟، وبالرغم من إن الارقام التي اشرنا إليها فانه بحسب التقارير الاقتصادية العالمية فان الدول الخليجية ومؤسسات مالية خاصة وعامة تعد من اكبر المستثمرين في السوق المالية والعقاريةوانحصصا كثيرة تم شراؤها بهدف الاستثمار في صناديق سيادية ومؤسسات مالية مثل " سيتي جروب" و" ميريل لينش"، وبعد الأزمة الاخيرة هبطت الاسعار إلى الحضيض، ولكن لم تعلن المؤسسات الخليجية عن حجم الخسائر التي تكبدتها، وعندمحاصرة المسؤوليين بالسؤال تكون الاجابة فضفاضة، والخسائر تكون حسب اقوالهم طفيفة !!!.، وهنا يضطر الباحث لطرح السؤال اللاحق اية خسائر تلك التي يتحدث عنها المسؤولين بعد إن اهتز الاقتصاد الأمريكي وانخفضت الاسعار اكثر من النصف، واي خسائر طفيفة لا تتأثر بها الاستثمارات تجاوزت ١٠ بلايين دولار، وفي ظل هذه الخسائر الكبيرة مازالت امريكا تمني النفس ايضا باستجابة كريمة من لدن اقتصاديات ومؤسسات المنطقة لشراء ترليون دولار من اصول القروض العقارية الأمريكية التابعة لمؤسستي " فان ماي" و" فريدي ماك" التي تجاوزت المليارات الخمسة .

هذا وتشير التحليلات الاقتصادية انه إذا اضطرت المؤسسات المالية الخليجية إلى هذا النوع من المخاطرة الاستثمارية فان من حقنا السؤال ما الضمانات المقدمة لهذه المؤسسات حال قررت الاستثمار في هاتين المؤسستين ؟ وما احتمالات تآكل رأس المال خاصة إن ما جرى ليس سوى الانحدار الاولي عن القمة أي قمة جبل الجليد الذي تحدثنا عنه سابقا وقد ظهرت تداعياته وما زالت تستمر لغاية الآن .

إن الحديث عن الاطمئنان من نتائج الأزمة العالمية هو كمن يغط رأسه في الرمال، والادهى إن تصريحات رئيس مجلس ادارة الاحتياطي الفدرالي الأمريكي

السابق الذي يرى إن ماجرى من أزمة يحدث مرةكل قرن مؤكدا انه سيطيح لا محالة بمزيد من الشركات العملاقة، فيما جاءت تحذيرات المدير العام لصندوق النقد الدولي " دوميك ستراوس" من إن اسواء مراحل الأزمة المالية العالمية لم يأتي بعد، وان المزيد من المؤسسات المالية العالمية سيواجه متاعب في الشهور المقبلة فجذور الازمات تم تجاوزها، ولم يبق امامها إلا العواقب الوخيمة .

كيف نصدق تصريحات المسوؤليين العرب من إن الأقتصاديات العربية لم تتأثر إلا يحق لنا طرح ما طرحه " جون دفتريوسس " إن اهم ما سيخرج العالم بعد انتهاء الأزمة المالية هو ضرورة بدء السعي نحو وضع هيكل لبناء مالي جديد ويجب إن يكون للصناديق السيادية في الشرق اوسط دور جديد في هذه الخطط، ولكنه يضيف إن دول الخليج رغم اهميتها لا يمكن إن تحجزمقعدها في هذه المنظومة الجديدة، ولكن ما من احد بمقدور تجاوز وتجاهل ١,٥ ترليون دولار موجودة بين يديها كاستثمارات عالمية، وعليه كيف يمكن إن نسهم في حل أزمة العالم المالية ولا نكون مشاركين في القرار الاقتصادي العالمي خاصة إذا علمنا بان حجم الاستثمار الخليجي في الخارج وفقا لتقديرات عام ٢٠٠٧ تقدر بنحو ٥٤٠ مليار دولار تستحوذ امريكا على ٣٠٠ مليار واوروبا مئة مليار والشرق الأوسط وشمال افريقيا ٦٠مليار دولار وآسيا ٦٠ مليار دولار ودول أخرى ٢٢ مليار دولار .

ولو القينا نظرة إلى السياسات الاستثمارية العربية لوجدنا انها سياسات محافظة، ومع ذلك فهذا لا يعني عدم وجود أزمة، وام هذا سيفتح سجالا اعلاميا واقتصاديا لماذا العرب يضعون اموالهم في سلة واحدة خارجية ولماذا لا يحافظون على اموالهم في الاسواق العربية والاهم من ذلك يجب على العرب إن يعيدوا النظر في آليات القروض على إن لاتتجاوز مانسبته ٢٥% بالنسبة للمؤسسات والمصارف المالية وبضوابط جديدة .

لقد اسهمت امريكا في رفع سعر البرميل الواحد للنفط فاستفادت بشكل مضاعف من وراء المضاربات المالية في الاسواق وجنت ارباحا هائلة وزادت بذلك دخول الدول المصدرة للنفط، إن البترول مرتبط بالدولار، وانخفاض الدولار يسهم في تعزيز الصادرات الأمريكية للخارج، وبهذا يرتفع ميزان الاموال الواردة لأمريكا، ونرى كيف امريكا دعت المؤسسات المالية الخليجية للاستثمار فيها مجددا عقب الأزمة، والسؤال الذي يطرح نفسه مرة أخرى وهو ما اجاب عليه العاهل السعودي كما اشرنا سابقا هل ما حدث فعلا كان مخططا له منذ إحداث ١١ سبتمبر حتى الأزمة الحالية بدء من الرهن العقاري والحروب الخارجية وهل امريكا غبية بحيث لا تدرك مخاطر المضاربات وارتفاع اسعار العقارات والقروض وتصدم بما حدث، وبغض النظر عن كل هذه التحليلات سواء اتفقنا معها أو لم نتفق معها والنتيجة هي امامنا فنتائجها مدمرة للعالم الخارجي، ولكنها جددت حيوية امريكا ودورها الاقتصادي والسياسي واعادت الرأسمالية المتوحشة إلى الاضواء هل تصلح لقيادة النظام الاقتصادي العالمي ام انها الحلقة الاخيرة من حلقات مسلسل الرأسمالية المتطرفة والمتعفنة والطوفان الذي سيغرق الجميع به .

ما هو موقف دول الخليج من انجارات الأزمة الاقتصادية العالمية

وما هي الاجراءات التي اخذت ؟

ففي المملكة العربية السعودية توقع المحللون إن تتزايد الشركات التي ستتخذ قرارا بتأجيل اكتتاباتها بنسبة ٤٠% لتكون جاهزة للطرح مع استقرار المملكةوالمتوقع له عام ٢٠١٠، ويتوقع الخبراء إن يصل عدد الشركات السعودية التي ستؤجل طروحاتها ما بين ١٢٠ ـ ١٤٠ شركة في غضون الفترةالمقبلة بدلا من ٨٠ شركة يبلغ إجمالي رؤوس اموالها ٧٠ مليار ريال كتوقعات اولية، ويقول المحللون إن المستثمرين وصلوا لحالة نفسية سيئة بسبب خسارة اموالهم خاصة إن هذه الاموال اقترضها المستثمرون من البنوك وهم مطالبون الان بتسديد فوائدها مشيرين إلى إن عدد المستثمرين المدينين للبنوك يصل إلى خمسة ملايين شخص بقيمة اجمالية تصل إلى ٢٢٠ مليار ريال، وان المستثمرين يعيشون الان حالة من التعذيب النفسي وليس الاستياء النفسي، ويشير هولأ إلى إن تراجع احجام السيولة تعد ايضا احد الاسباب التي دفعت إلى ؤاحجام الشركات عن طروحاتها فاسعار الأسهم وصلت لمستويات متدنية جدا وجزء كبير من اموال المستثمرين يعيد سيولة حبيسة في اسهم هبطت اسعارها، ويلفت المحللون إلى إن الفشل يطارد اكتتابات قد يتم طرحها في السوق بنسبة لا تقل عن ٦٠ أو ٧٠ % مشيرين بذلك إلى إن بنوك الاستثمار لا تستطيع في ظل اوضاع السوق تحمل مخاطر عملية الطرح لانه في حال فشل الاكتتاب فانه تكون ملزمة بتحمل التكاليف "٥".

ومن جهة أخرى يرى محللون اقتصاديون إن الاقتصاد السعودي ربما يتأثر جزئيا بهذه الأزمة بسبب انفتاحه وارتباطه بالدولار ولا سيما إن السعودية دولة مصدرة للنفط المسعر بالدولار، ورالرغم من سطحية هذا التحليل فان تأثيرات الأزمة ستطال بعض الشركات المستثمرة في الأسهم العهالمية، ويؤكد ما نقول بان الاقتصاد السعودي تأثر تأثرا كبيرا بالازمة المالية العالمية فقد تداعى مجلس الشورى السعودي وطلب من اللجنة المالية لدراسة الموضوع والاستعانة باصحاب الخبرة، وان تقدم اللجنة رؤيتها باسرع وقت ممكن، وبناء عليه قامت اللجنة المالية باعداد

تقرير تضمن العديد من التوصيات التي اثيرت حولها بعض الملاحظات من اعضاء مجلس الشورى وهي :"٦"

أولا ـ المطالبة باعادة هيكلة القطاع المصرفي والنقدي من خلال إعادة النظر بالانظمة المالية وتحديثها بما يتواكب مع المستجدات الحالية والمستقبلية لا سيما ضرورة استقلالية النظام النقدي.

ثانيا ـ التوصية بوقف الاكتتابات المتتالية التي سحبت من المواطنين وفك ارتباط الريال بالدولار .

ثالثا ـ عدم قصر احتياطات الدولة الخارجية على عملة الدولار في دولة واحدة مع ضرورة التنويع بين العملات

رابعاـ ضمان قروض البنوك لبعضها البعض

خامسا - ايجاد صندوق للتوازن في سوق الأسهم لكي يكون الصانع الحقيقي للاسهم

سادسا ـ اصدار بيان يوضح إن الحكومة أو من يمثلها تضمن الودائع البنكية

سابعا - توضيح حجم اتلاموال السعودية المستثمرة في امريكا وغيرها وهل تأثرت تلك الاموال

ثامنا ـ التوصية باهمية الاستثمار

تاسعاـ تفعيل مبادئ الاقتصاد الإسلامي واصدار نظام مصرفي اسلامي

عاشراـ اصلاح النظام المالي الداخلي من خلال اصلاح الانحرافات الرئيسية لوقف الانهيار

الحادي عشر - مواصلة مشروعات التنمية وزيادة الإنفاق الحكومي على المشروعات التي تزيد الدخل الوطني

الثاني عشر ـ منع تسييل محافظ العملأ المدينين

الثالث عشر ـ السماح للشركات المساهمة بشراء اسهمها بنسبة معينة

الرابع عشر - دعوة الحكومة ومؤسسة التقاعد ومؤسسة التأمينات للاستثمار طويل المدى في سوق الأسهم حاليا

من خلال ماتقدم ذكره فان السؤال الذي يطرح نفسه بالرغم من إن المسؤولين يحاولون طمأنة المستثمرون بان الأزمة المالية العالمية لن تؤثر على اقتصاديات الدول العربية حيث انعكس انهيار مؤشرات البورصات العالمية سلبا على بورصات دول الخليج، وبعض الدول العربية حيث شهدت عمليات بيع ادت إلى انهيار معظم الأسهم القيادية في كل من قطر والسعودية والكويت والامارات ومصر، وانعكس ذلك على الاستثمارات العربية في الخارج، والتي تقدرها بعض المؤشرات بحدود نحو ثلاثة ترليون دولار حتى اصبح مايهمنا هو السؤال عن مقدار الخسائر التي سيتكبدها العرب في هذه الأزمة خاصة إن غالبية الثروة العربية باتت في دائرة الاستثمار الخارجي ؟

وبالرغم من عمليةاخفاء الحقائق بشأن الخسائر التي منيت به الاستثمارات العربية حتى الان بنحو ٤٠٠ مليار دولار في حين تتوقع مؤشرات اكثر تشاؤما إن تمنى الاقتصاديات العربية خاصة الخليجية بخسائر ضخمة قدرت بنحو ١,٤ ترليون دولار بعضها في شركات الرهن العقاري وبعضها في البنوك التي اعلن افلاسها وتم بيعها لبنوك أخرى، وسوف تكون الخسائر العربية في إطار ملكيتها لاسهم أو وجودحصص ملكية مباشرة في هذه البنوك "٧"

من جهة أخرى اعتبر الخبراء والمحللون الاقتصاديين عن خيبة املهم وقلقهم بشأن الاموال العربية المودعة في المصارف والمؤسسات المالية الغربية خاصة الاميركية، وكذلك الاستثمارات العربية سواء للافراد أو للصناديق السيادية العربية

أو شركات الاستثمار العربية في الغرب، واشاروا إلى إن ما يزيد من احتمالية وجود خسائر عربية من جراء هذه الأزمة التوجه الخليجي بامتلاك حصص كبيرة غي مؤسسات مالية وبنوك من اجل تنوع الاستثمارات بعيدا عن النفط والغازفضلا عن الخسائر الاستثمارية العربية المباشرة في قطاع العقارات في امريكا والغرب علما بان هذا القطاع يشهد ركودا كبيرا منذ ثلاث سنوات وهو ما يعني انخفاض قيمة تلك الاستثمارات وضياع الفائدة "٨"، كما واشارت بعض المصادر إلى انه يوجد مخاطر على مستقبل الصناديق السيادية والتي تمتلكها دول الخليج والتي تقدر استثماراتها بنح ٧٥٠ مليار دولار حيث منيت هذه الصناديق بخسائر كبيرة خلال عام ٢٠٠٧، ويقول الخبراء في هذا الصدد انه نظرا لارتفاع العوائد النفطية بمنطقة الخليج بعد عام ٢٠٠٣ فقد ارتفع معدل السيولة في دول المنطقة وكان القطاع العقاري واحد من القطاعات التي شهدت تدفقات استثمارية ضخمة سواء في بلدان الخليج أو في بلدان عربية مثل مصر ولبنان والمغرب مما اوجد نوعا من المضاربات على الأراضي والعقارات ما زالت تداعياتها وملامحها قائمة داخل بلدان المنطقة، وتشير بعض التقديرات إلى إن الاستثمارات العقارية في منطقة البخليج وحدها سوف تصل إلى ٤ ترليون دولار في عام ٢٠١٠ علما بان هذه الاستثمارات ستكون في قطاع الاسكان السياحي الفاخر، وفي ادنى مستوياته كان فيما يصنف على انه اسكان فوق المتوسط، وبذلك تم الترويج بشكل كبير لسوق التمويل العقارية لترويج هذه الوحدات السكنية، ويخشى الخبراء إن تمر التجربة العربية بنفس سمات وامراض التجربة الأمريكية الغربية حيث يتوقع هؤلاء إن يشهد قطاع العقارات في المنطقة العربية نوعا من الركود خلال المرحلة المقبلة تأثرا بالازمة الاقتصادية نظرا للارتباط مع الاقتصادياتالغربية وخاصة الأمريكية "٩"

هذا وقد شهدت اسواق المال الخليجية وبعض الدول العربية انخفاضات متوالية خلال نهاية عام ٢٠٠٨ تزامنت مع هبوط كبير شهدته البورصات العالمية وهو مالفت الانظار إلى حجم الاستثمارات والمحافظ الأجنبية في بورصات المنطقة، ومدى تأثيرها فضلا عن الابعاد والجوانب الأخرى التي يمكن إن تشكل عوامل ارتباط بين هذه البورصات، ويجمع العديد من الخبراء والمحللين الماليين في كل من السعوديةومصر والامارات، على وجود ارتباط مباشر أو غير مباشر بين الاسواق الخليجية والعربية والعالمية لكن المفارقة إن سوق السعودية للاسهم ما تزال مغلقة إمام الاستثمارات الأجنبية التي لم تسلم هي الأخرى من التأثر بالانخفاضات التي شهدتها وتشهدها البورصات العالمية فترتفع ةتنخفض تبعا لاصولها، إلا إن الخبراء يشيرون إلى وجود علاقة غير مباشرة مهمة بين السوق السعوديةوالبورصات الأجنبية تتمثل في وجود مكاتب العديد من الشركات العالمية في السعودية، إضافة إلى وجود شركات خليجية خاصة بورصات الامارات التي يطغى عليها المال الاجنبي فيما يرى كثير من الوسطاء والمحللين والمتداولين فيها واحد من اسباب الانخفاض الذي تشهده الاسواق هذه الايام، ويعتبر كثير من المراقبين والمحللين إن عمليات " Short selling" التي ينفذها الاجانب في بعض الاسواق المالية الخليجية احدعوامل تعزيز الخسارة التي تتكبدها الاسواق خاصة إن هذا النوع من المضاربة يتم بصورة غير قانونية ولا يعرف حجمه الحقيقي "١٠"

ويقول المحللون إن شركات الوساطة الأجنبية ومحافظها لديها خبرة كبيرة في " Short selling "بينما لا تستطيع شركات الوساطة الخليجيةمجاراتهم، فهم يربحون مع نزول السوق ويربحون مع ارتفاعها ايضا، ويشرح الخبراء ايضا تفاصيل" التي يقوم بها المضاربون الاجانب حيث يقولون أنهم يقومون باستئجار كميات كبيرة من الأسهم ليقوموا بالمضاربة بها بعد إن يكونوا قد ابرموا اتفاقا بشأنها مع مالك الأسهم ليقوموا بالمضاربة بها، بعد إن يكونوا قد ابرموا اتفاقا بشأنها مع وسيط مالي اومستثمر طويل الاجل، ويتفق الوسيط المالي مع مالك الأسهم على إن ياخذ حرية التصرف لفترة معينة مقابل منحه مبلغا ماليا مع احتفاظ المستثمر في كافة حقوقه في اسهمه بما فيها توزيعات الاباح إن تمت خلال فترة التأجير ويضطر المضاربون الحاصلون على حق الانتفاع بهذه الأسهم إلى بيعها وشرائها بصورة عاجلة وسريعة، من جهة أخرى اظهر مسح للشركات العاملة في الشرق اوسط إن امارة دبي في دولة الامارات العربية ستكون الاكثر تضررا في المنطقة منجراء تداعيات الأزمة المالية العالمية، وجاء في الدراسة التي اجرتها شركة " ناسيبا" لعمليات المسح إن حوالي ٧٨% من مسؤولي التمويل قالوا إن منطقة الخليج لن تشهد تأثيرا قويا لازمة الائتمان مقارنة مع باقي انحاء العالم، وستكون إمارة دبي الاكثر تضررا من جراء تباطؤ النمو الاقتصادي العالمي نظرا لأن صناعة السياحة في الامارة التي تزهو بامتلاك افخر الفنادق في العالم ستعاني بشدة نتيجة تقلص اعداد السياح، ومن ناحية أخرى اعلن عضو في المجلس الحاكم بامارة دبي إن الديون السيادية لدبي تبلغ ١٠ مليارات دولار بينما تبلغ ديون الشركات المرتبطة بحكومة الامارة ٧٠ مليار دولار، وان الحكومة قادرة على الوفاء بالتزاماتها

ومن جهة ثانية اعتبر اكبر المستثمرين وهو رئيس شركة اعمار العقارية محمد العبار إن دبي تعمل على ترشيد الإنفاق ودمج انشطة في مواجهة الأزمة العالمية واكد إن الحكومة قادرة على الوفاء بكل الالتزامات ومستعدة للتدخل بمساعدة الشركات التي تملك الحكومة حصصا فيها إذا اقتضى الامر مشيرا إلى إن امارة دبي لديها اصول مالية حكومية بقيمة ٩٠ مليار دولار واصول تخص الشركات التي تملك فيها الامارة حصصا تبلغ ٢٦٠ مليار دولار، هذا وقد اشارت تقارير صحافية إن حكومة الامارات ستضخ سيولة في بنك الامارات للتنمية الجديدة والذي سيستحوذه بدوره على شركتي الاقراض الإسلامي المتعثرتين املاكا وتمويلا"١١"

وفي دولة الكويت ذكرت صحيفة القبس الكويتية إن الهيئة العامة للاستثمار التي تدير اصول الدولة سحبت نحومليار دينار أي ٣,٦٦ مليار دولار في الخارج لتعزيز الاستثمار في الداخل، وقالت الصحيفة في تقرير لم تنسبه لمصدر إن الهيئة تعيد جزء ا من ارصدتها إلى الوطن في إطار سعيها لتكوين محفظة حكومية للاستثمار في البورصة المحلية التي تضررت من جراء الأزمة المالية

بعد.كل هذا العرض ما بين قائل إن الأزمة المالية العالمية لم تؤثرعلى اقتصاديات دول الخليج، ومن قائل انها تمكنت من إحداث خسائر كبيرة جدا، ولكن الحقيقة لا بد وان تظهر حيث نشرت قناة الجزيرة ومن ضمن اخبارها اليومية بتاريخ ١٧ـ ١ـ ٢٠٠٩ وعلى هامش مؤتمر القمة العربي الاقتصادي الذي عقد بالكويت قالت

القناة بناء على مصادر اقتصادية واخبارية كويتية إن خسائر الاقتصاديات العربية جراء الأزمة المالية العامية تجاوزت ٢,٥ ترليون دولار، وبذلك قطع هذا الخبر اقوال المتشائمين والمشككين بات الاقتصاديات العربية غرقت في تسونامي الأزمة المالية العالمية وان كل فاتورة النفط التي ازدادت قيمتها منذ ٢٠٠٣ وحتى الان ذهبت ادراج الرياح، هذه المعلومات التي نشرتها الجزيرة القطرية كشفها وزير الخارجية الكويتي قائلا إن الأزمة الاقتصادية والمالية كلفت الدول العربية النفطية ٢,٥ ترليون دولار خلال الاشهر الاربعة الماضية من عام ٢٠٠٨، وجاءت تصريحات الوزير محمد آل الصباح قبيل يومين من انعقاد مؤتمر القمة الاقتصادي العربي الذي تستضيفه الكويت لمناقشة مجازر غزة، ونقلت الاذاعة البريطانية "بي بي سي " عن الوزير الكويتي للصحفيين إن الدول الخليجية الغنية بالنفط قد اجلت أو الغت ٦٠% من المشاريع الانمكائية، ولم يعط الوزير أي تفاصيل اضافية عن الارقام التي كشف النقاب عنها، هذا واشارت مصادر إلى إن اكبر عامل للخسارة هو انخفاض قيمة الاستثمارات العربية في الخارج بقيمة ٤٠% والتي وصلت إلى ٢,٥ ترليون دولار حسب وكالة الصحافة الفرنسية، وقد ساهم بالخسارة العامة انخفاض اسعار النفط وازمة الاسواق المالية .

الأزمة المالية وتأثيرها على اقتصاديات الدول العربية الفقيرة

بعد إن تحدثنا عن الأزمة المالية وتأثيرها على الاقتصاديات العربية للدول الخليجية سوف نتحدث عن مدى تأثير الأزمة الاقتصادية على الدول الفقيرة واخترت الاردن من الدول الفقيرة والسبب في ذلك إن الاردن دولة غير نفطية حيث إن الاردن عانى بسبب ارتفاع اسعار النفط، والسؤال المطروح هل للازمة المالية العالمية ايجابيات على الاقتصاد الاردني ؟ وما هو موقف الحكومة الاردنية تجاه الأزمة الاقتصادية التي تعاني منها اصلا ؟ وهل ساهمت الأزمة في تفاقم الاقتصاد الاردني ام ساهمت في تخفيف الضغط على الشعب الاردني ؟

في هذه الدراسة سوف نعتمد على فهم تداعيات الأزمة الاقتصادية العالمية على الاردن من وجهتي نظر، الاولى وجهة النظر الحكومية والثانية مستقلة قام بها مرصد اقتصادي تابع لمركز الدراسات الاستراتيجية في الجامعة الاردنية وكذلك دائرة الموازنة التابع للمرصد البرلماني، هذا وقد اعتمد على رأي الحكومة من خلال الخطابات التي القاها رئيس الوزراء إمام البرلمان ودراسة المرصد الاردني حيث نشرت دراسته في صحيفة العرب اليوم بتاريخ ١٤ـ ١ـ ٢٠٠٩.

لقاء رئيس الوزراء باعضاء مجلس النواب الخامس عشر بتاريخ ٣ـ ١١ـ ٢٠٠٨لمناقشة تداعيات الأزمة الاقتصادية على الاقتصاد الاردني .

فقد تناول رئيس الوزراء نادر الذهبي المؤشرات الاقتصادية وتناول كذلك الجانب الايجابي ولم يتناول الجانب السلبي، ومن المسؤول عن تردي الاجراءات الاقتصادية منذ إن بداء مارثون الأزمة الاقتصادية في الاردن منذ عام ١٩٨٨، لقد حدد رئيس الوزراء الذهبي المراحل التي حكم عليها من مسيرة الاقتصاد الوطني،

وهي المرحلة الاخيرة من السنةالمالية لعام ٢٠٠٨ والتي اعتبرها حسب قوله ساهمت في تعزيز مسيرة النمو الاقتصادي الاردني من خلال المؤشرات التالية

١ـ تحسن معدلات النمو الاجمالي والناتج المحلي بالاسعار الثابته خلال النصف الاول من عام ٢٠٠٨ بما نسبته ٦%

٢ـ ارتفاع الصادرات الوطنية خلال الثماني شهور الاولى بحوالي ٣٥%

٣ـ انخفاض الرصيد القائم للدين الخارجي بحوالي ١,٧ مليار دينار ليشكل ما نسبته ٢٨% من الناتج المحلي الاجمالي، كما ونما الدخل السياحي خلال الثماني شهور الماضية من العام الماضي بحلول ٢٢%، كما وارتفعت حوالات الاردنيين العاملين في الخارج بنسبة ١١% وارتفعت احتياطات البنك المركزي من العملات الأجنبية لتصل إلى حوالي ٨ مليار دولار وانخفض معدل البطالة من ١٤% في نهاية ٢٠٠٦ ليبلغ ١٢% في شهر آب ٢٠٠٨ .

وقد كشف رئيس الوزراء الذهبي إلى إن هناك مجموعة من التحديات التي تواجه الاقتصاد الوطني والمتمثلة بعجز الموازنة العامة وعجز الحساب الجاري وارتفاع معدل التضخم وارتفاع معدلات الفقر والبطالة، وقال إن الأزمة المالية العالمية اليوم والتي يدعوها البعض بازمة الرهن العقاري هي كمن يضع اللحم الفاسد في الثلاجة الذي يحاول فقط اخفاء رائحته النتنة إلا إن هذه الرائحة لا بد وان تظهر وتزكم الانوف .

اسباب الأزمة المالية العالمية من وجهة نظر الحكومة الاردنية

شخصت الحكومة الاردنية اسباب الأزمة المالية العالمية وعلى المراحل التالية :

المرحلة الاولى ـ والتي بدأت منذ ما بعد إحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حيث بدأت اسعار الفائدة في امريكا بالانخفاض، حيث عمل البنك الفدرالي الأمريكي على ضخ سيولة كبيرة في السوق الامر الذي نتج عنه سهولة في الحصول على القروض بالاضافة إلى زيادة مدة السماح لتتراوح ما بين سنتين إلى ثلاث سنوات .

المرحلة الثانية : فقد ظهرت مع بداية عام ٢٠٠٥ حيث بداء البنك الفدرالي الاميركي باتباع سياسة نقدية اكثر تشددا لمحاربة التضخم مما ادى إلى رفع اسعار الفائدة، وبالتالي ارتفاع اقساط وكلف القروض، الامر الذي ساهم ببدء التعثر في سداد القروض وخاصة القروض العقارية، وادى إلى تآكل اموال البنوك وتوقف النشاط التمويلي بينهم واصبح النشاط المصرفي في خطر.

ثالثا ـ ظهرت نتيجة المخاوف من انهيار مالي عالمي جراء الأزمة الاقتصادية الأمريكية حيث طالت تداعيات أزمة الرهن العقاري الاميركية مختلف القطاعات الاقتصادية في امريكا واوروبا، وادت إلى خسائر مالية لا يمكن حصرها، وتكبدت خسائر ضخمة، واعلن افلاس وانهيار بعضها مما حدا بالعديد من حكومات الدول باتخاذ خطط انقاذ تضمنت ضخ ٧٥٠ مليار جنية استرليني مع التركيز على شراء

الديون الهالكة، كما وقامت الحكومة البريطانية بالاعلان عن خطة انقاذ تضمنت ضخ ٥٠ مليار جنية استرليني في البنوك الرئيسية وضمان الودائع ما بين البنوك، كما وقامت العديد من الدول الاوروبية بتبني الخطة البريطانية، كما وقررت الولايات المتحدة الأمريكية إن تساهم بضخ ٢٥٠ مليار دولار اضافية في بنوكها .

هذا وتعتبر الحكومة الاردنية إن سؤ التقديرات لمواجهة المخاطر في المعاملات المعقدة المرتبطة بالرهن العقاري كانت من اهم اسباب الخسارة الفادحة التي لحقت البنوك العالمية، وما يزال العالم يشهد حالة من عدم الاستقرار بسبب الاضطرابات التي يشهدها سوق الائتمان في العالم باكمله، ولم تقتصر الاضطرابات على سوق النقد والمال والبورصات فقط، ولكن كانت هناك اضطرابات وانهيارات في المؤسسات المالية مثل البنوك الاستثمارية وشركات التأمين ومؤسسات مالية كبيرة ذات سمعة عالمية، كل تلك الاضطرابات احدثت حالة من عدم التأكيد في المستقبل وانهيار الثقة في الاسواق المالية، واصبح الذعر وانهيار الثقة في الاسواق المالية هو العامل المشترك بين المستثمرين على مستوى العالم، وان اختلفت حدته من منطقة لاخرى .

المشهد الاقتصادي الدولي كما تراه الحكومة الاردنية خلال المرحلة القادمة :

اعتبرت حكومة الذهبي بان المشهد العالمي ستكون رؤيته غير واضحة والامر الوحيد الذي يبدو اكيدا هو بقاء عوامل عدم الاستقرار مهيمنة في الوقت الراهن على الاسواق العالمية حتى تتضح الصورة بشكل اكبر، فالاضطرابات المالية ستبقى سيدة الموقف خلال الاسابيع والشهور المقبلة، وهناك احتمال كبير إن تكون الدول الصناعية أو بعضها قد تدخل دورة الركود الاقتصادي، فقد شهد الاقتصاد العالمي بصفة عامة والاسواق المالية الدولية والاقليمية بصفة خاصة اضطرابات واختلالات لم يشهدها العالم منذ الكساد العالمي الكبير الذي حدث سنة ١٩٢٩، كما إن ضعف النمو العالمي هذا سينعكس على اسعار النفط والبتروكيماويات والسلع الاساسية وغيرها الامر الذي سيخفف من الضغوط التضخمية العالمية، ويسمح للسلطات النقدية لدول المنطقة بضخ السيولة اللازمة لضمان تحقيق معدلات نمو اقتصادية معقولة، ومن هنا يتوقع لمعدلات النمو الاقتصادية العالمية إن تبقى مستويات جيدة بالاسعار الثابته، ولكنها قد لا تصل إلى النسب المتحققة خلال الاعوام السابقة، وفي هذا الاطار فقد راجع صندوق النقد الدولي في نهاية آب ٢٠٠٨ توقعاته للنمو العالمي فخفضها إلى ٣,٩% لعام ٢٠٠٨ مقابل ٤,١% عام ٢٠٠٧ والى ٣,٩% لعام ٢٠٠٩ مقابل ٣,٩% لعام ٢٠٠٧، في نهاية هذا العرض الذي قدمته الحكومة الاردنية ما هو تأثير الأزمة على الاقتصاد الاردني ؟

اعتبرت الحكومة الاردنية إن الاعصار الذي ضرب الاسواق العالمية سيؤدي دون شك إلى إعادة النظر في كثير من الممارسات التي أصبحت تعتبر من ثوابت النظام الرأسمالي العالمي والنظرية الاقتصادية الليبرالية حيث يعتبر قيام الحكومة الأمريكية باستملاك أو تأميم مؤسسات مالية عملاقة انقلابا واضحا على فلسفة

اقتصاد السوق والتي كانت الولايات المتحدة الأمريكية تطالب دول العالم باتباعها، وبهذا الصدد ينبغي معرفة إن احد اسباب تفاقم الأزمة يتمثل في غياب الشفافية، وتأخر الافصاح عن الخسائر إلى إن تراكمت بهذا الحجم وتعاظم حجم كرة الثلج لبلوغها درجة الأزمة العالمية مما سيكون لهيئات الرقابة والاشراف دور كبير تلعبه مستقبلا لتصحيح التشوهات التي ظهرت على مسار الاقتصاد الحر، لكنه من الاهمية بمكان إلا تؤدي الأزمة الحالية إلى خنق الحرية الاقتصادية والتي دونها سيكون من الصعب اخذ المخاطر والاستثمار المباشر فالاقتصاد بحاجة إلى قطاع مصرفي ومالي قوي يحقق ارباحا ويوفر التمويل المطلوب باسعار تنافسية فالحرية الاقتصادية والرقابة يكملان بعضهما البعض فاليد الخفية للسوق ل بد إن تضبطها يد ظاهرة لهيئات الرقابة الحكومية .

وكشف رئيس الوزراء الذهبي بان الدول العربية ليست بعيدة عن الأزمة المالية للأن المؤسسات الماليةفي البلدان العربية هي جزء من النظام المالي العالمي حيث ستكون تداعيات العاصفة المالية عالمية، وتتفاوت درجة تأثر كل دولة بحسب درجة الانفتاح الاقتصادي والمالي على العالم الخارجي، ومن هنا فان الحديث عن تداعيات الأزمة العالمية على الاقتصاد الاردني ينحصرمن خلال ما يلي :

١ـ يتوقع على المدى القصير إن يستمر تراجع النفط وانخفاض اسعار المواد الغذائية الاساسية، وقد اثبتت الايام إن اخفضت اسعار المواد الغذائية وخاصة الحبوب، كما وانخفضت اسعار النفط إلى ارقام لم تكن متوقعة، وتشير الارقام إلى إن اسعار القمح انخفضت من ٥٥٠ دولار للطن إلى ١٨٠ دولار للطن، وانخفض اسعار الحديد من ٩٠٠ دولار للطن إلى ٣٥٠ دولار للطن، كما وانخفضت اسعار الشاي والسكر والارز وغيرها من السلع الاساسية بنسبة ٢٥% بالاضافة إلى انخفاض سعر صرف اليورو إمام الدولار حيث إن ٢٥ % من المستوردات الاردنية منشاءها اوروبي مما سينعكس ايجابيا على معدلات التضخم، وبالتالي على مستوى معيشة المواطنين، وعليه فمن المتوقع إن تشهد فاتورة المستوردات انخفاضا مما سيعمل على تحسين العجزفي الميزان التجاري، والاهم من ذلك إن فاتورة النفط كانت تشكل ١٨% من إجمالي قيمة مستوردات المملكة .

ومن جهة أخرى فقد اعتبرت الاوساط الاقتصادية على المدى المتوسط فان اهم ما يقلق صانع القرار هو التخوف مما يمكن إن تؤول اليه الازمات المالية العالمية من تعرض اقتصاديات العديد من دول العالم وخاصة دول العالم المتقدم إلى كساد وتباطؤ اقتصادي مما يؤثر سلبا على الاقتصاد الاردني من خلال التأثير على العديد من القطاعات الاقتصادية الحيوية كالصادرات الوطنية والسياحية وحولات الاردنيين العاملين في الخارج، وبالتالي التأثير سلبا على النمو الاقتصادي بالمملكة وعجزالحساب الجاري لميزان المدفوعات فالصادرات الوطنية من الملابس وخاصة إلى اسواق الولايات المتحدة تمثل حوالي ١٨% من إجمالي الصادرات الوطنية خلال الثمانية شهور الاولى من عام ٢٠٠٨ في حين انها شكلت ما نسبته في عام ٢٠٠٧ ٢٧%، وبذلك تراجعت صادرات المملكة من الملابس بحوالي ١٤% خلال الثماني الاشهر الاولى من عام ٢٠٠٨ بالمقارنة مع نفس الفترة من عام ٢٠٠٧، اما الدخل السياحي فشكل ١٤% من الناتج المحلي الاجمالي في عام ٢٠٠٧ وحوالي

١٦٣٩ مليون دينار، وحوالي ١٤٠٩ مليون دينار خلال الثمانية اشهر من ٢٠٠٨، اما حوالات الاردنيين فهي ترتبط بشكل كبير بالتقلبات السياسية والاقتصادية في المنطقة، وهناك تخوف من انخفاض هذه الحوالات في ظل انخفاض اسعار النفط حيث إن الغالبية العظمى من الاردنيين يعملون في دول الخليج، وهناك من يقول إن الاقتصاد الاردني سيتأثر بشكل سالب خاصة من انخفاض حجم المنح الأجنبية سواء من الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة بسبب الأزمة المالية العالمية من ناحية وبسبب اسعار النفط من الدول الخليجية المنتجة للنفط .

٢ـ اعتبرت الاوساط الحكومية إن قطاع المصارف المالية والبنوك هو بمنأى عن الأزمة المالية التي تعصف بالعديد من البنوك في العالم وذلك ما تمتلكه البنوك المحلية الاردنية من خبرات وتجارب، إضافة إلى التزاماتها بقانون وتعليمات البنك المركزي، وسياسة البنوك الحكيمة في مراقبة نفسها واتباع افضل المعايير المالية والمحاسبية دوليا كما إن الجهاز المصرفي في المملكة لا يعاني من أي نقص في السيولة حيث تبلغ السيولة الفائضة لدى البنوك ٦٠٠ مليون دينار، هذا بالاضافة إلى شهادات ايداع واذونات وسندات خزينة بما قيمته خمسة مليار دينار، كما انه لا توجد هناك أزمة تسهيلات في المملكة حيث بقيت معدلات تعثر سداد القروض عند المعدلات الطبيعية بحوالي ٤%، كما شهد الرصيد القائم للتسهيلات الائتمانية المباشرة الممنوحة من قبل البنوك المرخصة ارتفاعا نسبته ١٧,٤% خلال الثماني شهور من عام ٢٠٠٨ مقارنة بمستواها في نهاية عام ٢٠٠٧، ولا يوجد مشكلة في الاقتراض ما بين البنوك العاملة في المملكة، كما إن البنك المركزي يملك الادوات النقدية كسعر الفائدة ومعدل الاحتياطي الالزامي للتحكم بالسيولة ضمن المستويات المقبولة والحد من التضخم والتي تساعد الاقتصاد الوطني على النمو .

وفيما يتعلق بنشاط بورصة عمان فقد بلغ حجم التداول في بورصة عمان حوالي ١٩ مليار منذ بداية ٢٠٠٨ وحتى نهاية العام نفسه مع ١٠,٣ مليار دينار خلال نفس الفترة من العام السابق أي بارتفاع نسبته ٨٥%، وشهد الرقم القياسي لاسعار الأسهم منذ بداية عام ٢٠٠٨ وحتى تشرين اول من هذا العام انخفاضا نسبته ١٤%، كما تبلغ القيمة السوقية حوالي ٢٨ مليار دينار بانخفاض ما نسبته ٤% عن قيمتها في نهاية ٢٠٠٧، كما وتبلغ ملكية غير الادنيين في الأسهم حوالي ٥٠%، وبهذا الصدد يقول رئيس الوزراء نادر الذهبي إن السوق المالي في أي دولة هو مرآة لما يحدث في العالم والاسواق المالية شهدت تراجعا حادا خلال الفترة الماضية، وهنا يشير إلى إن التراجع الذي تشهده بورصة عمان يعتبر الاقل بين البورصات العربية والعالمية فعلى سبيل المثال وليس الحصر تراجع السوق السعودي منذ بداية عام ٢٠٠٨ وحتى تاريخه ٤٥% والسوق الكويتي بنسبة ٢٠% والسوق المصري بنسبة ٥٤% والامريكي بنسبة ٤٠%، بينما انخفض سوق عمان المالي منذ بداية العام ولتاريخه بنسبة ١١% وهي اقل نسبة انخفاض في الاسواق المالية والعالمية، واشار كذلك إلى إن انخفاض اسعار الأسهم في بورصة عمان مبالغ فيها للغاية نتيجة للضروف الخارجية، ولا علاقة لها باداء الشركات وارباحها، ومن هنا فان لا استغرب والكلام لرئيس الوزراء التراجع الذي حدث في الصين واليابان والذي تجاوز ٣٠% رغم إن تلك الدول هي دول ذات فوائض مالية كبيرة ولم تصل عدوى الاسواق المالية

العالمية إلى قطاعاتها الحقيقية، واكد إن إن السوق المالي الاردني قوي ويتمتع بالشفافية وسرعة الاعلان .

ماهي الاجراءات التي لجاءت إليها الحكومة الاردنية للتخفيف من آثار الأزمة المالية العالمية ؟

لقد اتخذت الحكومة الاردنية جملة من القرارات وعلى رأسها تشكيل لجنة عليا لدراسة آثار الأزمة المالية العالمية على الاقتصاد الاردني برئاسة رئيس الوزراء وعضوية كل من وزراء التخطيط والتعاون الدولي والعمل والمالية والصناعة والتجارة والاشغال العامة والاسكان ومحافظ البنك المركزي ورئيسهيئة الاوراق المالية ورئيس جمعية البنوك ومدير عام مؤسسة ضمان الودائع .

ويلاحظ إن هذه اللجنة انها تضم معظم الليبراليين الجدد، ومن ناحية أخرى فقد تم تشكيل فريق فني يضم البنك المركزي ووزارة المالية ووزارة الصناعة والتجارة ووزارة العمل ودائرة الاحصاءات العامة وبورصة عمان للبدء بانشاء قاعدة معلومات متاحة لجميع المؤسسات المعنية لمتابعة الأزمة المالية لا تخاذ القرارات المناسبة في الوقت المناسب، وقد اجتمعت الحكومة بالبنوك المحلية في اتلبنك المركزي بتاريخ ٢٣ـ ١٠ـ ٢٠٠٨، وبعد الاطلاع على الوضع المالي السليم والمطمئن الذي يتمتع به الجهاز المصرفي الاردني قامت الحكومة بضمان جميع الودائع للمواطنيين لدى البنوك العاملة وبدون سقف حتى نهاية ٢٠٠٩، وتم توجيه البنك المركزي بعدم اصدار شهدات ايداع خلال المرحلة القادمة لضمان توفير سيولة بشكل كافي، ودراسة امكانية تخفيض معدل الاحتياطي الالزامي، ومن هنا فان الحكومة الاردنية في المرحلة القادمة ستتخذ جملة من الاجراءات التنفيذية التالية "١٥":

أولاـ جذب الاستثمار الاجنبي : ستسعى الحكومة إلى جذب الاستثمار الاجنبي وخاصة الخليجية والاهتمام الأكبر من خلال تسهيل الاجراءات وتقديم الحوافز والاعفاءات الضريبية اللازمة لتشجيع المستثمرين للقدوم إلى الاردن، والاستثمار في القطاعات الواعدة .

ثانيا ـ ترسيخ اركان الاستقرار المالي والنقدي من خلال تطبيق سياسات مالية ونقدية متوازنة تراعي الحد من الضغوطات التضخمية، وتكفل توفير السيولة المناسبة لتعزيز حركة النشاط الاقتصادي إضافة إلى العمل على ترشيد الإنفاق والاستهلاك بما يحقق قيمة المستوردات التي أصبحت تشكل عبئا كبيرا على الحساب الجاري .

ثالثا ـ الامن الغذائي : الاهتمام بالقطاع الزراعي من خلال تحسين انتاجيته ليتمكن هذا القطاع من القيام بدوره في المرحلة القادمة، كما ستعمل الحكومة على

توفير البنية التحتية اللازمة لزيادة مخزون المملكة من السلع والمواد الاساسية وذلك من اجل الحد من مخاطر تقلبات الاسعار العالمية .

رابعاـ امن الطاقة : إن الحكومة ستلجاء إلى التحوط من ارتفاع اسعار النفط مرة أخرى في الاسواق العالمية من خلال زيادة الاعتماد على الذات فان الحكومة ستعمل على الاسراع في تنفيذ مشاريع استرتيجية كبرى في مجال توفير الطاقة المتجددة والبديلة وخاصة استخدام الطاقة النووية للاغراض السلمية واستغلال اليورانيوم ومشاريع استغلال طاقة الرياح والصخر الزيتي، وتنفيذ هذه الحزم سيساعد على توفير مبالغ كبيرة على الموازنة العامة وسيخفض فاتورة مستوردتنا من المشتقات النفطية .

خامسا ـ تنويع الصادرات : أي العمل على زيادة تنويع الصادرات من خلال تقديم الحوافز اللازمة للنهوض بصادرات الاردن، وكذلك العمل على تقديم كل مساعدة ممكنة للصادرات الاردنية الرئيسية مثل الفوسفات والبوتاس والادوية والاسمدة والخضروات والفواكه "١٢".

والسؤال المطروح هل كلما جاء على لسان الحكومة الاردنية من خلال العرض السابق إن الاردن والمؤسسات المالية لم تتأثر بشكل كبير حيث اظهرت دراسة مسحية دولية بان الاردن ستأثر جراء الأزمة المالية العالمية حيث إن هذا المسح اشار إلى إن الشركات العاملة في منطقة الشرق الأوسط في كل من الاردن ودبي بدولة الامارات العربية المتحدة ومصر ستكون الاشد تضررا من جراء تداعيات الأزمة المالية من خلال إن الشركات الاستثمارية المدرجة في بورصة الاردن بوطأة الأزمة "١٣"، ماريد قوله إن أزمة البورصات التي ساتحدث عنها لاحقا هي من نتاج سلوكيات الليبرالية الجديدة الاردنية، وهذه السياسات الاقتصادية ساهمت في خلق بيئة اجتماعيةواقتصادية متوحشة، وان دلت فانما تدل على التوحش الرأسمالي الذي اوصل الشعب الاردني إلى ماهو عليه.

دراسة المرصد الاقتصادي حول اثر الأزمة الاقتصادية العالمية على الاقتصاد الاردني

اعتبرت الدراسة إن الاقتصاد الاردني هو من الاقتصاديات الدول العربية النامية صغيرة الحجم اقتصاديا، وبالتالي فان مدى تأثرها سيعتمد ايضا على العوامل التالية وهي الانفتاح التجاري ودرجة التورط المالي ودرجة الاعتماد على المساعدات الخارجية وحجم المديونية وسياسة سعر الصرف الاجنبي ودرجة التنوع الاقتصادي والاستثماري والعوامل النفسية ومدى انتشار حالات الفشل السوقي والمشاكل الاقتصادية الكلية "١٤"،ولا يمكن معرفة حساب آلاثار الكمية الدقيقة على الاقتصاد الاردني ما لم تتوفر معلومات وتفصيلات وبيانات دقيقة عن كل هذه العوامل، ولكن هناك جملة من المؤشرات العامة التي يمكن الاعتماد عليها تمكننا للخروج

باستنتاجات للوصول إلى آلاثار المترتبة على الأزمة المالية، وتنحصر هذه الاستنتاجات بالمحاور التالية :

المحور الاول : إن الاقتصاد الاردني ينتمي إلى الاقتصاديات الرأسمالية الليبرالية المتحررة مما يعني تأثره بالازمة الماليةالعالمية بشكل عام، إضافة إلى إن الاردن يتمتع بدرجةجيدة من التنوع الانتاجي والاستثماري مما يحد على من آلاثار السلبية للازمة، اما على الصعيد الاقطاعي فان قطاعي العقارات والمال مرشحان بان تعاني بشكل اكبر نسبيا خلال المرحلة السابقة، إضافة إلى ذلكفان قطاع السياحة يمكن إن يتعرض للانكماش بسبب الركود العالمي المتوقع في الطلب على خدمة السياحة .

المحور الثاني : النظام المصرفي الاردني هومن بين الأنظمة المصرفية الاردنية الاكثر تنظيما والاكثر تحفظا في مجال الاقراض والاستثمار مقارنة بمثيلاتها بالمنطقة الامر الذي سيحد من آلاثار السلبية لازمة الرهن العقاري، والاهم من ذلك فان اداء الجهازالمصرفي مطمئن فنسبةكفاية رأسماله الفعلي تصل إلى ١٨%، وهي بذلك اعلى بكثير من المعايير الدولية والبالغة ٨% وفقا لاتفاق بازل .

المحور الثالث : يعتبر السوق الاردني من اكثر الاسواق في المنطقةخبرة وتنظيما، لكن نظرا لانفتاحه المتزايد على الاستثمارات العربية والاجنبية بحيث أصبحت تشكل اكثر من ٦٠% من إجمالي استثماراته فان ذلك يجعله منكشفا وعرضة للانكماش في حال بقاء هولأ المستثمرين على البيع بكثافة إلا إن الاثر النهائي لا يمكن التنبؤ به بشكل دقيق لاعتماده على عوامل نفسية وتوقعات ديناميكية لا تخضع لمبداء الرشد .

المحور الرابع : يمكن إن تتفاعل الضغوط الانكماشية المنتظرة مع المشاكل الكلية الأخرى التي يواجهها الاقتصادكالبطالة والعجزالتجاري وعجزالموازنةوالمديونيةمما يحمل في ثناياه عوامل خطورةتستدعي الحذر والرعايةمن قبل صانعي القرارات والسياسات .

المحور الخامس : يمكن إن يؤدي التراجع في الطلب العالمي الناتج عن الأزمة المالية إلى تراجع في اسعار بعض اسعار بعض السلع الاساسية كالبترول والاغذية وبعض المعادن الامر الذي سيساعد في كبح الضغوط التضخمية المحلية ويخفض من فاتورة الاستيراد .

المحور السادس : ستتغير قيمة الدينار بشكل مواز لتغيرات الدولار في الاسواق الدولية كذلك فان ممتلكات الاردن من الاصول والعملات والاحتياطات المقيمةبالدولار ستتأثرتبعا لتحركات الدولار، من ناحية أخرى وكما سبقت الاشارة اليه يمكن إن تحدسياسة تثبيت سعر الصرف الاجنبي من قدرة السياسة النقدية الاردنية في مواجهة الأزمة الاقتصادية .

المحور السابع : نظرا لأن الاردن من الدول عالية المديونية فيمكن إن تؤدي هذه الأزمة إلى اثرين ايجابي وسلبي اولهما ايجابي يتعلق بانخفاض خدمة المديونية

لتراجع اسعار الفائدة، وثانيهما سلبي ناتج عن زيادة الصعوبات المستقلةفيما يتعلق ببيع الدين أو إعادة جدولتها .

المحور الثامن : قد يعاني الاردن بشكل محدود كونه دولة مستقبلة للمساعدات الدولية، وذلك نظرا لامكنيات قطع اوتقليضص المساعدات الدولية إذا ما انشغلت الدول المانحة والمؤسسات الدولية في علاج ازمتها الداخليةو ومن ناحية أخرى ونظرا لكون معظم التحويلات المالية للاردن قادمة من منطقة الخليج بنسبة ٧٥% من إجمالي التحويلات، ونظرا لتأثرالاخيرة سلبا بالازمة المالية وانخفاض اسعار النفط يتوقع إن تتراجع هذه التحويلات المالية للاردن .

المحور التاسع : يتوقع إن يؤدي الانكماش الاقتصادي العالمي وشح الائتمان إلى تراجع الطلب الاستثماري والاستهلاكي المحلي وركود في سوق العقارات، غير إن حجم هذا الأثر سيتوقف على سياسة اسعار الفوائد، وعما إذا سمح لها بالتعادل " الانخفاض مع اسعار الفوائد العالمية وبالذلت بنسب تجاري مثيلاتها في السوق الأمريكية.

المحور العاشر : ستعمل الأزمة على تعزيز الدور الحكومي في مجالات الاشراف والرقابة والتنظيم والتشريع والسياسات في مختلف انواع النشاطات الاقتصادية والتجارية، وبالطبع فان هذا التحليل اولي وتعتمد درجة صحته على مدى دقة المعايير والافتراضات التي يقوم عليها، ومن ناحية أخرى يمكن للحكومة إن تحد من آلاثار السلبية المتوقعة من خلال مجموعة من الاجراءات والسياسات الممكنة التالية :

١- زيادة درجة الشفافية وتوفير البيانات والمعلومات حول المعطيات الاقتصادية المالية بشكل منتظم .

٢- تبني حزمة من الاجراءات مصممة لتعزيز الثقة بالنظام المالي والمصرفي والحد من المضربات السلبية كتعاملها بضمان الودائع المحلية أو الالتزام بعدم السماح بحالات الانهيار وتقديم التسهيلات الائتمانيةالسهلة للمؤسسات المتعثرة .

٣ـ زيادة حجم ودرجةالتنسيق والتعاون على المستوى العربي للوصول إلى سياسات واجراءات موحدة لمواجهة توابع هذه الأزمة على الدول العربية كافة حيث إن الجهود المنفردة لا تستطيع مواجهة الأزمة ذات الطبيعة العالمية .

٤- ادخال الأنظمة الرقابية الصارمة والتشريعات اللازمة لتنظيم كافة النشاطات الاقتصادية خاصة المالية منها المتعلقة بالادوات والمشتقات المالية الحديثة، ويشمل ذلك تشجيع المؤسسات المصرفية والمالية على تطوير انظمتها المحاسبية والرقابية وزيادة درجة الشفافية .

٥ـ استخدام ادوات السياسة النقدية والماليةبشكل منسجم للحد من الضغوطالانكماشية، ومن دون الافراط لتجنب الضغوط التضخمية خاصة في ضؤ الارتفاع الحالي في الاسعار .

ثالثا - دراسة اعدها مكتب الموازنة البرلماني حول تأثير الأزمة المالية على الاقتصاد الاردني :فقد تناولت الدراسة ابرز القطاعات للاقتصاد الاردني خلال الربع الاول من عام ٢٠٠٩، وقد اعتمدت الدراسة على احصائيات رسمية صادرة عن دائرة الاحصاءات العامة، حيث تناولت الدراسة ابرز قطاعات الاقتصاد الاردني وهي القطاعات الحقيقية والتي تشمل الناتج المحلي الاجمالي، والمستوى العام للاسعار، ومعدل البطالة، والشركات المسجلة حسب النشاط الاقتصادي ونشاط بورصة عمان .

المحور الثاني والمتمثل في القطاع الخارجي حيث تناولت الدراسة هذا المحور الذي اشتمل على ابرز القطاعات التالية وهي إجمالي الصادرات والواردات والعجز التجاري، وصادرات المناطق الصناعية المؤهلة، والحساب الجاري في ميزان المدفوعات، والاستثمار الاجنبي المباشر ونشاط ميناء العقبة .

المحور الثالث : الذي اشتمل على المالية العامة حيث تناولت الدراسة المالية العامة والمساعدات الخارجية واجمالي الايرادات والمساعدات، واجمالي الإنفاق والعجز المالي واجمالي الدين .

المحور الرابع : البنوك والنقود وقد اشتمل هذا المحور على السيولة المحلية والودائع لدى البنوك والتسهيلات الائتمانية واسعار الفائدة والشيكات المرتجعة .

هذا وقد خرجت الدراسةبالايجابيات والسلبيات على الاقتصاد الاردني نجملها فيما يلي :

آلاثار الايجابية :

١- انخفاض معدل التضخم إلى نسبة لم تتجاوز ٠،٥% خلال النصف الاول من عام ٢٠٠٩ مقابل ١٢,٣ % عام ٢٠٠٨، الامر الذي انعكس ايجابيا على انخفاض تكاليف المعيشة على المواطنين، ومن الجدير بالذكر إن هذا الانخفاض يعتبر ايجابي على المدى القصير، ولكنه سلبي على المدى المتوسط والبعيد، لأن ذلك يعكس انخفاض حجم الطلب المحلي واتلذي ينبئ باحتمال حدوث ركوداقتصادي إذا ما أيد ذلك بيانات الربع الثاني من عام ٢٠٠٩، هذا إضافة إلى ارتفاع معدلات البطالة .

٢- انخفاض العجزفي الميزان التجاري بما نسبته ٣٢,٢% خلال الشهور الخمسة من عام ٢٠٠٩ مقابل زيادة في عجز الميزان التجاري بما نسبته ٣٢,١% خلال فترة المقارنةنفسها من عام ٢٠٠٨ .

٣- انخفاض قيمة مستوردات المملكة من النفط الخام بما نسبته ٦٤,٧% خلال الشهور الخمسة من عام ٢٠٠٩ نتيجة انخفاض اسعار النفط في الاسواق العالمية اذ انخفضت اسعار النفط بما نسبته ٧٦% حيث انخفض سعر برميل النفط من ١٤٠دولار للبرميل الواحد إلى ٣٣دولارللبرميل .

٤- انخفاض عجزالحساب الجاري بما قيمته ٥٥١,٨ مليون دينار اوما نسبته ٧٣,٣% خلال الربع الاول من عام ٢٠٠٩ نتيجة تراجع عجزالميزانالتجاري وتسجيل فائض في حساب الخدمات وحساب الدخل .

٥- ارتفاع احتياطي البنك المركزي من العملات الأجنبية في نهاية شهر حزيران من عام ٢٠٠٩ بحوالي ١٤٤٢,٥مليون دولار أو ما نسبته ١٨,٦%ليبلغ حوالي ٩١٨٦,٦مليون دينار "١٤".

الاثار السلبية للازمة المالية على الاقتصاد الاردني، وقد اشتملت هذه الاثار على النحو التالي "١٥"

١ـ تباطؤ معدل النمو النحلي الحقيقي " النمو الاقتصادي " ليبلغ خلال الربع الاول من عام ٢٠٠٩ ما نسبته ٣,٢% مقابل ما نسبته ٨,٦% خلال فترة المقارنة ذاتها من عام ٢٠٠٨ أي بانخفاض مقداره ٥,٤ نقطة مئوية .

٢- ارتفاع معدل البطالة خلال البع الثاني من عام ٢٠٠٩ ليبلغ ما نسبته ١٣% مقارنة بما نسبته ١٢,٥% و١٠,٨ خلال الربع الثاني من عامي ٢٠٠٨ و٢٠٠٧ على التوالي .

٣- انخفاض عدد الشركات المسجلة لدى وزارة الصناعة والتجارة خلال النصف الاول من عام ٢٠٠٩ بحواي ٦٧٤ شركةاو بما نسبته ١٤% مقارنةبالنصف الاول من عام ٢٠٠٨ .

٤ـ انخفاض رؤوس اموال الشركات المسجلة لدى وزارة الصناعة والتجارة خلال النصف الاول من عام ٢٠٠٩ بحواي ١٥٥,٢مليون دينار أو ما نسبته ٣٩,٩% مقارنة بالنصف الاول من العام الماضي .

٦- انخفض الرقم القياسي لاسعار الأسهم المرجحة بالقيمة السوقية للاسهم الحره خلال النصف الاول من عام ٢٠٠٩ ما نسبته ٤٢,٧% مقارنة بالفترة المماثلة من عام ٢٠٠٨ .

٧- انخفاض القيمة الاضافيةالسوقيةللاسهم المتداولةفي بورصة عمان إلى الناتج المحلي الاجمالي في شهر حزيران من عام ٢٠٠٩ لتبلغ حوالي ١٧١,٥% مقابل ٢٢٦,٣% في نهاية عام ٢٠٠٨ .

٨- انخفاض صادرات المناطق الصناعية المؤهلة خلال النصف الاول من عام ٢٠٠٩ بحوالي ٧٠ مليون دولار أو بما نسبته ١٦,٤% مقارنة مع نفس الفترة المماثلة من عام ٢٠٠٨ .

٩ـ انخفاض الاستثمار الاجنبي المباشر في الاردن خلال الربع الاول من عام ٢٠٠٩ بحوالي ٤٩٧,٧ مليون دينار أو ما نسبته ٧٦,٣% مقارنة بنفس الفترة من عام ٢٠٠٨ ليبلغ حوالي ١٥٥ مليون دينار .

١٠ـ انخفاض حوالات العاملين في الخارج خلال الربع الاول من عام ٢٠٠٩ بحواي ٩,٤مليون دينار أو ما نسبته ١,٨% مقارنة بنفس الفترة من العام الماضي لتبلغ ٥٠٨,٩مليون دينار .

١١ـ انخفاض عدد البواخر القادمة إلى ميناء العقبة خلال الشهور الخمسة الاولى من عام ٢٠٠٩ بحوالي ١١٧ باخرة أو بما نسبته ١٠,٥% مقارنة من العام الماضي .

١٢ـ انخفاض مجموع البضائع المصدره والوارده عبر ميناء العقبة خلال الشهورالخمسة الاولى من عام ٢٠٠٩ بحوالي ١١٤٤,٢ألف طن أو ما نسبته ١٦,٨% مقارنة بنفس الفترة من عام ٢٠٠٨ .

١٣ـ انخفاض المساعدات الخارجية خلال النصف الاول من عام ٢٠٠٩ بحوالي ١٦٣,٩مليون دينار أو ما نسبته ٦٣,١% مقارنة بما تحقق خلال نفس الفترة من عام ٢٠٠٨ .

١٤ـ ارتفاع العجزالمالي بعد المساعدات خلال النصف الاول من عام ٢٠٠٩ ليبلغ ٥٣٠,١ مليون دينار مقابل عجز بحوالي ٣٨,٤ مليون دينار خلال نفس الفترة من عام ٢٠٠٨ أي بزيادة بحوالي٤٩١,٧ مليون دينار.

١٥ـ ارتفع العجز المالي قبل المساعدات خلال النصف الاول من عام ٢٠٠٩ ليبلغ حوالي ٦٢٦ مليون دينار مقابل عجز بلغ ٢٩٨,٢ مليون دينار خلال نفس الفترة من عام ٢٠٠٨ أي بزيادة حوالي ٣٢٧,٨ مليون دينار .

١٦ـ ارتفع صافي الدين العام في نهاية شهر حزيران من عام ٢٠٠٩ بحوالي ٤٦٦,٣ مليون دينار أو ما نسبته ٥,٥% ليبلغ حوالي ٩٠١٧,٥ مليون دينار .

١٧ـ تباطؤ نمو السيولة المحلية خلال النصف الاول من عام ٢٠٠٩، لتنمو بما نسبته ٤,٦% مقارنة بنمو بما نسبته ١٧,٦% مقارنة بما نسبته ١٧,٣% في نهاية ٢٠٠٨ .

١٨ـ تباطؤ نمو الودائع لدى البنوك المرخصة خلال النصف الاول من عام ٢٠٠٩، لتنمو بما نسبته ٦,٨% مقارنة بنمو بما نسبته ١٣,٢% في نهاية عام ٢٠٠٨ .

١٩ـ تباطؤ نموالتسهيلات الائتمانية المباشرةالممنوحة من قبل البنوكفي نهاية شهر حزيران من عام ٢٠٠٩ بشكل كبير، لتنمو بنسبة لم تتجاوز ٣،.% مقارنة بنمو نسبته ١٥,٥% في نهاية عام ٢٠٠٨ .

٢٠ ـ ارتفاع قيمة الشيكات المرتجعة خلال النصف الاول من عام ٢٠٠٩ بحوالي ٢١٩,٣ مليون دينار أو بما نسبته ٢٤% لتبلغ حوالي ١١٣٤,١ مليون دينار، حيث إن ما نسبته ٦٥% منها يعود لعدم كفاية الرصيد .

من خلال ما سبق ذكره تبين لنا إن الأزمة المالية اثرت تأثير كبير على الاقتصاد الاردني وان نتائجها ستكون صعبة للغاية وان دل ذلك فانما يدل على إن سياسة الليبراليين الجدد قد ساهمت في تفاقم الأزمة، هذا ويشير خبراء إلى إن الأزمة الاجتماعية والاقتصادية الاردنية عادت إلى اجواء عام ١٩٨٨ من القرن الماضي بل إن الأزمة الحالية اصعب بكثير وستساهم بتراجع كبير سيلمسها الشعب الاردني .

الاردن وازمة البورصات

بخلاف الأزمة المالية العالمية وتداعياتها فقد ظهرت أزمة اقتصادية أخرى في الاردن عرفت بازمة البورصات، وفي هذا الفصل سنحاول اتن نسلط الضؤ على هذه الأزمة وتداعياتها الشعبية وتأثيرها على الامن الوطني والاجتماعي، وما هو موقف الحكومة الاردنية منها .

اثارت هذه القضية البرلمان الاردني والاوساط الشعبية والاعلامية والسياسية، هذا وقد اثارت هذه القضية البرلمان الاردني وطلب من الحكومة من خلال توجيه الاسئلة إليها سواء بالتلميح أو بالتصريح اومن خلال الانتقادات الحادة في وسائل الاعلام والصحافة واخيرا استجاتبت الحكومة لرغبة البرلمان وعقدت جلسة تمفيها مناقشة أزمة ما يسمى بالبورصات .

ماهي أزمة البورصات ؟

انها قضية ما يسمى بشركات توظيف الاموال حيث اقدم مجموعة من المواطنين على توظيف اموالهم ومدخاراتهم، وقاموا ببيع مدخاراتهم حتى أنهم اقترضوا ورهنوا ممتلكاتهم في سبيل تحقيق مصدر دخل اضافي لكنهم وقفوا فريسة شركات حاولت خداعهم واقنعتهم بان يقوموا باعمال استثمارية ستجلب لهم ارباحا مجزية من خلال توظيف اموالهم، وفجأة ظهرت بوادر أزمة لكن الحكومة تأخرت كثيرا، ومع ذلك حركت اقلامها وكتابها واوعزت إلى المفتي العام للمملكة إن يدلي رأيه بهذه القضية وفعلا اصدر المفتي فتوى بحرمة التعامل مع هذه الشركات، لكن المجتمع الاردني اصر على الاستمرار في توظيف امواله بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة التي يعيشها خاصة وان نسبة الارباح كانت كبيرة جدا تصل إلى ٢٥% .

ماذا فعلت الحكومة حيال هذه القضية ؟

على لسان رئيسها نادر الذهبي قال :نعم لقد تأخرت، ولكن التأخير ليس بسبب التقاعس في مواجهة الازمة، لكن الهم الرئيسي كان ولا يزال المحافظة على اموال المواطنين وتحصيل ما يمكن تحصيله من هذه الشركات، ولكن بتشريع قوي محصن، ومنه كان للحكومة إن ارادت الدخول في مواجهة مع هذه الشركات إن يكون لديها الادوات القانونية الكافية،وبعكس ذلك تكون الكارثة اكبر، وبالفعل اصدرت الحكومة قانون مؤقت لتنظيم عمل الشركات وملاحقة هذه الشركات وتحصيل ما يمكن تحصيله من اموال وحقوق المواطنين، هذا هو هدف الحكومة كما اعترف بذلك رئيسها وهواصدار تشريع قوي محكم يغلق جميع المنافذ على هذه الشركات، ويعطي المجال للملاحقة والتحصيل حتى بعد نفاذ القانون المؤقت حاولت بعض الشركات

اللجؤ إلى التصفية الاختيارية وكانت الحكومة لها بالمرصاد، وناشد رئيس الوزراء المواطنين برفع شكاوى على أصحاب الشركات لدى المدعى العام ليتم ملاقة أي شخص أو شركة حاولت خداع المواطنين الاردنيين وبالفعل توقفت الشركات عن دفع الارباح والسبب كما يقول اصحاب الشركات هو القانون المؤقت الذي يجرم أي منهنه الشركات إذا قامت بالحصول على اموال جديدة من المواطنين لغايات الاستثمار، وهذا يعني إن الشركات قد توقفت عن استقبال ودائع جديدة، وقد قررت الحكومة تكليف محكمة امن الدولة بملاحقة الشركات والافراد لتحصيل حقوق الناس الذين تقدموا بشكاوى عليها بسبب تأثرالامن الاقتصادي والاجتماعي للمواطنين، واعترف رئيس الحكومة بأنه تم تحويل ٢٠٠ شركة الىمحكمةامن الدولة .

الاجراءات القضائية القائمة حاليا

اعترفت الحكومة بأنه يوجد اجراءات قضائية قائمة، ومتابعة حثيثة لدى النيابة العامة بمحكمة امن الدولة، ومعلومات المحكمة سرية حفاظا على سرية التحقيق خشية من التأثيرعلى مجريات التحقيق، والحكومة اقرت بوجود ١٥ مدعيا عاما للتفرغ إلى هذه القضية، وقدمت الحكومة كل إشكال الدعم الاداري والمالي والفني اللازمين لتمكني الفريق من القيام بالمهام المناطة به وبفعالية وبالسرعة الممكنة بما في ذلك انتداب العديد من الموظفين من وزارة الصناعة والتجارة والبنك المركزي وهيئة الاوراق المالية وديوان المحاسبة للعمل تحت امرة المدعيين العاميين وباشرافهم، هذا وقد اعترفت الحكومة بان مجموع الاموال التي تمكنت الحكومة من تحصيلها سواء اكانت عينية اومادية بحدود ٢٠٠ مليون دينار، وهذه المبالغ هي جزءمن المطالبات التي تقدم بها المواطنين "١٦"

من جهة أخرى كشفت مصادر وزارة العدل الاردنية بان وزير العدل قد القى بيانا إمام مجلس النواب لادلأ بشهادته حول قضية البورصات، حيث اشار خلالها بأنه منذ عدة سنوات بدأت ممارسات مالية في بعض المحافظات تتمثل بقيام شركات وافرادتقوم بجمع اموال من المواطنين لغايات استثمارها في اسواق مال اجنبية في خارج المملكة،واصبحت هذه الممارسات تزداد انتشارا في مختلف محافظات المملكة خلال السنة الاولى من تاريخ تولي الحكومة لسلطاتها الدستورية، فقد بدأت في مراجعة الجوانب المختلفة لهذه المشكلةولا يجاد افضل الحلول الممكنة لها، ولهذا الغرض تم تشكيل لجنة لدراسة سبل ومواجهة هذه المشكلة وآلاثار المترتبة عليها، وقد توصلت الحكومة إلى اتخاذ الاجراءات التالية :

أولا - تعديل قانون مراقبة العملة الأجنبية،وقانون الاوراق المالية بما يتوافق مع قرار الديوان الخاص بتفسير القوانين رقم ٨ لسنة ٢٠٠٦ ووصولا إلى اصدار الأنظمة الخاصة بالترخيص والرقابة على هذه الشركات .

ثانيا - اصدار تشريع منفصل لتنظيم عمل هذه الشركات التي تتعامل مع البورصات والاسواق المالية العالمية وقد تم ذلك .

ثالثا ـ وقف نشاط هذه الشركات نهائيا، واتخاذ الاجراءات الكفيلة بما يؤدي إلى تسليم المتعاملين معها لجميع حقوقهم المترتبة تجاه هذه الشركات ولغايات هذا الحل يتعين دراسةالتشريعات النافذة لبيان مدى دقة قانونية الاجراءات الممكن اتخاذها لوقف نشاط هذه الشركات نهائيا .

ويلاحظ هنا إن موقف الحكومة حيال هذه القضية انطلق من المعالجة القانونية لكن هذه المعالجة لم تساهم في حل القضية من ناحية سياسية واجتماعية وامنية، واخيرا توصلت الحكومة كما اشرنا إلى اصدار تشريع مؤقت بسبب عدم انعقاد مجلس الامة حيث كانت الدورة النيابية الاولى من عمر المجلس الخامس عشر غير منعقدة أي انها كانت مفضوضة .

والسؤال الذي يطرح نفسه هل يوجد قراءة أخرى غير قرأة الحكومة حاولنا إن نبحث فلم نجد إلا الصحافة حيث نشرت مجلة الوطن العربي في عددها تاريخ ٢٢ـ ١٠ ـ ٢٠٠٨ تقريرا خاصا عن هذه القضية حيث اشارت في تقريرها إلى إن آلآف من الاردنيين باعوا عقاراتهم ومصاغ زوجاتهم، وقد عنونت تقريرها الذي اعده الصحفي ماهر ابوطير بان خسائر الاردنيين على يد المحتالين الذين يعملون في الشركات الوهمية تجاوز المليار ونصف المليار دولار، وبذلك فان قيمة المبالغ التي اشارت إليها الحكومة مع هذه الخسائر انها فعلا فاجعة وطنية كبيرة، وقدكشفت المجلة قائلة إن زلزال البورصات في الاردن ادى إلى هروب عدد من مشغلي الاموال خارج الاردن وبحوزتهم مئات ملايين من الدولارات في حين تم القاء القبض على عدد آخر في الاردن، وبدأت عمليات النصب والاحتيال خلال السنوات الاربعة الماضية عبر قيام مشغلين بجمع اموال من الناس على طريقةشركات الربح السريع بحيث يتم تقديم نسب مغرية لا يمكن مقاومتها من اصل المبلغ شهريا، وقام بعض المشغليين بالمتاجرة فعليا بالبورصات العالمية،وفي شراء النفط والذهب والعملات حتى اصبح عدد الشركات التي تستخدمها واجهات أخرى إلى مئات الشركات في مختلف مناطق المملكة استطاعت جمع ما يقرب من مليار ونصف مليار دولار حيث توزعت ما بين عمليات استثمار حقيقية، وما بين عمليات نصب واحتيال.

من جهة اخرى اعتبر مراقبون إن تأثيرات انهيارات البورصات العالمية امتدت إلى مؤسسات رسمية تستثمر في البورصة بما في ذلك مؤسسة الضمان الاجتماعي التي تدير سبعة مليارات من اموال الاردنيين المتقاعدين حيث اعلنت رسميا انها خسرت ٨٠٠ مليون دينار .

هوامش الفصل الثالث- الباب الثالث

١- مجلة الوطن العربي، عدد تاريخ ١٩- ١١- ٢٠٠٨، ص ٤٦
٢- برنامج ما بعد الخبر الذي تبثه قناة الجزيرة القطرية
٣- شبكة الانترنت نت
٤- مجلة الوطن العربي تاريخ ١٨-١٢- ٢٠٠٨، ص ٥
٥- مجلةالوطن العربي، عدد ١٩- ١١- ٢٠٠٨، ص ٤٦
٦- مجلة الشورى، عددكانون اول عام ٢٠٠٨، ص ١١
٧- مجلة الوطن العربي، عدد تاريخ ١٨- ١٢- ٢٠٠٨، ص ٤٦
٨-مرجع سابق، ص ٤٩
٩- مرجع سابق، ص ٤٨
١٠- مرجع سابق تاريخ ١-١٠ - ٢٠٠٨، ص ٤٧
١١- صحيفة القدس العربي، عدد ٢٥- ١١- ٢٠٠٨
١٢- كلمة رئيس الوزراء، ارشيف مجلس النواب الاردني، القيت بتاريخ ١٣- ١١- ٢٠٠٨
١٣- مرجع سابق، صحيفة القدس العربي، تاريخ ٢٥- ١١- ٢٠٠٨
١٤- صحيفة العرب اليوم، عدد تاريخ ١٤- ١- ٢٠٠٩
١٥- مرجع سابق، العرب اليوم
١٦- ارشيف مجلس النواب

الباب الرابع. اشكالية العلاقة ما بين الرأسمالية والماركسية والدين

الفصل الاول : اشكالية العلاقة ما بين الرأسمالية والماركسية

مما لاشك فيه إن الماركسية هي الفلسفة والايدولوجية التي جاءت كنقيض ثوري لمواجهة اكاذيب الرأسمالية، وهي بحق تعتبر من ابرز الايدولوجيات التي دخلت في صراع فكري مع كل كهنة الرأسمالية، وهي كذلك التي تنباءت بانحطاط الرأسمالية وسقوطها، وتحدثنا سابقا عن النظرية الماركسية واكدنا انها هي النظرية الاقتصادية التي خرجت من قلب المجتمع الرأسمالي، حيث كشفت عن اخطاء ومزاعم الرأسمالية، ومنه فانه بمجرد إن كشفت الأزمة الاقتصادية العالمية عن ازمتها فقدتنبه المفكرين والمثقفين للعودة إلى افكار كارل ماركس وخاصةكتابه رأس المال على اعتبار إن الرأسمالية كخيار اقتصادي أصبحت غير مؤهلة لقيادة العالم، ومن هنا فلابد من البحث عن حل باعتبار الماركسية واليسار هي الحل لمواجهة كل إشكال الهيمنة الرأسمالية والغطرسة المتوحشة .

لكن الماركسية ليست ألان ماركسية واحدة فهناك اطياف وفصائل ماركسية متنوعة، والادهى من ذلك ظهرجيل من الماركسيين الذين كفروا بالماركسية، واعلنوا ايمانهم المطلق بمبادىء الليبرالية الامريكية، بعبارة اخرى فقد تبرلروا تحت مسميات مراكزالدراسات ومؤسسات المجتمع المدني، وخلعوا كل مبادئهم وافكارهم، واختباءوا تحت ستار من الالفاظ المفضوحة كالديمقراطية والحرية وحقوق الانسان والمجتمع المدني، وبامج الإصلاح الاقتصادي وما إلى ذلك،ومنه فان المعضلة التي كانت تواجه هذا الفصيل الذي هذا الفصيل الذي كان يناضل منداخل المعسكر الماركسي، ومن هنا فان المعضلة التي تواجه هذا الفصيل لاتكمن بمدى التزامها اوتحالفها مع الرأسماليةاوالالتزام بقواعد اللعبة الرأسمالية، ولا في محاولتها البائسة تجميل هذه القواعد اوالتخفيف من قسوتها، وانما تدعي انها في اعقاب إحداث ١٩٨٥، واحداث ١٩٨٦ قد انتقلت من نوع متدني من الخطاب القومي يعكس تبعيتها الفكرية للبيلارقراطية السوفياتية سابقا الى نوع ضحل جدا من الخطاب الليبرالي من دون التوقف والمراجعة واعادة النظر العميق في مفاهيم التحرر القومي والوطني، والادهى إن بعض فصائل الحزب الشيوعي العراقي على سبيل المثال بعددخول القوات الأمريكية إلى بغداد واحتلال العراق شارك عدد من دخلوا اليوم الحكم العراقي الجديد تحت امرة بريمر الأمريكي الذي ينتمي إلى معسكر الليبرالية المتوحشة .

إن هذه الفئة التي طرحت شعار النقد الذاتي والمراجعة واعادة النظر، ولكنها لم تلتزم بتاتا وانما طرحته ستارا لانتقالها الميكانيكي الفاضح من خطاب ضحل إلى آخر اكثرضحالة ورجعية رغم انتقالها جاء ليكرس غياب العقل النقدي في ممارستها أو ليعيد انتاج هذا الغياب بصورة اكثر جدية فهو في جوهره انتقال من سقوط إلى

سقوط، ومن هزيمة الى هزيمة، وليس انتقال من إطار فكري ملتزم إلى آخر بسبب تباعد معين مع إحداث ثورية "١".

إن هذه الفئة أو ذاك الفصيل وتعبيرا عن تبعيتها او تبعية المطلقة وذيليتها رأت إن المركز السوفياتي سابقا ينهار قطعة قطعة فقررت خلع الثوب الذي كانت تلبسه وارتدت الثوب المزركش الذي صممه فوكوياما في اروقة المؤسسة السياسية الأمريكية وفي اشهر دور ازياء الليبرالية الأمريكية الجديدة وصبغته بصبغة الاحزاب الديمقراطية الاجتماعية التي طالما خدمت النظام الامبريالي الرأسمالي "٢".

وفي هذا الصدد يؤكد الماركسي الجديد د.هشام غصيب بان الثوري الماركسي لينين قدكشف عن حقيقة الليبرالية المتوحشة قائلا "بانها امبريالية ستعمل عاجلا ام آجلا على نهب المستعمرات والاطراف، فالرأسمالية تعمل على رشوة شرائح كبيرة من الطبقةالعاملة وهي الشرائح التي اطلق عليها الارستقراطية العمالية "، وهنا يتوقف المفكر غصيب ويطرح السؤال الذي طرحه المحافظ الجديد فرانسيس فوكوياما، والذي اكد فيه إن نهاية التاريخ بدأت منذ سقوط جدار برلين وانهيار المنظومة الاشتراكية، ولذا فان مجموعة من المفكرين الماركسين الجدد اعتبروا افتراضيا انه إذا تم الاخذ بمقولة نهاية التاريخ فهذا يعني اعترافا صريحا بان المنهج النقدي قدوصل مداه وتحدد سقفه، واعلن سيطرة الراسمالية الليبرالية وسقفها، وهذا بالطبع اعلان صريح بوفاة المنهج النقدي الماركسي على اللانهاية والرافض للكائن القائم من حيث هو قائم .

لكن غصيب يعتقد إن النقد الوحيد المشروع في نظراصحاب انتصار الليبرالية وسقوط المنظومة الاشتراكية والمتمثل في نهاية التاريخ هو النقد الجزئي غير الثوري على الراسمالية الليبرالية وهو يغدو لامشروعا بمجرد انه يبداء بتخطيط هذا السقف، وما ان يصل إلى مستوى الرأسمالية الليبرالية حتى يغدوالنقد الكلي على غرار الماركسية فعلا عملا رجعيا ومدمرا، ومن ثم غير مشروع، فالنقد الوحيد المشروع هونقد الجزءفي إعادة انتاج الكل الرأسمالي، ومن اجل اعادةانتاجه انه رفض للشمول والشمولي في جميع صوره، هذا هو جوهر مايسمى ما بعدالحداثةانه نفي للكلي الجدلي، إن هذا المشهد الذي يتحفنا به غصيب والذي يعتبره عصر صرعةالانكفاء الذي تعيشه القوى الثوريةمنذ عام ١٩٨٩ مطلقا عليه عصر ترسيخ الكائن اوالوضع القائم والتعايش معه، ويتساءل غصيب هل تكتيك القوى الثورية العربية لهذه السيطرة الليبرالية المتوحشة، يجيب على هذا السؤال قطعا بالرفض المطلق للاستكانة إلى عصر ما بعدالحداثة، واشار إلى أن من اسباب مقاومة الاستكانة تنبثق من الاطر التالية :"٣"

أولا - إن الرأسمالية بشقيها المعتدل والمتطرف نظام مغترب معقد يصعب إن لم يكن مستحيلا التحكم به ويقود بفعل منطقه إلى تدمير البشرية وبيئتها .

ثانيا- فان معظم مجتمعات العالم الثالث ما زالت تتضمن اطرا ومفاهيم وبنى ما قبل الرأسمالية أو قل رأسمالية بدائية يحكمها منطق انتاجي متخلف، وقد اثبتت الايام إن هذه البنى مرتبطة ارتباطا عضويا بمجمل التشكيلة الاجتماعية التي تقع ضمنها،

ومن ثم فان تدميرها لا يمكن إن يتم بمعزل عن تغيير التشكية الاجتماعية برمتها، وهذا بدوره يقضي بنقد الكائن في سياق تحوله الثوري، ولا يمكن إن يتم النقد في هذا الحال من المنظور الليبرالي السائد حيث يعترف د.غصيب إن الفكر الليبرالي هو فكر اصلاحي باعتراف الليبراليين انفسهم بتكريس الواقع، لذلك لامناص من العودةالى التراث الثوري النقدي الذي نشاء مع البرجوازية الثورية، ووصل قمته وعطاءه الفكري في عهدكل من كارل ماركس ولينين، وغصيب يعترف إن هذا التحليل الذي تتبناه المدرسة النقدية، ويساهم في تحويل النهج الثوري على مستوى العالم الثالث يطرح مساءلة بقاء الرأسمالية على صعيد المراكز الرأسمالية اذ انه يهز نظرية نهاية التاريخ من اعماقها، ويتساءل المفكرغصيب قائلا :هل يمكن إن يتم هذا التحول الثوري في ثلاثة ارباع المجتمع البشري من دون أن يمس اعماق المراكز الرأسمالية الكبرى ؟، خاصة اذا علمنا إن الاحداث اثبتت انه منذ عام ١٩٨٩ ابان المنهج النقدي مازال مطروحا بالرغم من إن السقف الذي وصلته الليبرالية الرأسمالية فانها بالتأكيد سقف غير مستقر ويميل لسقوط في أي لحظة، وهذا ما ثبت بالوجه الشرعي في تسونامي الأزمة المالية العالمية .

ثالثـا - إن التنميةالحقيقية تحتاج إلى تحديث الوعي الاجتماعي القائم وخاصةالثقافي منه، لكن التاريخ يعلمنا إن مثل هذا التحديث لا يتم باجراءات واوامر فوقية وسلطوية، وانما هو سيرورة تاريخية تنطوي على جملة من الاعتبارات اهمها الثورات والانتفاضات والقفزات والشروخ والالتوآت، وعليه فان عملية التحديث والتنمية المطلوبة بالحاح في بلدنا الاردني تستدعي الوعي النقدي الجذري في سياق التحولات الثورية بل إن تحديث الوعي اتلاجتماعي هواعادة بنائه على اسس محورية الفكر النقدي الثوري انه معاناة الفكر الثوري النقدي في اعماق التاريخ .

رابعا - السبب المعرفي "الابستمولوجي " الذي يتعلق بطبعة المعرفة الاجتماعية لمثل هذه المعرفة .

الرأسمالية من وجهة نظر الخطاب الماركسي

اعتبر المفكرون الماركسيون إن الرأسمالية الليبرالية نظام اجتماعي تنخره التناقضات الداخلية وتدفعه دفعا صوب التغير الجوهري، بل والادهى من ذلك إن الرأسماليةهي في الأصل تناقض ناموس الحياة في اساسها الطبيعي البيولوجي بل انها تناقض نظام الطبيعةومسيره المنتظم، انها اسفين في قلب الطبيعة وقنبلةمدمرة على سطح البسيطة، انها نظام يكتسب شرعيته من وظيفته الانتاجية، من كونه نمط انتاج اجتماعي لكن دافعه الداخلي ومحركه الداخلي وآلية عمله الداخلي يناقض هذه الوظيفة الانتاجية، ويكاد يجرده من أي معنى ويحيله إلى عبث لا معقول، وبسبب تدخل السوق بفوضاه وطغيانه .

كما إن الماركسية تنظرالى الرأسمالية على انها تشكيلة اجتماعية عالمية متناقضة تجعلها عاجزة عن سد ادنى الحاجات للاغلبية الساحقة من البشر ذلكانه ما يزيد عن ثلاث مليارات نسمة من النظام الرأسمالي العالمي، وهم دون خط الجوع، ناهيك عن

حجم النزاعات والحروب وغيرها من إشكال الهدروبحجم البطالة في شكليها الظاهر والمقنع وبالطبيعة المدمرة للعمل لدى غالبية البشر .

ويرى الماركسيون إن الحل الجدلي لهذه التناقضات يكمن في الاشتراكية اي السماح لقيان المنتجين انفسهم بتنظيم حياتهم الانتاجية بما يسد حاجاتهم الفردية والاجتماعية والتاريخية والبيئية .، لكن الماركسيون يزعمون إن هناك من يذهب من غربان الرأسمالية بان الرأسمالية هي النظام الطبيعي للانسان والمجتمع، وانها ليست مجرد نمط انتاجي إلى جانب غيره من انماط الإنتاج، إن الرأسمالية في نظرهولأ الغربان بانها ليست نهاية التاريخ بل هي التاريخ في حد ذاته، فهي نظام المجتمع المدني النظام الوحيد الممكن في ضؤ الطبيعة البشرية، انها الامتداد الاجتماعي لبنية الانسان البيولوجية، بل تجاوزوا ذلك قائلين " إن الرأسمالية هي الانسان في نضجه الحضاري، هكذا يعبر الانسان عن ذاته وعن طبيعته الجوهرية بالرأسمالية وبالسوق وبالنقد المتراكم .

من خلال ما سبق ذكره نجد إن هناك جدليتين احدهما برجوازية تتبناها الرأسمالية، وثانيهما انتاجية عمالية تتبناها الاشتراكية اوقل هي الاشتراكية، وبعبارة أخرى هناك حلان لا ثالث لهما اما فوضوية رأسمالية وواما اشتراكية مقاومة، وهنا لابد طرح السؤال التالي اين الاسلام الذي يتوافق في قيمه اليسارية مع الاشتراكية فهل من الممكن إن يكون بديلا آخر وخاصة بعد خروج الرأسمالية من الملعب السياسي والاقتصادي وتفكيك الاشتراكية العالمية " وهنا يتساءل المفكرين الماركسيين والرأسماليين أي اسلام تريد هل الاسلام اليميني المتحالف مع الرأسمالية ام الاسلام اليساري المقموع الذي لا يسمح له بالظهور خاصة بعد بروز القوى الإسلامية المسلحة التي ساهمت في تشويه صورة الاسلام ؟ ولذلك فسوف نجيب على هذا التساؤل في الصفحات القادمة عند حديثنا عن موقف الاسلام من الرأسمالية وموقفه من الأزمة المالية العالمية .

ومنه فان المحللون الماركسيون يعتبرون إن الرأسمالية تمتازبطابع متفجر وانها ذات طابع مؤقت، وهي متناقضة بطبيعتها للاسباب التالية :

١ـ التناقض ما بين الطابع الاجتماعي للانتاج والملكية الخاصة بوسائل الإنتاج

٢ـ الفصل ما بين الإنتاج والاستهلاك ببنية كثيفة محورها السوق الرأسمالية، إن الإنتاج الرأسمالي لا يتم بالعلاقة مع الاستهلاك، وانما يتم في ضؤ توقعات السوق، لكنلحظتي الاستهلاك والانتاج تتمان في معزل عن بعضهما .

٣ـ الفصل مابين العمل ووسائل الإنتاج أي إن جوهر الرأسمالية يكمن في تحرير العاملين من أي ملكية لوسائل الإنتاج وتحويلهم إلى مالكين لسلطة واحدة هي قوة العمل فهناك استقطاب كامل في الرأسمالية بين مالكي وسائل الإنتاج الرأسمالية وبين مالكي قوة العمل الحر أي العمال .

٤ـ التناقض الصارخ بين الطابع العام للانتاج الرأسمالي بوصفه انتاجا اجتماعيا يهدف إلى انتاج اساسيات الحياة، والى الاستهلاك بعامة، وبين الطابع الخاص لهذا الإنتاج بوصفه انتاجا رأسماليا والذي يهدف إلى زيادة معدلات الربح بل قل النهب

الرأسمالي بغض النظر عن الحاجات الاساسية والاستهلاك، إن الوسيلة هنا مغتربة عن الغاية، فالوسيلة في اغترابها تأخذ طابع الغاية وتحجب الرؤيا عن الغاية الحقيقية .

٥ـ فوضى الإنتاج الرأسمالي أي التناقض بين رؤوس الاموال والذي اخذ في القرن الحادي والعشرين طابعه التنافسي الامبريالي بين الدول الرأسمالية المتقدمة .

٦ـ التناقض بين الرأسمالية والطبقات الأخرى وفي مقدمتها الطبقة العاملة وطبقة الفلاحين .

٧ـ التناقض القائم بين التراكم الرأسمالي في المراكز والاطراف فالاول يهدف إلى لجم قوى الإنتاج في الاطراف ونهب امكاناتها والتاريخ اثبت ذلك إن هناك استقطاب ما بين المركز والاطراف ملازم للرأسمالية في جوهرها، وانه ليس مجرد ظاهرة طارئة برزت في القرن العشرين .

٨ـ تنامي الهدر في الإنتاج الحربي وعسكرة النظام الرأسمالي بوصف الاخير مخررج مؤقت للازمات المتفاقمة التي تنشاء على اساس التناقضات المذكورة .

ويخلص هذا التحليل الماركسي إلى إن الرأسمالية نظام اجتماعي متناقض متفجر له قوانينه وآلياته وديناميكيته الموضوعية المعقدة التي يصعب التحكم بها من جانب البشر الذين يشكلون قادته حتى بتوفر الاجهزة والحاسبات تقدما، ولذلك يجب إن يسعى البشر جميعا لمقاومة هذا النظام الغاشم للعمل على تقويضه من اجل بناء نظام يخلو من التناقضات، والاجمل في هذا التحليل انه وصف الإنتاج الرأسمالي بأن له حدوده التاريخية والطبيعية، ولا يمكن إن تتحمل الكرة الارضية والبشرية الفوضى الرأسمالية المتزايدة في الإنتاج طويلا .

ويعود الينا المفكر هشام غصيب كاشفا عن اكاذيب الليبرالية قائلا " إن حدود الطبقة البرجوازية في المراكز المتقدمة انها في النهاية تعبر عن حكم طبقة استغلالية بحكم طبيعتها الداخلية طبقة تسخر كل قوتها للابقاء على مجتمع جامح فوضوي لا يمكن التحكم فيه ولا في تطوره، وانماط تفاعله مع الطبيعة والافراد، وبالرغم من الحريات الديمقراطية التي تتيح ممارستها من حيث المبداء فانها تظل تحت حكم الاقلية البرجوازية، كما انها ترتكز إلى نظام الملكية الخاصة ذلك النظام الاحتكاري الذي يحرم الاغلبية الكادحة من المشاركة في اتخاذ القرارات الاقتصادية العامة والجزئية التي تمس حياتهم في الصميم، ومن ثم تنعدم الديمقراطية انعداما كاملا في الرأسمالية، ومنه فان الحريات السياسية التي تنطوي عليها الليبرالية ترتكز الى استبداد يكاد يكون مطلقا على صعيد الاقتصاد ومنشآته، كل هذه الحدود والنواقص في الديمقراطية الليبرالية حرضت كل من كارل ماركس ولينين إلى طرح ديمقراطية بديلةوهي الديمقراطية الاجتماعية المنسجمة مع نفسها، الديمقراطية التي تعبر عن تطلعات الاغلبيةالكادحة والمناضلة ""٤".

ومن ناحيةاخرى يسخر المنظرون الماركسيون من المثل القائل بان الديمقراطية هي الثورة السياسيةالحقيقية اليوم، وهم يعنون بذلك الثورات الاشتراكية التي قامت في القرن الماضي لم تكن ثورات حقيقية، هولأ المنظرون يعتبرون إن التشدق الذي

يطلقه بعض الزعامات الغربيين وخاصة منذ مرحلة التاتشرية والريغانية والبوشية ووكلائهم في المنطقة بانها النظام السياسي الامثل أي إن الديمقراطية الليبرالية هي النظام السياسي الذي يجب على العالم إن ينصاع اليه ويخروا له ساجدين .

والحقيقة التاريخية اثبتت إن الليبرالية الديمقراطية ليست ثورة سياسية بكل ما تعني الكلمة بل جاءت نتيجة ثورات اجتماعية كبرى منذ مطلع القرن السابع عشر في اوروبا قادت بعضها البرجوازية الاوروبية الناشئة، وبعضها آلاخرطبقة العمال " البرولتاريا "، وارتكزت اساسا إلى الجماهير الكادحة اي إن الديمقراطية جاءت في الأصل تعبيرا عن ارادة التحالف الشعبي الذي اطاح بالاقطاع والاستبداد الاقطاعي في اوروبا الغربية أي انها نتاج انتصار التحالفات الشعبية ضد النخبوية بشتى اصنافها " اقطاعية، ارستقراطية مالية، بونبارتيه، فاشية، نازية " انها نتاج الثورة الاجتماعية، لكن الانتصار الذي حققته الديمقراطية الليبرالية في المراكز الرأسمالية جاء نتيجة انتصارجزئي لقوى الثورة الاجتماعية، فالانتصار الجزئي لهذه القوى نتيجة للديمقراطية الليبرالية المحدودة، اما الديمقراطية الاجتماعية الغير محدودة والمنسجمة مع ذاتها فهي نتاج الانتصار الكلي لقوى الثورة الاجتماعية الذي لم يتحقق .

هوامش الباب الرابع. الفصل الاول

١ـ الاعمال الكاملة لهشام غسيب، تحريرناهض حتر، ص ٢٥
٢ـ مرجع سابق، ص ٢٨ـ٣٠
٣ـ مرجع سابق
٤ـمرجع سابق، ص

الفصل الثاني ـ الباب الرابع

اشكالية العلاقة ما بين الاسلام والرأسمالية

مقدمة : شهد العالم منذ قرنين متتالين صراعات سياسية واقتصادية واجتماعية، بسبب سيطرة الرأسمالية العالمية المتوحشة نتج عن ذلك حروب عالمية طاحنة اوصلت البشرية إلى ما هو عليه ألان إلى أزمة متافقمة في جميع ميادين الحياة بالرغم من التطور العالمي والتكنلوجي الذي حققته البشرية من الثورة الصناعية إلى الثورة التكنولوجية، لكن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يعيشها العالم الثالث أصبحت تنذر بالخطر إمام هذا الواقع المر، فقد انقسم العالم خلال القرن الماضي إلى قطبين اقتصاديين وعسكريين انتهت هذه المنازلة في اعقاب الحرب الباردةاي في اعقاب العقد الثامن من القرن الماضي بتفكك الاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية، واعلان نظام عالمي جديد من خلال سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على القرار الدولي والهيمنة الدولية، وما نجم عنها من فوضى عارمة تمثلت باعادة سطوة الرأسمالية المتوحشة على مقدرات العالم، وتوجت هذه السطوة بولادة آزمات سياسية واقتصادية ومالية هيمنت على القرار الدولي، وافرزت توجهات جديدة بولادة ما يسمى بالازمة الاقتصادية والمالية التي ضربت قيادة مركزمراكز الرأسمالية العالمية الاستعمارية " امريكا واوروبا واليابان "، هذا وقد وصلت الأزمة إلى الذروة، ويعتقد علماء الاقتصاد إن الأزمة كشفت عن افلاس الرأسمالية الليبرالية الجديدة،وزبرامجها وخاصة اقتصاد السوق، واثبتت في نفس الوقت إن الرأسمالية بتوحشها اثبتت عجزها عن قيادة المنظومة العالمية .

ومن جهة أخرى فقد طرح السؤال التالي : إذا كان العالم قد طبق خلال القرنيين الماضيين النظام الرأسمالي والاشتراكي، وخلال هذه الفترة ولد من معطف الرأسمالية نتيجة لازماتها الداخلية الماركسية والتي تمكنت خلال السبعين سنة الماضيةمن القرن الماضي إن يكون لها حضور متميز في الصراع الاجتماعي والاقتصادي، واعادت توازن المنظومة العالمية واوقفت ولو مؤقتا التوحش الرأسمالي، لكن مع انهيار المنظومة الاشتراكية فان ضواري الرأسمالية العالمية اعادوا تنظيم استراتيجتها وتهيأت إلى إعادة تقسيم العالم من جديد، ولكن بوسائل اشد وحشية وتطرفا من المراحل السابقة نتج عنها هذه الأزمة العارمة التي نشهدها اليوم والتي سلطنا الضؤ عليها في الصفحات الماضية .

وهنا يسأل سائل بما انه قد طبقت في التجارب البشرية واوصلت المجتمع الدولي إلى هذه الأزمة حيث جاءت معالجة المفكرين الاقتصاديين في منظومات مراكز القرار الدولي إلى إلغاء أو تخفيض الفائدة ؟، فان هذا الاقتراح وهذه المعالجةتعود إلى ابجديات الفكر الاقتصادي الإسلامي الذي اعلن قبل خمسة عشر قرنا بتحريم الفائدة بالمطلق على الفرد والمؤسسات المالية، وقد يقودنا هذا إلى طرح السؤال

التالي : هل الاسلام لديه نظرية مالية واقتصاديةمتكاملة ؟ وهل يملك برنامجا قادرا على الدخول في المشهد الدولي من جديد على اعتبار انه يمثل الخيار الثالث علما انه كان موجودا على الساحة الدولية وقد مرّ بآزمات طاحنة إلى إن تم اقصاؤه عن الحياة العامةمنذ عام ١٩٢٤، ووصل ألان إلى مرحلة تحلل وانحدار وانحطاط ؟!!!!!.

وقبل إن نجيب على هذا التسؤل لا بدوان نقوم بقرأة المشهد الدولي وخاصة لدى دول العالم الثالث، والتي يشكل فيها المسلمون اغلبية كبيرة في هذه المنظومة، وانني في هذه الدراسة سارجع إلى تراث المفكر الإسلامي الشهيد سيد قطب الذي وضع تجلياته وكتاباته عن الواقع الاجتماعي الذي صنعته الرأسمالية في ذلك الوقت، وان الحالة الراهنة لا تختلف عن الواقع الذي رسمه سيد قطب على المجتمع المصري والعالمي في الخمسينات والستينات من القرن الماضي .

لقد انطلق سيدقطب في استعراضه وتحليله للازمة الاجتماعية من خلال مجموعة من الدراسات ابرزها الاسلام والرأسمالية والعدالة الاجتماعية، كما انني ساتطرق إلى بعض الدراسات الأخرى التي اعتبرت إن الاسلام لا يمكن ان يكون متوافقا لا من حيث النظر مع الرأسماليةوالعمل بل قل متصادما معها علما بأنه يوجدعلى الاقل توافقا في بعض الجوانب مع الماركسية من حيث الفرع وخاصة النموذج الاجتماعي والسياسي، وهذا الاسلام الذي اسميته الاسلام اليساري والذي سنسلط الضوء عليه .

الاسلام والرأسمالية

سانطلق من تحليل سيد قطب في كتابه الاسلام والرأسمالية حيث سلط الضؤ على الاوضاع الاجتماعية، فقد اتهم قطب الاوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت سائدة في المجتمع المصري خلال العقود الخمسة الماضية من القرن الماضي، والتي بدأت بتطبيق النهج الليبرالي الرأسمالي أو ما اطلقت عليه الليبرالية العربية الكلاسيكية، ونحن نقيس الاوضاع التي كانت سائدة آنذاك ويمكن إن تدلنا على طبيعة هذه الظروف، ومن ثم سنضع النظرية الاقتصادية التي صاغها سيد قطب وهي من وحي الفكر الإسلامي.

ومن هنا فان الاوضاع الاجتماعية التي تناولها سيد قطب لا تقاس بالاوضاع الحالية حيث اعتبر إن الاوضاع الاجتماعية السيئة التي تعاني منها الجماهير غير قابلة للبقاء والاستمرار ذلك لانها مخالفة لطبائع الاشياء بل وان هذه الاوضاع مخالفة لروح الحضارةالانسانية بكل معنى من معانيها ومخالفة لروح العصر بكل مقتضى من مقتضياته ومخالفة لابسط المبادئ الاقتصادية الانسانية السليمة بل إن هذا الواقع معطل للنمو الاقتصادي ذاته بل وللنمو الانساني والاجتماعي .

إن كل وضع اجتماعي يؤدي إلى شل قوى الامة عن الإنتاج والعمل فهذه الاعاقة عن النمو والتقدم هو وضع شاذ لا يفقد حقه في البقاء بل يصبح بالفعل غير قادر على البقاء فكيف اذن اجتمع إلى هذه آلآفة ؟، وهذه المعضلة حتما ستؤدي إلى هدر الكرامة الانسانية، ويفقد الخلق والضمير وتقضي على كل معاني العدالة وتقتل الثقة الضرورية بالمجتمع والدولة وتنشر القلق وتذهب بالاطمئنان .

إن الذين يتثبتون اليوم بهذا الوضع الشاذ ويحاولون إن يهيئوا له المناخ سواء اكانوا من المستغلين الين يعز عليهم إن يساهموا في التكاليف والاعباء الضرورية لاقامة المجتمع الصالح وصيانته اومن الطغاة الذين يصعب على نفوسهم إن تجري العدالة مجراها فتحرمهم اسباب السلطان الزائف الذي لا يقوم له اساس أو من المستمتعين الذين مردوا على المتاع الفاجر فهم لا يطيقون القصد فيه والاعتدال، أو من رجال الدين المحترفين الذين باعوا انفسهم لالله أو للوطن بل للشيطان مقابل ثمن بخس مجرد دولارات ممزوجة بدماء المعذبين والكادحين في الأرض، هذا الواقع الاجتماعي الذي رسمه سيد قطب عن المجتمع المصري هو واقع لكل شعوب العالم الثالث، ومن هنا ما نريد التوافق مع سيد قطب إن الحقائق لاتعالج بالخطب الرنانة ولا بالفتاوى الجاهزة وتحطيم وشراء الاقلام وتكميم الافواه، إنما تعالج بحقائق واقعة تقابلها وتغيرها، فاصحاب المعدات الخاوية من الفقراء والكادحين لاتفهم المنطق حتى لو كان منطقا صحيحا لا احتيال فيه ولا التواء، وعلينا إن ندرك ذلك وباسرع وقت ممكن بالرغم من موقف الطغاة المستغلين والصحفيين المأجورين بالاحرى صحافةحملة المبا خر.

ولذلك فان قطب من خلال تعريته لهذا الواقع الظالم الذي تتشدق به الليبرالية يدعو إلى اصلاح هذا الواقع السيىء سواء من طرف الشيوعيين اوما تسميهم السلطة الخارجون عن القانون أو الخطرون على الامن الوطني او دعاة هدم وفوضى كما يطلق عليهم من قبل ابواق اعلام السلطة، ويضيف سيدقطب قائلا " وليحاربوهم بكل الوسائل الجهنمية التي يملكها الطغاة في كل زمان ومكان ليزجوا بهم في السجون والمعتقلات وليعطلوا لهم الصحف والاقلام ليحاربوهم في ارزاقهم واقواتهم وليسدلوا الستار على حياتهم وذكرهم، وفي ضؤ ذلك فان اصوات الكادحين والملايين التي تبذل العرق ولا تنال لقمة خبزجافة وسيبقى صوت واحد لايخفت ولو خفتت جميع الأصوات انه صوت الواقع الي ينطق بلسان الملايين من بقايا انفاس آلآهات التي سحقتها هذه الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المزرية الظالمة " .

اننا في الحقيقة نقر ما جاء على لسان قطب بان هذا المشهد الاجتماعي الذي تعيشه الامة في ضل الليبرالية الرأسمالية يشل قوى وعزيمة الامة عن الإنتاج والعمل ويساهم في اشاعة فاحشة البطالة والتعطل عن العمل، ويساهم في تخلفها عن استخدام مواردها الطبيعية والبشرية ويؤدي إلى الضعف والهوان عن مواجهة الاخطار الداخلية والخارجية التي تتراكم يوما بعد يوم.

ويفضح سيد قطب كل الدجالين الذين يدافعون عن الحالة السائدة التي يعيشها المجتمع المصري قائلا " إن ارضنا العربية شاسعة ومياهها دافقة وايديها العاملة وافرة فلماذا هذا النعيم مازال ملكا للاقطاع والاقطاعيين، فهي محتكرةلاصحاب

المصـالح والنفوذ، وهذه الفئـة القليلـة لا يهمها إن تستغل خيرات الامـة، والادهـى إن الرأسمالية المستغلة وجدت في هذه الطبقة القليلة التي تتحكم في شؤون الادارة المحلية التي تمتاز بالبيروقراطية المتخلفة الفاسدة، والتي افسدتها الاستثناءات والمحسوبيات، وسوء النظام وبلادة الروتين، كما افسدتها الرشوة وفساد الذمم والضمائر، كل ذلك هيّاء الارضية لمحاصرة القطاع العام وتخريبه وافساده واخضاعه واضعافه والعمل على تفكيكه من قبل جيوش الليبرالية والتي تتبنى الخيار القائل إن الاقتصاد لا يمكن اصلاحه إلا بتجفيف منابع الافساد والافساد عن المستغلين المحافظين لكي تصبح الفرصة سانحة امامهم، ويأتي دورهم دور المنقذ للاقتصاد الوطني، ويصبح خيار اعلان افلاس الدولة هي المهمة الاولى لليبرالية ولن يتم البدء بتطبيق مشروع الليبرالية إلا من خلال خرافة الامة مصدر السلطات وحق الانتخاب وحق الاختيار انها خرافة لا تستحق المناقشة فهل الامة التي ينخر الجوع في اجسادها ؟ وهل الامة الجاهلة التي لا تعرف حقوقها ؟ وهل الامة على استعداد نفسي إن تبلع ترف الانتخاب والمشاركة السياسية والحزبية انها حقا خرافة ما بعدها خرافة، إن واقعنا السياسي والاجتماعي في ضوء انتصارات الليبرالية الجديدة المتوحشة يثبت إن الاقطاع مازال حيا وما زال موجودا وما زال مهيمنا، ولذلك فإن الحديث عن الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي اصبح من مهازل التاريخ، فان الحديث عن البرلمانات والدساتير كلام فارغ والسبب في ذلك انه ما دام التجار والسماسرة هم من يمثلون هذه الامة فتعسا لهذه المشاركة، وهنا يطرح السؤال اين موقف الدين والفكر والثقافة من هذه المهزلة ؟

فقد تحول الخطاب الديني في ظل العولمة إلى ادوات لتخدير الشعوب فبدلا من تسليط الضؤ في الخطاب الديني على المشهد الاجتماعي والاقتصادي السيىء، حيث تنطلق حناجر الخطباء واشباه الخطباء واشباه اللحى والعمامات لتتحدث عن الاباحية ولبس الجينز وبروز الخصور الساحلة والقدود الناحلة والافخاذ المبرومة والنهود البارزة، وان الخطر الذي يتهدد الامة يأتي من تأوهات الفنانين والفنانات والغرام الذي اصبح يشكل هاجسا من ابداعات الدراما التركية وغيرها، وكأن الامة ليس لها شغل إلا الاخلاق والفن والادب اما مجازر الجوع والفاقة والفقر ومجازر العراق وغزة فانه يغض النظر عنها !!!!.

إن الليبرالية الرأسمالية تعتبر الدين هو احد اسلحتها، وتعتبر إن الخطاب الديني الذي لايكافح الفقر والجوع هو احد اسلحتها، وان الليبرالية اطرمت اذاننا بالحديث عن خرافات تكافؤ الفرص وخرافات المواطنون متساوون بالحقوق والواجبات، فاذا كانت تكافؤ الفرص خرافة فان المساواة هي اسطورة والعدالة هي خديعة في نظر هولأ الليبراليين الذين اشبعونا بأنهم جاءوا لتحرير العقل والارض والانسان، إن هذه هي خرافةالاصلاح والحرية والتغير الذي انتظرناه اننا في زمن ابداعات الليبرالية الاقتصادية، والتي حولت المجتمع إلى قطعان من الماشية، وساهمت في افقار الشعوب ورفعت مؤشرات البطالة وساهمت في تضخم الاقتصاد، اما الليبرالية السياسية فحدث ولا حرج فحرية الرأي مصانة وحرية الفكر يضرب بها المثل فالمعتقلات في زمن الليبرالية الجديدة مليئة بالمفكرين والمثقفين، والكتاب يفصلون من وظائفهم وحوادث التعذيب وانتهاك حقوق الانسان فهي مضرب مثل .

إن هذه الاوضاع الاجتماعية المزرية الاجتماعية ممتناقضة تماما لموقف الدين والقيم والاخلاق فلماذا يسكت علماء الدين وتجار الفتاوى وسماسرة السياسة عن هذه الجرائم، ويسبغون عليها تبريرات شعواء والقرآن الكريم يفضح هذه الممارسات " فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا "، إن الاسلام ليصرخ في وجه الظلم الاجتماعي والتوحش الاقطاعي واخطر من هذا التوحش موقف دراويش الاديان الذين يبررون معاناة وآهات وآلآم الناس الجياع

اشكالية العلاقة ما بين الرأسمالية والاسلام

قبل إن نستعرض العلاقة ما بين الاسلام والرأسمالية يطرح السؤال التالي هل فعلا إن الاسلام كعقيدة ودين ثوري يتفاعل مع الرأسمالية المتوحشة ؟ وقبل الاجابة على هذا التساؤل لا بد وان إن نتعرف على فلسفة المال في الاسلام والاقتصاد لنقارنه مع الادبيات الرأسمالية التي تزعم إن الاسلام والرأسمالية متوافقان، والحقيقة عكس ذلك فالاسلام دين يدعو إلى الرحمة والرأسمالية فلسفة تدعو إلى التوحش، لذى سيرى القارئ من يتواطىء على الآخر هل هم المسلمون أم الإسلام أم الخطاب الذي يتوافق مع غرائز الرأسمالية لنرى ذلك في الصفحات القادمة .

إن الاسلام الذي حرر الانسان من الرق والعبودية، والذي اطاح قبل خمسة عشر قرنا بكل إشكال الاقطاعيات، وشارك في معركة تحرير الأرض والانسان، وهو الدين الذي دافع عن الحريات وكافح المستغلين ودافع عن الفقراء والمعدمين ومنح اتباعه العدالة الاجتماعية، وارسى قواعد السياسي والعدل المالي والعدل في الفرص"١، والعدل في الجزاء اذ ثبت ذلك بالدليل القطعي .

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا لا ينفض المسلمون الغبار عن سلوكهم المشين، ويعلنوا مقاومة الليبرالية الجديدة ويسعوا لسحقها بشتى الوسائل، والا فهم متواطئون معها حتى العظم سواء في شقها الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي أو العسكري، واكبر دليل على ذلك ما يجري في العراق وفلسطين وخاصة احداث غزة ومجازرها الاخيرة.

انني اقول هذا الكلام من مطلق انه الاسلام الحقيقي لا يمكن إن يتحالف مع الظلم والظالمين والطغاة والطغيان والاستغلال والمستغلين، ولا يمكن إن يسمح لتجار الاديان إن يشوهو حقيقة الاسلام المزيف لأن العدالة تحتاج إلى اسلام مناضل، اسلام ثوري أي اسلام يساري لا اسلام خانع يفرز ثقافة الخنوع وثقافة الطاعة، ويخلق مجتمع اشبه بالقطيع، وكأن القرآن الكريم يصدع رؤوسنا عندما يخاطبنا ويخاطب هولأ المتسترين بالدين والعقيدة " بل هم كالانعام واضل ".

كل ما سبق ذكره يقودنا للبحث عن اشكالية العلاقة ما بين الاسلام والليبرالية الرأسمالية، وهنا يطرح السؤال التالي هل الليبرالية المتطرفة قادرة على معالجة مشاكل المجتمعات إم إن الاسلام اصبح عاجزا عن مواجهة هذه الآزمآت، سنحاول

إن نعرض آزمآت الامة لنرى فعلا هل الاسلام يملك مشروعا نضاليا وتحرريا لاخراج الفقراء من معتقلات الفقر والجوع ؟

من خلال تشريح بسيط لابرز المشاكل التي يعاني منها المجتمع نجد إن العدالة الاجتماعية هي العنوان الرئيسي للفكر الاقتصادي، وان العدالة في الاسلام ترتكز على توزيع الثروة لا إلى كنز الثروة وزيادة التراكم الرأسمالي إضافة إلى احقاق الملكية واحقاق الاجور للعمال، وتكافؤ الفرص، وزيادة الانتاجية، كل هذه المحاور هي ابرز محاور اشكالية العلاقة ما بين الاسلام والرأسمالية .

وهنا يبرز السؤال هل فعلا الاسلام قادر على توفير هذه العدالة واركانها في المجتمع المعاصر الذي نعيش فيه ؟ الجواب قطعا نعم لنرى المجتمعات المعاصرةتعاني منعدة محاور وهي نفسها المحاور التي تتشاكل ما بين الاسلام والليبرالية، وعلى النحو التالي :

المحور الاول : سؤ توزيع الثروات والملكيات : يزعم الليبراليون الجدد واجدادهم من الليبراليون الكلاسيكيون بأنهم يهدفون إلى توزيع عادل للثروة، والحقيقة تؤكد عكس ذلك، فالاقتصاد الرأسمالي الليبرالي هو اقتصاد يهدف إلى تراكم الثروة أو قل نهبها من خلال ضحكه على الذقون " كيف تصبح مليونيرا، وكيف تصبح ثريا "، وبشتى الوسائل لكن ليهمه توزيع الثروة أي إن مبداء العدالة الاجتماعية غائب .

إن الليبرالية تدعي انها جاءت من اجل الفرد وحريته، وهي تقر دائما انها مع الملكية الفردية، وهذا يجعل من الليبرالية انها تقدمت على الماركسية في هذا الجانب حيث انها لم تغفل الجوانب الفطرية في الانسان والفرد، لكن يجب إن نقر إن مبداء الفردية اوحرية التملك للفرد ليس حبا بالفرد بل حبا من اجل زيادة ثروة الفرد على حساب الجماعة .

كما إن الاسلام يتوافق مع الليبرالية في الملكية الفردية من حيث الشكل، ولكن يتصادم معها من حيث المضمون والمحتوى، بعبارة أخرى الاسلام من حيث الشكل يتوافق مع اراء كهنة الليبرالية وخاصة افكار آدم سميث وريكاردو وغيرهم، لكن أي ملكية فردية ارادها الاسلام ؟

إن الملكية الفردية في الاسلام هي ملكية مقيدة وليست مطلقة كما يتوهمالبعض، وهذا هو السر الذي يعتقد به بعض الجهلة من إن الاسلام يتصادم مع الماركسية في موضوع الملكية الفردية، بل إن الملكية في الاسلام هي التي تنشاء من اصل صحيح للتملك بوسائل صحيحة يعترف بها الاسلام،فالعنصر الرئيسي للتملك في الاسلام هو العمل أي عمل الجسد والفكر، وعلى هذا الاساس حرم الاسلام الفائدة والربا لأن الزيادة التي ترد مع المال المقترض لم تنتج من عمل، وانما نتجت عن رأس المال والاخير ليس سببا في حد ذاته من اسباب الكسب المشروع، ولا جزاء عليه لأن الجزاء لا يترتب إلا على العمل البشري وحده، ولا جدال في إن هذا المبداء الاساسي للتملك والكسب في الاسلام، كما إن الاسلام لا يبيح الغش والمغامرة ولا الاحتكار ولا الربح الفاحش ولا الربح المنقطع من اجور العمال التي تبتلع نصف الربح، ولا يعترف الاسلام بالسرقة والنهب والقرصنة والمتاجرة بالبشر وباعضاءهم وبدمائهم،

والاكراه الذي مقته الاسلام ونعى مبداء الكراهية من ثقافته، وكل ملكية لا تقوم على الاسس الصحيحة التي يعترف بها الاسلام أو قامت عليه، ولكن نموها لن يتم إلا بالوسائل التي يقرها ولا يعترف بها ولا يوفر لها الضمانات "٢".

إن هذا المبدأ الاول من مبادئ النظام المالي في الاسلام هو الملكية والاسلام بطبيعته حصّن الملكية الفردية ووضع لها محددات اهمها منع التضخم الفاحش في الثروة، بينما الرأسمالية الليبرالية المتوحشة ولدت من اجل الربح الفاحش، فالقرآن الكريم يقول " ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده ايحسب إن ماله اخلده كلا لينبذن في الحطمة وما اراك ما الحطمة نار الله الموقدة التي تتطلع على الافئدة انها عليهم مؤصدة في عمد ممددة، وقوله تعالى: ((والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم)).

إن الاسلام اعتبر إن المال الذي ينشاء من الجهد الذاتي بالعمل والذي لا ربح فيه ربحا فاحشا، والذي تبلغ فيه اجور العمال المنشئين له نصف الربح ولا يتضاعف بالربا أو الغش، ولا يقوم على الاحتكار أو الابتزاز، ولا يمكن إن يصل بطبعته إلى حد التضخم، والذي يؤذي المجتمع ويخلق فوارق طبقية، وينبغي إن نؤكد إن منبع سياسة المال في الاسلام هي الزكاة وهي ضريبة دائمة تؤخذ من الاغنياء وتعطى للفقراء، وهي ثابته بنسبة ٢,٥%، والاهم من ذلك إن الدولة هي التي تجمع الزكاة وتفرضها على الاغنياء لتوزعها على المستحقين، وهنا نلاحظ إن الدولة في الخطاب الاقتصادي الإسلامي هي عنصر محوري من عناصره، ولا يمكن إن إن يضحى بالدولة، ويسعى إلى الغاؤها أو يعمل على افلاسها لانه عندما يتم تصفية الدولة واضعافها معناه إن قوة السلطة فقدت هيبتها فكيف سيكون مستوى وشكل التعليم والصحة والعمل والانتاج .

إذا توصلنا إلى إن الاسلام لا يعترف بملكية لا تقم على اساس صحيح للتملك أو لم تنم بوسائل النمو الاقتصادي التي يعترف بها، لكن هذا ليس كل حقوق الاسلام في المال والسياسة المالية بل إن الاسلام اعطى سلطاته للدولة ممثلة بالمجتمع لا الفرد بل لمواجهة آلآزمآت العاجلة، فحسب بل لدفع الاضرار المتوقعة أي إن الاسلام اعتبر الولاية العامة عن المجتمع للدولة، وبذلك فانه يختلف اختلافا جذريا مع الليبرالية التي تطالب باقصاء الدولة وتصفيتها، فالدولة من وجهة نظر الاسلام واجبها الرئيسي حماية المجتمع وتحقيق الامن الشامل سواء اكان اجتماعيا ام عسكريا أو الامن الداخلي أي إن الدولةهي التي تسير الاقتصاد وليس السوق كما يزعم كهنة السوق .

إن الدولة في الاسلام يحق لها إن تنزع الملكيات والثروات جميعا وتعيد توزيعا على اسس جديدة، ولوكانت هذه الملكيات قد قامت على الاسس التي يعترف بها الاسلام ونمت بالوسائل التي اقرها لأن دفع الضرر عن المجتمع كله أو اتقاء الاضرار المتوقعة لهذا المجتمع اولى بالرعاية من حقوق الافراد، فنظرية الاسلام في التكافل الاجتماعي لا تجعل هناك تعارضا بين حقوق الفرد وحقوق المجتمع، وكل ضرر يصيب المجتمع يعده الاسلام ضررا يقع على كل فرد ويحتم على الدولة إن تقي هولأ الافراد من انفسهم عند الاقتضاء "٣".

إن الملكية الفردية تحضى بكل احترام وتقدير لأن النظام الاقتصادي الإسلامي يلبي ميول الافراد الطبيعية في التملك ويحثهم على بذل اقصى الجهد في الإنتاج ثم يضع كل هذه الخبرات في خدمة المجتمع عند الاقتضاء، وهو نظام مشابه للماركسية لكن اقدر منها لانه حافظ على الملكية الفردية،وهوكذلك اعدل من الرأسمالية، ومن هنا فكما ركزت الماركسية على الحركة العمالية واعتبرتها اهم اركانها، فان الاسلام اعتبر إن نضال العمال والطبقات الكادحة هو غايةالمرام، ولذلك فالله سبحانه وتعالى يخاطب الرسول الكريم حاثا اياه على الالتفاف مع الطبقة الكادحة والمناضلة، وان يبتعد عن القوى البرجوازية الاقطاعية مصداقا لقوله تعالى: ((واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ولا تعدوا عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا "، وقوله تعالى " ونريد إن نمن على الذين استضفوا في الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين)) .

المحور الثاني : موقف الاسلام من العمل والعمال والاجور : العمل من اهم الوسائل التي اباحها الاسلام لتنمية الثروة فهو اذن قيمة اساسية من القيم الاجتماعية، فالاسلام قدس العمل واكد على إن اليد العليا المنتجة خير من السفلى التي لا تعمل، واكد على اهمية احتراف العمل، بل اعتبر إن من حق العمال الحصول على نصف الارباح، والمبداء العام الذي يجعل للحاكم إن يستمدمن الإحكام بقدر من الاقضية بجعل الدولة مسؤولة عن حقوق التشريع للطبقات العماليةبما تراه دائما وفقا لمصالح المجتمع المتجدد ومبداء المصالح المرسلة أي مصالح المجتمع التي لم يرد بها نص ومبداء سد الذرائع أي مواجهة الاخطار المحتملة، وهذان المبدأن كفيلان بمنح الدولة كل الحرية في التشريع حسب مقتضيات الاحوال في حدود العدل، بل إن الاسلام اباح للعامل إن يصبح مالك يتدرج في الحصول على هذا الموقع وان يصبح مستمرا .

كما إن الاسلام حرم كل اجراء يؤدي إلى الترف في جانب والحرمان في جانب آخر، بل إن الاسلام مقت الفقر مصداق لقول الرسول الكريم " اللهم اني اعوذ بك من الفقر "، كما إن الاسلام حارب احتباس المال في أيدي قليلة وتداوله في محيط ضيق، وان من اهم مبادئ المال في الاسلام الايكون المال في أيدي الاغنياء وحدهم لقوله تعالى " كي لايكون دولة بين الاغنياء منكم "، فكل نظام للاجور يؤدي إلى هذه النتيجة حرمه الاسلام .

واما ساعات العمل فهي محددة بالمفهوم الإسلامي العام الذي يحرم الضرر " لاضرر ولا ضرار "، فكل مايؤدي إلى ارهاق العامل أو حرمانه من الراحة الضرورية أو من حق الاطمئنان النفسي على حاضره ومستقبله هو نظام لا يقره الاسلام في العمل ولا يرضاه، وعلى الدولة إن تشرع هذه الحدود حسب المقتضيات

المحور الثالث : الاحتكار : اعتبر الفكر الإسلامي إلى إن الاحتكار يؤدي إلى تحكم صاحب العمل في العمال فوق تحكمه بالسوق والاستهلاك لأن العمال الذين يعملون في صناعة أو حرفة محتكرة لفرد أو لشركة يعانون نظاما اشبه بنظام الاقطاع كل ما هناك إن الاقطاع الكلاسيكي احتكر الأرض، والاحتكار هو احتكار للصنف، وبذلك فان الاسلام وقف موقفا عدائيا ضد الاحتكار، وهذا يعتبر ركن

اساسي من اركان النظام الرأسمالي، كما إن الاسلام حرّم حقوق الامتياز بالنسبة للموارد العامة والخدمات العامة، واكد على التاميم "٤"، فهو مبداء رئيسي من مبادئ الاسلام، وبذلك نلاحظ إن الاسلام والماركسية توافقا مع هذا المبداء العام حيث يقول الرسول الكريم " الناس شركاء في ثلاث المال والكلأ والنار ".

المحور الرابع عدم تكافؤ الفرص : الاسلام بطبيعته الثورية يكره الاخلال بمبداء المساواة في أي صورة من الصور، وفي أي موضع من الاوضاع ولا ينفي شيئا من محيطه، كما انه ينفي التفاوت في الطاقة والمقدرة، لكن الجميع يجب إن تتاح لهم فرص متكافئة فاذا سبق احب موهبته وحدها لا بأي اعتبار آخر فذلك هو السبق الوحيد الذي يقره الاسلام لأن لا احد بمولده خير من احد، والولادة في أي بيت علا أو هبط لا تمنح الفرد ميزة زائدة، ولا تسلبه ميزة قائمة فقد عادى الاسلام الطبقات ومقتها، والاسلام لا يقر الامتيازات الكاذبة التي تمنح للاطفال بمجرد ولادتهم في بيت أو اسرة أو تمنح للابناء لمجرد خواطر الاباء وهذا الذي يتيح له الالتحاق بالوزارة الفلانية أو العلانية بمجرد انه من اسرة ارستقراطية، كل هذا لا يقره الاسلام لانه يصطدم مع المبادئ التي جاء بها " لافرق بين عربي واعجمي الابالتقوى ".

إن الاسلام جاء ليصرخ في وجه كل الاستثناءات والمحسوبيات التي أصبحت الان قوام الدولة وقوام المجتمع، ولوكان الاسلام يحكم فان عليه إن يزيل هذه الاخطاء، واذا كانت خلال عهده السابق فان الخلل ليس في الاسلام بل من يطبقون الاسلام "٦".

المحور الخامس : فساد العمل وضعف الإنتاج : الواقع الاجتماعي والسياسي في عالمنا اليوم مليىء بالفساد بشتى انواعه، والليبرالية المتوحشة تزعم إن الدولة هي المسؤولة عن الفساد والعكس صحيح، إن المسؤول عن الفساد ليس الدولة، ولكن الطبقة الحاكمة النفعية الانتهازية التي وجدت نفسها في ظل البيروقراطية الحكومية، وان الأصل إن يتم تنظيف اجهزة الدولة من الفساد، لا إن نحمل شجرة الدولة ونسعى إلى نشرها وتقطيعها، إن الفساد يساهم في تدني مستوى الانتاجية، بل ويساهم في شلل المؤسسات الانتاجية .

اننا في الحقيقة نعيش ألان على حافة الهاوية والخراب بسبب تناقص الغلة وضعف الإنتاج وان مربع الفقر والتخلف والبؤس والهوان لا تحييف بنا لمجرد سؤ التوزيع وحده، بل لأن مجموع الثروة في حد ذاته ضئيل، ولأن الإنتاج العام دون ما ينبغي إن يكون عليه بكثير .

هذا الفساد، وهذا الشلل كلاهما نتيجة سؤ توزيع الثروة والملكيات، ووليد فساد نظام العمل والاجور، وعدم تكافؤ الفرص والجهد والجزاء ووليد انعدام تكافؤ الفرص والحل بالقضاء بذلك على القوى والكفايات التي لم توهب نعمة الولادة في بيت مرموق أو الاحتماء ببيت من بيوت الثراء، ثم من بعدذلك كله وليد الانحلال الخلقي الذي ينشاء من كل هذه العوامل جميعا، وينشاء من خواء الضمير من عقيدة دافقة توقظ شعور الفرد بالواجب وتدفع المجتمع إلى الخلق والتقدم والاستعلاء.

إن الاسلام يعالج هذه المشكلة بالعقيدة الدافقة التي تملأها فراغ النفس، وتجعل الفرد هدفا اكبر من ذاته، إن الفرد بلا عقيدة كلية تربطه بالارض والسماء هو قزم ضائع، ولقي مهمل، والعقيدة ضرورية لقد آلت بنا الاوضاع إلى فساد في الذمم والضمائر واستهتار بالعمل وبالواجب، لا يقتصر اثرها على مجال دون مجال، وجريمة الاستثناءات في دواوين الحكومات انتهى بالمحظوظين سواء الاستهتار بالعمل لأنه يؤدي إلى ثمرة وخاصة الفاسد لا يعاقب لأن الفوضى ايسر من النظام في نظرهم في جوتغيب عنه العدالة ولا وزن للجهد ولا جزاء، وجريمة انعدام وتكافؤ الفرص اهدرت وبددت ثروات بشرية هائلة وحولتها إلى فتات وحطام، وجريمة تركز الثروات في أيدي الاقلية واحتكارها في حيازة عدد محدود انتهت إلى تعطل الملايين وتمضية اوقات فراغهم، وبذلك أصبحت هذه الملايين مستهلكة لا منتجة لا تجد ما تعمل، والدولة لا تجد المال للمشروعات الانشائية لانها لا تحصل إلا على ميزانية هزيلة من ضرائب هزيلة اشفاقا على رؤوس الاموال إن تضار، ثم خواء روح الشعب من العقيدة الدافعة للعمل، وحساسية الضمير، إن الاسلام جاء ليحارب البطالة بكل روح قتالية، ويكافح للقضاء عليها، الاسلام خصم عنيد للتبطل الناشىء عن تكدس الاموال، فلا جزاء إلا على الجهد ولا اجر إلا على العمل لذلك فان الاشخاص الذين لا يعملون ولا ينتجون فثراؤهم حرام، واموالهم حرام، وان الدولة إن تنتفع بهذا الثراء لحساب المجتمع والا تدعه للكسالى، وهذا بخلاف رأي الرأسمالية التي لا يهمها حل مشكلة الفقر والبطالة والمهم الربح والنهب، ولو كان ذلك على حساب التضخم والبطالة والفقر .

سبق وان قلنا انه لايوجد نظرية متكاملة في الاسلام عن الاقتصاد، ولا انفي إن الاسلام لا يصلح كنظام اقتصادي بل اقول إن المفكرين الاقتصاديين يعتبرون أن الاسلام لديه اسس اقتصادية لم يتم البناء عليها، فتارة تجد الاسلام يتوافق مع الرأسمالية، وتارة يتوافق مع الاشتراكية، والسؤال المطروح ايهما الصحيح، علما إن الاسلام اقدم تاريخيا من الرأسمالية والاشتراكية ؟

إن تطبيق البرنامج الاقتصادي في الاسلام ليس بمعزل عن باقي برامج الاسلام لأن الاسلام هو كل متكامل وهو نظام شمولي، ولذلك إذا اردنا إن نحكم على البرنامج الإسلامي فلا بد إن نسمح للاسلام أن يحكم، لأن هذا الدين ما جاء لينام في الصوامع والتكايا اوليستكين في القلوب، إنما جاء ليحكم الحياة ويصوغ المجتمع وفق فكرته الكاملة عن الحياة والكون والانسان لا بالوعظ والارشاد فحسب بل بالتشريع والتنظيم، الاسلام جاء ليترجم مبادئه ونظرياته نظاما وحياة، ويجعل اوامره ونواهيه مجتمعا حيا .

الاسلام مساره يبداء من عقيدة تتمثل في شريعة،وشريعته هي تفسير وتحقيق لهذه العقيدة، ووحدة شعورية تشريعية تتألف منها حياة واقعة ممثلة في العقيدة والسلوك، وفي العبادات والمعاملات وفي السرائر والجوارح، وفي الافراد والجماعات، لكن السؤال المطروح ما هو نظام الحكم الذي نريد هل تجربة طالبان تمثل الاسلام ؟ هل الاسلام الحالي في المملكة العربية السعودية يمثل الاسلام ؟ وهل

التجربة السودانية تمثل الاسلام؟، وهل التجربة الايرانية وتفريخاتها في العراق تمثل الاسلام ؟ الجواب قطعا أو قل كلا فهذه التجارب مشوهة للاسلام، والاسلام الحقيقي هو الاسلام الذي لا يوجد به طبقة دينية ولا رجال دين تختلف عن باقي المجتمعات والطبقات، حيث جاءت مشوهة لطبيعة الاسلام، ويعتقد كثير من الناس انه إذا تم تطبيق الاسلام فانه سينصب اعواد المشانق لمعتنقيه، وان حكم الاسلام سيكون قريبا من حكم رجال الدين المسيحي في العصور الغابرة، وهذا مفهوم خاطىء فالاسلام حكمه يجب إن يمتاز بالعدالة والمساواة، وتكافؤ الفرص، ولا يوجد في الاسلام حكم العمامات، ولا يوجد في الاسلام رجال دين، إنما يوجد علماء فقط منهجهم فقهي علمي، لا يوجد اقطاعيات لا إلى رجال الدين ولا اقطاعيات إلى الولاة والحكام فالمجتمع الإسلامي يجب إن تتكافىء فيه الفرص للجميع، وكل حسب مسؤوليته .

فالاستبداد الذي مارسه الخلفاء الأوائل لا يمثل الاسلام والتطرف الذي يجري الان هو خارج عن سماحة الاسلام، لكن الاسلام له مباني وكل مبنى له ظروفه ومستجداته، فالبناء الاجتماعي في الاسلام يختلف عن السياسي أو الاقتصادي، المهم إن لا تتصادم المباني مع ثوابت الاسلام وهي ما اطلق عليه العلماء مقاصد الشريعة كالعدل والمساواة والحرية والشورى وتحديد المسؤوليات للخليفة اوالحاكم وتكافؤ الفرص، والاهم من ذلك إن الحكومة الإسلامية يجب إن تكون منتخبة انتخابا شوريا حتى تتمكن إن تتميز عن الحكم الدستوري النيابي، لا يوجد استبداد في الاسلام، واذا حصل يجب على النظام السياسي الإسلامي إن يضع الضوابط التي تحول دون توفر بيئة ضامنة للاستبداد كانشاء الاحزاب السياسية ومراقبة الولاة والحكام واطلاق حرية الصحافة واستغلال القضاء .

فلسفة المال في الاسلام

لاحظنا في الصفحات السابقة إن الفكر الإسلامي منقسم بين موقفين احدهما مناهض للرأسمالية يفسر الاسلام تفسيرا اشتراكيا اوقل يساريا وآلاخر مؤيد ومتوافق مع الرأسمالية أي انه يفسر الاسلام تفسيرا يمينيا ورأسماليا، والتفسير الاخير هو الذي جعل الخطاب الديني في الخمسينات والستينات وحتى اواخر الثمانينات من القرن المنصرم يتحالف مع الامبريالية الاميركية في مواجهة القطب الاشتراكي الماركسي الملحد .!!

إن هذه الازدواجية تضعنا إمام استفسارات هل الخطاب الديني بشقيه اليميني واليساري يفسر تفسيرا ايدولوجيا تبعا لمصلحة الايدولوجيا نفسها أي إن النص الديني سواء اكان نصا قرانيا ام نصا نبويا يحتاج إلى دراسة علمية مستفيضة، وفي هذا المجال سنناقش مساءلة فلسفة المال في الاسلام حتى نصل إلى ايهما اقرب إلى روح الاسلام، الخطاب اليميني ام اليساري، وبالمناسبة فاننا سنقوم في الصفحات القادمة من تحليل لهذين الخطابين وتحديد موقفهما واستراتيجيتهما .

صورة المال في الخطاب القرآني

تشير الدراسات إلى إن المال في الخطاب القرآني جاء على صور كثيرة حيث ذكر ٨٦ مرة أي انه اخذ حيزا كبيرا في القرآن الكريم، ولم يأتي طارئا أو صدفة، ومن خلال الاطلاع على الدراسات المنهجية والعلمية فقد بحثنا في كتب الاقتصاد التي انطلقت مناهجها من منظور اسلامي فلم نعثر على دراسات معمقة تتحدث عن طبيعة المشهد المالي في القرآن لنتعرف على سياسة المال بقلم اقتصادي بحت، حيث إن الدراسات الاقتصادية ذات المنظور الإسلامي تناولت تحليل الواقع الاقتصادي والمالي باسلوب تقليدي وكلاسيكي، لكنني تفاجأت بدراسة علمية موثقة اقدم عليها المفكر والفيلسوف الإسلامي الدكتور حسن حنفي رئيس قسم الفلسفة بجامعة القاهرة، والذي اعتمدت على كتبه وابحاثه في التعرف على واقع الفكر الإسلامي القديم والحديث، وقد كان بارعا في تحليل واقع الاسلام والمسلمين ومقدرته الفائقة على تشخيص آلآزمات التي تعصف بالواقع الإسلامي المعاصر، حيث قدم لنا في كتابه اشكالية اليمين واليسار في الفكر الديني، حيث افرد فصلا كاملا عن المال في القرآن الكريم، وسنحاول إعادة انتاج خطاب حنفي للاستزادة والمعرفة، ولنتعرف على القوانين التي خرج بها عن نظرية المال في الاسلام واهميته، وهل الاسلام في نظرته للمال هي نظرة استهلاكية ام انتاجية، ولقد لجاء المفكر حنفي إلى اسلوب علمي حيث اعتمد على اسلوب تحليل المضمون، وخرج بهذا التحليل إلى تصورات منطقية ومعرفية حيث تناول كل الآيات القرآنية التي ورد فيها أي اشارة سواء بالتصريح أو بالتلميح عن المال .

لقد اوضح حنفي إن كلمة المال وردت في القرآن الكريم ٨٦ مرة أي إن المال احتل مساحة كبيرةفي الخطاب القرآني، والمفكر حسن حنفي قام بإجراء تحليل لغوي لمصطلح المال في القرآن فقد توقف على المعاني القرآنية التي تناولت المال بكل دقة وتفصيل، هذا وقد انطلق حنفي في تحليله على ثماني محاور رئيسة حيث سنسلط الضوء على كل محور من هذه المحاور .

التحليل اللغوي للمال في القرآن الكريم

لقد ذكر لفظ المال في القرآن في صورتين مختلفتين، اولهما في صيغة الغير مضاف إلى الضمائر " المال، مالا، اموال " حيث وردت ٣٢ مرة، وثانيهما جاء على صيغة المضاف إلى الضمائر " ماله، مالية، امولكم، اموالنا، اموالهم " حيث وردت ٥٤ مرة، وهذا يدل على إن المال قد يكون له وضع مستقل في العالم عن النشاط الانساني لا يضاف إلى فردا اوجمعا، وقد يدخل في علاقة مع الآخرين في صورة نشاط وجهد واستثمار، والمال المستقل عن النشاط ينبئ عن انه وضع طبيعي لا يمتلكه احد بل هو موضوع في الطبيعة أو واقعة مستقلة " ٧".

نعود إلى صلب موضوعنا حيث اشرنا إلى إن لفظ المال ورد على حالتين، ٥٤ +٣٢ مرة، ولما كانت الاضافة الاكثر من شيوعية عدم الاضافة كانت علاقة المال بالآخرين هي محور نظرية المال أي المال المستثمر بعد إن اصبح طرفا مهما في علاقته مع الانسان، إن فلسفة المال تنطلق بان المال لا يبقى في بطن الطبيعة، بل لا بد من اخراجه واستغلاله واستثماره كي لا يبقى مكتنزا تحت الأرض، فالمال للاستعمال وليس للاكتناز، والمال ديناميكي وليس استاتيكي، المال طرف في علاقة الانسان من حيث هو نشاط وحركة وفعل وجهد وطاقة وتوليد، فاذا كانت البلاد النامية تعاني من نقص في الاستثمارات بالرغم من وجود المال في أيدي الطبقات العليا بما يتمتعون به من قوة شرائية ضخمة تسمح باستهلاك الاموال أو بتهريبها أو باستثمارها في عقار غير منتج أو مضاربة أو عمولة أو سمسرة، فكل ذلك اكتناز للمال دون جهد ونشاط .

ومن هنا جاء تحريم الربا في الاسلام لأن المال لا يولد المال تلقائيا بل الجهد هو الذي يزيد في حجم المال، هذا واشار حنفي إلى إن لفظ المال ذكر على شكل غير مضاف من خلال مايلي : مرة نكرة " مالا، اموالا ١٧ مرة "، ومرة معرفة " المال، الاموال ١٥ مرة " مما يشير إلى إن المال معروف وليس مجهول، وانه معلوم وليس خفي، فالمال يدخل في نظام اقتصادي ومعروف مصدره واستثماره وتنميته، ولا يترك هباء من اين اتى وكيف تكاثر واين انتهى بل يدرس ويعين مساره .

نظرية المال : إن المال له نظرية يقوم عليها وليس مجرد موضوع أو شيء يختفي وتستر، قد يكون التعريف بالف ولام التعريف " الماتل، الاموال "، حيث وردت ٧ مرات، وقد يكون بالاضافة " مال الله، مال اليتيم، اموال اليتامى، اموال الناس " حيث وردت ثماني مرات مما يدل على إن التعريف بالمال لا يتأتى من كونه موضوعا طبيعيا معروفا في العالم بل يكون تعريفه بنسبته إلى ألاخرين، والاخرون هم الناس أولا، كما وذكرت اموال الناس اربع مرات ثم اموال اليتيم واليتامى ثانيا حيث ذكرت اليتيم مرتين واموال اليتامى مرة واحدة، ثم مال الله ثالثا حيث ذكر مال الله مرة واحدة، فالمال للناس أي للجماهير وللعامة وللاغلبية ولاصحاب المصلحة الحقيقة، وعلى رأسهم اليتامى والمحتاجون ومن لا عائل لهم وليس للمكتفين الذين تفيض الاموال عن حاجتهم، فالمال لا يكون إلا عند صاحب الحق، والحق يتحدد بالحاجة والمال ايضا هو مال الله، وليس ملكا لاحد، ولم يظهر في القرآن ولو مرة واحدة إن المال مال الاغنياء والمترفين .

ومن جهة أخرى ذكر لفظ المال غير المضاف في صيغيتين مرة منفردا " المال، اموالا " ١٨ مرة، ومرة جمعا " الاموال، اموالا" ١٤ مرة، فالمال قد يكون مفردا وقد يكون جمعا عندما يتراكم، ولكن المال في صيغة المفرد اكثر شيوعا من المال في صيغة الجمع مما يدل على إن تراكم المال في اموال تكون اقل حدوثا فاذا حدث فانه يكون للاستثمار، وتكون اموال الناس، فالتراكم لا يكون للفرد خاصة وان كل الحالات التي اضيف فيها المال في صيغة اموال كانت نسبتها إلى الناس في صيغةو اموال الناس .

هذا وقد ذكر لفظ المال غير المضاف وفي حالات الاعراب تارة مرفوعة مرتين، ومنصوبا ١٧ مرة، ومجرورا ١٣ مرة، فالمال لا يتأتى مرفوعا إلا نادرا أي إن المال لا يمكن إن يكون فاعلا اومبتداء أو خبر لأن المال لا يفعل من تلقاء ذاته، بل من خلال الجهد البشري، ولذلك حرم الاسلام الربا، ولا يكون المال مبتداء اوخبرا لأن المال ليس موضوعا اومحمولا في قضية خبرية بل هو موضوع للنشاط والجهد، وفي المرتين التي ذكر فيهما المال مرفوعا حيث اخذ معنى سلبي مثل المال والبنون زينة الحياة الدنيا أي يكون المال لا قيمة له يكون ظاهرا خادعا وعارضا لا جوهرا اومثل قول الله تعالى " لا ينفع مال ولا بنون الامن اتى الله بلب سليم "، فالمال هنا ليس بذي منفعة في المواقف المصيرية حيث يتحدد فيها عمل الانسان، وحيث يتم تقييم جهده ونشاطه ومسار عمله، فالمال ليس مقياسا للتقييم بل العمل هو المقياس ولا يغنى الكم عن الكيف ولا الموضوع عن الذات ولا الامكانية عن التحقيق .

فاذا جاءالمال مجرورا فانه يكون اكثر شيوعا من وروده مرفوعا، فان الجر يأتي بالاضافة مثل "ذا مال " أو بالعطف مثل " واموال وفرتموها "، والاضافة للعطف لا يدلان على وضع اللفظ،فالمضاف اليه يرجع إلى وضع المعطوف، ولكن الاهم ورود اللفظ مجرورا بحروف الجر ١١مرة مما يدل على حركة المال المستمرة منه واليه "٨"

اما إذا جاء المال منصوبا فهو اكثر حالات الاعراب شيوعية من الرفع والنصب، وهو يدل على انه المال موضوع للنشاط، وانه يقع عليه الفعل، وانه طيع في يد الانسان، وقد يأتي أولا بمعنى سلبي، وحتما لارتباط الشعور بالمال حتى يضل الشعورالانساني مستقلا، فجمع المال ليس هدفا في ذاته دون استثمار، وليس صرفه هدفا في ذاته فذاك استهلاك بلا انتاج وليست كثرة المال اوقلته ليست زيادة في القيمة الذاتية للانسان اونقصانها، فالكم ليس مقياسا للكيف، .ومن هنا يتوصل المفكر حنفي إلى إن المعاني للفظ المال تحقق مايلي :"٩"

١- تثبت استقلال الشعورالانساني

٢- ضرورةمحافظة الانسان من هو بحاجة اليه

٣- ضرورة اعطاء المال لمنهو في اشد الحاجة من الانسان وايثار الآخر على النفس، فاستقلال الشعور ليس واقعة فقط بل هو واقعة يحافظ عليه بالحركة والنشاط، وبمقاومةالرغبةفي الاستحزاذ علىما لدى الاخرين، وبايثار آلاخر على الذات فالحاجة هي التي تحدد المال وحركته بين الناس فيتجه المال إلى من هو في حاجة اليه .

بعد كل هذا العرض عن سياسة المال في الاسلام فان مضمون المال في القرآن ينحصر فيما يلي :

١ـ المال مال الله يورثه لمن يشاء من عباده الصالحين فملكية المال هي لله وضعه الله امانة ووديعة يتم انفاقه فيما أمر ووحد مصادر الإنفاق ولا يجوز الاستحواذ عليه .

٢- ان المال مال الله يوجهه الى الآخرين وليس ارثا أو احتكارا وملكا لاحد، ان فكرة المال واستثماره تخضع لقوانين اجتماعيةوليست مكتسبا لاحد دون آلآخر فاذا

ما خضع المال لهذه القوانين اصبح في يدالجماعة التي تستثمره لصالح الجماعة، وبتعبير آخر المال مشاركة بنص القرآن " وشاركهم في الاموال " وليس استحواذا، المال يتحرك بين الافرادكتحرك المال بين الاواني طبقا للحاجة، وليس من اجل الزيادة، وطبقا للاستثمار وليس طبقا للاكتناز، فاذا ما حاول فرد أو جماعة وقف حركة المال تدخلت السلطة الشرعية وفكت حصار المال، واخذت حق الآخرين، والصدقة ليست احسانا اوتصدقا أو تفضلا بل هي حق للآخر في مال الفرد، وإعادة بناء شعور الفرد وعودته الى وضعه الطبيعي .

ومنه يستحيل لغني إن يضيف إلى امواله مال الفقير أو يأخذ من له مال حق من لامال له حتى لا يتراكم رأس المال وحتى يظل سائلا بين يدي الناس متحركا في الجماعة، فاضافة مال الاخر إلى مال الفرد اثم وعدوان وظلم وبهتان، فالاثم والعدوان والزور والبهتان ليس في العبادات فحسب بل في خروج المال على نظام استعماله، وعلى مساره الاجتماعي، فالايمان مساوي لاستعمال المال حسب الشرع وحركة المال بين الناس دون استحواذ تعبير عن المال، لافرق في الاستحواذ على اموال الناس وبين رجال الدين ورجال الدنيا، أي بين السلطة الدينية والسياسية فكلاهما قديوقفان حركة المال وهو ما يفسر قوله تعالى "إن كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل" فكلاهما قد يوقفان حركة المال وهو مايفسر تاريخيا باستمرار تواطئ السلطة السياسة مع السلطةالدينية على اكل اموال الناس مما يسبب الثورة الاجتماعية التي تعيد حركة المال "١٠".

بعدهذا التحليل المعمق لسياسة المال في القرآن توصل المفكرحنفي إلى إن المال في القرآن يدور حول حق الله وحق آلاخر وحق استقلال الشعور الفردي عنه، وعلى ضؤ ذلك فان الباحث توصل الاى الاستنتاجات التالية:

١- إن الطريق الرأسمالي للتنمية في البلاد النامية هوالطريق الذي ينبع من تراثها القديم ومن وجدانها القومي ومن قيمها وعاداتها وتقاليدها وفي الغالب التراث الديني، ومن ثم وجب إعادة تفسيره على نحويساعد قضية التنمية ويخدم مصالح الاغلبية.

٢- المال مال الله وليس ملكا لاحد، ولكن للانسان حق التصرف وحق الانتفاع وحقا لاستثمار، فاذا ما استغلال انسانا لآخر اواحتكر أو اكتنز فان من حق السلطة الشرعية استرداد الوديعة، لذلك من حق السلطة الشرعية التأميم والمصادرة للصالح العام فملكية المال اقرب إلى الجماعة منها إلى الفردية .

٣- المال حركةاجتماعية بين افراد الجماعة، ولا يجوز اكتنازه أو احتكاره أو الاحتفاظ به بل هو مال سائل للاستثمار، لمصلحة الجماعة، ومن حق السلطة الشرعيةالتدخل لمنع تكديس المال أو اختزانه دون استثمار .

٤- المال وسيلة لاظهار النشاط ولبذل الجهد وليس قيمته في ذاته بل القيمةفي العمل، فالمال لا يولد المال، ولكن ينمو بالجهد، ومن حق السلطة القضاء على كل رؤوس الاموال الطفيلية الناشئة من التهريب والعمولات والسمسرة والمضاربة .

٥- المال ليس للاستهلاك بل للانتاج، فالاستهلاك قيمة ترفيه في مجتمع الوفرةوليس قيمةانتاجيةفي في مجتمع متقشف صاحب رسالة .

٦ـ المال دافعا للعمل في صورة الربح، وليس قيمة في ذاته بديلا عن النشاط، ولا يغني عن العمل الصالح، والمجتمع المادي الذي يقوم على المال في ذاته كقيمة محكومة عليه بالانهيار .

٧ـ المال للبذل والعطاء والدفاع عن القضايا العامة، فالحركة من الشعور إلى المال بالعطاء وليس هدف المال الاكتناز والكسب بل العمل لخدمة القضية العامة عملا بلا اجر، فالعمل الوطني ليس من اجل التكسب .

بعد كل ماذكر الايكفي في هذه التصورات عن نظرية المال في الاسلام، وهو كما أرى ابعد مما يتخيل عن التصور الرأسمالي الذي يقوم على الملكية الفردية والنشاط الاقتصادي الحر والربح والكسب الغير مشروع، ومجتمع الاستهلاك وحياة الرفاهية في تراث البلاد النامية، اذن مما يساعدها على شق طريق لا رأسمالي في التنمية .

هوامش الباب الرابع. الفصل الثاني

١ـ الاسلام والرأسمالية،سيد قطب، ص٤٠

٢ـ مرجع سابق ً، ص ٤٣ـ ٤٤

٣ـ مرجع سابق، ص٤٦ـ ٤٧

٤ـ العدالةالاجتماعيةفي الاسلام، سيدقطب، ص ٤٨

٥ـمرجع سابق، ٤٩

٦ـ مرجع سابق، ص ٥١ـ ٥٢

٧ـ اليمين واليسار في الفكر الديني، د.حسن حنفي، ص ٤٤

٨ـ مرجع سابق، ص ٤٦

٩ـ مرجع سابق، ص٤٧ ـ ٥٢

١٠ـ مرجع سابق، ص٥٢ ـ ٥٩

الفصل الثالث- الباب الرابع

صورة الاسلام في الفكر الماركسي

في الصفحات السابقة تحدثنا عن اشكالية العلاقة مابين الفكر الاقتصادي الإسلامي والليبرالي من وجهة نظر المفكر الإسلامي الشهيد سيد قطب، كما وتناولنا سياسة المال في الاسلام من وجهة المفكر الإسلامي د.حسن حنفي، وفي هذا الفصل سنتحدث عن العلاقة مابين الاسلام والرأسمالية من وجهة نظراشتراكيةقدمها لنا د. مكسيم رودنسون استاذ الدراسات واللغات السامية بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا بجامعة السوربون .

فقد بنى رودنسون رأيه على محورين اثنين اولهما إن الاسلام بطبيعته الكلية لا يرفض النظم الاقتصادية التقدمية، وذلك من خلال دعوته للعدالة الاجتماعية، وهذا الرأي يتوافق عليه معظم دعاةالاصلاح وعلى رأسهم سيدقطب فقدوضع مؤلفا في هذا المجال وخاصة كتابه العداله الاجتماعية في الاسلام، وثانيهما إن الاسلام لايمنع اقامةنظام رأسمالي، وهذا رأي المفكرين البرجوازين وبعض الاقتصاديين الغربين، وكلا الرأيين خطابي لايعتمد على دراسة علمية اوتحليل موضوعي للمشكلة فالرأي الاول دعوة اصلاحيةوالرأي الثاني تأكيد للمصلحة الشخصية اولمصلح الامبريالية الاستعمارية، وهذا التحليل يعبر عنه استاذ الفلسفة حسن حنفي في كتابه فكرنا المعاصر .

ومن ناحية اخرى يرى رودنسون إن الاسلام لا يتصادم مع الملكية بل يعرف الاستخلاف من خلال استناده على قوله تعالى " وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه"، والاستخلاف لا يكون على المال فقط بل على الأرض كلها، فالمال من وجهة نظر الاسلام وديعة لدى الانسان وامانة عنده استخلفه الله عليه فان لم يحفظ هذه الوديعة اعطيت لغيره واستخلف الله سواه مصداقا لقوله تعالى: ((وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم "وقوله تعالى " وان يشاء يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء)) .

هذا وقد ذكر لفظ الملكية في الاسلام مائة وعشرون مرة ولم يرد مطلقا بمعنى الملكيةالخاصة بل بمعنى الملكية المعنوية، فهناك ملك اليمين فقد وردت ١٥ مرة مثل قوله تعالى: ((فان خفتم إلا تعدلوا فواحدة اوماملكت ايمانكم)) أي بمعنى رعاية الانسان والمحافظة عليه، وهناك ملك المفتاح استنادا لقوله تعالى " وما ملكت مفاتيحه " أي بمعنى الائتمان، وهناك ملك النفس حيث وردت ثلاث مرات بمعنى القدرة على النفس لا ملكيةالشيء نفسه، فقد وردت سبع مرات مثل قوله تعالى " لا املك لنفسي نفعا أو ضرا إلا ما شاء الله "، وهناك ملك خزائن رحمة الله مثل قوله تعالى " قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربي لا مسكتم الإنفاق " وهو ملك معنوي في صيغة التهكم والهجاء، وهناك ملك النبوة وهو الملك الذي وهبه الله للانبياء حوالي ثماني مرات

مثل قوله تعالى " قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك من تشاء " وكثيرا وردت لفظة الملك في صيغة التهكم مثل قوله تعالى " اني وجدت امرأة تحكمهم واوتيت من كل شيء " أو في صيغة الرفض مثل قوله تعالى " انى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك منه ".

وبهذا المعنى يشير المفكر حنفي إلى انه يجب فهم السنة والتاريخ، وهناك من الوقائع في عصر الصحابة ما يؤيد هذا الفهم لنصوص الكتاب، فقد الغى عمر بن الخطاب الملكية عام الفتوح ومنعها عن المقاتلين حتى لا يستكينوا ويتركوا الفتح ويركنوا إلى الأرض، وقد اشارت الشريعة في حق الحاكم سلب الملكية المستغلة، وفي شيوعية المرافق العامة كالماء والكلأ والنار، وهذا دليل يثبت إن الاسلام تناول الملكية بخلاف رأي رودنسون عن الملكية العامة لوسائل الإنتاج، وان الشريعة تقرر الملكية العامة لوسائل الإنتاج، وان اردنا الاحتكام إلى اللغة لوجدنا إن لفظ الملك ليس اسما بل اسم موصول " ما " وحرف الجر " ل" وبالتالي فهو لا يشير إلى شيء بل يدل على علاقة وبلغة فلسفية معاصرة نقول إن الانسان في نطاق الوجود لا في نطاق الملكية " ١".

ويحتج رودنسون على اعتراف القرآن بالملكية من خلال تحليل المضمون قائلا " إن القرآن الكريم قد نظم الميراث"، ويرى المفكر حنفي إن هذا الاحتجاج هوحكم سريع فقد ورد لفظ الميراث والارث في القرآن ٣٥ مرة ولم يرد مرة واحدة بمعنى الارث الشخصي بل بمعنى ميراث النبوة أي ميراث العلم والحكمة حوالي ثلاث مرات في قوله تعالى " وورث سليمان داود" وقوله " يرثني ويرث آل يعقوب " أو بمعنى الكتاب حوالي ثلاث مرات " فخلف من بعدهم ورثوا الكتاب " أو بمعنى ميراث الارصض حيث وردت سبع مرات مثل قوله تعالى " إن الأرض يرثها عبادي الصالحون " أو بمعنى ميراث الجنة حوالي اربع مرات مثل قوله تعالى : ((الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون)) وقوله: ((تلك الجنة التي نورثها من عبادنا من كان تقيا)) والله هو الوارث الاول والاخير، كما انه المالك الحق، فقد ورد هذا المعنى كثيرا حوالي ست مرات مثل قوله تعالى " إن نحن نرث الأرض ومن عليها والينا يرجعون " وقوله " إن نحن نحيي ونميت ونحن الوارثون "وقوله " ولله ميراث السموات والارض " والله هو الذي يورث ويستخلف مثل قوله " واورثناهم القوم الذين مانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها " وقوله " ثم اورثناهم الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا "، اما آية الميراث المشهورة التي تضع قواعد الأرض فهي آية شرطية تظهر فيها آداة الشرط " إن " حوالي تسع مرات أي حالات قد تحدث ولكنها لا تحدث بالضرورة، والاسلام حرم تكديس الثروة وكنزها ويوصي بسريانها وباستثمارها ليستحيل على المسلم إن يترك وراه شيء سوى العمل الصالح والذكرى الطيبة، والرسول الكريم لم يوث إلا من درع مرهون ليهودي .

الأجر في القرآن

يحاول رودنسون إن يربط ما بين ورود الاجر في القرآن من اجل ربط أو توافق الاسلام مع الليبرالية الرأسمالية من منطلق إن الاسلام والرأسمالية توافقا على الاجر بخلاف الاشتراكية، وهذا الرأي الذي يتبناه رودنسون ليس حبا بالرأسمالية أو الاسلام بل لإثبات التقارب ما بينهما وهو يعني بصريح العبارة انحيازواضح نحو الاشتراكية على اعتبار إن الاسلام يتماثل مع الرأسمالية في هذه القضية، ولذلك فان البديل سيكون هو الاشتراكية .

إن ورود كلمة آلاجر في النصوص الدينية سواء في القرآن أو السنة فانما يؤشر إلى قيمة العمل وانه المصدرالوحيد للكسب، كما اشرنا في ذلك إلى دراسة سيد قطب حيث اعتبرت الشريعة الإسلامية إن اعطاء العامل اجره قبل إن يجف عرقه على إن معيار العمل في الاسلام هو الجهد، وهو معيار الكسب، وان المال لا يولد نفسه كما هو معمول في النظام الرأسمالي الذي يعتمد على الربا، والاسلام حارب هذه الظاهرة الاقتصادية التي تعطي آلاجر لمن لا يستحق، فآلاجر هونقيض الرأسمالية، والقرآن اشار إلى قصة سيدنا موسى " قالت احدهما ياابت استأجره إن خير من استأجرت القوي الامين " وهذه الاستجارة لموسى كانت مؤقتة بل تحول موسى فيما بعد إلى زوج أي شريك، بل لو وقفنا على العقد الذي وقعه موسى مع شعيب فقد كان عقدا شاقا حيث تطوع بزيادة ساعات العمل، كما إن العمل الذي قام به موسى برغبته، ومن جهة أخرى فهذا العمل مخالف للرأسمالية في قصة موسى مع الخضر، ويؤكد حنفي إن اتخاذ الاجر كان ظاهريا وليس حقيقة في قوله تعالى " فوجدا فيها جدارا يريد إن ينقض فاقامه، قال : لو شئت لاتخذت عليه اجرا ".

نعود الى رودنسون الذي يحاول إن يبحث عن دليل حتى لو كان سطحيا، لكي يلصق الاسلام بالرأسمالية، وهذا منافي لوظيفة النبوة والانبياء الذين يعملون بلا اجر مصداقا لقوله تعالى " اتبعوا من لا يسائلكم اجرا "، وليس معنى هذا إن العلاقة ما بين النبوة والناس والمجتمع هي علاقة نفعية وتجارية، كما إن استعمال الاسلام لغة البيع والشراء لتحديد العلاقة ما بين الانسان والله، فهذا لا يعني إن القرآن يحبذ التجارة، ولا يعني كذلك انكار القرآن للتلاعب بالموازين ورفضه للغش على تصوره للعلاقات بين الناس على انها تجارة بل يستعمل القرآن الكريم لغة المجاز والتشبيه ويدعوالى الهدف في التعامل.

رودنسون يرى كذلك إن القرآن لا ينتقد التفاوت في الرزق ويكتف الخطاب القرآني بلوم الاغنياء ويقلل من شأن الغني يوم القيامة، وهذا في الحقيقة كلها احكام مستعجلة على القرآن، فهوكما تلاحظ تارة يستشهد بايآت لا تفيد ما يقصد اليه فمثلا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ حيث إن هذه الآية لا تفيد التفضيل في المال خاصة وان هناك آيات أخرى لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، ومن هنا فان آية التفضيل بحق نساء رسول الله المشاركة في الحروب والغزوات، كما وسشارك الرجال أي إن معنى التفضيل في الجهاد لا في المال، وان

انكار القرآن على الاغنياء غناهم كما جاء في قوله تعال : ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ فهذا ليس مبداء اخلاقيا وحسب كما هوالحال في جميع الاديان بل جزء من نظام اقتصادي عام يمنع الاحتكار واستغلال الثروات مصداق لقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ ٢".

واما ما يخص محور الزكاة فان المفكر الفرنسي رودنسون يعتبرها العنصر الاستراتيجي في النظام الاقتصادي الإسلامي وهي ليست عملا اخلاقيا فحسب بل انها اشعار بضرورة استثمار المال المختزن بحق الاخرين فيه، وكذلك فان تحريم الربا ليس عملا اخلاقيا فحسب وليس مجرد مانع للفائدة بل يقوم على اساس اقتصادي، وهو إن المال يولد المال ويمكن بيت ما الله إن يستثمر لصالح المسلمين بالقرض وتعطى الفائدة للدولة لا للاشخاص، ويرى احد الباحثين إن منع الربا هو نوع من التأميم لرؤوس الاموال وتحريم الربا مثل تحريم الميسر وجميع انواع الشراء المحرمة مثل بيع التمر على الشجر أو الرضيع في بطن امه "٣".

هذا ويشير باحثون إلى إن آراء رودنسون توافقت مع آراء المفكر الإسلامي أبو الأعلى المودودي في تأييده للملكية الخاصة، وعارضها المفكر الإسلامي ناصر احمد الشيخ الذي أيد منع الاسلام للملكية الفردية للارض، وهنا نلاحظ إن رودنسون يريد تفسير الاسلام تفسيرا ماديا أو رأسماليا، وهذا بحد ذاته يمكن اعتباره موقف دعائي حتى تبقى الافكار الماركسية هي الوحيدة التي تتصارع مع الرأسمالية، وكأنه يريد اقناعنا ان موقف الاسلام هوموقف ذيلي وتابع للرأسمالية !!،ولذلك فعلى مفكري الماركسية إن يسقطوا الاسلام من حساباتهم وهذا ما يريده رودنسون بالضبط.

المفكر الإسلامي حسن حنفي رغم اعجابه الكبير برودنسون إلا انه اعترف إن الاخير ارّخ لنشاة الشيوعية منذ بداياتها التاريخية٤٤٨ـ ٥٣١ أي من مرحلة، كواد الاول " وعندخسرو شروان "**٥٣١ـ** ٥٠٧ ميلادي، أي في بلاد فارس وان كان الاسلام قد سبق الاشتراكية في طرحها فقدكانت الافكار الاشتراكية منذ ايام مزدك إلى الاتجاهات الشيوعية الفارسية السابقة للاسلام، ورودنسون يريد اقناعنا من خلال اجراء عملية فصل ما بين تجربة الاسلام والاشتراكية على اعتبار انه لا يوجد توافقات ما بينهما، ويريد كذلك الصاق الاشتراكية بالفارسية والدليل على ذلك إن رودنسون ينفي وجود فكر اشتراكي عربي تبناه الصحابي الجليل ابو ذر الغفاري وهومن ابرز دعاة الاشتراكية الثورية حيث اعتبره رودنسون شخصية خرافية وهي من صنع الخيال، كما إن حركة الحشاشين القرامطة في التاريخ الإسلامي وهي من الفرق الثورية التي اسست دولة في بلاد المغرب قد فرضت الضرائب على الاغنياء وحاولت اقامةدولة لمصلحة الجميع وان الاسماعيليين ظلوا ينادوا بالملكيةالفردية، وكل هذا الكلام يريد رودنسون إن يصل بنا من خلال تحليله إلى إن الاسلام حليف للرأسمالية ويدعوالى افكارها، كما إن رودنسون في دراسته افرد فصلا عن النظم الاقتصادية في العالم الإسلامي وخاصةالعصور الوسطى ليعطي صورةعن التطبيق الإسلامي كيف كان، كما وقدطرح مجموعة من التساؤلات التالية :

هل عرف الاسلام وسيلة الإنتاج الرأسمالي اوالقطاع الرأسمالي بعدوجود التكوين الاجتماعي الاقتصادي ؟

يجيب على هذه التساؤلات هو نفسه محاولا التسلل إلى الربط ما بين الاسلام والرأسمالية تحت أي مستجد يحدث فمثلا اعتبر إن التجارةهي القطاع الرأسمالي، واشار في هذا السياق إلى إن المجتمع المكي كان مجتمعا رأسماليا تجاريا، حيث كان تجار مكه يستثمرون اموالهم في التجارة ويعطون القروض بالفائدة بطريقة مدروسة، وكانوا يقصدون بالبيع والشراء زيادة الاموال أي الارباح، وقد استفاد من ذلك من يقومون بنقل التوابل من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى شمالها، ولكن كيف انتقل رأس المال التجاري إلى الإنتاج بعد عصر الفتوحات الإسلامية ؟

حيث يشير رودنسون إلى إن التجارة قد ازدهرت وانتشر الاقراض بالفائدة وخاصة عصر الامويين وبعدقيام الدولة العباسية انتظمت التجارة وخضعت لنظام دقيق للمحاسبة، وكانت تجارة الرقيق والحبوب والحيوانات والاقمشة، وعرف العرب ايضا قوانين العرض والطلب وكانوا يمارسون تجارتهم تطبيق لهذا المبداء، ويستند رودنسون في ذلك إلى اقوال ابن خلدون، كما واتهم السلوك التجاري العربي قائلا " انه سلوك شبيه بالسلوك الرأسمالي الذي يستند إلى الخداع والمغالاة، كما وقسم التجار إلى ثلاث اقسام وهو :

١ـ الخزان: وهم تجار الجملة الذين يشترون بسعر منخفض ويبيعون بسعر عالي .

٢ـالركاض: وهم البائعون الذين يرحلون من مكان إلى آخر ولهم موكلون في مكان بيع لهم .

٣ـ المجهز : وهوالذي يطلب من الوكيل البضاعة .

هذا وقد اشار رودنسون إلى إن الفائدة كانت تحسب على اساس نقدي، وكان الغنى يقاس بمقدار ما يكدسه التاجر من ذهب أو فضه أو احجار كريمة، وفي بعض الاحيان استثمرالاغنياء اموالهم في الأرض معلنا في ذلك قطاع رأسمالي آخر، ويرجع جزء كبير من نشاط الاسواق إلى التبادل التجاري للسلع التي من نفس القيمة خاصة، وقد منع الاسلام أي تدخل في نشاط السوق الحر بالاحتكار أو التأثير على قوانين العرض والطلب، كما واشار إلى انه كان في تلك الفترة رأس مال نقدي يستند إلى القرض بالفائدة معيدا إلى الاذهان انه خلال المجتمع المكي كان يتعامل مع هذه القضية وبعد تحريم الاسلام للربا ظل العرب يمارسونه بالحيلة المعروفة في كتب الفقه كما يزعم، ولكن ظل العرب ضعفاء في التجارة وكان ينقصهم التكنولوجيا التجارية وهذا ما اشرنا اليه في الفصول الاولى من الدراسة بان الفكر الإسلامي الاقتصادي وصل إلى مرحلة متقدمة من الرأسمالية التجارية، ولو تحقق تقدم تكنولوجي وصناعي لوصل العرب إلى مستوى الرأسمالية الصناعية أي إن العرب لم يعرفوا خلال هذه الفترة تكنولوجيا النظم المالية والاقتصاديةكالبنوك وعملأ التصريف، وكانت تجارة العرب ثابته بمعنى إن البائع لا يتحرك بل يقف إمام سلعته يأتي اليه المستثمرون .كما وتناول رودنسون فكرة رأس المال الانتاجي الذي يعتمد على الإنتاج التجاري المحدود وهو انتاج المهنيين والحرفيين لالآتهم المنتجة للسلع

أي انه انتاج استهلاكي محض فالعامل يعمل آلآت الصناع وله اجره على ما ينتج دون إن يكون له نصيب في الإنتاج أو في آلآت وفي بعض الاحيان يشترك بعض المنتجين معا في نظام تعاوني على اساس من العقد بين المنتجين، واشار إلى إن بعض الصناعات المنزلية المنتشرة والتي يطلق عليها الإنتاج الاسيوي هي الصورة البدائية للجماعات الاولى التي لم تتطور بعد في وسائل الإنتاج والتي تتميز بالملكية الجماعية والاكتفاء الذاتي في الزراعة ومتطلباتها قبل إن يبداء احد الافراد أو الدولة في الاستيلأ على فائض الإنتاج "٤".

ويختتم رودنسون مرافعته قائلا " إن الاسلام له تأثير على النشاط الاقتصادي للمسلمين في العصور الوسطى خاصة النشاط التجاري وهو ما يتميز به المسلمون، واشار في هذا الصدد إلى إن بعض دعاة الاسلام الأوائل كانو تجارا وكانت التجارة اهم نشاط يميز البلاد المفتوحة، وزعم إلى إن التجار المسلمين مارسوا الربا الصريح أو المقنع وهو ما يعتمد على رأس المال النقدي، واشار كذلك إلى إن تجار المسلمين تعاملوا بهذا النظام مع التجار ة اليهود في مناطق البحر المتوسط وخاصة مع دولة البندقية ومع الجمهوريات الايطالية الحرة في القرن الثالث عشر الميلادي، وزعم كذلك إن عدم تأثير الاسلام في الحياة الاقتصادية للمسلمين سواء في العصور الوسطى أو الحديثة هو بسبب ممارستهم للقرض بالفائدة والتحايل على الربا "٥".

إن كل ما يريد إن يصل اليه رودنسون فيما سبق هو الوصول إلى إن الاسلام ليس نظاما اقتصاديا كافيا لتوجيه الحياة الاقتصادية بل ويؤشر إلى إن الواقع الاقتصادي يفرض نفسه لانه اقوى من أي تنظير لا يلائمه .

بعد هذا العرض يمكننا إن نطرح السؤال التالي ماهي الاسباب التي حالت دون تأثيرالفكر الاقتصادي الإسلامي في النظم الاقتصادية عند المسلمين ؟

لقد طرحنا هذا التساؤل كي نجر رودنسون إلى الاجابات الباطنية التي تختزن في تفكيره لنرى ذلك، يضعنا هذا المستشرق في تحليل هذا الموقف من خلال استخدام منهج عالم الاجتماع ماكس فيبر كما يقول حسن حنفي ليتم تطبيقه على العالم الإسلامي حيث يعتبر رودنسون إن هناك تباينا ما بين تطور الايدولوجيا الإسلامية وتطور التنظيم الاقتصادي حيث يرى إن الفكر الاقتصادي الغربي اخذ مدآه وتطور ووصل إلى حالة متميزةبالقدر الكافي أي هل وصلت إلى مرحلة الجمود الفكري من للاسباب التالية : التفاوت في اهمال المسلمين وقدرتهم في مقابل نشاط الاوروبيين واخذهم زمام المبادرة، والحقيقة بخلاف ذلك هي تؤكد إن المسلمين لم يأخذوا وحدهم النمط الغربي نموذجا لهم بل اخذته شعوب كثيرة وليس الاسلام مسؤولا عن اهمال المسلمين لقدريتهم، ويرد حنفي على كلام فيبر عن قدرة الاوروبيين في التنظير تشابه النظريات العنصرية، وكان بعدهم عن السحر ورفضهم للايدولوجيات المحافظة اثرا من آثار عصر النهضة وعصر التنويرونشاءة العلم، وهي حركات تمر بها كل الشعوب فاذا كان ماكس فيبر قد جعل الاخلاق البروتستانية مسؤولة عن قيام النظام الرأسمالي الغربي فقدحاول رودنسون تطبيق هذه النظرية وقدم دراسة عن الايدولوجية القرآنية وعن الايدولوجية الإسلامية من خلال العرض التالي : "٦".

١ـ تمتاز الايدولوجية الإسلامية القرآنية بالعقلانية والتنظير وطلب البرهان أي إن العقل يستطيع اثبات وجود الله وصفاته، واشار إلى إن ورود فعل العقل اكثر من خمسين مرة، وذكر إن كلمة افلا يعقلون وردت اكثر من ١٣ مرة، وبذلك فان منهجية ماكس فيبر تنطبق على القرآن الكريم في ضرورة العقلانية لنشاءة النظام الرأسمالي والحقيقة كما يقول حنفي إن دعوة القرآن الكريم للعقلانية هي بالاصل دعوة لحرية الانسان في الفهم ورفض الوقوع في الاوهام والاسرار، وفي كل ما يعارض العقل الصريح دون إن يكون فيه دعوة للعقلانية وهي دعامة النظام الرأسمالي كما يتصور فيبر .

٢ـ إن هذه الدعوة العقلية مرتبطة بالبيئة العربية نفسها، وعلاقة العرب بالارض وبالتجارة ورفضهم للاساطير والطقوس الدينية، مشيرا بذلك إلى إن العرب كانوا يؤمنون بتعدد الالهة، ولذلك جاء التوحيد الإسلامي عقليا واضحا وجاء الاسلام قائما على العقل والتجربة .

٣ـ لكن ماكس فيبر يرى إن الايمان بالقضاء والقدر يمنع نشأة الرأسمالية حيث اتهم المسلمون بالقضاء والقدر والحقيقة كما يؤكدها رودنسون إن الاسلام انكر على العرب عقيدة القضاء والقدرومنع الرسول من الخوض فيها من اجل التركيز على العمل واتهم الصوفية بأنهم المسؤولون عن عقيدة هذه الدعوة وخاصة الزهد والتواكل والرضى .٤ـ كما ويرى رودنسون إن السحر هو العدو الثاني للرأسمالية، والقرآن في رأي رودنسون يعترف بالسحر واشار إلى قصة موسى عليه السلام ابتلعت ثعابين السحرة، لكنه دافع عن دعوة الاسلام قائلا " إن الاسلام دين ارتكزت دعوته على العقل والفهم وهاتان الخصيلتان تمنعان اللجؤ إلى جميع انواع السحر من كهانة وعرافة ونفث في العقد، اما من ناحية الايدولوجية الإسلامية في التاريخ فانها ايدولوجية تنظيرية، واشار إلى تجربة تدوين الحديث والمقدرة الفائقة التي سطرتها مناهج النقل التاريخي واصول علم النقد التأريخي التي وضعت في اواخر القرن التاسع عشر عند " سيجنوبوس ولا نجلوا " في كتابيهما المشهور مقدمة في العلوم التاريخية، ويؤكد حنفي إن رودنسون لا يقر بتصديق الاحاديث حيث يؤكد علم الحديث الطابع العقلي لتفكير المسلمين، كما إن السحر وانتشاره في العصور الوسطى لم يمنع المسلمون من التقدم في العلوم، كما لم تمنع القدرية التي يطلق عهليه " لينبتز" من سعي المسلمين فالاسلام يدعو إلى العمل واوضح مثال على ذلك الجهاد، واذا كانت العصور الوسطى لم تعرف مفهوم التقدم ولو تعرف إلا مفهوم العلو فذلك يرجع إلى تصور هذه العصور لقدرة الله المطلقة وعدم ظهور الوعي الطبقي .

ويخلص رودنسون إلى إن الاسلام لا يقف عائقا إمام الرأسمالية كما يدعي فيبر واشار إلى منطقةمزاب الجزائرية وهم ينتسبون إلى احد القرى الاباضية ويقدسون العمل ومعظمهم من التجار ويقرضون بالفائدة ويستعملون كثيرا من الحيل لتفادي الربا، ما يريد إن يصل اليه رودنسون إلى انه لا يوجد أي معيق ما يمنع من تطور العالم الإسلامي ودخوله في طريق الرأسمالية الحديثة، وهذا دليل يثبت أكذوبة الليبرالية العربية التي تطالب باقصاء الاسلام وتفكيكه وحجره في المتاحف وهذا ما تم بالفعل على اعتبار إن الاسلام يعيق الليبرالية، وان تبرير رودنسون لهذا التشخيص ليس حبا بالاسلام بل لإثبات إن الاسلام هو حليف على الاقل من الناحية

النظرية للرأسمالية، لكن المفكر حسن حنفي يرى إن تحليل كل من رودنسون وفيبر تحليل خاطىء حيث يعتبر إن ايمان الاسلام بالسحر وقدريته ليس حائلا دون ظهور الرأسمالية كما يضن فيبر، فالاسلام ليس قدريا ولا يؤمن بالسحر والرأسمالية موجودة في العالم الإسلامي في تطوره الطبيعي من خلال الرأسمالية التجارية إلى الراسمالية النقدية والرأسمالية الزراعية إلى الرأسمالية الصناعية، لكن حنفي دحض كلام رودنسون قائلا " إن الاسلام لا يمنع من ظهور الرأسمالية في اشكالها الاولى كما يضن رودنسون فالاسلام لا يعترف بالرأسمالية كنظرية كما إن القطاع الرأسمالي عند المسلمين يرجع إلى تطور طبيعي من الاقطاع .

تشريح رودنسون للرأسمالية المعاصرة في العالم الإسلامي

انطلق تشريح رودنسون للرأسمالية المعاصرةفي العالم الإسلامي من خلال طرحه الفرضيات التالية :

١- هل نشاء القطاع الرأسمالي من داخل العالم الإسلامي أو من خارجه ؟

٢- هل ساعد الاسلام على انتشار الرأسمالية ام كان عائقا لها والى أي حد ؟

٣- هل للرأسمالية نوعية خاصة، وهل كان للاسلام سبب هذه النوعية ؟

لقد تناول رودنسون هذا التشريع التاريخي لنشاة القطاع الرأسمالي من داخل العالم الاسلامي ومن خارجه بعد دراسة التاريخ الاقتصادي للبلاد الاسلامية كمصر وتركيا وايران وسوريا ولبنان والعراق، وانتهى إلى إن الرأسمالية نشأت من الخارج بعد تبني النمط الاوروبي للانتاج حيث اشار إلى تجربة محمد علي في مصر خلال بناء رأسمالية الدولة والا حتكار الزراعي والصناعي والتجاري وبداية الراسمال الاجنبي في الغزو وعدم استطاعة الرأسمالية الخاصة الوقوف امام المنافسات الاجنبية ثم بداية القطاع الرأسمالي الوطني " البرجوازية الوطنية "، بعد ذلك بتأسيس طلعت حرب لبنك مصر لتمويل المشروعات الوطنية، ولم تكن الصناعات قد بدأت باستثناء الصناعات الحرفية .

ويخلص إلى أن النموذج الاقتصادي للعالم الاسلامي المعاصر كان فقط المشروع الرأسمالي الخاص ثم اخذ هذا النموذج في التطور بيعا لابنية الاقتصاد الغربي وعلى النحوالتالي ":٧

١- كان دور الدولة ينحصر في تسهيل الاستثمارات وكانت الرأسمالية الصناعية تقليدا مباشرا لنظم الغرب .

٢- إن الرأسمالية الزراعية نشاءت داخل المجتمع الاسلامي خاصة في مصر .

٣ـ ولهذا كانت رأسمالية البنوك الزراعية في أن رأس المال الحقيقي كان هوالارض .

٤ـ ولم يكن اعتبار الصناعات التحويلية ضمن القطاع الرأسمالي لانها كانت متناثرة ومحدودة .

٥ـ ثم نشاء القطاع الرأسمالي بعد ذلك من خلال التوسع في المدن وزيادة الدخل العقاري ونمو الملكية العقارية الخاصة، ولم يكن في استطاعة البلدان الاسلامية الحصول على نموذج اوروبي امريكي قبل الغزو الاستعماري .

أثر الاسلام في النظم الاقتصادية الحالية

اعتبر رودنسون بان الاسلام لم يوجه أي اعتراض على وسيلة الانتاج الرأسمالي، واشار إلى الصناعات الرأسمالية الاستهلاكية التي كانت محرمة واصبح لها سوق في العالم الاسلامي كصناعات الخمور في الجزائر وهي من الصناعات الرائجة، وكذلك تشغيل النساء في المصانع، وكذلك صناعة البن والدخان،وقد يكون تحريم القرض بالفائدة يمنع تجميع رؤوس الاموال ولكن الدور كان ثانويا للغاية نظرا لكثرة التحايل على هذا التحريم، كما واشار إلى إن المسلمين رفضوا الاستثمار في الصناعات، وكان الاستثمار بالارض من خلال التأجير بالقرض بالفائدة، وخلص إلى ان الاسلام لم يؤثر في النظم الاقتصادية الا من خلال ادعاء الحمية الدينية اوالنفاق البرجوازي، والاهم من كلام رودنسون ان معارضة الاسلام للرأسمالية هو اسطورة لأن الاسلام لا يتعارض مع أي صورة من صور الانتاج الرأسمالي بل إن الاتجاه العام نشاء من بعض الافكار العلمانية المحضة "٨".

لكن المفكر حسن حنفي دحض كل فرضيات رودنسون واكد إلى " صناعة المشروبات الروحية في الجزائر جاءت من خلال الفرنسيين عندما احتلوا الجزائر، وهذه الصناعة ترجع إلى عصر التخلف الصناعي الذي لايحتاج إلى عمال مهرة، كما وترجع إلى انخفاض اجور هذه الفئة من العمال المهرة "،واما صناعة الدخان والبن فليس فيهما ما يضاد الشرع والنظام الاقتصادي الاسلامي لا يرجع إلى هذه النظرة من حلال اوحرام بل إلى التنظيم الاقتصادي الاسلامي الكلي وسبب هذه النظرة الطبقية حيث يسخر حنفي من رودنسون بان المملكة العربية السعودية هي الدولة الوحيدة التي تحرم الخمر وتمنع الربا وبذلك تكون متمشية مع الاسلام .

ولكن حنفي يكشف لنا حقيقة النظام الاقتصادي السعودي قائلا " إن الاموال التي يضعها حكام هذه الدولة في البنوك الاجنبية تكون بالفوائد المركبة وكسبها المال بلا جهد"، الا يعتبر ربا وبجوار هذا المصدر الخارجي في العالم الاسلامي هناك ايضا المصدر الداخلي فقد كان النظام الراسمالي هو السائد في البلاد المفتوحة لانه يتفق مع الفرد الطبيعي الذي لا يعتمد على أي تنظيم جماعي بل يعتمد على المجهود الفردي وحده، ولكن الاسلام لا يعتبر مسؤولا من وجهة نظر حنفي عن نشاءة النظام الراسمالي من الخارج ومن الداخل اذ ترجع هذه النشاءة إلى عوامل اجتماعية وتاريخية "٩".

شكل الراسمالية في العالم الاسلامي

اعتبر رودنسون إن الراسمالية في العالم الاسلامي صغيرة الحجم وقليلة النشاط والسبب يعود في ذلك إلى الاسباب التالية :

١ـ عدم الاستقرار السياسي في منطقة الشرق الاوسط .

٢ـ هجرة بعض العناصر النشطة إلى دول افريقيا وامريكا اللاتينية .

٣ـ تتميزاقتصاديات هذه المنطقة بالرغبة بالكسب المباشر السريع دون جهود كبيرة تبذل أي انها تعتمد على الجهد الفردي وبعقلية الكمبرادور او الوسيط دون الاعتماد على الرأسمالية المباشرة .

٤ـ نقصان الخبرات وميل اصحاب الاعمال إلى الترف لانهم يخشون المغامرة وينقصهم التنظير والتخطيط والاتجاه نحو الشيء والكم .

٥ـ تشترك معظم الشعوب التي لا تدين بالاسلام في نفس الخصائص اذا كانت على نفس المستوى .

٦ـ علاقة اصحاب الاعمال بالعمال تقوم على الاستغلال دون مشاركتهم في الارباح بدون تدخل السلطات الحكومية .

٧ـ اعتماد اصحاب الاعمال على تشغيل الاطفال دون تحديد لساعات العمل .

ما يريد إن إن يصل اليه رودنسون فيما سبق ذكره إلى تكرار قناعاته وهي إن الاسلام لم يؤثر ولم يشكل عائقا امام تحقيق انتشار الرأسمالية في العالم الاسلامي بل استغل الدين عن البرجوازية لاعطاء الرأسمالية صفة شرعية .

وهنا نطرح السؤال التالي هل كل استنتاجات رودنسون صحيحة ؟ الجواب كلا فقدتجاهل اسهامات المفكرين المعاصرين الذين اكدوا وجود قيم نضالية في الاسلام تتصادم مع الرأسمالية وهي اقرب منه إلى القيم الاشتراكية كالملكية والدعوة إلى التضامن الاجتماعي حيث إن الملكية حسب التعريف المشهور " هي حق الاستقلال والانتفاع والتصرف في الشيء طبقا للقانون، وكل من اساء استعمال هذه الحقوق نزعت منه الملكية "، واشار حنفي إلى هذه الحقوق بان بيت مال المسلمين هو رأس مال الدولة وللاخيرة الحق في استثماره للمصلحة العامة، فالملكية في الاسلام مرتبطة بالاستثمار والاسلام كما اشرنا يمنع تكديس الثروة وتخزينها، ومع ذلك فان رودنسون أكد إن هذا كله لم يمنع من تنمية القطاع الرأسمالي في البلاد الاسلامية، وان كل هذه المحاولات هي تغطية الاشتراكية بشعارات اسلامية او للحد من الاشتراكية او لدعمها اذ يستطيع الرجعيون او التقدميون على السواء استعمال شعارات ومبادىء الدين الاسلامي، كما ورفض رودنسون الطرح الذي قدمه مفكرون بالربط ما بين الاسلام والاشتراكية خاصة كتاب المفكر مصطفى السباعي الاسلام والاشتراكية، حيث يرى إن مبادىء التضامن الاجتماعي التي يعتمد عليها السباعي لا تكتفي لتكوين ايدولوجية فعالة، كما إن الاسلام هو في الاصل كما يزعم رودنسون دعوة للاقتصاد الحر وان اشتراكية الاسلام هي دعوة محضة كغيرها في سائر الاديان الانسانية، ويضيف قائلا " إن من يربط الاسلام بالرأسمالية هو برجوازي يبغى مصلحته الخاصة ويغطيها بشعارات الدين ومن يربطه

بالاشتراكية خطيب متحمس ما زال في مرحلة ابجديات الاصلاح الديني، ويرى رودنسون إن الاشتراكية لم تتحقق الافي اعقاب ثورة ١٧ اكتوبر في روسيا، واذا كانت حصيلة الثورة الفرنسية اقامة دولة ديمقراطية، فحصيلة الثورة الروسية اقامة دولة دون طبقات متميزة، ويخلص إلى إن الطريق الاسلامي إلى الاشتراكية طريق غير معبد، وقد يكون هناك طرق اخرى نحو الاشتراكية، ولكن من المستبعد إن تتبع هذه الخصائص من الدين الاسلامي أي انه نفى نفيا قاطعا وجود لقاء او تعارف بين الاسلام والاشتراكية كنظام .

بعد كل ماسبق ذكره هل الدين الاسلامي يحمل ايدولوجيا ثورية ام انه دين روحاني خالص؟

يرد رودنسون على ذلك من خلال تصنيفه للايدولوجيات إلى ثلاث اقسام :

اولا ـ ايدولوجيا وطنية تقوم على اساس الوطن واعلأ شأن الوطنية .

ثانيا ـ ايدولوجيا دينية تقوم على تعظيم الله .

ثالثا ـ ايدولوجيا انسانية شاملة تجعل من الانسان القيمة الاولى .

من جهة اخرى يقول رودنسون انه ينقص هذه الايدولوجيات الثلاث الاساس الاقتصادي وقبول هذا الاساس معناه الاعتراف بالصراع الطبقي، ومما لاشك فيه إن رديسون ينحاز إلى الايدواوجية الماركسية، ولذلك فهو يرى إن الايدولوجيا الشمولية هي اقربها إلى تأكيد هذا الصراع لأن الايدولوجية الوطنية او الدينية تتحول في كثير من الاحيان على ايدي الوصوليين واصحاب الامتيازات باسم الوطن تارة وباسم الدين تارة اخرى إلى رجعية فاشستية، والايدولوجيا الاشتراكية من وجهة نظره هي التي تقوم على الصراع بين الطبقات، وهي القادرة على الالتزام بقيمها.

دور الدين في الايدولوجيا

لقد لعب الدين بشكل عام دورا حاسما في العصور الوسطى من خلال تحالفه مع الاقطاع، ويرى رديسون إن هذا الدور يجري آلان بطرق اخرى من خلال استغلال الدين كوسيلة للحد من بروز التيار الثوري وللابقاء على المكتسبات الطبقية للمفسرين، ويقول رديسون انه من خلال تفسير الدين يمكن معرفة سوء النية وكيف يتم التفسير بدوافع اقتصادية بحتة تحت غطاء من المحافظية على العقائد والقيم الاخلاقية، وهذاهو بحد ذاته صحيح أي إن رديسون استطاع إن يصل إلى معرفة القوانيين التي تربط ما بين التدين والنفاق وهي الصلة التي تحدد التكوين النفسي للبرجوازية التي تدعي الايمان والتمسك بالدين، واشار إلى الحروب الصليبية في تغطية الدوافع الاقتصادية تحت ستار الدين .

وندد راديسون كذلك ببعض المتدينين الذين يفسرون الدين تفسيرا يراعي التفاوت في الرزق ويبقي على التركيب الطبقي باسم الدين، ويعتقد رديسون ان التحليل

اليساري للدين هوالاقرب الى طبيعته كعامل محرك في ثورات الشعوب، وفي تعبئة الجماهير لاغراض اقتصادية، ولكن لابد من بناء الشعوب بطريقة يستطيع الفرد إن يصنع النظام الاقتصادي .

لكن راديسون يعتقد إن الدين الاسلامي ما زال يستعمل للحد من بروز التيار الثوري من اجل المحافظة على المكتسبات الطبقية، وضرب مثالا إن بعض الطبقات التي طبقت عليهم بعض القوانيين وخاصة قانون الاصلاح الزراعي في سوريا إلى علماءالدين يطلبون منهم العون ضد الاتجاهات الاشتراكية أي إن الايدولوجيا الرأسمالية لاتحتاج إلى تعبئة الشعوب فهي تلقائية يعمل بها كل فرد، اما الايدولوجيا الاشتراكية فلا بد لها اولامن تعبئة الجماهير وتوعيتهم وانشاء الكوادر وتنظيمها "١٠".

كيف تقوم الايدولوجيا الاسلامية بمهمتها الثورية

ضد الليبرالية الرأسمالية المتوحشة ؟

يحاول رديسون إن يضعنا عن موقف الايدولوجيا الاسلامية قائلا " ان الايدولوجيا الاسلامية اذا ارادت ان تقوم بمهمتها الثورية فعليها إن تدخل في الصراع الطبقي وان تحرك المسلمين بدافع هذا الصراع شرط إن يتم إعادة تفسير الاسلام في الصراع الطبقي بعد تعبئة الفقراء والمعدمين واصحاب الحق، وان تصاغ اخلاق النضال كما هو الحال عند المسلمين اليساريين الذين دخلوا ساحة الصراع في العقودالخمسة الماضية من القرن الماضي وبدايةالقرن الحالي :كما لفت رديسون دخول بعض رجال الدين المسيحي وخاصة في دول امريكا اللاتينية وبذلك يمكن ان يدفن المسلمين التفسيرات التي تجعل من الاسلام عائقا للتحول نحو الاشتراكية باسم الدين مرة وباسم التقاليد مرة أخرى وباسم الوطن وباسم الاراضي، إن مصير العالم الاسلامي يرتبط بالصراع الطبقي والذي لا بد وان يأخذ مكانه في المستقبل، وهذا يعني من وجهة نظر رديسون إن الماركسية هي الحل وهي القادرة على تعبئة الجماهير وتحريكها .

إن المخرج الوحيد امام الاسلام لكي يكون ايدولوجيا ثورية عليه إن يدخل في الصراع الطبقي، لكن رديسون يعترف إن العالم الاسلامي له خصوصيته وانه لا يخرج عن التاريخ، وقد يحل الصراع الطبقي كما حدث عقب استقلال الجزائر وافغانستان، ولكن يبرزالصراع منجديد لانه ضروري في مرحلة التحول مننظام اقتصادي إلى نظام آخر .

وهنا يطرح السؤال نفسه من يقوم بهذه المهمة ؟ الدولة لا تكفي لأن الطبقة الحاكمة تعتقد إن هذا التحول يجري لصالحها لما تتمتع من امتيازات وسلطة اخذ القرارات واعطاء الاولويات في التخطيط، ويستمر هذا في فترة طويلة مع استمرار الوعود برفع مستوى الشعب، فاذا ارتفع المستوى إلى حد قليل ضن الناس إن ما

تتمتع بـه الطبقة الحاكمة جزاء لها على ماقامت بـه، ولايمكن للطبقات الحاكمة إن تتخلى عن امتيازاتها اذا ما طلبت منها الطبقات الكادحة، ومن ثم ينشاء الصراع ولا يمكن للمساومات والخطب ولوسائل التهدئة والتسكين إن تخفف من حدة الصراع الموجودة بالفعل .

لقد لعب الاسلام دوره في الصراع بين الطبقات عندما انتصر ضعاف المسلمين ضد تجار مكة واشرافها وان جرائم الاقطاع في مصر قبل ثورة ١٩٥٢ هي اكبر دليل، لكن مهما كان الدين قادرا على تحريك الجماهير خاصة بالنسبة للاسلام، واوضاع المسلمين الحالية تتعرض لاخطار الاستعمار والرأسمالية والصهيونية فلا بد إن يتحول إلى ايدولوجيا كاملة وهي وحدها القادرة على اعطاء الاسس النظرية للثورة، وذلك لن يكون الا اذا تحول إلى ايدولوجيا اقتصادية .

ويرى رديسون إن الايدولوجيا الاسلامية لا تستطيع إن تقوم بهذه المهمة في ملىء الفراغ الذي تتركه الايدولوجيا الاقتصادية التي هي وليدة العصر الحديث اذا لم يشاء الدين أن يغير النظم الاقتصادية السائدة تغيرا جذريا بل تابعا للنظم القائمة لكن هذا الحل كما يقول راديسون هواسقاط للايدولوجيات الموحدة للتاريخ القديم الذي كانت مشاكله من نوع آخر .

فاذا كانت مشكلة العصر هي العوامة الاجتماعية والمساواة بين الناس فان مشكلة العصور القديمة كانت تحرير الانسان الداخلي وهذا ما قامت به الاديان، ويعترف رديسون ان الحل بالخيار الثالث من خلال وضع ايدولوجيا اقتصادية ثالثة غير الرأسمالية والاشتراكية وهذا ما ينكره الاقتصاديون الغربيون الذين لايرون بدائل للرأسماليةوالاشتراكية،وهذا يعتمد على وجود نظم اقتصادية متطورة حسب حاجة الانسان وضروفه البيئية والمتغيرات الدولية .

ولكن المفكر حسن حنفي له رأي آخر حيث ناشد رديسون مذكرا اياه إن التراث الاسلامي مليئ بالتجارب مثل السياسة الشرعية والطرق الحكمية لابن تيمية وكذلك الطرق الحكمية لابن القيم الجوزية او الحسبة في الاسلام ووظيفة الحكومة في الاسلام لابن تيمية لاستطاع إن يحلل الايدولوجية الاسلامية في جانبها الاقتصادي والسياسي، ولوجد فيها مقومات الثورة الاقتصادية والتنظير السياسي كالولايات والاقتصاد والاموال والحدود والقانون، إن عقائد الاسلام لا تتغير وهذا ما يعتبره رديسون عيبا بل يتغير تفسيرها حسب تطور الواقع نفسه وثورية المفسر، فاذا تطور الواقع اكثرمن مسايرة التفسير له ضن الباحث ان عقائد الدين لم تتغير، وان تطور التفسير اسرع من مسايرة الواقع له كما هو الحال في تفسير ابوذر الغفاري في زمن الامويين حيث بداء الاسلام على ضوء هذا التفسير اكثر تقدمية من الواقع نفسه وتلك مهمة المفكر المسلم في العصور الجديدة في إعادة التنظير وهو يعبئ الجماهير في ثورتها وفي صراعاتها مع آلهة العصر الحديث"١١".

وقبل إن ننهي هذه الصفحات نذكر مكسيم رديسون وغيره من المفكرين الغربيين إن الفكر الاسلامي والخطاب الاسلامي هو الذي يفجر طاقات المقاومات العربيةوالاسلامية في كل من العراق وفلسطين ولبنان وافغانستان، لكنني اتفق مع

راديسون انه بعد الانتصار العسكري للقوى الاسلامية يواجه الخطاب الاسلامي مجموعة من آلآزمات السياسية والاقتصادية، والمراقب يلمس أن مشاريع هذه المقاومات لاتملك برنامجا سياسيا واقتصاديا بل برنامج عسكري فقط كما جرى مع الدولة العثمانيةبالذات فلقد حققت انجازات عسكرية مذهلة لكنها فشلت اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وساهمت في تخلف العرب والمسلمين .

هوامش الفصل الثالث ـ الباب الرابع

١ـ قضايا معاصرة، د.حسن حنفي، ص ١٤٤

٢ـ مرجع سابق، ص١٤٥ـ ١٤٦

٣ـ مرجع سابق، ص ١٤٦

٤ـمرجع سابق، ص ١٤٧

٥ـ مرجع سابق، ص١٤٧

٦ـ مرجع سابق، ص ١٤٨

٧ـ مرجع سابق، ص ١٤٩ـ ١٥٠

٨ـ مرجع سابق،ص ١٥٠

٩ـ مرجع سابق، ص ١٥٠

١٠ـ مرجع سابق، ص ١٥٢ـ ١٥٣

١١ـ مرجع سابق، ص ١٥٢ـ ١٥٤

موقف الاسلام من الماركسية

خلال الصفحات السابقة تناولنا العلاقة ما بين الاسلام والراسمالية حيث تحدثنا عن رؤية كل من سيدقطب كمفكر اسلامي، ومكسيم رديسون كمستشرق فرنسي يتبنى الماركسية وسوف ن نسلط الضوء في الصفحات القدمة على موقف تجربةرجل دين من امريكا اللاتينية، ومن هنا فقد جاءت آراء هؤلاء المفكرين متفاوتة فسيد قطب الذي يمثل اقصى اليسار الاسلامي نفى نفيا قاطعا وجود ارتباط ما بين الاسلام والرأسمالية وتوصل إلى قناعة كاملة بان الاسلام الحقيقي وليس الاسلام الامريكي سيبقى حصنا منيعا في مجابهة الرأسمالية إلى إن ينتصر احدهما على الآخر وان المعركة وان ظهرت بشكل احتلالات عسكرية لكن المعركة في حقيقتها هي مواجهة ما بين القوى الاسلامية اليساريةوالرأسمالية المتوحشة، واكبر مواجهة شهدتها البشرية في اعقاب الحرب الهزة المالية التي تعرضت لها امريكا والاقتصاد العالمي التوحش تلك العملية البربرية الوحشيةالتي اقدمت عليها الصهيونية في قطاع غزة حيث حولت القطاع إلى فرن لحرق وشواء الشعب الفلسطيني بكل ما تستطيع ما تملك من قوى ارهابية بمساندة دولية متوحشةلكل اقطاب الرأسمالية العالمية في مجلس الامن، وبتواطئ عربي مخزي جدا، خاصة وان المشاعر الاخلاقية لردات فعل المجتمع الدولي المتغطرس على حرق الاطفال والنساء وهم احياء، لكن هذا زاد من مقاومة الشعب الفلسطيني الاسطورية التي تمكنت من امتصاص هذه الهجمة العالمية على تصفية القضية الفلسطينية، وبالمناسبة فان هذه المعركة هي نيابة عن القوى الرأسمالية المتوحشة وكان رأس الحربة للقوى الرأسمالية والصهيونية اسرائيل، وفي الطرف الاخر شاركت القوى الاسلامية والماركسية في الدفاع عن الشعوب المقهورة واقصد بذلك القوى الاسلامية "حركة المقاومة الاسلامية حماس والجهاد الاسلامي " والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والاخيرة هي للنموذج الماركسي .

كما لاحظنا في هذه الدراسة ان مكسيم رديسون اعتبر إن الاسلام يتوافق مع الرأسمالية بل اعتبر إن الاسلام هو جزء رئيسي من مكونات الرأسمالية، وانطلقت وجهة نظره من خلفيته الماركسية التي تعتبر الاديان افيون الشعوب وان الدين من اهم ادوات التخدير للقوى الاجتماعية، لكننا حاولنا تفكيك هذا التفسير من خلال توضيح اشكالية العلاقة ما بين الاسلام اليميني الذي يتحالف مع الرأسمالية والاسلام اليساري الذي يتصادم مع الرأسمالية سواء في حركات المقاومة في كل من لبنان وفلسطين والعراق وافغانستان .

هذا العرض ساعدنا في التعرف على هذه المواقف لكي نتبين إن الدين بمفهومه العام لا يمكن إن يتحالف مع الاستغلال والقهر والظلم والجوع والفقر بل يجب إن يكون الدين في المواجهة مع الرأسمالية المتوحشة والتي استفردت بالشعوب الفقيرة وسلت سيوفها على رقاب البلاد والعباد بشتى الوسائل، فهل الاسلام بطبيعته الثورية اصبح عاجزا عن مواجهة الغطرسة الامريكية ولا اقصد المواجهة العسكرية فحسب بل المواجهة الثقافية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، لا إن يكون الدين الاداة التي يتكئ عليها النظام الرأسمالي المتوحش لتنفيذ مخططاته ومشاريعه .

ومن هنا لاحظنا من خلال استعراضنا لموقف المستشرق الفرنسي رديسون الذي ايد الخطاب الماركسي واعتبر الاسلام والرأسمالية فريق واحد وهم حلفاء لمواجهة الاشتراكية والماركسية ويبد إن رديسون كان يحلل موقف الاسلام اليميني وتحالفه خلال فترة الخمسينات إلى نهاية القرن الماضي، علما اننا حاولنا توضيح الفرق ما بين الاسلام اليميني الذي يتقاطع مع الرأسمالية ويكون تابعا لها، وما زال كالاسلام السعودي واسلام الحكم العراقي الجديد، وقد اثبتت الايام إن الاسلام اليميني يعمل ضد مصالح الشعوب ويسعى لكسر نضالات الجماهير واكبر دليل على ذلك فقد صمتت المؤسسستين الدينية في كل من السعودية ومصر عن اتخاذ أي موقف ينسجم مع المجازر التي ارتكبت بحق الشعب الفلسطيني في غزة، وكذلك موقف المرجعية السنية السعودية التي اعتبرت أن خروج السعوديين إلى الشارع والتنديد بالمجازر الصهيونية يلهي عن ذكر الله!!!.

إن الخطاء الذي ساهم في توتير العلاقة ما بين الاسلام النضالي والماركسية هو الخطاب اليميني الذي قدم نفسه في خدمة الرأسمالية الامبريالية المتوحشة، لكن الموقف النضالي للاسلام اليساري رغم انه سشكل الاقلية فان الفرصة ما زالت سانحة وما زالت موجودة، فان عودة روسيا إلى الساحة الدولية فرصة ذهبية لقوى اليسار الاسلامي وقوى اليسار التقدمي بان تنهض الشعوب وتهيئ الجماهير بان معركة الاسلام الحقيقية هي مع الرأسمالية وهي التي احتلت افغانستان والعراق وهي التي ساهمت في خلق الكيان الصهيوني الغاصب وطرد وابادة شعب فلسطين .

إن الماركسية النضالية ليست عدو للاسلام ولا للمسلمين ولم تكن يوما خصما للاسلام بل إن الماركسية النضالية هي حركة اجتماعية جاءت ردا على اطروحات الرأسمالية المتوحشة، ورحم الله الشيخ بن باديس ابرز قيادات الجهاد الجزائري ابان الاحتلال الفرنسي ورئيس جمعية علماء المسلمين حيث خاطب المسلمين في احدى خطب الجمعة قائلا " اللهم اجعلنا من اهل اليمين في الآخرة، ومن اهل اليسار في الدنيا، إن الشيوعية هي خميرة الارض".

إن الخطاء الكبير الذي وقعنا فيه واوقعنا فيه اليمين الاسلامي والانظمة اليمينية العربية والاسلامية يجب إن يتم تصحيحه فعندما اتخذت وسائل الاعلام الغربية بان الشيوعية هي اشد خطرا على الدين والانسانية، وان هذا الخطاب لا يستهدف حماية المسلمين بل يطالب منهم محاصرة الاشتراكية والحيلولة دون انتشارها، ولبس لدى الرأسمالية سلاح الا باطلاق الابواق الدينية الرجعية واليمينية فهي التي تتحرك بسرعة وبدون وعي، وهذا ما جرى وبذلك وجدت الرأسمالية المتوحشة إن الفرصة اصبحت سانحة لنهب خيرات العالم الاسلامي كما نهبت في الماضي خيرات السكان الاصليين في امريكا الجنوبية على يد الاسبان والبرتقال .

إن الايدولوجيا الرأسمالية هي ايدولوجيا متوحشة ولا تقبل بالقليل وتريد ابتلاع العالم تحت مسميات محاربة الشيوعية من خلال اكذوبة اسلحة الدمار الشامل ونشر الديمقراطية وحقوق الانسان وما هي الا اكاذيب باطلة، وهذه الاساليب هي مثل حصان طروادة ثم

تنتقل من خلال هذه الشعارات المزيفة والمكشوفة والمفضوحة للانقضاض على مقدرات العالم والشعوب والدول ونهبها واعلان الفوضى .

بعدهذا العرض نتوصل إلى إن الخطر الذي يواجه العالم بأسره هي الليبرالية المتوحشة والرأسمالية الجديدة المتطرفة، وان الرأسمالية هي الخطر الذي يهدد العالم باكمله، ولذلك يجب إن نكون واضحين كمسلمين سواء اكنا يساريين ام يمينيين لأن الرأسمالية المتوحشة حينما تريد ضربنا لاتفرق بين اليميني واليساري، إن الرأسمالية المتوحشة تريد استهدافنا جميعا وتريدافنائنا جميعا وهي تنظر للمسلمين نظرة واحدة لكنها تريد اختراقنا فنحن في نظرها لا نتجاوز ما جرى في ابوغريب بالعراق وغوانتنمو في كوبا .

لا يمكن إن نكون متدينين ورأسماليين في نفس الوقت لأن الرأسمالية توحش واحتكار واستغلال وقتل ودمار، أي اننا يجب إن نعرف حقيقة الرأسمالية ثم نقرر بعد ذلك اين نقف ويكفي موقف الاشتراكي الفنزويلي شافيز رئيس فنزويلا على اقدامه بطرد السفير الاسرائيلي ابان قيام الصهيونية بارتكاب مجازر بشعة بحق اهلنا في غزة، فيما تتواطئ حكومات عربية مع الكيان الصهيوني بعد مطردالسفير الاسرائيلي حيث لاذت هذه الحكومات بالصمت والخذلان امام مجازر الاطفاتل والنساء وبطولة المقاومة الفلسطينية وصمود الشعب الفلسطيني في غزة الصامدة .

حقيقة الرأسمالية يا علماء المسلمين

إن الصراع ما بين الرأسمالية والاسلام هو صراع في الثوابت الاسلامية وليس في جانب واحد كما يدعي الجهلة والحمقى، فالاسلام من وجهة نظرهم يتصادم مع الرأسمالية في المحور الثقافي فقط وهذا خطاء فادح، إن الاسلام لا يمكن إن يكون متوافقا مع الرأسمالية، فالاخيرة مذهب توحشي توسعي لا يؤمن بالسلام والعدل، وان هدف الرأسمالية ربحي نهمي استعماري ينحصر في سرقة خيرات الشعوب والدول، انما الاسلام هو دين جاء لتحرير الانسان من الظلم والجهل والقضاء على الطبقات والاقطاع والتخلف وجاء لتوزيع الثروة بشكل عادل وهذا هو الهدف الرئيسي للماركسية بل إن كل المشروع الرأسمالي من نشاءته إلى الحالة الراهنة كان يردد إن الرأسمالية هي مفتاح لمن يريد إن يصبح ثريا ودمويا، لكن توزيع الثروة بشكل عادل فهي غير معنية بكل شعارات العدالة الاجتماعية والنضال من اجل كرامة الانسانية .

فاذا فهمنا اركان الرأسمالية بشقيها المعتدل والمتطرف من حيث إن النظم الرأسمالية تحرص على اخراج الله من الطبيعة بل فيما وراء الطبيعة والعالم وخارج الزمكان، فالله من وجهة نظر الرأسمالية يستحيل تصوره او ادراكه ولا يمكن رؤية التفكير فيه، ولكن يمكن الابتهال اليه اومناجاته وطلب العون منه عند الحاجة وبالتالي توجيه شعور الجماهير إلى خارج العالم تاركة الشعوب إلى سطوة رأس المال بعد إن تم اخراج الدين الحقيقي من الحلبة وتم السيطرة على العالم واستغلاله، وكلما اتجه شعور الجماهير خارج العالم ازداد احكام سيطرة الرأسمالية، إن الرأسمالية لهي اشد الفرح عندما تتأزم احوال الناس وتشعر بالانبساط لزيادة اعداد الفقراء والجهلة والمرضى، وبالمناسبة فانني ماقصدت إن الاسلام

اقرب إلى الماركسية من الرأسمالية من منطلق علمي وعقائدي بل من منطلقنضالي وكفاحي وليس وليسمن منطلق مقارن العقيدة الاسلامية بالماركسية العلمية

الفصل الرابع. الباب الرابع

اشكالية تفسير الدين الاسلامي ما بين خطاب اليمين واليسار

هناك جدل يجري على الساحة السياسية والفكرية هل ما ينطبق على الاعلام ينطبق على السياسة والثقافة والاجتماع والاقتصاد، وان القضية التي سنتناولها هي قضية ما يسمى باليمين واليسار في الفكر الاسلامي، ومن خلال الاطلاع على موقف الاسلام من قضايا التنمية وحقوق الانسان والتحرير والمقاومة ام إن الاسلام بطبعيته الكلية لايوجد فيه يمين او يسار بل هو دين متكامل وشامل، وان هذه المصطلحات خلقها تجار السياسة كون مصطلح اليسار جاء من خلال التسمية التي اطلقت على الفريق المعارض للحكومة الفرنسية. اليمينية .

ومن هنا نريد إن نتبين هل يوجد في الاسلام موقفين متعارضين ام موقفين متناقضين ام خطابين متضاربين احدهما يميني يرفض التغيير والاصلاح، والآخر يساري يعارض السلوكيات المحافظة للدين ولا يمكن فهم الاسلام الا اذا اطلعنا على التراث الاسلامي وحللناه تحليلا كاملا باسلوب الغربلة لنعرف مواقف الخطاب الديني الاسلامي الحقيقي من الخطاب المتردد المزيف المهادن المراوغ المخاتل، هذا وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على الدراسات القيمة التي توصل اليها المفكروالفيلسوف الاسلامي د. حسن حنفي حيث افرد موقعا خاصا على شبكة الانترنت اطلق عليه اليسار الاسلامي، كما انه قدم للمكتبة العربية والاسلامية مجموعة ضخمة من الكتب والراسات وعلى رأسها التراث والتجديد من العقية إلى الثورة وكذلك من الدين إلى الثورة، حيث توصل إلى إلى إن اليسار واليمين ليس موقفين فكريين متمايزين بل هما اتجاهان في التفسير فاليسار في الفكر قديستغله اليمين واليمين في الفكر قد يعيد تفسيره اليسار لصالحه ايضا، فاليمين واليسار فكريا متميزان من الاساس، وايضا منهجان في التفسير بل هما وضعان اجتماعيان يدلان على وجود طبقتين اجتماعيتين تحاول كل طبقة إن تدافع عن حقوقهما بالابنية النظرية المتاحة في المجتمعات الكلاسيكية وهي العقائد الدينية فهي قضية عملية وليست نظرية وهي بناء اجتماعي اكثر من حقيقة فكرية "١".

يفهم من خلال ما سبق ذكره إن احدى الطبقتين او الفئتين تريدان تحقيق برنامجهما على النحوالتالي :

١- الاقلية تحكم وتسيطر على وسائل الانتاج .

٢ـ استغلال الاقلية للاكثرية لصالحها من خلال تفسيرها الاحادي للدين، وكذلك تلجاء الاكثرية عندما تصل إلى الحكم حيث تستغل الاقلية وتمارس عليها عملية اقصاء، والاهم من ذلك تقوم بتفسير الدين لصالحها بنفس السلاح الذي فسرته الاقلية، وهذا التفسير المزدوج يؤكد صحة الفرضية القائلة بان تفسير الدين سلاح ذوحدين طبقا لا ستعماله، ويتطابق الاسلام اليميني مع قول لينين بان الدين افيون الشعوب، بينما الاسلام اليساري هو صرخة المضطهدين والمظلومين والمقاومين الذي يشتمل على فقه التحرير وفقه المقاومة وفقه التنمية وفقه تحرير الانسان من الجهل والمرض والفقر .

نعود إلى اسهامات المفكر حسن حنفي بتحليلاته وتفسيراته للسلوك الديني والفكر الديني قائلا " إن علم اصول الدين يحتوي على نموذج للفكر الديني حول مقدمتين وموضوعات ثابته يضاف اليها موضوع اوموضوعات كخاتمة ومن ثم تكون الموضوعات اثني عشر يتجاذبها اليمين واليسار وعلى النحو التالي :

اولا ـ تبداء المقدمات بعرض نظرية العلم اوكما يقال نظرية المعرفة للاجابة عن عدة تساؤلات اهمها ماذا اعرف؟ ويتضح موقفان الاول بجعل الايمان زسيلة للمعرفة والايمان فعل اولي يسبقه فعل آخر يقبل ولا يرفض يسلم ولا يعترض يأخذ ولا يعطي ووثانيهما يأتي دورة للنظر في تبرير الايمان وفهمه دون نقده اوتمحيصه .

هذا الموقف الذي تبناه حنفي هو موقف الاغلبية الساحقة من المسلمين حيث إن عقيدة السنة والجماعة تتبنى هذا الموقف، فالتسليم يؤدي إلى الطاعة والرضا بما يعطى للشعب من حقائق وعليه قبولها، فالفرد الذي يبداء بالايمان كنظرية للمعرفة يكون اقرب إلى الطاعة للامراء والى الانقياد للحكام والشعب الذي يبداء بالتسليم والاذعان للحقائق دون مناقشتها يكون اقرب إلى الاستكانة، وهنا يمكننا القول إن هذا الخطاب يتبناه الاسلام اليميني حيث يسعى هذا الخطاب إلى نشر الايمان بهدف الابقاء على الوضع القائم والاستسلام له والاستكانة تحته، واخيرا الخضوع له، ولذلك لا يعتني هذا الخطاب بمحوالامية ونشر التعليم بل يكون همه بناء المساجد والاهتمام بالزي الاسلامي واطلاق اللحى والتركيز على العبادات اكثر من المعاملات والمباني اكثر من المعاني والاكثار من الدعوات والابتهالات والتواشيح الدينية وانتشار المدائح والسعي للاستثمار الاعلامي في وسائل الاعلام والفضائيات لا عن ايمان بالدين بل عن نفاق واستثمار مالي، فالاستثمار الاعلامي اصبح يدر ارباحا هائله والاهم هو تخدير الجماهير والشعوب لما يجري من احداث مأساوية للمسلمين من احتلال وتخلف، والاخطر اضفاء صبغة الشرعية على الانظمة اليمينية المحافظة فهذا الخطاب يدعو إلى الله في خطب الجمع وبنفس الوقت يدعون على الشعوب بل يفضحون الشعوب ويهينونهم ويتوعدونهم ويشتمونهم ويبشرونهم بالوعيد يوم القيامة .

وهنا يتساءل حنفي كيف نتعامل مع التراث الاسلامي الذي اعتبر ضبط النفس جهادا بل جعله الجهاد الاكبر، ووصلت مصطلحات ضبط النفس امام اعداءنا الذين يطالبون حكامنا بضبط النفس والاخطرمن ذلك ضبطالشارع، وكذلك الحال مع العبادات كالصوم والحج وبر الوالدين وكل الطقوس الدينية السلمية الداخلة في باب

الطاعات، وكأن الاسلام قصر المواجهة مع اعداء الايمان الذين يقاتلون المسلمين في الدين حتى لا يفتتن المسلمين في الدين ويفتنوا في عقيدتهم نقاتلهم حتى ينتهوا عن عدوانهم ويكفوا عنا بلأوهم فتعود لنا حرية العقيدة وينتفي الاكراه المفروض علينا ويصبح الدين كله لله .

هذا بالطبع يقودنا إلى معرفة نظرية الحرب في الاسلام حيث يعتبر اليمين الاسلامي إن الحرب المقدسة والمشروعة هي حرب اعداء الله والدين وهي الحرب الوحيدة وهي الحرب المقدسة فقط ويسقطون الحروب والمعارك الاخرى من جدول اعمالهم كمعركة التخلف والتبعية وزيادة الانتاج ومعركة المعرفة والاستقلال والتحرير والامية، إن غياب هذه المعارك التي اشرنا اليها يعني انتشار الجهل والمرض والجوع وضياع الاوطان، لكن اليسار يحاول تفسير ديموغجية اليمين لصالحه الخاص في مجتمع تقليدي كلاسيكي ما زال يفكر بعقائده وذلك من خلال توجيه النظم العقائدية في الاسلام لصالح الطبقات المسحوقة واالطبقات الكادحة من خلال السعي لتعبئتها اولا وتنظيمها ثانيا حتى يتم استخدامها كقوة ضاغطة وطاقة ثورية مغيرة ما امكن أي تحويلها من الفوضى إلى التنوير ونقلها من الايمان إلى النظر "٢"، إن الخطاب اليساري الاسلامي يريد إن يجعل من النظر امرا عاما وشاملا لكل فئات المجتمع والطبقات فهو لا يعترف بوجود طبقة مستنيرة وطبقة فوضوية اودهماء .

ثانيا ـ نظرية الوجود : هذه النظرية تجيب على السؤال التالي ماذا نعرف ؟ وهنا يتشكل موقفان اولهما التركيز على موضوع المعرفة بانه الحادث أي المتغير الممكن أي الانتقال من الثابت إلى المتحول، ومن الممكن إلى الواجب فالعالم هنا محكوم عليه بالفناء من اجل اثبات موجود وراء العالم يكون هو البقاء والحكم على العالم بالفناء يكون حكم قاسي مدمر لاحساس الناس بالعالم اذ كيف يعمل الناس في عالم فان وكيف ينتخبون في واقع لا ثبات له ولا كيان ؟ العالم هنا ليس الا وسيلة لاثبات آلآخر هو الله فالله هو الباقي والعالم هوالفاني، الله هو الغني والعالم هو الفقير المحتاج ويستطيع الغني إن يفعل ما يشاء فلا قانون يحفظ للفقير حقوقه الا رحمة الغني به ولا ارادة تقف في مواجهة الغني الا فضله وارادته ومن ثم لا توجد قوانين ثابته للطبيع٨ة بل يمكن للحجر إن ينقلب إلى ذهبا والعصا ثعبانا ويعيش الانسان في عالم يحكمه السحر ويدركه بالخرافة لا يؤمن به ولا يعيشه بل يجد الانسان نفسه فوقه على نحو عارض مصادفة وليس له غاية الا البحث عن الباقي وراء العلم ؟٣".

هذه هي صورة اليمين او صورةخطاب اليمين الاسلامي الذي تتشربه هذه النظم التي يهمها سلب عالم الجماهير المستغلة والايحاء بانه عالم دوني وان المهم النضال فيما وراء العالم وبالتالي يسعى هذا الخطاب بان تتخلى الجماهير عن دورها وواجبها ولا تهتم بقضاياها المصيرية فكل هلك الا وجهه والعدالة لا يمكن إن توجد في الارض بل في السماء وتبقى هذه الجماهير ساكنة لابدة مستكينة مستضعفة مخدرة امام هذا الخطاب اليميني الذي تستحوذ به النخب .

اما خطاب اليسار الاسلامي فيركز على الجهد البشري المنتج فالعالم ليس ممكنا بل واجبا وليس حادثا بل قديم يخضع لنواميس الكون حيث بامكان الانسان إن يسيطر

علـى نـواميس الكـون وقوانينـه كـي يسـتغلها اسـتغلالا صـحيحا، إن ابجـديات خطـاب اليسار تنبثق من المحاور التالية :

١ـ علـى الجمـاهير إن يتـوفر لهـا الـوعي بالعـالم كـي تثـق بقوانينـه وتـدافع عـن مصالحه وتحافظ على حقوقه ضد كل اشكال الهيمنة الخارجية وضد كل اشكال القمع والاستبداد والطغيان والقهر الاجتماعي والاستغلال .

٢ـ يجب إن يكون العمل منتجا .

٣ـ يجب إن يكون لدى الجماهير الكلمة العليا ولديها الثقة بالعمل، وفيما تخلفه من وراءهـا مـن اثـار وهـي صـاحبة القـرار مـن خـلال نظـام شـوري ديمقراطـي يعمـل لصالحها .

٤ـ يجب على الجماهير إن تسعى للحيلولة دون استئثار على السلطة ويجب إلعمل علـى انتـزاع ثقافـة تركـز السلطة التـي يدين لهـا الجميـع بالطاعـة والـولا أي يجـب إن تناضل وتسقط فرضية الجماعة المنصورة .

بعـد هـذا العـرض والتحليـل المتميـز للمفكـر حنفـي يحـاول إن يغـرز اصـابعه فـي خطاب اليمين الاسلامي حتى يتم استغلال خطاب اليسار خاصـة عندما يحـاول تفسير حتمية القوانيين واطرادها لصالح النظم السياسية والتسلطية والرأسمالية، وهذه النقطـة هي محك والفكرة وهي محور جدل قد تصب فـي فـي خانـة المفكـرين الـذين يعتبـرون الاسلام تابعها للرأسمالية ولم يكن يوما مناهضـا لهـا، أي إن خطـاب اليمـين الاسـلامي يستخدم معيـار العـرض والطلب أي مـن خـلال ايجـاد علاقـات مـا بـين صـاحب رأس المـال والعمـال أي الـرئيس بـالمرؤوس او تفسـير قـوانين الـربح والاحتكـار كقـوانين طبيعية تقوم عليه الحياة الاقتصادية وبالتالي تكـون هـذه الـنظم الطبيعيـة التـي تفرضـها الامور، كما قد تستغل بقاء العالم واستمرار صلابته وتخصصه كميدان لنشاط ساحب رأس المال فقط مع اسقاط دور العمال لصـالح الطبقـة المستغلة علـى الطبقـة المستغلة التـي يظـل العـالم بالنسـبة لهـا هامشـيا لا قـوام لـه حتـى ينشـط مـلاك الاراضـي وينـام الفلاحـون والمزارعـون ولكـن القضـاء علـى خصوصـية النظـرة وتأكيـد ثبـوت العـالم للجميع من شأنه القضاء على استغلال اليمين لموقف اليسار " ٤".

وهنـا يطـرح السـؤال التـالي كيـف سـعى خطـاب اليسـار إلـى إعـادة تفسـير خطـاب اليمين؟

لقد سـعى اليسـار الاسـلامي إلـى إعـادة تفسـير خطـاب اليمـين لصـالحه وذلـك مـن خلال الاعتماد على نسف حتمية نـواميس الطبيعـة مـن اجـل توعيـة الجمـاهير، فالنظـام الرأسمالي ليس قدريا وليس دائمـا بـل يمكـن تغيره واستبداله وعلـى سـبيل المثـال فـان نظام الاجور والمرتبات ليس نظاما مقدسا بل يمكن تعديلـه نحـو الافضـل وهـذا النظـام الذي صوره لنا فوكياما يمكن إن يـتم قلبـه باسـرع وقـت ممكـن وانـه لـيس فردوسـا بـل جهنمـا احمـر وإن الاقليـة المسـتغلة هـي التـي حولـت الرأسـمالية إلـى فـردوس، ولـذلك سهل جدا تغير هذا الواقع والثورة عليه وقلبه على عقب، وبالتالي يأتي دور الجماهير مسـتخدمة سـلاح الاقليـة التـي تمكنـت فـي غفلـة الجمـاهير " المسـتغلة او المستضـعفة والغبيــة "إن تسـيطر علــى وسـائل الانتــاج والثـروة والمـال والحكـم أي إن الاقليـة

استخدمت خطاب الاغلبية من خلال السيطرة على وسائل الانتاج والمعرفة والتوجيه والمال والحكم لتسكين الجماهير وفرض هيمنتها عليه .

ثالثا ـ الالهيات : وهو المحور الرئيسي في العقائد الدينية ويبرز من هذا المحور محورين فرعيين هما "٥"

اولا ـ تثبيت الذات الالهية من خلال التركيز على مايلي :

١ـ الوجود

٢ـ القدم

٣ـ البقاء

٤ـ المخالفات للحوادث .

ثانيا ـ عدم وجودها في محل الوحدانية أي إن الذات الالهية موجودة بالفعل وجودا حقيقا وقديمة لا اول لها وباقية لا نهاية لها ومخالفة للحوادث لايشبهها شيئا ولا تشبه شيئا وليست في محل اوتوجد في كل مكان ووحدانية تنفي الشرك والتعدد، وثم يأتي تأليه الذات واعطاؤها كل ما يستطيع الانسان اعطاؤه من اوصاف للوجود المطلق خارج الوجود الانساني .

من خلال النظر إلى هذه المقدمة الثالثة نجد انها تسلط الضوء على اثبات النظم الاجتماعية التي تستند معظمها في سلطة واحدة في القمة تتصف بكل صفات الموجود المطلق سواء اكان ذلك في السلطة السياسية المطلقة للزعيم المنقض او الملهم او في السيطرة المطلقة لرأس المال وبالتالي تكون لدينا نظم تسلطية تقوم على القهر والطغيان، وعلى حق الفرد المطلق على حساب الجماهير اوقد تكون على شكل نظم رأسمالية تقوم على اعطاء الحركة المطلقة لرأس المال على حساب المستهلكين اوحساب الاستثمارات الصغيرة اوحساب العمال وهي النظم التي تجعل القمة في السياسة او في الاقتصاد مصدر النشاط والحركة والقيمة على حساب القاعدة المتلقية السالبة المأمورة .

إن هذا النوع من الايمان بالوجود المطلق الشامل ليعطي الجماهير نوعا من الاستكانة بالاتكال عليه والاعتماد على سلطاته فاذا ضاع كل شيء فعلى الاقل يوجد شئ واحد هو الوجود ذاته، واذا علم كل شئ فعلى فعلى الاقل يوجدشئ واحد هو الوجود ذاته، واذا ضاع الاحساس بالزمان والتاريخ ولم يعرف الانسان متى والى اين ينتهي وفي أي مرحلة من التاريخ يعيش فعلى الاقل ذاته هناك الدائم الذي لا اول له واذا اتعصى على الانسان إن يجد له مكانا في العالم ومحلا يحيط به فعلى الاقل هناك من لا يحتاج إلى محل او مكان، واذا عجزالانسان إن يدرك الامور الغيبية نظرا للاقنعة التي فوق عينيه فعلى الاقل هناك الادراك الغامض لما لا شبيه له، وان عدم الادراك خير من الادراك فالموضوع الذي لا يرى خير من الموضوع الذي يرى والخالص اشرف من الشائب، واذا فقد الانسان كل شئ فعلى الاقل شئ واحد لم يفقده هو الوحدانية الذاتية، ومن ثم يكون مفقودا وهو يضن انه قد وصل إلى بر

الامان فمن يفقد الحبيب يحب ذاته حتى يعوض فقده ويحول خساراته إلى مكسب ويحيل ضعفه إلى قوة "٦".

من خلال عرض هذه المقدمة التي ركزت على موضوع الالهيات، ومن خلال تحليل خطاب اليمين الاسلامي نجد انه يترجم هذا التفسير ترجمة فعلية لا قولية ويستلهم مشرعيتها ووجودها من هذا التفسير، والجماهير تصدق إن هذا التفسير هو عين الحق والصواب !!.

بينما خطاب اليسار الاسلامي عكس ذلك فهو يركز على الانسان على اعتبار انه اصل الموجود الذي لا يشك في وجوده احد ولا يقدر اعدامه شئ، هو القديم بمعنى إن الحقيقة ازلية لا يمكن الشك بها وهو باق بمعنى انه يستحيل عليه الفناء وهو لا يحتاج إلى محل لأن الانسان موجود في كل مكان والانسانية لا يحدها زمان او مكان، وهو لا يشبه شيئا ولا يشبه شئ لانه يتجاوز الاشياء ويفارقها، ومن ثم يقضي هذا الخطاب على كل تشخيص اوتسكين او تثبيت للذات، ويعيد للانسان اهم خصائصه الذاتية وتتحول حياة الانسان إلى حركة ونشاط وجهد ونضال بحياة الذاتيةفيه وليس بمقارنتها .

ومن هنا فان النظم السياسية التي تتبنى هذا الخطاب تكون نظما انسانية لانها تعتبر الانسان فلسفة الحياة، والانسان له قيمة ووجود لا فرق بين الحاكم والمحكوم والرئيس والمرؤوس، الرجل والمرأة، الغني والفقير فكل انسان له ذاتية وليس فقط الحاكم او الرئيس او المدير او الوزير او شيخ العشيرةاي إن هذا الخطاب لا يعترف باطعام الشعب خبزا اسمرا وللحاكم خبزا محسننا، للحاكم إن يحصل على الغذاء الطازج وللمحكوم إن يحصل على الغذاء المجمد الفاسد، الشعب يسير على الاقدام والحاكم يركب بسيارته الفارهة امام الشعب، الجماهير تلهث وراء الخبزوالخبز يأتي طائعا إلى الحاكم، ابناء الشعب لا يدخلون الجامعات الا بشق الانفس وابناء الذوات يدرسون على حساب الشعب المطحون في ارقى الجامعات، ابناء الشعب يسكنون في بيوت آيلة للسقوط وابناء السلطة يسكنون ابراج عاجية .

امام هذه الصورة المرعبة والمتناقضة يحاول خطاب اليمين إن يختطف آهات وعذابات الفقراء والمعدمين، ويحاول المتجارة بها تحت مصطلحات الليبرالية والحرية الديمقراطية وكأن هذه النظم هي الوريث الحقيقي والشرعي لليمين الليبرالي كما نشأت النظم الغربية العنصرية وتاجرت بالليبرالية وكأنها جاءت لا نقاذ الشعب، لذلك فمن واجب الخطاب الاسلامي الحقيقي إن يفضح هذه الازدواجية التي يحاول إن يلعبها الخطاب اليميني من خلال التأكيد على إن الانسانية لا تمييز فيها ما بين اللون والعرق والجنس والطبقة وان الشعب حالة واحدة لا تقبل القسمة او الانقسام .

والسؤال المطروح كيف يتمكن اليسار الاسلامي إن يعيد تفسير ادعاءات الخطاب اليميني؟ على اليسار الاسلامي إن يكشف حقيقة هذا التفسير ويعيد انتاجه بناء على موقفه ويقلبه على عقب وذلك من خلال تفسير المطلق لصالح الضعفاء وتوجيه هذه القوة ضد الاقوياء، ففاعله موجود فوق كل الوجود، وبدل إن يستعملها الاقوياء الضعفاء يستعملها الضعفاء ضد الاقوياء وهو الاقرب للطبيعة فالله اكبر فوق كل

كبير وليس الله اقوى من كل ضعيف فالوجود المطلق هنا يكون لاعادة وجودهم من العدم "٧".

رابعا : الذات الالهية لقد اشرنا فيما سبق إلى الصفات السابقة للذات الالهية التي اشارت إلى علاقة الذات بنفسها من حيث لها صفات اخرى تشير إلى علاقة هذه الذات بالعالم وهي الصفات السبعة التي ورثناها من القدماء وهي العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام والارادة، وهي صفات مطلقة مثل اوصاف الذات ومشخصة بمعنى انها تصف موجودا حيا ذا علم وارادة ومن ثم تنتزع من الانسان اهم صفاته اعني العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر، فالسمع والبصر وسيلتان للعلم، والكلام للتعبير والايصال والمشاركة في الحياة، والارادة لتنفيذ القدرة، فالانسان موجود حي له علم وله ارادة أي إن الحياة لها جانبان النظر والعمل ولكن تحويل ذلك إلى صنم عقلي ثابت جامد هونوع من الوثنية الشعورية .

هذا هو موقف اليمين والذي يستمد سلوكه السياسي والاجتماعي والاقتصادي منه، وعلى هذا الاساس ركزخطاب اليمين الاسلامي على ما يلي:

١ـ التأليه : أي تأليه الحكام والرؤوساء والملوك والقادة من منطلق إن القمة تحتوي على القيم اكثر مما تحتوية القاعدة، القمة هي الكمال والقاعدة هي النقص، القمة سائدة والقاعدة متنحية، القاعادة هي الحياة العالمة القادرة، القاعدة تتصف بالحسد أي الموت والجهل والعجزوهي صفات الجماهير صم بكم عمي .

٢ـ ففي النظم الرأسمالية يتمتع رأس المال بكل مظاهر الحياة والعلم والقدرة فهو رأس مال متحرك نشيط يتمدد كالسرطان كما هو الحال في الشركات العابرة للقارات، وهو عالم يسمع ويبصر ويقوم على الترشيد وتوجيه الاصوات وتحديد الاسعار .

إن خطاب اليسار بخلاف اليمين يحاول تحرير هذه الصفات التي هي ملك للانسان، فالانسان هو العالم القادر الحي الذي يسمع ويبصر ويتكلم ويريد، وبالتالي يتحول الثبات إلى حركة، والتأليه إلى نشاط والخارج إلى الداخل والقهر إلى تحرر، فالانسان لايؤله الا ما يعجزعن تحقبقه، ولا يعبد الا ما يستطيع إن يناله اذا كان جاهلا عبد العلم، واذا كان عاجزا الّه القدرة، واذا كان ميتا عشق الحياة، واذا كان اصما امل السمع، واذا كان اعمى رجا البصر، واذا كان ابكما تاق إلى الكلام، واذا كان عاجزا تمنى الارادة، ولكن اذا تحققت غاية الانسان في الحياة واصبح الانسان عالما قادرا حيا سميعا بصيرا متكلما مريدا فانه يحقق صفاته بالفعل، ويعود إلى عالمه بعد إن ظل مغتربا في عالم آخر منفصم الشخصية حيث يكون في عالم الجهل والعجزوالموت، ويضن انه باشواقه قدنال العلم والقدرة والحياة .

إن خطاب اليسار الاسلامي هو خطابى النظم التي تحترم الانسان وتعيد بناؤه بحيث يصبح قادرا حيا، وهذه النظم تعلن الحرب على الجهل والمرض والعجز من خلال نشر التعليم ليتحقق العلم، واذا قامت المؤسسات التي تجعل الشعب قادرا على ممارسة حقوقه السيساسية وعلى توجيه السياسة والتخطيط لصالحه تحققت القدرة، واذا كان الشعي مستقلا متقدما تحققت له الحياة، واذا كان هو صاحب الكلمة ويسيطر على وسائل اعلامه اصبح سامعا بصيرا متكلما ومحققا لرغباته .

اشرنا فيما سبق إن الخطاب اليميني يحاول اقتناص الفرصة لسرقة افكار اليسار وتحويلها لصالحه وذلك من خلال تحويل الصفات إلى وقائع حية، ولكن لمن للاقلية المسيطرة فهي العالمة القادرة الحية التي تسمع وتبصر وتتكلم وما سواها لا يستحق الحياة فليبقى عاجزا وجاهلا وميتا واصما ابكما واعمى لا يريد شيئا بل عليه إن يعيشفي الخيال والوهم، وبذلك تحقق الاقلية للاغلبية مرادها في ذلك وتشيّد لها المعابد والجمعيات والمدارس لتأليه علم التمني المشخص، وكلما ازداد التأليه ابتعدت الاغلبية طرديا عن المطالبة بحقوقها، وقد تستغل العنصرية الحضارية ايضا بجعل الغرب الرأسمالي الليبرالي وحده هو العالم القادر الحي وغيره من الشعوب هو العاجزالميت ويستحيل اللحاق بالشعب الاول المختار .

اما خطاب اليسار الاسلامي فهو يحاول تقديم العدالة الاجتماعية للبشر والحرية لكل الناس لا فرق بين اقلية واغلبية، اسمر وابيض، رجل وامرأة، وينفذ مشاريع التنمية للقضاء على الجهل والامية والفقر والمرض ويؤسس الحزب الجماهيري من اجل الحفاظ على قدرة الجماهير وفاعيلتها ويحرص على وعي الشعب ففي وعيه حياته، كما إن هذا الخطاب يسعى إلى ترجمة هذه الصفات " المثل العليا " التي تشد الانسان نحو تحقيقها والتي تكون مقاييس لسلوكه ومعيارا لما تحقق منها، وما لم يتحقق بالفعل، وبالتالي ترجمة هذه المثل أي الغاية القصوى للانسان وليست تسكينا وتشئيا وتأليها وارضاء وتخديرا "٨".

خامسا ـ الافعال : من معطف الافعال يخرج لدينا موقفين اولهما بجعل افعال الذات مطلقة وشاملة لا تحدها حدود ولا تقف امامها افعال اخرى، ومن هنا ظهرت عقائد القضاء والقدر وتثبيت امر الله التكيفي العام الي يضم كل شئ واثبات امر الله الذي يخص كل انسان ويكيف حياته، فالإنسان هو جزء من هذا العالم يسودعليه الله وليس له قدرة مستقله وارادة خاصة، وبالتالي فهو ليس صاحب ارادة وليس صاحب قرار، والكسب الاشعري لا ينفصل عن الجبر في الحقيقة لأ شرط الفعل الانساني الحر هو امكانية يولدها الله في الانسان فالفعل الالهي هو الشارط والفعل الانساني هو الشرط ولولا حدوث الفعل الالهي لم يتحقق الفعل الانساني والفعل الالهي اشبه بمركبة صاعدة إلى قمة الجبل، والفعل النساني اشيه براكب دراجة يمسك بالمركبة وليس هناك أي يقاء للعقل الانساني في ذاته، فالعقل الالهي سابق على الانساني في ذاته، فالعقل الالهي يضعه ايضا ويحتويه فالفعل الالهي سابق على الانساني ومعه، فالعقل الانساني ما هو الا تابع لمتبوع وكل ما يحدث في الخارج من تحديد للآجال الداخلية والارزاق والاسعار يحدث بالفعل الالهي وليس نتيجة للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية وهذا هوخطاب اليمين الاسلامي .

إن رؤية اليمين من الاوضاع السياسية للنظم السياسية التي تساند هذا الخطاب لوجدنا انها تؤكد على شرعية هذه الانظمة الحاكمة وتعتبرها من اكبر نعم الله بالرغم من إن هذه الانظمة هي انظمة جبرية وملكية عضوضية، وتستند إلى سلطة الفرد المطلق وعلى قدرته الشاملة، وان الحاكم اولى من المحكوم، وان المحكوم عبارة عن حجر نرد في يد الحاكم يقلبه كيف شاء، والنظم الاستبدادية والشمولية والدكتتاورية تعتبر عقيدة القضاء والقدر هي مرجعيتها وهي التي زرعت ثقافة الصبر والانتظار

إلى يوم المعاد لأن الجماهير لا تملك امرها، وامرها ترده إلى الله وما على الجماهير الا الصبر والسلوان والدعاء إلى الله إن يأتي بالفرج .

لكن خطاب اليسار الاسلامي يعتبر إن حرية الانسان واستقلاله خط احمر، وان الانسان خلاق في افعاله، وصانع قراراته وان فعله اولا غير مشروط، وان فعله اساسي وغير تابع، وان النظم السياسية التي يجب إن تحترم من قبل اليسار الاسلامي هي النظم التي تثبت حرية الانسان وقدرته وخلقه لافعاله، وان للانسان قدرة واستطاعة فعلية سابقة على الفعل في صورة روية وتدبر وانتظار وتخطيط، ومع الفعل في صورة باعث ونشاط وحركة وتحقيق وبعد الفعل في صورة بقاءواستمرار لآثار الفعل إلى ما لانهاية حتى انه ليصبح سنة يحتذى بها وقدوة للاجيال القادمة، كما تؤكد الجماهير فهي صاحبة القرار وتصر على حق تقرير المصير وحق التعبير وحرية القول والعمل والصحافة كتطبيقات لحقوق الانسان .

وهنا يأتي دور اليمين الديني الذي يعرف من اين تؤكل الكتف حيث يجهد لأن يقوم باستغلال هذا الموقف لصالحه في اللحظة التي تبداء النظم السياسية الليبرالية بالحديث عن حقوق الانسان، ولكنه بالنسبة للاقليات على حساب الاكثرية، ولكن أي حرية، حرية ممارسة الجنس وارتكاب العنف والجريمة والسلوك الفوضوي الشامل، كما وتنتهز موقف الاعلام في الحديث عن حقوق الانسان لكي يناغم الرأسمالية الليبرالية وخاصة إن الليبرالية لا يستحقها الا المجتمع الغربي !!!، اما الشعوب الاخرى فهي للتبعية والطاعة والاذعان والتقليد لا صوت يعلو فوق صوت المعركة .

إن الخطاب اليساري العلمي هو الذي يقرن الفعل الحر بالمسؤولية فتكون افعال الانسان ملتزمة بقضايا الواقع، ومحققة لبرامج تطويره، واليسار قادر على الدخول في الملفات المعقدة فهو يتمكن من تفسير العقيدة الجبرية وعقيدة القضاء والقدر لصالحه خاصة في شعوب ما زالت اسيرة التقاليد، وذلك من خلال اثبات الشجاعة المطلقة، والتأكيد على الدور البطولي للانسان، فاخطاب اليساري الاسلامي لا يأبه بالموت ويوظفه لخدمة افكاره ؟ فاذا كان الموت مكتوبا فلماذا الضيم في الحياة ؟، وهذا ما حاوله جمال الدين الافغاني من قبل في إعادة تفسير عقيدة القضاء والقدر على انها رفض للمذلة والمهانة واطلاق لقوى الجماهير وزعزعة الخوف من نفوسها، فهذه العقيدة لا تؤدي إلى القبول بل إلى الرفض ولا تبعث على الاستكانة والرضا بل تبث روح الثورة والنضال "٩".

سادسا ـ اشكالية العلاقة ما بين العقل والسلطة :

وقد انبرى من هذه الاشكالية موقفين متصادمين، الاول يجعل السلطة متقدمة على العقل والعقل تابعا للسلطة ووثانيهما النقل اساس العقل والعقل تابعا للنقل .

وينتج عن ذلك اهدار للعقل وهو القاسم المشترك بين الناس وانكار بداهته وحدسه واولياته، وهي اساس العلم وبداية المعرفة والارتكان إلى بداية اخرى اقل يقينا، وذلك لانها نصوص مكتوبة قد تكون صحيحة تاريخا وقد تكون محرفة لانها اقل يقينا، وذلك لانها نصوص مكتوبة باللغة وخاضعة في فهمها لقواعد اللغة ومناهج التفسير، وقد تكون مكتوبة بلغتها الاصلية مما يسبب ضياع المعنى، الاول المقصود به، ويختلف فهم الناس للتصورات فكل لغة تحتوي على الحقيقة والمجاز، الظاهر

والمؤول، المحكم والمتشابه، لا يوجدنص واحد حتى لوكان صريحا لا يختلف عليه اثنان، وهذا طبيعي نظرا لأن التفسير بحق التعبير عن النص من خلال تجربة حية للانسان يعيش في زمان معين ومكان محدد، ولا يوجد فردان متشابهان تماما في كل شئ، وقد يتم تفسير النص لصالح الاقلية على حساب الاكثرية، كما ويتم العكس، وقد يظهر تفسير رأسمالي للدين وآخر اشتراكي، ومن ثم كأن النص تابعا للموقف الاجتماعي ولوضع المفسر وضروفه واهدافه واهتماماته وولائه، وهذا ما يفسر لنا تعارض النصوص وهو في الحقيقة اختلاف في المواقف التي تستعمل فيها هذه النصوص، فالموقف الذي يجعل النقل بكل شبهاته ومخاطره ومظناته اساسا للنقل هو موقف اليمين حتى يلتبس الباطل بالحق وتضيع الحقوق في سراديب المفسرين وتتضارب وجهات النظر، من منطلق إن لكل شئ قولان ولا يزعج ليتهم الجماهير بالتبعية للسلطة دون حضور العقل .

وهنا لابد من الوقوف على تبعية الكتاب المقدس، فالسلطة السياسية تلجاء إلى الكتاب المقدس من اجل توجيه الجماهير نحو التبعية لها فكلاهما سلطة فالتبعية للكتاب المقدس هي بمثابة تأهيل للنفس لتبعية السلطة السياسية، والجماهير التي تدرب نفسها على التبعية، ويقوم بناؤها النفسي على التبعية، تتبع أي شئ فاولوية النقل على العقل تحمي النظم المتخلفة من استعمال الجماهير لوسائل البحث او السلطان او صاحب رأس المال او المدير لها، وتفسح المجال للسلطة السياسية لاختيار نوعية المتبرع الذي قد يكون اله او الامير او الملك او السلطان او صاحب رأس المال او المدير اوالرئيس .

بينما اليسار الاسلامي يعتبر العقل قبل النقل ذلك لأن العقل يؤدي إلى اليقين ببداهته واولوياته وبراهينه واستقراءاته في حين إن النقل لايؤدي الا إلى الظن برواياته وتفسيراته ظنا لمن يتم التفسير، وان الظن لا يغني من الحق شيئا، والاحصاء هو الحجة الدامغة لانه دليل يعتمدعلى الحص والمشاهدة وهو يقين مثل يقين العقل

اليمين كما اسلفنا يحاول استغلال هذا الموقف لحسابه ويعتمد على العقل لترشيد مصالح الاقلية، وينظرلتوظيف رأس المال ولتبرير الوضع القائم وصور الاستغلال والاحتكار، ولأن العقل البسيط هنا ل يكون هو العقل البسيط بل يكون هو الهوى والمصلحة او العنصرية التي لا يؤيدها العقل او التجربة، ولكن خطاب اليسار الاسلامي يحرص على بداهة العقل وشموله وموضوعيته ضمان لعدم استغلال اليمين لصالحه، خاصة في مجتمع يقدس النصوص ويعتمدعلى العقل، ولكن النصوص يتم تفسيرها لصالح الطبقات ومتطلبات الواقع كعامل مساعد لدليل العقل وبرهان التجربة "١٠".

تفسير اليمين للخير والشر في ضوء العقل والنقل : يرى اليمين إن الخير والشر من الله وجودا وحكما بمعنى إن كل شئ في هذا العالم خيرا كان ام شرا من فعل الله وليس من صنع البشر، وان الحكم على ذلك انه خير وعلى ذلك انه شر ياتي من الله ايضا وبأوامره وتوجيهاته ونواهيه، فالشئ خير لأن الله امر به وتوجيهاته ونواهيه، فالشئ خير لأن الله امر به وشر لأن الله نهى عنه، وكل شئ في هذا العالم بخيره

وشره لا يخضع لقانون ولا يبقى مصلحة ولا يهدف إلى غاية بل من فعل الله حيث لا تعليل لافعاله بمصالح العباد ولا تبرير لها برعاية الصلاح والاصلح وينعكس على السياسة، فالفكر اليميني يجعل من الخير والشر وضعين كونيين لا حيلةللانسان فيهما حتى يمكن تبرئة النظام الرأسمالي من الشرور والاثام، وجعل الفقر والاستغلال وضعين طبيعيين في الكون لا غرابة فيهما ولا تجوزمصالح الناس اذ لا يوجدنظام يرعى مصالح الناس اذ لا يوجد صلاح او اصلح بل توجد اوضاع لا يمكن فهمها كما الكون .

إن الخطاب الاسلامي اليساري بخلاف اليميني في تفسير الخير والشر، بل إن الخير والشر هما وضعين اجتماعيين من صنع البشر نتيجة لفعل داخلي في العالم وليس نتيجة لفعل خاص خارجي عن العالم، وان الانسان مسؤول امام تصرفاته، وان الانسان هو الذي يضع نظامه الاجتماعي، ويرى اليسار إن من واجب الانسان تغيير الشر إلى خير، وفي درئ الشرور واستجلاب الخير، وبالتالي تتحرك الجماهير وتنتظم وتتحزب وتمارس حقها السياسي وتتحمل مسؤولياتها القومية، وهذا العالم يهدف إلى رعاية الصلاح وللاصلح، فالصلاح إن يشارك العامل في رأس المال والاصلح إن تكون الارض لمن يفلحها والاصلح الملكية العامة لوسائل الانتاج، وبالتالي يمكن تغيير الواقع، وبالتالي تغيير المجتمع ونقله من وضع حسن إلى وضع احسن ومن نظام صالح إلى نظام اصلح، كما إن هذا العالم يسير وفقا لغاية يمكن للانسان ادراكها والسيطرة عليها لصالحه

سابعاـ النبوة : اليمين يعتبر النبوة ضرورية، وانه لا قوام لامة بلا نبوة، وان الانسان قاصر عقليا عن ادراك مصالحه وعاجز واقعا عن توجيه اموره، ومن ثم فهو يحتاج إلى وصاية خارجية والا ظل كالحيوان ينعق وينهق او اضل سبيلا، ودليل صدق النبوة دليل خارجي هو المعجزة بمعناها التقليدي أي خرق قوانيين الطبيعة، وقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا، واكثر من ذلك يرى اليمين إن الانسان قاصر على ادراك مصالحه ويحتاج إلى توجيه ووصايا من الحاكم او المدير او من الشيخ، ومن ثم يصبح الانسان مجرد آلآة طيعة في يد قوى تسيره كيف تشاء ولا ضامن لها ولا مراجع ولا رقيب عليها كما النبي بالمعجزات، يقوم السياسي اوصاحب العمل او رأس المال بمعجزات مشابهة يهزم الزعيم امام العدو في ساعات ويحل المؤسسات ويعقدها في غمضة عين فتثق في اقواله الجماهير وتعطيه الثقة ويشّيد صاحب رأس المال " المصنع " في اسابيع ويضاعف الربح في ساعات ويسيطر على السوق في ثوان ويقيل الحكومات ويؤلفها في ثواني .

لكن خطاب اليسار الاسلامي يرفض كل اشكال الوصايا على الانسان ويجعله مستقلا قادرا لا يحتاج إلى عون خارجي نظري اوعملي، ويضع الانسان في تطوره التاريخي، حيث كان الانسان قبل آخر مرحلة من مرحلة الوعي قاصرا عن ادراك اموره النظرية، وعاجزا عن تحقيق مطالبه العملية، ولذلك فان ظهور الانبياء ضرورة حتمتها ضروف العصر في مراحل التاريخ، وكانت الانبياء تظهر في كل عصر، وكان لكل قوم نبي وكل نبي يدفع بالتقدم الانساني خطوة إلى الامام، ثم يتلوه نبي آخر يدفع التقدم خطوة اخرى حتى اذا ما تحقق استقلال الانسان وكماله من الناحيتين النظرية والعملية، واصبح قادرا على ادراك الامور بعقله وتحقيقها بعمله

ومن هنا يكون توقف ظهور الانبياء وبذلك تصبح النبوة غير ضرورية، والدليل على صدق النبوة ليس خرقا لقوانيين الطبيعهة فقوانين الطبيعة ثابته ومطردة حتى تستقيم احوال الناس ويثقوا بالعالم الذي يعيشون فيه بل هو دليل داخلي محض، وذلك عن طريق التصديق بالوحي وايجاد البراهين العقلية والحسية على صدق محتواه وفاعلية مضمونة واثره في اصلاح احوال الناس وتدبير امور معاشهم .

إن النظم السياسية التي لا تحاول فرض وصايا على الانسان او إن تعتبر الجماهير قاصرة عن ادراك حقوقها هي النظم التقدمية الحقيقة وليست النظم المزيفة بل إن الانسان يتعلم من الجماهير ويتخلص من وصايا الافكار المسبقة فلا ضمان الا الشعب ولا مرجع الا المؤسسات الشورية او الديمقراطية ولا حارس الا الحزب الجماهيري فهو عصب الجماعة .

لكن اليمين الاسلامي يؤمن باستقلال الانسان العقلي وارادته لكنه يستغله لصالح الحاكم او لصالح رأس المال او لصالح الاقلية المتحكمه بوسائل الانتاج، لكن اليمين لا يستطيع إن يحقق اهدافه الا على الطبقة العامة اوما نطلق عليها الدهماء اوالاغلبية الصامتة، وهولأ هم المادة الاستراتيجية لليمين الاسلامي فلديهم الاستعداد لتقبل اراء الاوصياء وما اكثرهم وباسم الانبياء والقرآن والله.

لكن اليسار الاسلامي لا يقبل إن يعيد تفسير موقف اليمين لصالحه لانه رفض الوصايا النظرية والعملية على الناس، فموقفه موقف ناضج لا يمكن إعادة بناءه اللهم الا لأمر التأكيد على اهمية الايدولوجيا للناس، فالدين بقاموس العصر السياسي هو الايدولوجيا، والانسان بلا ايدولوجيا هو انسان بلا لون، ولكن الايدولوجيا ليست وصايا مفروضة على الانسان بل هي تعبير نظري عن واقعه، وينتظر مباشرة لاحتياجاته وتحقيق على مستوى الفكر لمتطلباته، وتخطيط دقيق لكيفية الممارسة وتحقيق هذه المتطلبات بالفعل او إن تكون الوصايا من القواعد الجماهيرية على قيادتها، وبالتالي تاخذ معنى الرقابة والمراجعة "١١"

ثامنا ـ المعاد : هناك جملة من الاسئلة التي يطرحها الانسان المعاصر ماذا بعد الموت ؟ وسؤال آخر من المسؤول عن الموت ؟

لقد طرحت قضية الموت باتجاهيين اولهما طرحها اليمين الاسلامي حيث تعامل معها على اعتبار إن الله هو الذي يميت البشر، وان الموت حادث بقضاء الله وقدره، وان الموت واقع بفعل الله وليس بفعل الامراض وحوادث السير او الاغتيالات او الانتحار، والموت في نظر هولأ يقسم إلى قسمين اولهما موت بدن وهو الموت الفاني الزائل لاقيمة له يتحلل إلى تراب وبالتالي باق خالد تتم به التزكية وينتظر الحساب وتبداء الرحلة بعذاب القبر ونعيمه، والسؤال الذي يطرحه الفلاسفة هل العذاب يتم بالبدن الذي يتحلل ام بالروح التي صعدت إلى بارئها ثم تبدأ عوالم البرزخ وهي :

١ـ اثيات الجنة والنار
٢ـ اثبات الميزان والصراط والحوض
٣ـ اثبات منكر ونكير
٤ـ علامات الساعة
٥ـ انشقاق القمر وشروق الشمس من الغرب

٦- يأجوج ومأجوج
٨- خروج الدابة
٩- المسيح الدجال

بعد الحساب يتم تحديد موقف الانسان اهو في الجنة ام في النار بناء على قرار القاضي الذي لا يخضع لقانون العدل بل الرحمة من منطلق إن الله قد يعفوا عن المسيئ وقد يعاقب المحسن طبقا لاعمال الفرد وليس لقرار الله فاذا تم الثواب فانه يحدث طبقا لاعمال الفرد وينال الفرد الثواب، وتتفاوت الجنة بين الدرجات ويعيش كل انسان حسب درجته في الثواب فهناك منازل وقصور تتفاوت فيما بينها بين العظمة والثراء

إن هذا العرض عن صورة الحساب بما فيه من ثواب وجزاء يستغله اليمين الديني من خلال انه لا داعي لا للنضال والمقاومة من خلال مايلي : اذا حرمّت من امرأة جميلة في الدنيا او بيت جميل فان الله سيكافئك بحورية او قصر جميل او بيت جميل في الجنة فكل شيئ محروم منه في الدنيا فان الله سيعوضك به افضل، والاخطر في هذا الخطاب انه يعطي الانسان تفويض من خطاب اليمين لكي يعطيك الطمأنينة من النظم السياسية من جهة وتخدير الانسان والى مزيد من الاستكانة والوعود المستقبلية مادامت لم تتحقق في الدنيا، وهذا يعني إن صاحب المال سيهيمن ويتحكمبالناس وهو مطمئن البال، وهذا يساهم في رفع وتيرة الامن الوطني، وان المستقبل سيكون في آلآخرة وليس للفقراء نصيب في الدنيا .

ثانيهما : خطاب اليسار الاسلامي الذي يعتبر الموت هو الحقيقة المطلقة وهذا يدفعه للمقاومة والنضال ضد قوى الطغيان والاستغلال والهيمنة، كما إن معرفة الانسان باسباب الموت فهو يخفف من نسبته سواء اكانت اسبابا مرضية او لاسباب اخرى كحوادث السير والاغتيالات والحروب، إن تغيير الواقع حتما سيقلل من أسباب الموت وبالتالي يحيا الانسان .

كما إن ما يحدث للانسان بعد الموت من عقاب وثواب محصورة بمعيار العمل فالانسان يوم القيامة يحاسب على الافعال وتكون اعماله موزونة بدقة، ولن يتأخذ قرار اصدار الحكم عليه أي حكم تعسفي بل سيكون القرار عادلا وليس لقانون الرحمة فالمسيئ لا بد وان يحاسب وينال جزاءه، وان الخلود للعمل والجماعة من خلال الانسان وصفاته الحميدة على الارض وذكراه الطيبة، لذلك نجد إن الحركات الجهادية والثورية تؤمن بان الخلاص ات في النهاية، وهذا هو الفرق ما بين الخطابين حيث إن اليمين يستغل هذا البعد الانساني، وهذا الشوق للامل والتطلع إلى عالم افضل من اجل تخدير الجماهير ووعدهم بسراب بينما اليسار يسعى إلى تحقيق هذا الامل بالفعل في حياة الناس "١٢".

تاسعا - الاسماء والاحكام : معاني الاسماء والاحكام والايمان كالكفر والفسوق والنفاق، وهذا بالطبع يقودنا إلى طرح السؤال التالي :ماهي اشكالية العلاقة ما بين الايمان والعمل ؟

من خلال تتبع موقف اليمين الديني نجد إنه ينظر إلى قضية الايمان على اعتبار إن الايمان بالقلب الذي لا يتحول وينصهر إلى فعل او قول او عمل يجعله ايمان الشعور الباطني من حيث هو ايمان المثقفين الذي لا يتحول إلى عمل وفكر او جعل الايمان مرتبط بنطق الشهادتين فقط، ولا يدري ماذا وراءهما من شعور وفكر، وماذا بعدهما من عمل ووهو ايمان المنافقين، وهذا الموقف هو انصاف الحلول، فالايمان الشعوري كافي والعقلي كافي والمطالبة بالهزيمة بعيد المنال، ويكفي الرخصة او الشهادة، فالنظم اليمينية التي تتبنى الاسلام اليميني لا تطلب من الناس اكثر من شعورهم الباطني حتى تأمن السنتهم وافعالهم لانهم اذا تحثوا فضحوا ودافعوا عن حقوقهم، واذا عملوا ثاروا ضد الظلم الواقع عليهم، ولا تطلب من المثقفين اكثر من الايمان العقلي وهو نوع من الترف الفكري تامن به هذه النظم ثورة المثقفين خاصة اذا عبروا لأن تعبيرهم قد يساعد على زيادة الوعي الجماهيري وهي لا تريد هذا ولا ذاك هي تريد ايمان لفضي لا عملي، ولذلك يكثر النفاق بين الجماهير بان الانسان مشروع نظر لا مشروع عمل، وبذلك تصبح الضروف مهياءة لولادة اجواء الاستغلال فتمارس الطقوس الدينيةبصفتها طقوس لا اكثر ولا اقل .

اما خطاب اليسار فهو يدعو إلى وحدةالعمل مع النظر ويجب إن لايحدث الانفصام، وان من لاعمل له لا ايمان له والعمل هو جوهر الايمان، والايمان بلا شعور داخلي اوتصديق عقلي مجرد عاطفة هوجاء، ولا ايمان بلا قول يجهر به بالحق أي ايمان ذليل مهان، ولذلك نلاحظ إن الامم الراقية تركزعلى العمل وتنتقد المثقفين الغير فاعلين وتجند الجماهير للمطالبة بحقوقها، ومعروف إن هذه النظم من انصار الحلول الجذرية في السياسة ولا تقبل بانصاف الحلول او المساومة على حقوق الطبقات الكادحةاو الموالاة للطبقات المستقلة .

يلاحظ ان خطاب اليمين يستغل موقف اليسار، ولكنه يقصر على صاحب رأس المال والحاكم وحده، فالاقلية المسيطرة تنفذ وعيدها تعمل بما يقول وتنفذ ما تقرر في سيطرتها على الطبقات الكادحة في ارزاقها، ولذلك مطلوب من خطاب اليسار إعادة تفسير موقف اليمين لصالحه في بداية الثورة، والناس لم تتعود بعد عليها وعلى متطلباتها فالتعاطف مع الثورة مقبول والذي يؤيدها يفكر فهويساهم، والذي يدافع عنها بالقول يشارك بالنصر، والذي يدافع فيها بعقله وقلبه وقوله وعمله هو الثائر الحقيقي المناضل تبعا لمراحل التحقيق الثوري حتى تنتصر الثورة حينئذ لايطلب باقل من وحدة الداخل والخارج وهي وحدة الشعور والفكر مع العمل والقول .

عاشرا ـ العمل الجماعي ما بين اليمين واليسار

علم اصول الدين الكلاسيكي وضع السياسة في ادنى مستوياته حيث صنف الخطاب الديني السياسة في ادنى مستوياتن علم اصول الدين واعتبرها ملحقا له وليست اصلا من اصوله كالتوحيد والعدل في اقرب إلى الشريعة والفقه منها إلى العقائد النظريةمما يحبط حماس الناس السياسي واهتمامهم بالعمل السياسي على اعتبار إن علم السياسة ليس له مكان في الفكر الاسلامي، مع انه علم مستقل وقائم بذاته لدى الامم والشعوب الاخرى وخاصة الاغريق .

إن اليمين الاسلامي يؤكد إن الناس ما داموا انهم آمنوا فلاداعي لوجود نظم سياسيةفقد خلق الله الجن والانس لعبادته وليس لاقامةشرائع، وهذا الموقف يضع الاسلام في الثلاجة ويحصره في العبادة ويسحب السياسة من الممارسة اليومية، وهذا الذي جعل المسلمون لا يهتموا بالسياسة ولا يوجد لغاية آلان نظرية اسلامية سياسية كاملة متكاملة، وانما انصب التنظير الاسلامي حول شخص الامام والخليفة او الزعيم او السلطان او الملك، وهذا الموقف هو الذي قزم علم السياسة وجعلها مرّكزة حولشخص الحاكم من حيث صفاتنه وخصائله ومحامده من منطلق إن اصلاح الراعي اهم من اصلاح الرعية، واذا حضر الامام بطل المأموم، اما المؤسسات الدستورية كبيت المال والخراج والحسبة والقضاء وحق الشعب في الرقابة فلا دخل ذلك بالسياسة، ولذلك انحصرت السياسة في شخص الامام، كما انحصرت السلاة في ذات الله كما انحصر الدين في الايمان بالله، وكما قال الفارابي قولته المشهورة، سواء كنت ذكرت الله او الرئيس فانني اعني شئ واحد .

وفوق ذلك كله فقد استغل اليمين ذلك كله فتم تأليه الحكام والزعماء ومجدت عروشهم ومن حق الشعب إن ينشد ويغني للحاكم ويرقص ممثلاوا الشعب طربا ومرحا يحمدون الله على سلامة الزعيم اوالزعماء واطفال فلسطين والعراق وافغانستان ولبنان والبوسنة تحترق تحت نيران الاجرام الامريكي والصهيوني والتوحش الامبريالي وخاصة اذا عطس الزعيم حتى لو دمر هذا الزعيم البلاد واحتلت الارض وانتهكت سيادةالاوطان وطعن شرف الامة، ومع ذلك فان العلم الصهيوني ما زال يرفف في قلب العواصم العربية .

هذا الموقف هو الذي عزز اختيار الخليفة من قبيلة محددة وليس بناء على التزامه بمبادئ سياسية اوبرنامج اجتماعي، وكأن الانتساب العرقي او السلالة الوراثية تحجب الالتزام او التعهد بالبرنامج لذلك كان اقرب للانظمة السياسية لليمين الاسلامي هي الملكيات الوراثية، وابعد من النظم الجمهورية مع انه لا يوجد فرق بينهما من حيث الشكل .

بينما اليسار الاسلامي اعتبر إن إلسياسة اصلا لا فرعا وانها هي المحققة لعلم اصول الدين، وان الله والشعب صنوان فصوت الله هو صوت الشعب، وانه لايمكن تصور الله بدون امة وخلافتها له، ويكون التوحيد حينئذ للتوحيد بين النظام الانساني والالهي في حاكميته من خلال الدستور، وعدم الرضا بهذا الانقسام بين شرعية الارض والسماء، لذلك نرى إن النظم التي تحترم الانسان تسعى لاقامة حكم عادل وتذوب الفوارق الطبقية، وتستند إلى مبداء الملكية العامة لوسائل الانتاج منعا للاستغلال وللاحتكار وتضع اهدافها واستراتيجيتها الواضحة وتسعى لتحقيقها .

إن الخطاب الاسلامي اليساري يسعى إلى تحقيق نظرية اسلامية تنطلقمن وجود مؤسسات دستورية حقيقة ترفض التبعية والهيمنة وتناضل للدفاع عن حقوق الانسان وحرية الصحافة والحريات العامة، كما إن اليسار يندد بكل اشكال التصنيم السياسي للحاكم او الزعيم أي عبادة الاشخاص فالاوطان تبقى والحكام يرحلون والمؤسسات القوية لا يستطيع أي حاكم افسادها بل انها قادرة على عزل الحكام والولاة ولا لتجديد التوريث .

إن هذا التنظير هوالذي يجعل ولأ الحاكم للمبادئ والتزامه بالدستور بصرف النظر عن انتسابه الطبقي ونسبه القبلي فلا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى، الحكم للمبادئ لا للاشخاص، وما الاشخاص الا ممثلين للسلطة سواء اكانت تنفيذية او تشريعية اوقضائية .

إن الاسلام اليساري يطالب بان يتم اجراء اختيار الحكام على اساس الانتخاب الحقيقي المباشر اوالغير مباشر من اهل العقد والحل، كما يرفض كل مظاتهر التعيين سواء أكان سلميا او بقوة القرارات والانقلابات، لذلك كانت النظم التقدمية ديمقراطية بطبيعتها لأن الشعب يمارس حقوقه .

إن اليسار الاسلامي يسعى إلى تحقيق الاستقلال الوطني والعدالة الاجتماعية دون الانتظار لقدوم المهدي المخلص اذ يستطيع الشعب بعدتجنيد قواه وبقيادة طلائعه دون الانتظار لظهور المخلص في المستقبل إن يأخذ حقوقه من الغاصبين سواء من الخارج او في الداخل، فالثورة ممكنة في الحاضر والجماهير هي صانعتها ولها الحق في مراجعة القادة ومحاكمتهم وعزلهم فهم مخطئون ولا عصمة لاحد .

قد يستغل اليمين موقف اليسار من اجل تغليب الطبقات بعضها ضد بعض، وضرب طبقات الشعب بعضها بالبعض حتى تتم السيطرة على الجميع، لكن خطاب اليسار باسلوبه قادر على صيانة الوحدة الوطنية وحمايتها من انتهازية اليمين، كما إن اليسار بامكانه إعادة تفسيره موقف اليمين خاصة اذا كان الشعب متطلعا إلى زعامة ميدانية تثق بها الجماهير، ولكن درء للاخطار يمكن تأسيس القواعد الشعبية للمراجعة والتأكيد على الاسلوب الديمقراطي والشوري في الممارسة .

الحادي عشر : العمل التاريخي إن خطاب اليمين الاسلامي يسقط التاريخ من حسابه، ولذلك تسعى النظم اليمينية على طمس معالم التاريخ، وعلى ابعاد الشعب عن مساره، والى اتهام كل الحركات الوطنية في التاريخ كحركات قلاقل وشغب واضطرابات وزعزعة الامن الوطني وتساعد في اثارة الفتنة، وان التاريخ موجود في الماضي " خير القرون قرني "، فالتقدم نحو المستقبل من وجهة نظر اليمين العودة إلى الماضي واللحاق بالعصر الذهبي الذي ولّى عصر النبوة والخلفاء الراشدين، لذلك تثني النظم اليمينية على الانظمة الشموليةخاصة في عصر الاباطرة العظام والملكيات الغابرة حيث شيدت القصور واقيمت المتاحف وشقت الطرق والقنوات وازدهرت الفنون .

اما وحدة الامة فهي لا تهم اليمين بل همهم الوحيد الفرق الناجية والقضاء على الفرق الضآلة وهي عنوان الامة، وهي كذلك الوريث الشرعي للنبوة وللخلافة، وكل من يخرج على الفرق الناجية أي فرقة الجماعة والسنة يكفر ويخون ويفسق ويتهم بشق الصف الاسلامي ويتهم بالعصيان، اما التاريخ السياسي لهذه الفرق فهي تمثل تاريخ الامة الواحدة تاريخ املكيات الاموية والعباسية والفاطمية والعثمانية او تاريخ الاسر الحاكمة وليس تاريخ الشعوب الضآلة الممزقة الفقيرة الجاهلة وحيث يتحدد الولأ بالطاعة للامراء والنبلأ وللملوك او الاباطرة .

اما خطاب اليسار الاسلامي فقد اعتبر التاريخ جزء من مكونات الفرد والجماعة، فان اليسار ينظر إلى التاريخ نظرة تحليلية اوجدلية للصراع، وكلما وعى الشعب في

أي مرحلة من التاريخ هو يعيش ازدياد التحاقه بالثورة، وازداد حماسه لها، وقد تكون مأسينا الحالية اننا لا نعرف أي مرحلة من التاريخ نحن نعيش لذلك تعثرت ثورتنا .

إن اليسار ينظر إلى قرأة تاريخية تقدمية نحو المستقبل، فالمستقبل يحتوي على امكانات ازدهار اكبر مما احتوى الماضي، وكل جيل يدفع التقدم خطوة إلى الامام حتى لو كانت في ظاهرها نكوصا وتراجعا، فرحلة النكوص تتلوها مرحلة مضاعفة للتقدم، لذلك نجد مراحل الثورات عشرات المراحل حيث بداء المجتمع فيها ساكنا واقفا جامدا يمكن اعتبار الابطال في التاريخ القومي من خلال الاستشهاد بقصص البطولة كحوافز وبواعث لتحريك الشعوب وليس مقياسا للتقدم يتم بالرجوع إلى الوراء، لقد اصبح التقدم وصفا لمعظم النظم اليسارية، وعنوانا للحركات الثورية وشعارا للاحزاب المناضلة .

اليسار لايعترف بسلطة قبيلة او بشرعية حزب او بشرعية فرقة ناجية بل الامة هي مصدر الشرعية فلا يكفر فريق على آخر ولا يتهم حزب آخر بالفسوق والعصيان، وهو يدعو إلى التجمع الذي بنظره الرصيد الوطني لكل حزب سياسي وليس لمجرد الشعارات او الاصول النظرية التي قام عليها .

خلاصة الكلام في اشكالية العلاقة ما بين الخطابين، إن خطاب اليمين يعتبر النقاط التي تم مناقشتها هي كل ما في مخزونه، ولم يترك القدماء شيئا الا وقدموه لنا، فما دام الله موجودا ليس له مضمون اجتماعي بل مجرد حكم صوري خالص عن وجود الله، وهذا الموقف ينسحب على النظم اليمينية التي ترى إن الوضع القائم هو من افضل الاوضاع، وان الامة قد وصلت إلى الكمال ولا تجوز الزيادة على النقصان، أي إن العقائد تختص بالحياة الدينية والنظام الرأسمالي بالحياة الدنيوية ويعيش الانسان حياتين واحدة في مصنعه ومتجره وشركته يعمل ما يشاء طبقا للنظام الرأسمالي واخرى دينية في معبده يقيم الصلاة في اوقاتها ويمارس طقوس لا اكثر ولا اقل "١٣".

بينما خطاب اليسار اعتبر إن العقائد ليست احكاما صورية بل لابد إن تكون ذو مضمون اجتماعي مرتبط بالارض اذا اردنا تحريرها، فالله قيمة والارض مطلب، ومن ثم يعادتفسير القيم طبقا للمطالب، من منطلق إن الله ضرورة والله غاية والتنمية هدف ومن ثم يعاد تفسير الغاية بحيث تخدم هدف التنمية، وقد سار الاسلاميون اليساريون على هذا النهج وعلى رأسهم جمال الدين الافغاني والكواكبي ومحمد عبدالوهاب والسنوسي والمهدي وغيرهم من قادة الاصلاح الحديثة، فالافغاني ربط الله بالارض من اجل جلاء المستعمرين عن ارض المسلمين ومن اجل تحرير الفلاحين من رقعة الاقطاع، وفي هذا الصدد يقول الافغاني "عجبت لك ايها الفلاح تشق الارض بفأسك ولا تشق قلب ظالمك ".

بينما المهدي ربط الدين من اجل الدفاع عن الوطن، والسنوسي ربط الدين بالمقاومة من اجل طرد الغزاة، ومحمد عبدالوهاب طالب بتوجيه العقائد نحو الاصلاح الاجتماعي ومحاربة مفاسد العصر من شفاعة ووساطة وشعوذة وكهانة، والكواكبي ربط الدين بالالتزام ومحاربة اللامبالاة والفتور الذي وقع فيه المسلمين، كما حاول الربط ما بين الدين والتحرر من اجل القضاء على مظاهر الاستعمار والاستعباد في حياتنا المعاصرة، وقاسم امين ربط ما بين الدين ومساواة المرأة بالرجل من اجل استرداد حقوق المرأة التي تخلت عنها عصور الجهل والانحطاط، كما وحاول اقامة

الربط ما بين الله والذات الانسانية من اجل إعادة تكوين الفرد المسلم ضد التقاليد وابرازجوانب الاصالة والابداع في مواجهة الغرب بماديته وانحلاله .

إن اليسار الاسلامي اضاف لاهوت الثورة، ولاهوت الارض، ولاهوت التقدم، وفقه التنمية، وفقه التغيير، وفقه التحرر، وفقه المقاومة، وباختصار خلق فقه السياسة فتلك مشاكل العصر التي تكون المادة الجديدة لعلم اصول الدين، وبالتالي تمحو التفرقة التقليدية بين العقيدة والشريعة او مبداءاصول الدين واصول الفقه .

من خلال جولتنا السابقة تبين لنا إن اليمين يتمثل في تيار الاشاعرة وهو تيار النص والنقل اي تيار حرفية النص، وبينما المعتزلة فهي تمثل تيار العقل او اليسار الاسلامي، وبذلك فاننا امام ازدواجية واشكالية ما بين تفسير الفكر والدافع ولا بد من حل هذه الاشكالية حتى تتمكن الامة من النهوض ومخاطبة الاخرين بخطاب عقلاني موحد لا متعدد انقسامي انشطاري تجزيئي، بعبارة علينا إن نلغي ثقافة الفرق ما بين الفرق بل الجمع ما بين الفرق من منطلق إن هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون .

هوامش الفصل الرابع ـ الباب الرابع

١ـ اليمين واليسار في الفكر الديني، د. حسن حنفي، ص ٦ـ ٧

٢ـ مرجع سابق، ص ٨ـ ٩

٣ـ مرجع سابق، ص ٩

٤ـ مرجع سابق، ص ١٠ـ ١١

٥ـ مرجع سابق، ص ١١

٦ـ مرجع سابق، ص ١٢

٧ـ مرجع سابق، ص ١٣

٨ـ مرجع سابق، ص ١٥

٩ـ مرجع سابق، ص ١٥ـ ١٧

١٠ـ مرجع سابق، ص ١٨ ـ ١٩

١١ـ مرجع سابق، ص ٢١ـ ٢٣

١٢ـ مرجع سابق، ص ٢٣ـ ٢٤

١٣ـ مرجع، ص ٢٩ ـ ٣٠، ولمزيد من الاطلاع انظر إلى كتاب من العقيدة إلى الثورة، د. حسن حنفي، ست مجالدات، وكذلك كتاب من الدين إلى الثورة، د.حسن حنفي، ثماني مجلدات .

الفصل الخامس ـ الباب الرابع

الفكر الاقتصادي الاسلامي والازمة المالية العالمية

هذا الفصل يجيب على اسئلة كثيرة طرحت على اللسنة الناس خلال تفجر الازمة المالية العالمية، والتي اطاحت بالعديد من المؤسسات البنكية العملاقة، وكادت إن تجبلار بعض الدول للاعلان عن انهيار مالي بل والافلاس، وسائل الاعلام العربية والدولية اقحمت الفكر الاسلامي في هذه القضية وهذا اكبر رد على حيوية الفكر الاسلامي وقد طرح السؤال التالي ماذا بجعبة الفكر الاسلامي من حلول وما هو مستقبل البنوك الاسلامية ؟

ومن خلال المتابعة لما يجري فقد اشار عدد من المفكرين والاقتصاديين اتلاسلاميين وعلى رأسهم د. ابراهيم العيس الذي يرى إن الحديث عن الازمة المالية العالمية ومشكلاتها واسبابها ومسبباتها، والتي من ضمنها الرهن العقاري عالي المخاطر، وما صاحب هذا من تعاملات مالية كشفت عن خطورة ما يحصل من الخشية والتخوف على بعض المصارف الكبيرة في الولايات المتحدة من خطورة الافلاس وتأثير ذلك على الأسواق المالية العالمية لما لها من صلة بالسوق المالية الامريكية، وتباينت الاراء بين المحذرين من تفاقم الخسائر والمشكلات، وبين متفائلين بان خطة الولايات المتحدة سوف تعطي آثارا ايجابية بعد فترة من الزمن .

من جهة اخرى فقد اعتبر الدكتور صالح بن زابن البقي بان النظم الاقتصادية البشرية تتهاوى امام النظام الالهي، موضحا بان السبب فيما يحدث لاسواق المال الامريكية والاوروبية واليابانية هو ما حدث للنظام الاشتراكي قبلما يقرب من العقدين الماضيين، واشار إلى إن النظام الاقتصادي الرأسمالي يتعرض آلآن لهزات عنيفة والسبب كما يرى هوانها انظمة بشرية لا تستند إلى اسس عادلة حيث خالفت اوامر الله وتعارضت مع السنن الربانية ومع القيم والاخلاق فاطلقوا العنان بحريتهم المزعومة لجمع المال باي وسيلةكانت إلى درجة تقترب من عبادة المال، واصبح الربا هو العمود الفقري في الاقتصاد الرأسمالي بل اصبح هناك فوائد ربوية تتضاعف كل فترة زمنية، اضافة إلى الفوائد الاساسية وهي المسماة بالفوائد المركبة، كما اصبحت الديون تجعل في سندات او صكوك وتباع بفوائد ربوية، فالرأسمالية تقوم على توظيف رأس المال في الاسهم والسندات والاوراق المالية وليس على استثماره في قطاعات انتاجية، وبالتالي اصبح النظام الرأسمالي قائما في جانب كبير منه على تجارة الديون بيعا وشراء، وكلما ارتفع معدل الفائدة على الودائع ارتفع معدل الفائدة على القروض المعطاة للافراد والشركات وغيرهم، والمستفيد هو البنوك والوسطاء الماليون، والظلم يقع المقترضين الذين يحصلون على القروض لأي غرض كان، اضافة إلى الاحتكار والغش والتدليس واستغلال الكذب والشائعات والمعاملات الوهمية، وبيع ما ليملك او ما لا يقبض وغير ذلك من العقود المحرمة في شرع الله والقائمة على الضرر والظلم .

وشرح الدكتور البغي اشكالية العلاقة ما بين الربا والازمة المالية فعدد ادلته على إن الربا من اهم أسباب الازمة المالية قائلا " إن الاسلام اعتبر إن الربا من اكبر الكبائر والمحرمات مصداقا لقول الله تعالى: ((يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار اثيم)) وحديث النبي صلى الله عليه وسلم " الا وان كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، لكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون الا يا امتاه هل بلغت ؟ ثلاث مرات قالوا : نعم قال : اللهم اشهد ثلاث مرات ".

اما الادلة العملية وهي إن المسؤولين عن السياسة الاقتصادية عندما تحصل مثل هذه الازمات يهروعون إلى تخفيض الفائدة، كما حصل في امريكا واوروبا في هذه الازمة، وكما حصل في اليابان حيث خفضت سعر الفائدة إلى درجة ٥. ثم إلى ٣.و.%،وهذا دليل على شعورهم بان الربا سبب الازمات والتضخم والكوارث التي لحقت بالاقتصاد العالمي ولا سيما الرأسمالي فسارعوا إلى معالجته بتخفيض نسبته .

إن سبب الازمة المالية من وجهة نظره وجودخلل في النظام الاقتصادي الرأسمالي، ومن هنا نشاءت الازمة الاقتصادية، ويؤيد هذا الفرض شهادة المفكر الاقتصادي الفرنسي " موريس اليه " والحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد حيث قال " إن النظام الاقتصادي الرأسمالي يقوم على بعض المفاهيم والقواعد التي هي اساس تدميره اذا لم تعالج وتصوب تصويبا عاجلا، كما تنباء العديد من رجال الاقتصاد الثقات إلى إن النظام العالمي الجديد يقوم على مبادئ تؤدي إلى افلاسه "١".

وهذا بالطبع يقودنا إلى معرفة رأي الخبراء الاقتصاديين الغربيين الذين يتبنون النظريات الاقتصادية الرأسمالية إلى تبني رأي الفكر الاقتصادي الاسلامي لمعالجة الازمة الاقتصادية العالمية، حيث اشار بعض المفكرين إلى تطبيق مبادئ الشريعة الاسلامية، وفي هذا الصدد يقول عضو مجلس الشورى السعودي الدكتور صالح البغي بانه التقى بوفد برلماني اوروبي واجابه احداعضاء الوفد بانه شارك في تأسيس بنك اسلامي في رومانيا، وقد حقق نجاحا ولم يتأثر بالازمة المالية العالمية "٢".

هذا وقد نادى كثير من الاقتصاديين الغربيين بدراسة وتطبيق النظام الاقتصادي الاسلامي وقد شاهد الباحث ندوة بثتها قناة الجزيرة عن احد مراكز الراسات الاستراتيجية تطالب بتطبيق مبادئ الفكر الاسلامي حيال قضية الفائدة كحل لمواجهة الازمة المالية العالمية .

كما وكشفت وسائل الاعلام العالمية بان مجلس الشيوخ الفرنسي قد بحث الوسائل التي تسمح لفرنسا ولوج النظام المصرفي الاسلامي، هذا وقد عبرت كبريات الصحف الاقتصادية فيها إلى تطبيق الشريعة الاسلامية حيث كتب " بوفيس فانسون " رئيس تحرير مجلة تشلينجر موضوعا بعنوان " الباب او القرآن " تساءل الكاتب فيه عن اخلاقيات الرأسمالية ودور المسيحية والكنيسة الكاثولوكية بالذات في تكريس هذا النزاع والتساهل في تبديد الفائدة مشيرا إلى إن الاقتصاد السيئ ادى بالبشرية إلى الهاوية، وتساءل الكاتب باسلوب يقترب من التهكم من موقف الكنيسة قائلا " اظن اننا بحاجة اكثر في هذه الازمة إلى قرأة القرآن بدلا من الانجيل لفهم ما يحدث بنا

وبمصارفنا لانه لو حاول القائمون على مصارفنا احترام ما ورد في القرآن من تعاليم واحكام ما حل بنا من كوارث وآزمات وصل الحال بنا إلى هذا الوضع المزري لأن النقود لا تلد النقود ""٣".

من جهته طالب " رولان لاسكين " رئيس تحرير صحيفة لوجورنال دفينانس في افتتاحية صحيفته تطبيق الشريعة الاسلامية في المجال المالي والاقتصادي لوضع حد لهذه الازمة التي تهز اسواق العالم من جراء التلاعب بقواعد التعامل والافراط في المضاربات الوهمية غير المشروعة، وعرض لاسكين في مقاله الذي جاء بعنوان " هل تأهلت وول ستريت لاعتناق مبادئ الشريعة الاسلامية ؟، أي التي تحدق بالرأسمالية وضرورة الاسراع بالبحث عن خيارات بديلة لانقاض الوضع، وقدم سلسلة من المقترحات المثيرة وفي مقدمتها العمل على تطبيق الشريعة الاسلامية برغم تعارضها مع التقاليد الغربية ومعتقداتها الدينية "٤".

والسؤال الذي يطرح نفسه كيف تبدو ملامح الحل الاسلامي كما يطالب المفكرين الغربيين ؟

فالهيئة الفرنسية العليا للرقابة وهي اعلى هيئة رسمية تعنى بمراقبة نشاطات البنوك في وقت سابق اتخذت قرار يقضي بمنع تداول الصفقات الوهمية والبيوع الرمزية التي يتميز بها النظام الرأسمالي، واشتراط التقايض في اجل محدد بثلاث ايام لا اكثر من ابرام العقد وهو ما يتفق مع الشريعة الاسلامية، ومن هنا فان ملامح الحل الاسلامي جاء من خلال هذا النداء الذي اصدرته الهيئة الفرنسية من خلال القرار الذي اصدرته، والذي يسمح للمؤسسات والمتعاملين بالاسواق المالية التعامل مع نظام الصكوك الاسلامي في السوق المنظمة الفرنسية .

ومن الجدير بالذكر إن الصكوك الاسلامية عبارة عن سندات اسلامية مرتبطة باصول ضامنة بطرق متنوعة مع مقتضيات الشريعة الاسلامية، كما وقررت احدى الجامعات الفرنسية في مدينة " ستراسبورج" بانها ستبداء مع مطلع شهر كانون ثاني عام ٢٠٠٩ بتدريس مادة الاقتصاد الاسلامي وهي الاولى في تاريخ فرنسا التي تعتزم تدريس هذا التخصص .

ومن ناحية اخرى اعتبر الدكتور البغي بان هناك مجموعة من العوامل التي ساهمت في الانهيار الاقتصادي والمالي لكثير من الدول من خلال ما اطلق عليه صور " البيوع المحرمة او الممنوعة وهي تعني وجود احد نوعي الربا " ربا الفضل وربا النسا " مثل بيع الدين الربوي بجنسه اووجود الضرر الذي يفسد البيع، كما اذا ترتب على بيع الدين عدم القدرة على التسليم ونحوه مصداقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم " عن بيع الكالئ بالكالئ""٥".

هذا وقد عدد الدكتور البغي صور بيع الدين غير الجائزة على النحو التالي :

١- بيع الدين للمدينين بثمن مؤجل اكثر من مقدار الدين لانه صورة من صور الربا وهو ممنوع شرعا، وهو ما يطلق عليه جدولة الديون .

٢- بيع الدين لغير المدين بثمن مؤجل من جنسه او من غير جنسه لانها من صور بيع الكالئ بالكالئ أي بيع الدين بالدين .

٣ـ حسم الاوراق التجارية " الشيكات والسندات الاذنية والكمبيالات لما فيه من بيع الدين لغير المدين على وجه يشتمل الربا .

٤ـ التعامل بالسندات الربوية اصدارا او تداولا او بيعا لاشتمالها على الربا .

٥ـ توريق او تصكيك الديون بحيث تكون قابلة للتداول في سوق ثانوية، لانه في معنى حسم الاوراق التجارية، والبديل الشرعي لحسم الاوراق التجارية وبيع السندات هو بيعها بالعروض " السلع " شريطة تسليم البائع اياها عند العقد، ولو كانت السلعة اقل من قيمة الورقة التجارية لانه لا مانع شرعا من شراء الشخص يثمن مؤجل اكثر من ثمنها "٦".

ويكشف الدكتور صالح البقمي إن معالم الحل الاسلامي للازمة الاقتصادية العالميةقائلا " بان الاسلام هو المنقذ للبشرية وذلك من خلال التطبيق الكامل لاحكام النظام الاقتصادي في الاسلام في الدول الاسلامية خاصة وفي بقية انحاء العالم عامة وذلك من خلال الابتعاد عن الممنوعات التالية "٧":

١ـ الابتعاد عن الربا والقمار والظلم وبيع الانسان مالم يملك، والمتاجرة بالهامش على المكشوف وبيع الاختيارات والمستقبليات وبيع الديون الممنوعة وغير ذلكمن المعاملات الممنوعة شرعا .

٢ــ التوجه إلى تنمية الاموال عن طريق استثمارها في المشاريع الانتاجية كالشركات الخالية من الربا القائمة على شيوع الربح وعلى عقود السلم والاستصناع والمرابحة وبيع التقسيط وغير ذلك من العقود المباحة شرعا مصداقا لقول الله تعالى "ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه " وقوله تعالى " فليحذر الذين يخافون امره إن تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم ".

من جهة اخرى ومن خلال ما طرحت من اراء الاقتصاديين الغربيين بان الحل لمواجهة الازمة العالمية باتباع منهج الفكر الاقتصادي في المؤسسات المالية التي تطبق الشريعة الاسلامية، وهنا يطرح السؤال التالي لماذا المصارف الاسلامية ؟ وبعبارة اخرى هل المصارف الاسلامية كانت في مأمن عن الازمة المالية العالمية ؟ولماذا لم تتأثر هذه المصارف حتى الان وما هي مقوماتها التي استندت اليها ؟.

كل هذه التساؤلات طرحت خلال تفجر الازمة المالية وتصدى لها المفكرون الاقتصاديون الذين يتبنون الرؤية الاسلامية، وفي هذا الصدد يتحفنا رئيس مركزصالح كامل للاقتصاد الاسلامي بجامعة الازهر د. محمد عبدالحليم عمر قائلا " إن الازمة الاقتصادية العالمية اثبتت عدم تأثر المصارف الاسلامية بهذه الازمة إلى حد كبير، وذلك يرجع إلى تعامل هذه المؤسسات باجتهادات علماء الشرع الاسلامي فقد اتخذت من الثوابت الاسلامية منهاجا لتعاملاتها وهذه الثوابت كفيلة بان تخرج أي مؤسسة مالية او عن المؤسسات المتعاملة مع هذا النهج، وفي المقابل فان المؤسسات المالية الاخرى في الغرب او غيره تتعامل تعاملات بعيدة كل البعد عن التعاملات الاقتصادية الاسلامية لكان لها شأن آخر ولم نكن نسمع عن هذه المذابح التي تتعرض لها المصارف في امريكا والدول الغربية "٨".

وفي هذا الصدد يقول " رولان لاكسين " رئيس تحرير " لوجورنال فاينينيس " في مقالة يوم ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٨ وجاء عنوان المقالة " هل حان الوقت لاعتماد مبادئ الشريعة الاسلامية في وول ستريت " يقول فيها " اذا كان قادتنا حقا يسعون إلى الحد من المضاربة المالية التي تسببت في الازمة المالية، فلا شئ اكثر بساطة من تطبيق مبادئ الشريعة الاسلامية ".

كما واشرنا إلى تصريحات رئيس تحرير مجلة بونيس فينست كبرى ال المجلات الاقتصادية في اوروبا حيث كتب في ١١ سبتمبر ٢٠٠٨ مقال تحت عنوان الربا او القرآن.

نعود إلى الدكتور محمد عبدالحليم عمر الذي يثني على شهادة الغرب في اعجابهم بالمنهج الاقتصادي الاسلامي، ويعيد طرح السؤال الذي طرحناه في البداية لماذا المصارف الاسلامية او البنوك الاسلامية او لماذا لم تتأثر المؤسسات الاسلامية المصرفية ؟ حيث قام بتحليل عامل من عوامل الازمة الاقتصادية العالمية والمتمثل في أزمة الرهن العقاري الذي يعد السبب الرئيس للازمة حيث يحلل هذه الازمة على النحو التالي :

إن البنوك اهملت في التحقيق من الجدارة الائتمانية للمقترضين واقراضهم بفائدة بسيطة في الاول ثم تزايدت وتوسعت في منح القروض مما خلق طلبا متزايدا على العقارات وعجز المقترضون عن السداد وكانت البنوك قد باعت هذه القروض إلى شركات التوريق والتي اصدرت بها سندات وطرحتها للاكتتاب وترتب على ذلك كم هائل من الديون مرتبطة بتوازن هش، وهذه العملية الاقتصادية محرمة شرعا وتبعد المصارف الاسلامية في العالم عن هذه التعاملات، وقدحرمت المجامع الفقهية التي تعدمرجعيات شرعية للمصارف الاسلامية هذه التعاملات، فقدجاء في قرار مجمع الفقه الاسلامي " إن الحاجات الاساسية للانسان والتي ينبغي إن تتوفر بالطرق الشرعية المشروعة بالمال الحلال، وان الطريقة التي تسلكها البنوك العقارية والاسكانية ونحوها من الاقراض بفائدة قلت اوكثرت هي طريقة محرمة شرعا لما فيها من التعامل بالربا وهناك طرق مشروعة يستعيض بها عن الطرق المحرمة لتوفير السكن بالتملك وهي الطريقة التي تتعامل بها المؤسسات المالية الاسلاميةوهو شراء مؤسسة التمويل العقاري وبيعه مرابحة وكذلك ابرام عقد استصناع أي مقاولة مع العميل لبناء المبنى ".

وتوجد صور اخرى تطبق في المؤسسات المالية الاسلامية العاملة في امريكا وهي صور المشاركة التأجيريةوهي إن يشترك العميل والمؤسسة في شراء العقار ثم تؤجر المؤسسة المالية حصتها للعميل في نفس الوقت حيث تبيع له كل سنة جزءا من حصتها حتى ينتهي العقد بتملك العميل للعقار، وهذه الطريقة التي اتبعتها المصارف الاسلامية تفترق عن طريقة القرض العقاري بخلوها من الفائدة الربوية منجهة والربط بين التمويل والعقار دون توليد ديون متعددة من جهة اخرى "٩".

الازمة الثانية : التوسع في القروض وهي أزمة بيع الرهن اواعادة بيع الرهن اورهن العقار حيث يقوم المشتري ببيع العقار المرهون اورهنه مقابل قرض بفائدة، وبالتالي يتحمل العقار الواحد بحقوق رهن متعددة، وما حدث بالازمة انه عندما

توقف المقترض عن السداد لم تكف قيمة العقار المرهون عن السداد وهذه المساءلةباطلة شرعا ولم يتعامل بها أي من المؤسسات الماليةالاسلامية لانها معاملة تنطوي على قرض جديد بفائدة ربوية والربا محرم شرعا وعلماء الفقه يقولون "لو إن رهن الشخص الشئ المرهون بدين آخر غير الاول بدون اذن المرتهن، وهذا لا يصح حتى لوباذن الرهن الثاني، ويبطل الرهن الاول لأن الثمن رهن لايجوزالتصرف به فاذا اذن المرتهن للمراهن بالبيع والتصرف في الثمن سقط حقه في الرهن، بالتالي يكون القرض خاليا من الرهن "١٠".

فوائد القروض

ويضيف عبد الحليم عمر قائلا " يلاحظ إن عمليات التمويل العقاري وتوابعها التي كانت السبب الرئيسي في الازمة المالية العالمية تقوم بالفوائد على القروض، وباجماع علماء المسلمين قديما وحديثا فان فوائدالقروض ربا محرم شرعا، والربا في الاسلام من اشد الجرائم الاقتصاديةوالاجتماعيةلمخالفة مرتكبيه تعاليم الحق مصداقا لقوله تعالى " واحل الله البيع وحرم الربا "،والمتتبع لسير عمليات تعاملات المصارف الاسلامية يجدها لا تسير في هذا المجال المحرم بل لها تعاملات اخرى وصيغ اسلامية للتعاملات من المشاركات والبيوع .

ومن هنا فاننا مطالبون إن نتوقف عند قوله تعالى: ((يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون))، وهي هي الحرب قامت في صورة اعصار مالي عالمي علىجميع المؤسسات الربوية والمتعاملين معها، ولو تعاملت البنوك والمصارف الاسلامية بصيغ غير التي تسير عليها لكنا ازاء حرب ودمار اهلك الحرث والنسل في بلادنا

ويكشف الدكتور عبد الحليم إن الاقتصاد في حقيقته هو النشاط الذي يدور حول توفيرالسلع والخدمات لاشباع الحاجات الانسانية من خلال وظائف اقتصادية مثل الانتاج والتوزيع والاستهلاك،وهذا يتطلب التبادل لانه لا يوجد احد يمكنه انتاج ما يحتاجه من سلع وخدمات بنفسه، والتبادل يحتاج تمويلا، ومن هنا وجد الاقتصاد المالي لخدمة الاقتصاد الحقيقي، لكن السوق المالية انفصلت عن السوق الحقيقية، واصبح يتم التعامل في النقود والتمويل ذاته بيعا وشراء من خلال المداينات والاتمان، وترتب على ذلكان اصبح حجم التمويل المتاح من خلال الائتمان إضعاف قيمة الاقتصاد الحقيقي مما ادى إلى خلل في التوازن بينهما، واما في الاقتصاد الاسلامي فان أي تيار مالي لا بد وان يقابله تيار سلعي في بسط محكم لا يسمح الاسلام يجني الاباح من خلال التيارات المالية وحدها الا كان هذا ربا، ولذاجاء القرض الحسن الذي يمثل تيارا ماليا شرع من اجل حاجة المقترض للانفاق على السلع والخدمات، وبدون إن يحصل المقترض على زيادةعلى قرضه ومجردالتعامل في النقود ذاتها، وهذا ما جعل العديد من المؤسسات الماليةالاسلامية تسير على قدم قوية وثابته "١١".

من جهة اخرى حلل الخبير المالي بجامعة الزقازيق د.حسن شحاته عدم تأثر المؤسسات المالية الاسلامية بالازمة المالية العالمية للاسباب التالية :

١- عدم التعامل بعمليات المشتقات الوهمية"الميسرة ".

٢- عدم الاخذ بنظام التوريق وجدولة الديون وفق نظام الفائدة ووفق التعامل بعمليات تمويل الاموال بنظام الفائدة وتطبيق صيغ اسلامية في التمويل .

٣- البعد عن عمليات غسل الاموال القذرة السائدة في سوق النقد والمال العالمية .

٤- دعم رجال الاعمال المخلصين لاوطانهم الذين يعملون في مجال الصناعةوالزراعة والخدمات الضرورية، وذلك محافظة على معدلات التنمية الفعلية من خلال نظام تمويل بالمشاركة وهو البديل لنظام التمويل بالفائدة الربوية والذي ثبت فشله عالميا .

٥- توجيه حركةالمال والنقد وفق اولويات اسلامية وهيالضروريات والحاجات الاساسية وعدم توجهها إلى امورمحرمة .

٦- تأخذ المؤسسات المصرفية والبنوك الاسلامية في تطبيق نظام الزكاة، وهذا مما يعودعليها وعلى المتعاملين معها بالنماء والبركة من الله سبحانه وتعالى .

من جهة اخرى ولمواجهة شرور حدوث ازمة مالية عربية او اسلامية بالمستقبل طالب الخبير شحاته بضرورة العمل على تحريم المعاملات الغير مشروعة وخاصة التي تقوم كذلك على نظام الغرر اوالجهالة او التدليس مثل المغامرات والمضاربات، وكذلك مشتقات المعاملات المالية القائمة على الميسر والاخر معاملات بيع الديون بالديون .

ومن جهته اعتبر إن الازمة الاقتصادية والمالية العالمية اظهرت جملة من السلوكيات الغير اخلاقية تعود اسبابها إلى الطمع والجشع والفزع والهلع، ناهيك عن السلوكيات الغير اخلاقيةالتي استشرت في المؤسسات المالية والاسواق كالفساد والمعلومات المضللة والكذب والاحتيال، واشارالى إن المؤسسات الغير اخلاقية ممكن تلافيها والسبب في ذلك يعود إلى شدة القرابة عليها سواء من داخلها او من خارجها، اضافة إلى الوازع الديني الذي يجعل الفرد المسلم يتحرى الحلال والحرام إلى حدما، وكل حسب قدرته، وهذا هو جوهر الفكر الاقتصادي الاسلامي، فاذا اردنا إن يكون الاقتصاد الاسلامي اقتصادا انمائيا عالميا فانه يجب إن تتوفر فيه فضلية الربانية الاخلاقية فهو من خلال سعيه للمكسب ملتزم بمنظومة القيم والاخلاق، وهذا بحد ذاته ضد الاعاصير والتسونامي المالي العالمي الذي ضرب المؤسسات الغربية "١٢".

بعدهذا العرض عن توفر أسباب المنعة للاقتصاديات الاسلامية والمؤسسات المالية والمصرفية الاسلامية من تعرضها لاي أزمة مالية جراء تصاعدالانفجارات المالية التي ضربت الاقتصاد العالمي يطرح السؤال التالي لماذا صمدت المقاومات المالية في المؤسسات المصرفية الاسلامية ؟

وقبل إن نجيب على هذا التساؤل فانه لابد وان نعيد الذاكرة انه نتيجة للزلازل العالمية المالية وخاصة نتيجة لانهيار بنك " ليمان برادذز" الامريكي تحركت عدسات وسائل الاعلام العالمية مباشرة لماذا لم تهتز المؤسسات والمصارف الاسلامية، ومن هنا فان الاجابة على هذه التساؤلات فقد اجمع المحللون الماليون والخبراء الاقتصاديون بان البنوك الاسلاميةمحصنة بدرجة كبيرةضد أزمة ما يسمى بالرهن العقاري، وهو ما قد يجعلها تتوسع متجاوزة معقلها الرئيسي في الأسواق العربية والآسيوية، والسبب كما يراه هولأ الخبراء والمحللين هوان المؤسسات المالية التي تطبق النمط الاسلامي انها لا تتعامل في سندات بضمان رهن عقاري لأن هذه المعاملات المصرفية المركبةلا تتعامل مع اصول الشريعة الاسلامية والمودعون في الارباح والخسائر التي يتم تمويلها ويتطلب التمويل الاسلامي إن تكون المعاملات المالية منتجة وغير قائمة على مبداء المضاربة، وهو ما يقي البنوك الاسلامية مخاطر الانهيار المفاجئ حيث تكون الودائع ورؤوس الاموال مؤمنة بمنتجات فعلية، لكن الخبراء لم يستبعدوا حدوث بعض الاعراض لأن هناك مشاريع مشتركة مع البنوك التجارية، كما انه من المحتمل إن تكون بعض المؤسسات المالية والمصرفية لها استثمارات في بنك ليمان او غيره .

هذا وقد اعتبر الخبراء ما جرى في امريكا انعكس على معظم الأسواق المالية العالمية وظهر في بنوك عالمية مثل بنوك : ستي جروب "و "يو . اس . بي" لشطب اصول تزيد قيمتها عن ٨٠ مليار دولار بسبب خسائر سوق الائتمان، بالمقابل فان المؤسسات المالية الاسلامية في ماليزيا والخليج العربي لم تتأثر بشئ يذكر من الازمة المالية مشيرين بذلك الى إن السبب يعود إلى حملةالصكوك والسندات الاسلاميةخرجت من انعكاسات الازمة بالسلامة، هذا وقد اشارت التقارير إلى إن المسؤولين في اسواق هونج كونج طلبوا المساعدة من خبراء الاقتصاد الاسلامي في ماليزيا .

إن سر قوة فلسفة الاقتصاد الاسلامي في المؤسسات المالية يعود إلى حفظ حقوق الناس والسبب يعود إلى إن الاسلام نظام شامل جاء من اجل حماية الانسان من شتى اصناف الفوضى، وذلك لكي يشعر البشر بالامان والامن، تحترم فيه حقوق الاغنياء والفقراء معا وتراعى فيه المصلحة العامة على الخاصة، وتحفظ حقوق الناس من خلال مايلي" حيث اباح الاسلام البيع وحرم الربا والتغرير والقمار، وشرع الاسلام التجارة وحرم الاحتكار ".

ويستشهد الخبراء بنجاعة وصفات الاقتصاد الاسلامي انه خلال أزمة الكساد العالمي الكبيرالذي جرى سنة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٣ حيث تسابق المفكرون والخبراء في البحث عن نظريات اقتصادية تخفف من وطاءة الازمة المالية الاقتصادية العالمية، الا إن النظام المالي الاسلامي كان موجودا قبل اكثرمن ١٤ قرنا ولم يتم اللجوء اليه، وبقيت أزمة الرأسمالية مستمرة إلى وقتنا هذا، وآلآن العالم كله يبحث عن الحل هل العودة إلى النظام الاشتراكي اومعالجة أسباب اخفاق الرأسمالية ام التوجه نحوتطبيق الشريع الاسلامية، هذا وقد اعترف الخبراء بان البحث فعلا بداء من خلال الاهتمام بالصكوك الاسلامية، وخاصة في الصين وكوريا الجنوبية، مضيفين إلى إن أزمة الرهن العقاري العالمية قد تؤدي إلى اهتمام عالمي بالنظام الاسلامي حيث تمثل الازمة فرصة لقطاع التمويل

الاسلامي تتضمن احتمالا لنمو اعلى في عدد العملأ الذين يبحثون عن بديل،وكذلك تحمي البنوك من انهيار اسعار الاسواق في الغرب، ويؤكد الخبراء في نفس الوقت ان هذا لا يعني إن التمويل الاسلامي خال من المخاطرفي ظل التنامي المستمر للبنوك الاسلامية وبعدها النسبي عن الاهتزازات العالمية، وفي هذا الصدد اشارت دراسة اعدها البنك الاهلي المصري انه من المتوقع إن ترتفع حصة البنوك الاسلامية لتصل إلى نسبة٥٠% من اجمالي اصول الجهازالمصرفي في الدولالخليجية بنهاية ٢٠١٠، واكدت الدراسة التي تحمل العنوان التالي "الخدمات المالية الاسلامية " انه على الرغم من النموالكبير في صناعة الخدمات المالية الاسلامية الا إن نسبة هذه الصناعة في النظام المالي للعديد من الدول الاسلامية لا تزال ضئيلة حيث تمثل نحو ٩,٧% في ماليزيا، ٢,٧% في تركيا، وهو الامر الذي يعني انهناكفرصا كبيرة لتنامي هذه الخدمات المصرفية بشكل كبير خلال الفترة المقبلة "١٣".

هوامش الباب الرابع ـ الفصل الخامس

١ـ مجلة الشورى، الازمة المالية العالمية، ص٦ـ٨

٢ـ مرجع سابق، ص ٨

٣ـ مرجع سابق، ص٨ـ٩

٤ـ مرجع سابق، ص ٩

٥ـ مرجع سابق، ص٩

٦ـ مرجع سابق، ص ١٠ـ١١

٧ـ مرجع سابق، ص ١١

٨ـمجلة الوطن العربي عدد تاريخ ٢٢ـ ١٠ ـ٢٠٠٨، ص ٤٢

٩ـ مرجع سابق، ص٤٢

١٠ـ مرجع سابق، ص ٤٢ـ ٤٣

١١ـمرجع سابق، ص٤٣

١٢ـ مرجع سابق، ص ٤٤

١٣ـ مرجع سابق، ص٤٥

اشكالية العلاقة ما بين الدين والرأسمالية

تناولناخلال الصفحات السابقة اشكالية العلاقة ما بين الاسلام والرأسمالية حيث عرضنا رأي الفكر والشهيد سيد قطب والذي حدد لنا اشكالية العلاقة ما بين الاسلام والرأسمالية من حيث الشكل والمضمون بصيغتها السياسية والاقتصادية، ثم تناولنا رأي معاكس ولكن من لدن مفكر غربي ماركسي انه الدكتور والمفكر والمؤرخ واستاذ الدراسات الشرقية بجامعة السوربون في فرنسا مكسيم رودنسون الذي اعتبر الاسلام والرأسمالية متلاحمان وحلفاء ضد الاشتراكية، واعتبر إن مشاريع الرأسمالية العالمية لا تجد لها سوقا الا في اطروحات الاسلام بشكل خاص والاديان بشكل عام بشقيه السياسي والاقتصادي، وحاولنا تفنيد اراء رودنسون حيث قدمنا تحليل معمق عن تفسير الاسلام بشقيه اليساري واليميني وتوصلنا إلى إن وجهة نظررودنسون تجد لها سوقا في التفسير اليميني بينما التفسير اليساري يملك ارضية مناسبة لاجراء مصالحة تاريخية ما بين الاسلام والاشتراكية وهذه الارضية تلغي حالة المواجهة ما بين الاسلام والاشتراكية من منطلق وجود نقاط يمكن إن يتم عليها البناء الفكري وخاصة الافكار الاقتصادية والاجتماعية، اذا علمنا إن الحركة الثورية للاسلام انطلقت من الاسلام قبل اكثر من خمسة عشر قرنا أي قبل ولادة الماركسية والاشتراكية وقبلها الرأسمالية بعشرات القرون، خاصة اذا علمنا إن الحركة الثورية للاسلام خرجت من الطبقات والكادحة والمناضلة أي إن الطبقة العمالية هي التي ساندت دعوة الرسول الكريم، ولم يكن للقيادة البرجوازية أي حضور، لكن بعدمرحلة اقامة الدولة الاسلامية وخاصة في عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه سيطر الفكر البرجوازي الرأسمالي على الفكر الثوري ودخل المجتمع الاسلامي في صراع اجتماعي سياسي حيث دخل الصراع المادي حلبة المواجهة .

متى بدأت عملية النضال الاسلامي ضد مشاريع اللبرلة الرأسمالية ؟

المصادر التاريخية اشارت إلى إن الصحابي الجليل ابو ذر الغفاري تزعم حركة مقاومة الرسملة حيث حسم ابو ذر الغفاري موقفة وقرر بلا هوادة مواجهة المشاريع الرأسمالية وهو بالمناسبة يحمل رقم خمسة في الاسلام فقرر حزم امتعته لما رأى تحول الدولة الاسلامية من الخطاب الثوري النضالي إلى الخطاب الرأسمالي البرجوازي وخاصة معارضة السلوك الرأسمالي الذي اختطه ولاة الشام الامويين بزعامة معاوية بن ابي سفيان، وهو الذي ينتمي إلى الطبقة البرجوازية القبلية التي ينتمي اليها الخليفة عثمان بن عفان، وبذلك قرر ابوذر إن يواجه هذا الواقع الجديد والخطاب الجديد اليميني للدولة الاسلامية الناشئة، وقرر إن يخلق اجواء معارضة لنهج الليبرالية الرأسمالية، واوجد منظومة نضالية قوية جدا انطلقت من فلسفته الخاصة التي تنطلق من مبداء المحاسبة والمراقبة والمساءلة لسلوكيات الحكم الاسلامي في عقده الثاني، وفعلا اطلق العنان لبرنامجه السياسي باسلوب فردي، حيث بداء بمخاطبة الخليفة عثمان بن عفان عن سلوكيات والي دمشق معاوية بن ابي سفيان، حيث لجاء إلى خطاب اعلامي نضالي تحت شعار من اين لك هذا ؟

لكن الامور لم تسير كما خطط لها ابو ذر، فالخليفة عثمان لا يسعه إن يسمع هذا الخطاب اليساري الجديد الذي يتصادم مع اليمين الاسلامي الذي يدعم خطط البرجزة والرسملة والتوسع المالي على حساب الثوابت الاسلامية، ولكن ابو ذر الغفاري كان قد بداء مستقلا ومنفردا في معركته النضالية ولكن للأسف بلا حزب جماهيري نضالي حيث تم اعتقاله مبكرا ونفيه، وهكذا انتهت اول تجربة نضالية في تاريخ الاسلام السياسي، علما بان الرسول الكريم بشر بنضالية ابو ذر حيث يقول " تمشي وحيدا، وتموت وحيدا، وتبعث وحيدا يوم القيامة يا ابا ذر ".

وبذلك يكون الخطاب الاسلامي اليساري قد خسر معركته السياسية وخسر اكبر دعاته النضاليين، وانتصار اليمين الاسلامي الذي انتهج سياسة الليبرلية في بادئ الامر ثم انقلب عليها من خلال اشاعة الفوضى السياسية والاجتماعية واراقة الدماء والقتل، حيث اختلت موازيين المعادلة حيث تم اسناد مراكز الولايات والحكم إلى الطبقة السياسية والاقتصادية الاوليغارشية، وبذلك اصبحت الدولة تحت سيطرة نفوذ رأس المال وقوى المال، وقد انفجرت الازمة في نهاية الامر حيث تم اغتيال الخليفة عثمان بن عفان على يد مجموعة خارجة عن توجه الدولة الاسلامية وسال دم الاسلام الداخلي وما زال لغاية آلآن يهرق .

ما دعاني للكتابة في هذا الموضوع حتى اثبت للجمهور الاسلامي وغيره سواء على مستوى النخب والشعوب، علما بان الشعوب اغلبيتها رأسمالية التوجه يمينية سهلت استمرار وبقاء الطبقة البرجوازية، ومن يعارض هذا اليمين فان نهايته ستكون كنهاية الوحيد والشهيد ابو ذر الغفاري وسيد قطب وقافلة الشهداء ستستمر ولذلك ما اروع كلام ابو ذر حين يقول " من لم يجد قوت قومه فلا حاجة الا إن يشهر سيفه في وجه الناس " وهو القائل " إن التجارة والسياسة لا يلتقيان ".

تجربة نضالية لرجل دين مسيحي

في هذه الصفحات سنقدم تجربة رجل دين مسيحي من امريكا الجنوبية ناضل من اجل امته وشعبه إلى إن سقط شهيدا، كي نثبت للاخرين إن القيم النضالية اليسارية موجودة كذلك في الدين المسيحي، وان اليمين المسيحي هو في الاصلا يمين عفن حاول إن يردد قول السيد المسيح " اذا لطمك احد على خدك الايمن فادر له خدك الايسر "، وهذا القول تبناه اليمين المسيحي، لكن هناك قول آخر للمسيح ويتبناه اليسار المسيحي " اذا لم تجد سيفا فبع ردءك لشراءه "، وهكذا فان الدين ليس متواطئا برمته مع الرأسمالية، وان الدين هو ضمير الشعوب الحية، وان الذي يتواطئ مع الرأسمالية هم الكهنة والدراويش والقيادات الدينية اليمينية وليس الدين، فالقيم الدينية هي قيم اصيلة اذا تم تفسيرها تفسيرا ثوريا فانها قادرة على الاستمرار في النضال والمقاومة خاصة اذا تعاملت مع الواقع الاجتماعي والثوري لا إن تبقى نصوص جوفاء وصماء جامدة حتى لانسمح لمحمود درويش وامثاله إن يوجه سهام النقد لتلك النصوص " الم يقل درويش احتمينا بالنصوص فدخل اللصوص " أي لصوص الاديان والرأسمالية والوطنيات المزيفة والامميات العالمية .

إن تجربة رجال الدين المناضلين الذين لم تتلوث ملفاتهم بالتحالف مع قوى الاستعمار والرأسمالية المتوحشة يستحقون قراءتها قرأة متأنية كامثال تشي جيفارا وغيره، واننا سنسلط الضؤ على رجل دين كولمبي هو المناضل الشهيد القديس الثائر " كاميلو توريز"، الذي كان موقفه مناهضا للرأسمالية ولليمين المسيحي بقيادة الكنيسة مع إن الاخيرة كانت حليفة للرأسمالية المتوحشةالامريكية وما زالت، فخرج على عباءة الكنيسة ودار معركته من بوابة الصراع ضد الاستغلال والتبعية والظلم والقهر، وحاول تكوين جبهة مناوئة للرأسمالية العالمية، ولجاء إلى الجبال مع رجال العصابات والمقاومة، واخيرا استشهد دفاعا عن القيم النبيلة التي آمن بها وناضل من اجلها، ولنا من تجربة المجاهد الاكبر ابن لادن الذي كان حليفا للامبريالية الامريكية في الحرب الدائرة في افغانستان خلال الاحتلال السوفياتي، وقد حاول بن لادن الذي تحول من حليف إلى عدو وخصم عنيد للامريكيين، حيث ينتمي ابن لادن إلى عائلة سعودية رأسمالية برجوازية ثرية جدا، لكنه ابى الا إن يكون رفيقا واخا لكل المجاهدين على ارض افغانستان يمدهم بالمال والسلاح لمقاومة الامريكيين والرأسمالية المتوحشة، حيث تمكن من تأسيس تنظيم عسكري اطلق عليه تنظيم القاعدة، ومن هنا فانا شخصيا احترم بن لادن لكنني لا اتفق معه في كثير من المواقف والتصريحات، ومع ذلك احيي صموده وجهاده ضد الامريكيين في العراق وافغانستان ووزيرستان في باكستان، وأخيرا تم استشهاد ابن لادن على يد القوات الأمريكية بعملية مازالت فصولها غامضة لغاية الآن.

نعود إلى المناضل تيريز حتى نثبت للاخرين بان الدين بمفهومه العام لا يمكن إن يتحالف مع الاستغلال والقهر والجوع والظلم والفقر والحصار والتجويع بل يجب إن يكون الدين في المواجهة ض المشروع الامريكي الرأسمالي، وهذا التصور يقودنا إلى تفسير الدين تفسيرا نضاليا، وسبق إن تحدثنا في الفصل السابق عن مدارس واتجاهات تفسير الدين الاسلامي ما بين اليسار واليمين .

إن حياة الانسان تنبع من المبادئ التي يعتنقها ويتغذى منها، ويصارع آلآخرين من اجلها، ولا يمكن إن يساوم من اجل المراهنة عليها او بيعها من اجل متعة زائلة اوتنفيعة ستزول او موقع يتغذى منه، ولكن على حساب المثل العليا والقيم الثورية، فحياة المواطن الحقيقي هوان يموت لا من اجل حياته فحسب بل من اجل مثله وقيمه، وان القيم الثورية لا يمكن إن تدوم الا اذا تمتطويرها وتطويعها للواقع الذي يعيش فيه الانسان لتحقيق رسالته، فالانسان الذي يعيش من اجل سعادته ويعيش على حساب وطنه فانه في الحقيقة يعتاش منه، واما الذي يعيش من اجل وطنه حتما سينتصر واذا استشهد سيكون من اجل وطنه وهذا هو الفرق بين المناضل العضوي او الحقيقي او المناضل المشبوه، ونحن في الاردن لنا مناضل من هذا النوع انه المناضل الشهيد وصفي التل الذي ناضل من اجل الاردن لامن اجل سعادته .

إن الانسان الاناني والانهزامي والمنافق والدجال والمرائي فانه يفنى وكأنه لم يكن، اما الذي يقف في وسط معانات شعبه ووطنه ويساهم في تطوير ادوات النضال ويسعى لتغيير الواقع اوتطويره لمصلحة الامة فانه حتما سيحقق رسالته حتى لو استشهد فان الاجيال المتعاقبه ستذكره بالفخار وستحمل اسمه على الاكف فما اجمل إن نكون شهداء لاوطاننا لا إن تستشهد اوطاننا ونعيش نحن، ولذلك فاننا في هذه

العجالـة نسـتذكر الملاحـم التـي يسـطرها الشـعب العربـي فـي العـراق وفلسـطين ضـد الهمجية الراسمالية الصهيونية المتوحشة وعملائها في المنطقة .

نعود إلى صاحبنا " كاميلو توريز " المناضل الثوري والقديس الثائر والذي ولد في بوغاتا عاصمة كولومبيا، والذي ينتمي إلى اسرة ارستقراطية راقية جدا، فوالده عمل طبيبا للاطفال، ثم تسلم عمادة كلية الطب، ووالدته تنتمي إلى اسرة عريقة واخوه يعتبر من اشهر اطباء الاعصاب في كولمبيا حيث شغل كرسي الاعصاب في جامعة مينسوتا الامريكية، هذا وقد مرت حياة توريز بمرحلتين .

المرحلة الاولى : عاش توريز حياة منعمة مليئة بالرغد حيث اصطحبه والده وعمره سنتين إلى بلدان اوروبا، وخلال السنوات الخمس عاش في كل من بلجيكا واسبانيا إلى إن التحق بكلية الحقوق بجامعة كولمبيا، لكن ميوله الصحفية كانت اكثر من القانونية، اشرنا إلى إن توريز كان منعما فتعرف على فتاة كان والدها من زعماء الحزب الحاكم المحافظ، والذي اصبح وزيرا، ثم نائبا لرئيس الجمهورية، وكانت اسرته متدينه فقدمته إلى الدمينكان الفرنسية، وهنا شعر توريز نفسه لاولمرة برسالته الدينية فقرر الرحيل الى دير الدمينكان في شرق بوغوتا، لكن امه عارضت ذلك،وعلى ضوء ذلك اتجه للدخول في المعهد الديني، واصبح راهبا سنة ١٩٥٤، ثم ارسله كاردينال بوغوتا إلى جامعة العرفان الكاثوليكية للتخصص في علم الاجتماع للاستفادة في ادارة الاعمال الاجتماعية للاسقفية فقضى اربع سنوات في بلجيكا اهتم اثنا الدراسة بدراسة العديد من المشاكل الاجتماعية خاصة الفقر المزري فيالمدن الكبرى، وزار عدد من بلدان اوروبا وشارك في باريس مع الأب بطرس فينشاط لاحدى الجمعيات الدينية كنشاط اجتماعي، كان متأصلا لديه وهو في مرحلة التكوين، وفي نهاية دراسته في لوفان عين نائبا للمدرسة الامريكية اللاتينية التي اسستها الاسقفية من اجل تكوين الرهبان في امريكا اللاتينية، ولكنه لم ينسى وطنه فكون عدة منظمات وعلى رأسها الجماعة الكولمبية للبحوث الاقتصادية والاجتماعية لتجميع الطلبة الكولمبيون في اوروبا وعقد الاجتماع الاول في بروكسل سنة ١٩٥٨ بعد إن قدم دبلوما عن مستوى المعيشة في بوغوتا، وفي سنة ١٩٥٨ حصل على درجة البكالوريوس في علم الاجتماع .

بعد عودته الى كولومبيا تم تعينه مرشدا للجامعة الوطنية الكولمبية ثم استاذ لعلم الاجتماع وقد لائم العمل روح الراهب المفعم بالحيوية خاصة وان شخصيته كانت محببة للاخرين بسبب سعة افقه، وكان ذو نشاط جم بين اوساط الشباب والزملأ والطلاب مما زاد من شعبيته حي ثقام بعدة دراسات اجتماعية عن العنف والاصلاح الزراعي، هذا وقد ذاعت ارءوه وابحاثه ومحاضراته ألعامه ومقالاته ودراساته التي قدمها إلى العديد من المؤتمرات العلمية والاحاديث الصحافية، كما انخرط بعدد من المنظمات واللجان الشعبية جعلته دائم الاتصال بالشعب حيثكون مع زملائه حركة الجامعيين واعضاء هيئة التدريس الاحرار للتنمية القومية، وفي عام ١٩٥٩ شارك في اعداد مشروع قانون اصبح فيما بعد بداية للحركة الوطنية الكولمبية، وفي عام ١٩٦٢ انتهى نشاط الجماعة بعد صراع جرى ما بين الطلبة وادارة الجامعة فقدقام الطلاب بمظاهرات عنيفة نتج عنها فصل طالبين ينتميان للحزبالشيوعي، وقد رد الطلبة باعلان الاضراب والاعتصام العام وبسلسلة من اعمال العنف في حرم المدينة

الجامعية، وبطبيعة الحال انتصر كاميلو للطلبة، ومنذ ذلك الوقت ظهر كمدافع عن حقوق الطلبة والناس واظهر الصراع انه ما بين ادارة الجامعة ومشرف الجامعة الاجتماعي، وعلى ضؤ ذلك قد استقالته من الجامعة .

المرحلة الثانية : وخلال هذه المرحلة ساءت علاقته مع الكنيسة بسبب نشاطه السياسي وخاصة بعد مغادرة الجامعة، فقد عينه الكاردينال في معهد الادارة الاجتماعية الملحق بالمدرسة العليا للادارة العامة، واصبح النائب الاول في احدى الاديرة في بوغوتا، واستمر في دعوته الدينية وواصل ابحاثه في العلوم الاجتماعية في كولمبيا، ثم اصبح عضوا في مجلس ادارة المعهد الكولمبي للاصلاح الزراعي المكلف بتطبيق قانون سنة ١٩٦٢، وعلى ضوء ذلك اسس مزرعة نموذجية وزاد اتصالاته بالفعاليات الاجتماعية الرجال والنساء معا بغض النظرعن مستوياتهم الثقافية والايدولوجيةالتي ينتمون اليها وتجمعهم جميعا الرغبةفي التغيير والاصلاح،وعبر لهم عن ارائه حيث اعتبره خصومه ثوريا وقداوصلته مواقفه إلى التصادم مع السلطات ومراكز التخطيط التي تقوم عليها الاقلية الحاكمة، وكذلك رؤوسائه بالكنيسة الذين اعتبروه خارجا عن تعاليم الكنيسة، لكن مع كل هذا التضييق تحول إلى زعيم شعبي وقائد جماهيري لدى اوساط المقفين وطلبة الجامعات والجماهير الكادحة .

وهنا يمكننا القول ان توريز توصل إلى إن تغيير الاوضاع الاجتماعية والسياسية لن يتم الا بتوحيد ورص صفوف الجماهير بصرف النظر عن ايدولوجيةكل واحد، فاجرى اتصلاته مع القوى السياسية والنقابية والفعاليات النسائية والطلابية، وقرر العمل حيث لم تكن مهمته سهلة في عيون اليسارين والشيوعيين بسبب خلفيته الدينية كونه راهب على اعتبار إن له ارتباطات مع السلطات الدينية والسياسية لم تنتهي بعد كما إن موقفهم تجاهه بالرفض المطلق لمشاركة رجل دين بالعمل السياسي، ونتيجة لتوتر الاوضاع الاجتماعيةوالسياسية يوما بعد يوم حيث وصل الامر إلى بعض الاوساط الحكومية التي اصبحت تواقه للتغيير، ووصل العجزالرسمي إلى رئاسة الجمهورية، ووصلت الازمة السياسية في البلاد إلى الذروة فقرر توريزورفاقه التحرك السريع حيث اقترح عام ١٩٦٤ تشكيل حركة سياسية تجمع القوى اليسارية، وعقدوا اجتماعا لدى رئيس تحرير احدى الصحف وقرروا البدء بالعمل الثوري والنضالي بطريقشرعية مع التأكيد على وحدة القوى الثورية، وعقدوا اجتماعا ثانيا سنة ١٩٦٥ وشكلوا لجنةبرئاسة توريزمن اجل كتابة بيان يلتزم به الجميع، وبعد قراة جزءمن البيان في ١٢آذار ١٩٦٥ قوبل بالحماس الشديد ثم اذيع على الناس في ١٧ آذار تحت عنوان " بيان لحركة الوحدة الشعبية " .

هذا وقد تفاعل عموم الناس مع البيان وانظمت اليه الاوساط التقدمية والتفت حوله الجماهير وعاداه رجال الدين والكنيسة والحكومة، ووقفوا ضده، وبدأت المواجهة بينهم وبين توريز، هذا وقد تمكن توريزبعد اعلان البيان من تجميع الجبهة المتحدة للشعب الكولمبي التي دعمها وساندها الحزب الاشتراكي الديمقراطي المسيحي والحركة الثورية الليبرالية والطليعة الوطنية الثورية والحرب الماركسي اللينيني " جناح الصين " والحركة العمالية والطلابية والفلاحون من انصار الحزب الشيوعي

الذي دخل مؤخرا بعد تردد طويل من اجل مساندةالجبهة المتحدة والسيطرة على جريدتها، وخلال فترة وجيزة تصدعت هذه الجبهة للاسباب التالية :

١ـ الحسد والغيرة من مؤسس الجبهة بعد النجاح الذي تحقق على مستوى الوطن الكولمبي .

٢ـ صعوبة تكوين لجان محلية ثورية لغياب القيادات القادرة على تجنيد كوادر ثورية .

٣ـ نقص التنظيم

٤ـ ردود افعال التيارات المحافظة على الوضع القائم .

٥ـ انفصال توريز عن الجماعات السياسية التي شاركت في انتخابات ١٩٦٦ حيث كان من انصار الامتناع عن التصويت وايدته كل من الرابطة الوطنية والحركةالثورية الليبرالية، ولم يستمر حتى النهاية الا الحزب الاشتراكي المسيحي حتى بعد انفصال توريزعن الكنيسة واخيرا قرر اعلان الطلاق مع الكنيسة .

مرحلة الانفصال عن الكنيسة : ففي ٢٠ آذار ١٩٦٥ وجه توريز خطابا للكاردينال يرجوه بالقيام بالاجراءات القانونية اللازمة من اجل خروجه من سلك الرهبنة إلى الحياة المدنية ولكن الكاردينال تجاهل طلبه، وفي ٢٥ اذار اعلن الكاردينال إن بيان العمل السياسي والاجتماعي الذي كتبه توريزوقدمه للشعب يتعارض مع العقيدة الكنسية فكتب توريز للكاردينال يطالبه بتحديد موقفه فيجيبه الكاردينال انه ابتعد عن تعاليم الكنيسة مع سبق الاصرار ويعلن امام الرأي العام إن اعمال الأب توريزتعارض لباسه الكهنوتي الذي يرتديه، وفي ٢٤ يونيو يذيع توريزطلبه للخروج من سلك الرهبنة إلى الحياة العلمانية فيصادق عليه الكاردينال في ٢٦يونيو، لكن توريزظل يعتبر نفسه حتى آخر لحظة راهبا ثوريا .

مرحلة الكفاح المسلح : وبعد إن رأى توريزان الخيار السلمي فشل في تحقيق اهدافه اتجه نحوالعمل المسلح الثوري، وذلك من خلال الالتحاق برجال العصابات لأن الكفاح المسلح هو الانسب للوصول إلى السلطة وتحقيق اهداف الثورة، فاجرى اتصالاته مع اصدقائه القدامى من الشيوعيين لكنهم ترددوا في انضمامه للعصابات التابعة للحزب الشيوعي لأن الشيوعيين يعتبرون العصابات لا تحقق اهداف الحزب، كما انهم غير متحمسين لانظمام راهب متدين إلى صفوفها، فاتجه إلى جيش التحرير الوطني الذي يسير على نهج كاسترو ففي ١٨تشرين اول ١٩٦٥ ترك توريز بوغوتا إلى الابد وانظم لرجالات العصابات في الشمال الشرقي للعصمة، وقد قويت شعبية جيش التحرير الوطني بانظمام توريزله، وقد بدأت اولى مهامته بالاتصال بالمزارعين وظل يؤدي مهمته لمدة اربع شهور وذلك في ١٥ فبراير ١٩٦٦ حيث جرى صدام ما بين الجيش الكولمبي الحكومي وجيش التحرير الوطني وكان مع قادة العصابات، واثناء محاولته اخذ سلاح جندي وطني سقط شهيدا كما تقضي بذلك نظم حرب العصابات سقط شهيدا بدوره، وفور اعلان النباء خرجت المظاهرات العارمة في كل انحاء البلاد، واقيم قداس على روحه في كنيسة بوغوتا تلتها مظاهرةضخمة، وبعد سنتين ظهرت جبهة باسمه واصلت النضال .

من خلال استعراضنا لقصة حياة هذا المناضل الثوري والقديس نريد إن نهدف إلى الربط ما بين دور الدين والايدولوجيا في العمل الثوري حتى نقنع اصدقائنا

الماركسيين منجهة ونرد على مكسيم رودنسون وغيره بان القيم الدينية الاصيلة لا تتصادم مع النضال، وان الدين فيه معايير راقية جدا تلزم اتباعها بالنضال والتحرير والدفاع عن حقوق الانسان والكرامة الانسانية .

ومن جهة اخرى فقد اشرنا إلى إن توريز عمل راهبا وباحثا في علم الاجتماع وعرفنا كيف توصل إلى انه لايمكن اجراء أي تغيير في المجتمع الكولمبي الا بعد إن يتم اجراء جراحي في البناء الطبقي للمجتمع سواء أكان على مستوى المؤسسات الدينية والاجتماعية او السياسية، فالكنيسة في امريكا اللاتينية والمجتمع حليفان وهناك اتفاق ما بينهما وتواطئ فرؤوساء الكنيسة من نفس الطقة الاجتماعية التي خرجت منها الاقلية الحاكمة والكنيسة، فاعلاها الكاردينال وادناها طلبة المعهد الديني، ومن هنا فلا بد من دراسة واقع الدين في المجتمع الكولمبي .

واقع الدين في ا لمجتمع الكولمبي :

تشكل الكنيسة في المجتمع الكولمبي اهمية كبيرة، ولديها نفوذ كما اشرنا من خلال تحالفها مع المؤسسة الحاكمة، وتشير الدراسات إلى إن معظم الكهنة هم اصلا من سكان الريف أي انهم محافظون، كما إن الكاهن لا يترقى درجة لاخرى الا حسب الطاعة ومحافظته وخضوعه، وهو ما يطلق عليه الرقابة والسيطرة الذاتية والتي تعني عدم الخروج على تعاليم وقيم الطبقات العليا، ومع ذلك فان انخراط الناس بالرهبنة ليست ذات حجم كبير بل إن نصف طلبة المعاهد الدينية يتركون سلك الرهبنة من اول الطريق، وبعد احداث العنف التي اشرنا اليها ترك الفلاحون الكنيسة واعتبروها جزء من الحكم ومؤسساته .

برنامج توريز السياسي والاجتماعي للتغير

اعتبر توريز إن الكنيسة تشكل خصما للقوى الاجتماعية التقدمية والثورية بسبب تحالفها مع الاقلية الحاكمة، وطالب بنزع ممتلكات الكنيسة من ارض وعقار واموال سائلة في البنوك، كما كان موقفه صارما بسبب موقف الاخيرة من مشاريع الاصلاح الزراعي، مع إن هذه القوانين هي مساومة ما بين الفلاحين والطبقة الوسطى التي تدعي التقدمية والاصلاح، وان شئنا القول الطبقة البرجوازية التي تشتري اراضي كبار الملاك باثمان عالية حيث يستثمر هولأ اموالهم في الخارج فضلا على إن الملكية محدودة اصلاالف هكتار من الاراضي المزروعة، في حين إن الاصلاح الزراعي يجب إن يحقق ما ياتي :

١ـ إعادة توزيع الاراضي على الفلاحين المعدمين .

٢ـ إعادة توزيع الدخل القومي على المواطنين دون اخراج جزء منه خارج البلاد اونقله من طبقة لاخرى دون الوصول إلى الطبقات الدنيا .

ومن ناحية اخرى وبالرغم من كل العيوب في الاصلاحات، فان الكنيسة عارضته لانه سينتزع ممتلكاتها من الارض فالكنيسة هي جزءمن الطبقة الحاكمة اقتصاديا وسياسيا وتخشى من ثورة الفلاحين عليها، وهم الذين يكونون دولتهم الدينية، ويرى توريز إن نزع املاك الكنيسة بالقوة هو جزء من تغيير البناء الاجتماعي في امريكا اللاتينية كما نزعت املاكها في عصور التنوير في اوروبا، لكن توريز واجه مشكلة الرهبان الذين ينتسبون إلى الطبقات الشعبية اكثر من الحاكمة، وهم الرهبان الذين لاجلهم اتهمت السلطة الكنيسة بالشيوعية، ويرى توريز إن هذا الاتهام ما هو الا مقدمة لاعلان محاكم التفتيش بحق القوى الثورية واليسارية في امريكا اللاتينية .

ومن ناحية اخرى فان الكنيسة اصبحت تتخبط في المجتمع الكولمبي من خلال ما يلي:

١- اعتبار إن المسيحيين معمدون والشيوعيون غير معمدين .

٢- اتهمت الكنيسة هؤلاء الرهبان بالخروج على العقيدة الرسمية، وهذه التهم تشبه تهم الماكرثية وتهم الارهاب حاليا والتي اقدمت عليها الرأسمالية العالمية .

امام هذا الواقع الذي ذكرناه، يرى القديس توريز إعادة النظر بدور الكنيسة كاملا خاصة عندما يتأمل مؤشرات الإنفاق على الكنيسة من جيوب الفقراء والشعب الذي يتلوع جوعا حيث يصرف على تشييد الكنائس مبالغ ضخمة جدا وخاصة انه يرى الاطفال يتضرعون جوعا، اضافة إلى انه لايوجد في القضايا المصيرية موقف وسط فهذا صراع يجري بين من يملكون ومن لا يملكون، ولذلك اصبحت الكنيسة في نظرالشعب هي جزءمن الاستغلال الواقع عليه، كما اننا يجب إن لا ننسى إن الاموال التي تدفع لرجال الدين، وهذا المال هو مال الشعب، ورجال الدين في نظر الشعب متواطئون مع الحكومة ضدهم حتى اصبحت صورة الدين مقابل للسلطة، وكلاهما يبحث عن مصالحه والاثنان متفقان على الشعب وقواه الحية المناضلة، في حين إن الايمان لا يتطلب طقوسا وشعائر خاصة وان العلاقة ما بين الكنيسة والدولة قدنظمت سنة ١٨٨٧، وان يكون المذهب الكاثوليكي هو الوحيدمع الحفاظ على الحرية الدينية، كما إن العلاقة تحددت ما بين الكنيسة والدولة بناء على مصالح مشتركة فتم حسم النزاع بينهما كقوتين كبيرتين وحل الوئام والاتفاق، كما يحدث في المجتمعات الرأسمالية عندما تبحث شركتان لاتقوى كل منهما على منافسة الاخرى واحتكار السوق، ولكن تم الاتفاق على حساب الدين خاصةافكار مصالح الطبقات الحاكمة .

لقد اعتبر البعض هذا الاتفاق المقدس، ولا يمكن المساس به مع انه يجب إن يتغير، فحاليا هناك كنيسة المعدمين والفقراء التي تعارض كنيسة الاغنياء والمحتكرين، ولكن كيف ستتغير ؟ تتغير عندما يتغير البناء الفوقي السياسي ام البناء التحتي أي الاقتصادي لا تتغير الكنيسة الا اذا اصبحت اداة بيد الشعب واحدى وسائل النضال .

لقد كانت الكنيسة كما يرى توريزاداة من ادوات السلطة وهي التي تبرر سلوكها عبر مسيرةالمسيحية سواء اكانت رومانية اوملكية ما قبل الثورة الفرنسية وما بعدها عندما استقل الناس عن الملكية، وآلان الكنيسة هي جزءمن النظام الرأسمالي في

امريكا اللاتينية وهو النظام آلايل للسقوط، إن توريز اعتبر الكنيسة ما هي الا سلطة اقتصادية وسياسية معادية للفقراء ومعادية للتغيير ومعادية للثورة، إن الراهب في امريكا اللاتينية اقرب إلى الساحر بتمتماته وملابسه وكهنوته لذلك فان مهمته التخلي عن كل المظاهر الخارجية، وان يكون كسائر الشعب في مظهرهم ومخبرهم، الراهب الحقيقي هو المسيح عندما يطلب ثانيةاي انه هو الذي يجعل من حياته تحقيقا لرسالة السماء، فالراهب هو الذي يعيش من اجل الاخرين يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم .

اليس هذا التفسير الذي يقدمه توريزهو تفسير يساري للدين وليس تفسير يميني انه تفسير ثوري حيث يحاول إن يعيد بناء العقائد كما اعاد بناء النظم والمؤسسات فيرى إن المسيحية اساسا تقوم على حب الجار والاحسان، ولا يعني ذلك تأسيس ثورة على اساس خلقي، فالثورة لا تقوم الا على التحليل الاجتماعي للواقع والتعرف على البناء الاجتماعي الطبقي، لكن توريز كما يوضح حسن حنفي في تحليله لافكاره يحاول اقناع رجال الكنيسة من الرهبان الصغار الذين هم اقرب للشعب منهم إلى الرؤوساء الذين يمثلون مصالح الاقلية الحاكمة .

إن حب الجار في نظرتوريزهو التضحية من اجله وايثاره على النفس، والاحسان يعني نزع ملكيةالفرد واعطاء الحق لاصحابه، توريز يحاول اعطاء هاتين الفضيلتين في المسيحية مضمونا ثوريا كاحد الوسائل لنشر الدعوة الثورية في مجتمع ما زال الطابع الغالب عليه التقليدي، بل إن توريز استخدم منهج النص المباشر فيذكر الناس بالنصوص الدينية التي تحث على الثورة والتغيير مثل "لو قال احد انه يحب الله الذي لا يراه ولا يحب جاره الذي يراه فهوكاذب "، او كقول المسيح " لقد كنت جائعا، ولم تعطني ما اطعم به، وكنت ضمآنا ولم تعطني ما اروى به ضمئي "، لقد جعل الوحي الاحسان هو الوصية الاولى إلى الله، والاحسان إلى الجار وليس الاحسان هو الصدقة بل حالة من العطاء والتضحية من آجل الاخر سواء اكان هذا آلاخر الله ام الانسان في خدمة الله عن طريق خدمته للانسان، الله هو المجتمع وتحليل الواقع هو للاهوت الوحيد الممكن .

توريز يريد إن يؤكد إن مهمة علم الاجتماع توجيه الابحاث نحو الله أي من اجل المحافظة على مصلحة الجماعة، فالايمان بالله على مصلحة لن حق الله هو حق آلاخر، ولقد وضع القانون من اجل الانسان ولم يوضع الانسان من اجل القانون، إن القلق الديني يسير جنبا إلى جنب من القلق الاجتماعي وتوجيه الابحاث نحوخدمة الله أي من اجل المحافظة على التحليل المباشر للواقع الاجتماعي بعين الحذر .

ومن هنا فالحقيقة إن اللاهوت وعلم الاجتماع واحد لأن اللاهوت كما يقول المفكرحنفي هوتحليل للواقع الاجتماعي وبالتالي يمكن لكثير من المتدينين تغير احكامهم على العقائد وعلى المجتمع السواء، ويضيف توريز مخاطبا العلماء " ايها العلماء من جميع الايدولوجيات اتحدوا كما نادى بها كارل ماركس ولينين ياعمال العالم اتحدوا "،واذا كانت غاية الوحي هي العيش في ملكوت السموات فان هذه الملكوت لا تتحقق الاعلى الارض، ولا تتحقق الا بالثورة، والا اصبح الدين مجرد امل ورجاء عند المعدمين يقوم بعملية تعويض نفسي حينئذ يكون الدين افيون

الشعوب ومخدر للجماهير، واذا كان للتجسد معنى فانه يعني ملكوت السموات والارض وتحويل الوحي الى واقع والعمل إلى تاريخ، ولقد اخطاء اللاهوتيون عندما ظنوا إن التجسد واقعة فريدة لا تتكرر، وحادثة تاريخية ثابتة حدثت في زمان معين، ومكان معين، التجسد هو حلول الثورة في المجتمع وتطبيق الوحي في التاريخ .

كيف ينظر توريز للعلاقة ما بين المسيحية والماركسية ؟

لقد اعتبر توريز المسيحية والماركسية عمل ثوري بصرف النظرعن اساسهما، فالثورة برنامج عمل لتغيير البناء الاجتماعي، والمسيحية والماركسية كلاهما برنامج عمل ثوري وكلاهما تغيير للبناء الطبقي لايهم بعد ذلك ان كانت المسيحية تقوم على بهذه الثورة بناء على امر الهي او إن الاساس النظري بقدرما يهم التحقيق العملي، ولا يهم مصدر الثورة بقدر ما يهم تحقيقه بالفعل فهناك ماركسيات نظرية عديدة، كما إن هناك الهيات مسيحية عديدة، ولكن المهم الالتقاء والتوافق على نفس الهدف، وهو القضاء على المجتمع الطبقي، واستعمال اسلوب عمل موحد وهو الثورة المسلحة، فالله في المسيحية هو الحياة الخالدة والحياة الخالدة هي العدل .

ويضيف توريز قائلا " عندما يبلغ ايماني درجة نقل الجبال وليس لدي الاحسان فلست شيئا "، ويستند توريز إلى قول المسيح " لوكان اخ او اخت عرايا ينقصهم طعام كل يوم، وقال لهما احد منكم : اذهبا في سلام ابحث عن الدفئ وعن الطعام ولا تعطيهما، ما هو ضروري للبدن، فما الفائدة فالايمان بلا عمل هباء ".

المسيحية والماركسية شئ واحد فاذا حقق المسيحيون الثورة فانهم يقدمون بها باعتبارهم مواطنين وليس باعتبارهم متدينين بدين خاص وبعقائد محددة، أي ثورة يبغون بها الدفاع عن المبادئ الانسانية العامة، لتحقيق ذلك، اما اذا قام الماركسيون بالثورةفانهم يقومون بها لأن ذلك قدرهم التاريخي خاصة وان لديهم نظرية للعمل الثوري، وفي النتغيرات الاجتماعية فهم تكنيكيون في الاقتصاد والسياسة، لذلك كانت تحليلاتهم للواقع الاجتماعي والاقتصادي في البلاد النامية مطابقة للواقع ولمتطلبات الجماهير، لذلك كانت الماركسية عقيدة شعبية يمكنها تجنيد الجماهير، ويكون حينئذ ما يهدد الوقوع في القطيعة " الدغما طيقية " او تتغير الجماهير من الامور النظرية الخالصة التي تثير معتقداتها التقليدية والتي يصعب عليها فهمها .

ومن هنا يؤكد حسن حفي اذا قام فريق ثالث فانه من الصعب العمل على تحقيقها لأن الثورة لا تتم الا بايدولوجية او تصور واضح للعالم وهو التصور الديني باعتباره ثورة المسيحية او الاسلام او التصور الاجتماعي باعتباره ثورة ماركسية اوسينتهي لامحالة إلى الميوعة او إلى خدمة السلطة القائمة دون إن يدري، انه ليس امام المسيحية او المسيحي من خيار فهو واقع في الثورة، وغارق فيها حتى اذنيه، فالثورة امر الهي وضرورة اجتماعية لا يمكنه إن يعارض الثورة اومن يقف منها موقف المتفلرج بل لا بد وان يشارك فيها فهي طريقة إلى الحياة الخالدة، ولا داعي في إن يتشكك في الوسائل المتبعة او في الغايات الفرعية، فالثورة امر معقد تفرض مسارها والواقع قد يندد في بعض الاحيان عن احكام الخير والشربل إن المادية الجدلية قد

تكون هي الاساس النظري الوحيد من اجل تحقيق العمل الثوري دون إن يكون الدين بالضرورة افيون الشعوب كما لاحظ ايضا "تولاني" في وصيته "، إن المسيحية والماركسية كلاهما تنظيم شعبي للاغلبية لتحقيق الثورة، وكذلك الاسلام والماركسية كلاهما تنظيم شعبي .

كيف تتحقق وحدة العمل الثوري من وجهة نظر توريز ؟

لقد حلم توريز بقيام وحدة القوى الثورية التي رأى في الجبهة الممتدة للشعب الكولمبي بان تكون طليعة العمل الثوري، ويرى توريز إن وحدة القوى الثورية يجب إن تحقق هدفين :

اولهما : اتفاق جميع القوى على حد ادنى من العمل الثوري في برنامج موحد .

ثانيهما : ضرورة تحقيق ذلك بالقوة المسلحة والاستيلاً على السلطة .

لكن توريز وضع برنامجا لوحدة القوى الثورية يستند إلى الاسس التالية :

١ـ القرارات اللازمة الان من اجل توجيه سياسة الدولة لصالح الجماهير وليس لصالح الاقلية الحاكمة .

٢ـ إن من بيدهم السلطة اليوم هي الاقلية الحاكمة وهي المسيطرة على الاقتصاد الوطني وهي التي تصدر القرارات السياسية .

٣ـ إن هذه السلطة لا تأخذ أي قرارات تمس مصالحها الخاصة او المصالح الاجنبية التي تمثلها او المرتبطة بها .

٤ـ إن القرارات المطلوبة من اجل التنمية الاجتماعية والاقتصادية للجماهير تمس بالضرورة مصالح الاقلية الحاكمة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا .

٥ـ إن هذه الضروف تحتم تغيير بناء السلطة السياسية حتى يمكن للجماهير إن تكون مصدرا للقرارات .

٦ـ انه لا توجد في البلاد قوى اجتماعية يمكن إن تكون اساسا لقوى سياسية جديدة لذلك لا يمكن تكوين هذه القوى في اسرع ما يمكن .

٧ـ إن الشعب يرفض آلان الاحزاب السياسية التقليدية ويرفض النظم القائمة، وان الشعب لا يملك جهازا سياسيا يمكنه من الاستيلاً على السلطة .

٨ـ إن الجهاز السياسي الجديد لا بد وان يقوم على تعدد الاتجاهات، كما يجب إن يقوم الشعب ليس على فرد بعينه حتى لا قع في معارك الشلل او يقع في عبادة الاشخاص أي خلق اصنام جدد.

رسائل توريز إلى القوى الحية في العالم

انطلقت افكار توريز من اجل توحيد قوى الشعب والطوائف الشعبية والدينية وخاصة قوى اليسار بالاتحاد من اجل الوحدة الثوريةوالتخلي عن المذهبية والتمسك بالشعارات او الايدولوجيات المسبقة خاصة وان الشعب يريد إن يعمل اكثر مما يريد كي لا يدخل في متاهات المنظرين للثورة او المتشدقين بالنظريات التي لا تنتج عنها

الا الفرقة والتشتت وتضييع الجهود، ووجهه ندءاته الشهيرة إلى الشعب الكولمبي في جريدةالجبهة المتحدة حيث اعلن فيها عن مواقفه واهمها امتناعه عن التصويت في الانتخابات العامة للرئاسة كنوع من التكتيك الثوري لتوحيد قوى الشعب والثورة وتجنيب كل ما يفرقها ولتبقى الجبهة المتحدة حارسة على مصالح الشعب الكولمبي وشاهدة على الالعيب الحزبية والمحافظة منها، ولخص أسباب اتخاذ هذا الموقف بما يلي :

١ـ إن عملية الانتخاب تقسم الشعب إلى قسمين احدهما ليبرالي، وآخر محافظ، وكل تقسيم للشعب مضاد لمصالحه.

٢ـ الجهاز المشرف على الانتخابات في يد الاقلية الحاكمة وتجري في مكاتبها، وبالتالي فانها ستزيفها وتزورها .

٣ـ لن تستطيع الجماعات الثورية التي يقدر لها النجاح في الانتخابات تكوين جبهة معارضة في البرلمان وتحقيق أي تغيرات ثورية التي يقدر لها النجاح في الانتخابات لتكوين جبهة معارضة في البرلمان، وتحقيق أي تغيرات ثورية بل إن وجودها دتخل البرلمان يكون ستارا للأقلية الحاكمة تفعل من وراءها ما تشاء ودليلا على ديمقراطية الحكم ووجود المعارضة .

٤ـ تقتضي التربية الثورية الا يقال للشعب إن يحذر من الاقلية الحاكمة ثم يطلب منه بالفعل الاختيار بين مرشحيها وتعريض نقائه الثوري للامتحان .

٥ـ يستحسن تخصيص المال والجهد اللذان سيبذلان في الانتخابات لمصلحة الشعب وتوحيد قوى الثورة .

٦ـ حتى لو افترضنا بمعجزة ما فان نجاح الجماعات الثوريةفي الانتخابات وحصولها على الاغلبية فان الاقلية الحاكمة تستطيع تدبير انقلاب للاطاحة بالحكم الثوري كما يحدث الان في امريكا اللاتينية اذ انها تملك القوة العسكرية والاقتصادية التي تمكنها من تدبير الانقلاب ولا يوجد حكم واحد في امريكا اللاتينية لم يلطخ يده بدماء الثوار،لذلك على كل القوى الثورية الامتناع عن الدخول في الاعيب الانتخابات، ومظاهر الديمقراطية، وهذا الامتناع ليس موقفا سلبيا بل هو ايجابي لانه رفض للنظام ومحاربة له وهو موقف عسكري لان الثوار يمكنهم الانقضاض على صناديق الاقتراع وعلى جهازالدولة وهو موقف ثوري لانه ينظم للقوى الشعبية من اجل الاستيلأ على السلطة .

الفلسفة السياسية التي انطلق منها توريز

انطلقت الفلسفة السياسية لتوريز من خلال مخاطبته لمختلف فئات المجتمع الكولمبي، وانطلقت فلسفته من خلال التغيير الثوري تارة بالوسائل السلمية وتارة باللجؤ إلى القوة والثورة المباشرة، ومن هنا فقد ناشد المجتمع المساهمة في الوقوف إلى جانب القوى الثورية والقوى الطامحة للتغيير، ومن هنا سنطلع على ابرز

الرسائل الفلسفية التي يريد إن يوصلها إلى الشعب الكولمبي بمختلف فئاته وطوائفه واتجاهته، فحسب بل خاطب القوات المسلحة باعتبارها الجهة المعنية بالتغيير الثوري، لنرى ذلك .

المسيحيون : لقد خاطب توريز المسيحيين مذكرهم بقيم المسيحية الاصيلة حيث يقول " لا يكفي حب الجار او الاحسان لاعطاء الطعام فلا بد من البحث عن وسائل اكثر فاعلية من اجل ارغام الاقلية الحاكمة على التنازل عن امتيازاتها، واخراج رؤوس اموالها واستثمارها في الداخل، ولما كان ذلك يحدث فيجب نزع السلطةمن الاقلية الحاكمة كي تكون الاغلبية للفقراء، ويجب إن يحدث ذلك بسرعة فتلك هي الثورة، وقد تكون الثورة سلمية اذا لم تعارضها الاقلية، وسنلجاء إلى العنف اذا ما عارضت، انها الثورة وحدها هي التي تعطي الخبزلكل جائع والملبس لكل عار والدواء لكل مريض والعلم لكل امي، انها الثورة في ليست مشروعة فقط بل واجبة على كل المسيحيين من اجل القضاء على الطغيان الذي يعتمد فقط على اصوات ٢٠% من الناخبين، ولن نلتفت لاخطاء الكنيسة فالقائمين على الكنيسة بشر والبشر يخطئون، والله لا يطلب اضاحي او قرابين بل يطلب علاقات انسانية عادلة، فاذا كنت تقرب قربانك إلى المذبح، وذكرت إن لاخيك عليك شيئا قدّم قربانك عند المذبح هناك، واذهب قبل ذلك وصالح اخاك ثم عد فقرب قربانك".

الشيوعيون : لقد خاطب الشيوعيين وناشدهم إن يتجاوزا عقدهم وان يعيدوا النظرفي تفسير الدين لأن الاديان مليئة بالقيم الثورية والقيم الانسانية التي تعتبر مرجل للثورة ووقودها، ولذلك خاطبهم قائلا " انني ثائر باعتباري مواطنا وعالم اجتماع، ومسيحيا وراهبا، والحزب الشيوعي هو حزب ثوري اصيل، وبالتالي فلا يمكن إن اكون معاديا للشيوعيين باعتباري مواطنا وراهبا، العداء للشيوعية معناه التواطئ على استغلال الطبقات المحرومة، وباعتباري عالم اجتماع تقدم التحليلات الماركسية صورة صادقة لحال الفقراء والجوعى والاميين، وباعتباري مسيحيا لا حكم على الشيوعية حكما ظالما، وباعتباري راهبا اجد من الشيوعيين مسيحيين حقيقيين، وهم لا يعلمون ذلك، انني اعمل مع الشيوعيين صد الاقلية الحاكمة والتي هي عميلة لامريكا وهذه الطبقة تهدف إلى الاستيلاً على حقوق الطبقة الشعبية وبالتالي للسيطرة على السلطة .

القوات المسلحة : لقد خاطب توريز القوات المسلحة لانها كما اشرنا هي العنصر الرئيسي في الانجاز الثوري، وعليهم يقع عملية التغيير وحماية مكتسبات الثورة، وناشدهم إن يخرجوا من ثكناتهم ومواجهة اعداء الثورة والضرب عليهم بالنار والحديد، وفي هذا الصدد يقول توريز " يجب عليكم حماية الشعب، وعليكم إن تخرجوا من ثكناتكم إلى اعداء الشعب، فالجنود ابناء الشعب، لقد ارتضت بعض طبقات الجيش لنفسها مقاسمة الاقلية الحاكمة في الثروات، فاشتروا من امريكا اسلحة لقهر الشعب، وقد يحتج البعض منهم بالمحافظة على النظام والامن وحماية الدستور وسلامة الوطن، ولكن الوطن للاغلبية، والدستور من وضع الاقلية، وطالما خرقت الاقلية الدستور لانها نهبت ثروات الشعب، ولم توفر فرص العمل او التعليم او

الصحة او التأمين للطبقات المستغلة، لقد خرقت الاقلية الدستور بفرضها الاحكام العرفية وحصار المدن والقبض على المواطنيين والزج بهم في السجون والمعتقلات بلا محاكمة، إن ثروات الشعب كلها في ايد اربع وعشرين عائلة، فليترك الجندي جيش الاقلية فانه سيجد عملا مع الطبقات الشعبية حين تنتصر الثورة، ويتم تخطيط الاقتصاد الوطني، إن شرف العسكريين منوط بالدفاع عن الشعب ضد اعدائه، فليتحد الجنود مع طبقات الشعب في الجبهة الموحدة من اجل استيلأ الشعب على السلطة ".

المحاربين : وجه توريزندائه للمحاربين القدامى ومتقاعدي القوات المسلحة قائلا " لقد كانت نسبة الامتناع عن التصويت ٧٠% أي إن ثلاث ارباع الشعب ضد الاقلية الحاكمة، وهولأ الثوار الذين يتم تنظيمهم في جماعات سياسية او في الجبهة الموحدة، لكن الثوار يرفضون العشائرية السياسية والفرق السياسية الحزبية وهم قاعدة الجبهة المتحدة التي صاغت بيانها لهم، عليكم إن لا تخافوا من اخطاء الحركات الثورية السابقة ".

النقابات المهنية والعمالية : اعتبر توريز إن النقابات العمالية هي صوت القوى الثورية الواعية والمثقة، وهي التي يقع عليها عبئ الانجاز الوطني ما بعد نجاح الثورة بل انه اعتبرها صوت الثورة وسوطها بل واضاف على ذلك قائلا " إن تاريخ النضال العمالي سابق على نشاءة النقابات، ولا توجد جماعات منظمة مثل جماعات العمال، إن العمال لهم قدرة على النضال، ولكن سرعان ما يتحول قادة النقباء إلى اوصياء متواطئين مع الاقلية التي تحاول بذر الفتنة بين العمال لتقضي على وحدة الحركة العمالية، فتصف بعضا منهم بالشيوعيين، ومع ذلك فان الجبهة المتحدة تعمل على وحدة النضال العمالي، وعلى استمراره بالاضرابات ومعارضة الدكتتوريات السياسية والعسكرية واتحاد العمال مع الطلبة، والاخير هو دعامة النضال الشعبي ".

المرأة : لقد شخص الحالة العامة التي تعاني منها المرأة الكولمبية، وقدم تصورا تقدميا ينافي تصورات تجار الاديان عن المرأة حيث يقول " إن المراة الكولمبية متخلفة ومتأخرة عن الرجل في المجتمع، فالمرأة في الطبقات الشعبية ليس لها سوى الاعمال المادية دون أي حق في وجودها الادبي، امية تعمل ليل نهار، والمرأة في الطبقة العمالية لا تتمتع باي حماية اجتماعية حيث تقوم باعباء كبيرة وخاصة الاعباء الاسرية وذلك حينما يتعطل الزوج عن العمل، والمرأة في الطبقة الوسطى يستغلها رئيسها في العمل والمكتب والشركة والمؤسسة .

اما المرأة في الطبقة العالية فانها تنعم بحياة مترفة وراقية، ولكنها تعيش في الفراغ والبطالة وتعتمد على الاقلية حين اعطتها حق الانتخاب، والحقيقة إن المرأة الكولمبية انسان وليس مجرد وسيلة ولديها شعور بانها مستغلة، وهي تناضل بطريقتها الخاصة فترفض الدخول في الاعيب الانتخابات وتساعد الرجل الثوري، فهي قلب الثورة، ولا يمكن إن تحل مشاكل الاسرة مثل تحديد النسل الا في مجتمع لا يقوم على القهر والاستعلأ والتعالي وهو بالاصل مجتمع الثورة .

العاطلون عن العمل : اعتبر توريز إن سبب البطالة في العالم الثالث هو بسبب سيطرة الاقلية على الاكثرية في كافة مجالات الانتاج واتخاذ القرار بل اعتبرهم بانهم

الذين نهبوا خيرات الاكثرية، وفي هذا الصدد يقول " اذا كان هناك في امريكا عاطلون عن العمل فما بالنا نحن في العالم الثالث ذلك لأن الاقلية الحاكمة تفضل اشتثمار اموالها بالخارج، فذلك اكثر امنا وسلاما لها، فلا توجد صناعات تستوعب الايدي العاملة في المدينة او الفئات المهاجرة من الريف إلى المدينة، وتفضل الاقلية استيراد ا المنتجات من امريكا حتى تكون المستفيد الاول من البيع والشراء، وتعطي ما بقي من المدخرات الوطنية لامريكا التي احتكرت معظم المنتجات الزراعية في امريكا اللاتينية تورد البلاد لها مواردها الاولية، وتستورد اتلعربات للطبقة الحاكمة، فالعاطلون عن العمل هم ضحايا الاقلية الحاكمة، ولذلك هم طليعة الثوار من اجل إن تكون السلطة للاغلبية وتزداد المشكلة يوما بعديوم عندما تفصل الاقلية الحاكمة مئات العمال عقابا لهم بسبب اشتراكهم في الاضرابات والمظاهرات، وكل ذلك يعني إن ساعة النضال قد حانت ".

الاقلية الحاكمة : بالرغم كل ما فعلته بالمجتمع الكولمبي الا إن توريز لم يغفل هذه الفئة التي عبث في مقدرات الشعب الكولمبي وحولته إلى قطيع، وهو يخاطب هذه الطقمة قائلا " إن مخاطبة من لا يريدون إن يسمعوا او إن يعقلوا لامر عصيب، ومع ذلك فهو واجب لابد من القيام به منذ اكثر من مائة وخمسون عاما، فقد استولت العشيرة الاقتصادية المكونة من بضعة عائلات على ا خيرات البلاد، واستولت على السلطة لصالحها الخاص، ولكن الشعب لم يعد يثق بهم ولا ينتخبهم بل عرفهم ويأس منهم واصر على مواجهتهم ". لمزيد من الاطلاع انظر كتاب قضايا معاصرة الجزء الاول في فكرنا المعاصر، د. حسن حنفي، ص ٢٩٧- ٣٣٤.

الخاتمة

بعد هذا العرض الموسع عن الليبرالية من النشاة الكلاسيكة إلى الليبرالية الجديدة المتوحشة، ما العمل الذي يجب القيام به لمواجهتها بشتى الوسائل الممكنة، وهل مطلوب من المجتمع الانساني إن يصمت ويلوذ ام إن يواجه هذا الواقع بوقف صارم، واعلان حالة النفير العام من تصعيد العصيان المدني والمظاهرات والاضرابات، وخاصة إن البشرية آلان تقف لمساندة جبهة تتعرض إلى الظلم وارتكاب مزيد من المجازر الصهيو- امريكية بحق اطفال العراق واطفال غزة واطفال افغانستان ولبنان .

ومن هنا يطرح السؤال التالي هل المناخ السياسي يسمح بذلك ؟ الجواب قطعا بعد احداث مجازر غزة اصبح المناخ الاقليمي والدولي مهياء لمواجهة الاستراتيجيات المتوحشة التي تنفذها الرأسمالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة والصهيونية العالمية، اضافة إلى الازمة الطاحنة التي تعيشها منظومات مراكز الرأسمالية المتطرفة .

السيناريوهات الموجودة لدينا تؤكد لنا إننا امام ظاهرة خطيرة وهي إن الديمقراطية اصبحت مطية لهولأ الليبراليين، بل يمكننا القول انهم اجهزوا عليها، وهم بالحقيقة ليسو بحاجة اليها بالمطلق بدليل هذا الاجرام الدموي الذي يرتكب على ارض غزة والعراق حيث ما زال المجتمع الدولي ينتظر قرارات حاسمة من مجلس الامن الذي تسيطر عليه مراكز الرأسمالية العالمية المتوحشة، والان نحن امام مشهد يعود بنا إلى ايام حكم الاقطاع والانظمة البوليسية، كما إن النازية والفاشية ليست بعيدة عنا، كما إن النازيون الجدد سواء في غزة او العراق بقيادة امريكا نراهم رأي العين .

العالم الثالث مقبل على ايام عسيرة فقد نتخيل إن قيام انظمة قمعية واستبدادية وفاشستيه اونازيه في هذه المراكز على غرار الانظمة التي افرزتها الرأسمالية خلال فترة ما بعدالكساد العالمي ١٩٢٩ - ١٩٣٣، بيد إن هذه السياسات سيترتب عليها نتائج كارثية لا يجمد عقباها وخاصة الفقراء، ولذلك لابد من وضع بدائل لمواجهة جنون الليبراليون الجدد وهوسهم، خاصة بعد إن تم تصفية الكنزية واطروحاتها، والمؤشرات تكشف لنا انه سيتم اللجوء الى حل مأزق الرأسمالية التاريخي للبحث عن فائض قيمة تاريخي، وهذات سينصب على احياء جبهة العالم الثالث من خلال ما يلي "١":

١- استثمار فخ الديون الخارجية .

٢- الغزو العسكري " افغانستان، العراق، غزة ".

٣-اختراق الدول الاشتراكية السابقة .

ومن هنا فان الرأسمالية الليبرالية ستتجاوز ازمتها على حساب افواه الجياع الخاوية لكي يتحقق الثراء والربح عن طريق النهب لاعادة الحيوية لتراكم رأس المال لكي تتخلص من تناقضاتها الداخلية، والايام اثبتت فعندما تمكنت الليبراليةمن سحق دولة الرفاه فانها ستسحق دول العالم الثالث حتى تتهياء لبيئةالجاذبة المواتية

لاستنزاف اكبر قدرمن فائض القيمة التاريخي المرتقب، وهنا ستبتكر الليبرالية المتوحشة وسائل امبريالية مرعبة وقاسية في نفس الوقت "٢".

إن الليبرالية المتوحشة تختلف عن ليبرالية القون الماضية اذ انها تخطط للانقضاض على الفقراء والعالم الثالث ووستكون وحشية في سياستها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، للعمل على الهيمنة اولا واخضاع العالم الثالث لسياستها عبر اتفاقيات الجات والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي وشراء اصولها الانتاجية من مصانع وشركات وبنوك، وهنا تستطيع الرأسمالية مرة اخرى للسيطرة على مقدرات الكوكب، وهي السيطرة التي نفذتها في اعقاب الحرب العالمية الثانية، ومن هنا فان الليبرالية المتوحشة عبر مؤسساتها المالية والاقتصادية والسياسية عملت على تفكيك العالم فقد تمكنت من تفكيك المعسكر الشرقي الاشتراكي وتفتيت العالم الثالث بالحروب الاهلية والطائفية والعنصرية ليسهل احتوائها وعودتها إلى حضيرة الرأسمالية، وليتم بسهولة تصديرفائض الانتاج السلعي وفائض رؤوس الاموال اليها من اجل الارباح " النهب "، وكل ذلك من اجل عيون اقتصاد السوق .

ما الذي جرى بعد تطبيق برامج الليبرالية المتوحشة ؟

بعد التطبيق العملياتي لبرامج الليبرالية الجديدة ظهرت خرائط جديدة خيمت على المشهد الدولي انحصرت فيما يلي :

١ـ تحولت الدول الاشتراكية إلى دول ليبرالية من نوع همجي متخلف لا وجود للدولة الا بمعناها البوليسي والقمعي .

٢ـ اقصاء الدور الاجتماعي للدولة ومحاصرة العناصر الرافدة لها وبذلك زحفت جيوش الليبرالية الكاسحة على قوى السوق من خلال النهج الساحر المزيف لآليات العرض والطلب .

٣ـ انتشار الفوضى العارمة في مختلف انحاء العالم حيث لاقت حماسا وحشيا من دول مراكز الليبرالية والتي بررتها .

٤ـ انهيار اقتصادي اجتماعي حيث انخفض الناتج المحلي فيها بنسب مخيفة، وارتفعت اسعار المواد الغذائية والطاقة والمعادن وازدادت معدلات البطالة، وتفاقم الحساب الجاري وهوت اسعار صرف العملات، وانخفض مستوى معيشة الناس إلى مستويات الفقر المطلق، وكل ذلكساهم في نشر الرذيلة واتلفساد الاخلاقي والمالي والسياسي والاداري والسرقة والنهب والجريمة "٣".

ما العمل لمواجهة جحيم الليبرالية المتوحشة ؟

سبق وان اشرنا إلى إن الرأسمالية مرت عبر تاريخها بازمات حادة وواجهت مواقف صلبة من الدول والمجتمعات، والتاريخ قد يعيدنفسه ليعطينا نفحة من نفحاته، فبعد إن توحشت الليبرالية وسقطت في حروبها العسكرية ظهر في العالم نظام عالمي جديد ثنائي القطبية، وجرى صراع ثقافي اقتصادي سياسي انتهى بانتصار الرأسمالية

الليبرالية الوهمي باعلان تفكيك المنظومة الاشتراكية والاجهاز على دول العالم الثالث .

لكن ما يجب علينا إن نمارسه الان هو فضح الشعارات البراقة لليبرالية بشقيها الكلاسيكس والنيوليبرالي، حيث إن الليبراليين يتسلحون بشعارات الافكار التنويرية والديمقراطية وخاصة حرية اقتصاد السوق والمنافسة الكاملة وعدم تدخل الدولة وسحر آليات العرض والطلب وحرية الصحافة والبرلمانات وحرية المرأة والاطفال "٤"، وقد شاهدنا بالفعل تمارين حية مرعبة وخاصة في غزة وغيرها كيف إن الليبرالية المتوحشة دافعت ومازالت تدافع عن حرية وسحق الاطفال والنساء عندما ضربتهم الصهيونية بسلاح امريكي محرم دوليا " الفسفور الابيض " حيث إن نصف عدد الشهداء والجرحى من الاطفال والنساء . من جهة ثانية واثناء ما اقترفته الليبرالية الكلاسيكية مع هذه الليبرالية المتوحشة لا يسعنا الا إن نحترم الليبرالية الكلاسيكية حيث انها حررت الانسانية في بدايةعهدها من الاقطاع وسيطرة الكنيسة، لكن هذا الذي جرى كان عبارة عن عمل مسرحي منظم أي إن ما قامت الليبرالية ما هو الا عمل يصل إلى الاختطاف والقرصنة لقيادات ودعاة الحركات التنويرية ليس الا، وقد اثبتنا في الصفحات الماضية بان شعارات الليبرالية كانت شعارات خادعة هدفها الحقيقي الوصول إلى الصورة التي وصلت اليها الليبرالية المتوحشة، لذلك نتفق مع القائلين بان الليبرالية مارست وما زالت تمارس الشعارات الخادعة حيث إن اسقاط الماضي على الحاضر قد لا يعطي صورة للحقيقة، خاصة اذا عرفنا إن ممارسات الليبرالية المتطرفة كانت وما زالت ممارسات متوحشةوحشية فهي بدلا إن تقوم بنشر العدالة الاجتماعية نشرت الفقر، وبدل إن توزع الحلوى على فقراء غزة وكابول وبغداد وضاحية بيروت وزعت عليهم الصواريخ والقنابل الفسفورية واليورانيوم المنضب ونشرت آلآلام والمآسي، فقنابل الحرب في شهر الحب توزع الآن مجانا على الشعوب، اليست اهداف الرأسمالية المتوحشة اهداف كريهة وبغيضة في نفس الوقت .

إن مشكلات الرأسمالية في الماضي تختلف اختلافا كبيرا عن الحاضر بدليل إنه خلال كل فترة تظهر آزمآت ويتم معالجتها، ولكنها تصدم بالواقع، وهذا يقودنا إلى طرح السؤال التالي :

هل ستسقط الراسمالية ام ستحلل ومتى ؟

في الحقيقة إن الرأسمالية سقطت اخلاقيا وانهارت فعليا بعد الازمة المالية والاقتصادية العالميةالاخيرة، ومع ذلك فالمفكر الاقتصادي المجري سانتوس اخبرنا بان الرأسمالية جاءت نتيجة لمرحلة تاريخية، وان نشوؤها وانحطاطها وسقوطها لن يكون مصادفة تاريخية بل ضرورة موضوعية متسقة مع الاتجاهات العامة "٦"، فهي تمثل مرحلة اعلى من التطور من كل الاشكال الاجتماعية السابقة، وهكذا فان نوعا من العودة إلى الاشكال السابقة للرأسمالية ليس فقط استحالة تاريخية بل والرغبة النظرية في العودة إلى تلك المرحلة لا يمكن تبريرها عن طريق اكثر الملامح انحطاطا للمجتمع الرأسمالي "٧"..

إن سقوط وتفكيك المنظومة الاشتراكية وسحق دول العالم الثالث، واعلان ولادة الاحادية القطبية " العولمة المتوحشة "، كل ذلك ساهم في تعضيد الرأسمالية المتوحشة واعطاؤها الجائزة الذهبية على حساب جماجم البشر، ومع ذلك فان دول العالم مقبلة آلان على تطبيق ليبرالية التكييف او ما يسمى " ببرامج التكييف الهيكلي "، ومع ذلك فان الرأسمالية ستزداد توحشا وستتزداد اختناقا وستزداد معها ازمتها، والدليل على ذلك انتخاب الاسود اوباما في امريكا، فلا مخرج لازمة الرأسمالية، ولا مستقبل للبشرية الا اذا تجاوزت الرأسمالية تناقضاتها والمتمثلة بقدرتها اللامحدودة على زيادة الانتاج، وقدرتها المحدودة على الاستيعاب والتصريف بسبب طبيعة نظام الملكية الخاصة، فالبشرية آلآن على نقيضين اولهما اما إن تقبل بالتوحش الليبرالي والهمجية والقتل والفوضى الخلاقة والدمار وارتكاب المجازر " مشهدغزة اولا"، واما إن تتجاوز تناقضاتها وعندها سيولد فجر اجتماعي جديد سيرث كل منجزات الرأسمالية الهائلة، ويواصل تطويرها، وينقل الانسان من جحيم الليبرالية المتطرفة والمتوحشة إلى جنة وفردوس الليبرالية الانسانية المعتدلة والتي تدافع عن حرية وحقوق الانسان وتزرع العدالة الانسانية، وثانيهما اما رأسمالية مهذبة متزنة، واما فوضوية متطرفة ودموية شاملة، وهذا يثبت مصداقية قول " روزا لكسمبروغ عام ١٩١٧ عندما قالت " اما رأسمالية متوحشة وفوضوية، واما اشتراكية او عدالة اجتماعية لجميع شعوب العالم ".

هذا من جهة ومن جهة اخرى فقد اعتبر د. نيلسون اروو جودي سوزا في تحليله للخطاب الليبرالي بقيادة" فرانسيس فوكوياما " ساعيا إلى تفكيكه حيث توصل إلى القول بان " الليبرالية الجديدة المتوحشة هي مجرد تصور ايدولوجي يتكون من الاجزاء الظاهرية للحقيقة، وليس الحقيقة ذاتها، فقد ساهمت هي ومنظريها على قلب الوقائع والاشكالات والنظريات السياسية والاقتصادية رأسا على عقب، والى خلطها وتسويقها لتحقيق اهدافها النهائية والمتمثلة في استمرار الهيمنة وتوسيع رقعتها ومحاصرة واسقاط المعارضين لها من قادة وشعوب ودول، وفرض الوصايا عليهم وتحويلهم إلى اتباع اذلأ والتشكيك، بجدوى الايدولوجيات والنماذج البديلة لادارة العملية السياسية والاقتصادية معا في العالم بأسره، وتحويل الليبرالية الجديدة بانها الخاتمة وهي مسك مشاكل التاريخ، وهي جنة من ليس له جنة "، وبعبارة مختزلة اذا شاهدت عالم الديمقراطية الليبرالي فلا تستطيع إن تغمض عينيك بسبب القنابل الفسفورية التي تجعلك تغمض عينيك رغما عن انفك .

ويضيف سوزي إن الليبرالية المتطرفة تدعي رسم صورة متكاملة لعالم لا يرغب بتغييره سوى المجانين، عالم يحقق فيه الانسان جميع امنياته على الارض على نحو يحتاج فيه التطلع إلى الجنة في السماء، وبهذا تكون الانسانية قد وصلت بصورة لا لبس فيها إلى نهاية الاديان فحسب بل إلى نهاية التاريخ "٨".

ويعزز فرضية هذا التحليل ما يقوله المفكر " ليستر فرو " في كتابه المتناطحون " أي انتصار غير متوقع يخلق نفسية للمنتصر لأن شعبه يود سرد روايات عظيمة حول كيفية احراز هذا النصر ".

إن الاخطاء التي وقع فيها فرانسيس فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ واهمها التفسير الغير عقلاني لتحول الانسانية من الشكل الاقتصادي إلى الشكل السياسي وبالعكس، وليس

تحولها من شكل او نمط او نظام اقتصادي معين إلى نمط اقتصادي اكثر تطورا، علما بان الديمقراطية الليبرالية ليست الشكل السياسي الذي تحقق الانسانية غايتها من خلاله من منطلق إن التطور الاقتصادي الحديث وما افضى اليه من عولمة شاملة للاقتصاد والمجتمع معا يحتاج فعلا إلى ليبرالية ديمقراطية، خاصة وان الذي يجري في السوق الديمقراطي والليبرالي ما هو في الحقيقة الا عبارة عن تجمع للقوى الاحتكارية، ومراكزالقوى المرتبطة بالشركات المتعددة الجنسيات او الشركات العابرة للقارات او الشركات الاستعمارية، ولذلك لابد من إعادة الاعتبار للدولة، والتي يعمل الليبراليون الاحتكاريون العمل على تهميشها وتحطيمها من اجل فكفكتها في النهاية.

إن الغاء الحدود الوطنية والغاء الدولة لاحقا هما عملة لوجه واحد، ويكمل احدهما الاخر في انجاز المهمة التدميرية للاقتصاد الوطني لصالح الاحتكارات الدولية، ولذلك فان دفاع هذه الحكومات عن الاوطان هو بالاصل الحد من عملية المقاومة ضد هذا العمل التدميري، والذي تتبناه الاحتكارات العالمية، وان البشرية ستتجاوز هذه العاصفة الهوجاء أي " الليبرالية الجديدة "، وان الامل سيكون كبيرا للانتقال إلى وضع اجتماعي جديد لأن الليبرالية المتطرفة والمتوحشة لا تعبر عن الحقيقة لانها تصطدم معها على الدوام، ولذا فهي لا تعمر طويلا، ومثلها كالنيزك الذي يظهر في الافق ويشتدد لمعانه في عيون ناظريه وبعدها يسقط على الارض بسرعة تاركا حفرة كبيرة "٩".

إن الليبرالية الجديدة هي ايدولوجيا هشة لانها تمارس عكس ما تنادي به، وهي تتبجح بارتكازها على الحرية، ولكنها في الحقيقة تغتصبها وتنتهك شرفها وكرامتها، وتمارس ايشع اشكال اللواط الفكري بحقها، وكل ذلك من اجل بقاء واستمرار النظام الرأسمالي المتوحش الذي يعزز فرضية ابادة اهل غزة باسلوب وحشي مرعب من خلال ادوات المجازر البشعة وتحت التبرير المخزي " من حق اسرائيل إن تدافع عن امنها بلا حدود ".

جدول اعمال مقاومة الليبرالية المتوحشة

خلال الصفحات السابقة تناولنا موقف الفكر الاسلامي النضالي من الرأسمالية، وتناولنا كذلك موقف الماركسية من الرأسمالية، أي اننا حاولنا تقديم ولادةجبهة نضالية تمثل القيادات الدينية التي تمثل الاسلام اليساري والقيادات الدينية المسيحية التقدمية، بالاضافة إلى موقف الجبهة الكلاسيكية المتمثلة بالماركسية النضالية وليس بالماركسية الصوفية، إن تشكيل جبهة انسانية اممية دينية لمواجهة الليبرالية المتوحشة هي بداية الطريق لانه لا الماركسية قادرة لوحدها ولا الاسلام اليساري الجهادي قادر لوحده، فكل القوى الحية في المجتمع الانساني مطالبة بتشكيل جبهة واحدة لمواجهة هذا الاجرام الذي لا بد وان نتخلص منه من خلال عملية تفكيك ثقافة الليبرالية الرأسمالية، وهذا يقودنا إلى البحث عن ابرز ملامح العناصر الرئيسة التي يجب إن تتشكل منها الاستراتيجية العالمية المضادة والمقاومة لخطر الليبرالية الجديدة .

لقد اشرنا في الصفحات الماضية إلى الاستراتيجية الاجرامية التي تخوضها مراكز الليبرالية العالمية، واوضحنا إن السلوك الاجرامي المتوحش للاستراتيجية الامريكية ليس مقترنا بسلوكيات المحافظين الجدد وعلى رأس الرئيس الامريكي الاسبق بوش الصغير او غيره من الرؤوساء الامريكيين، بل إن الاستراتيجية تنطلق

من الابادة الجماعية للشعوب الفقيرة والمستضعفة منذ إن تم ابادة الهنود الحمر على يدالاسبان والبرتغال، وتبعهم في ذلك الامريكيين وخاصة الابادة الجماعية للشعوب العربية والاسلامية في كل من العراق وافغانستان والصومال وجنوب لبنان ووزيرستان في باكستان واخيرا المجازر التي ترتكبها الصهيونية في فلسطين .

ومن هنا فان الحركة الشعبية المناهضة للصهيونية والعولمة ومقاومة الليبرالية المتوحشة بدأت تنهض وتستعيد عافيتها على الساحة الاقليمية والدولية هذه الايام بل يمكننا القول إن القوى الاجتماعية صعدت من مقاومتها الثقافية والسياسية ضد كل مشاريع الليبرالية الجديدة، ومن هنا فان أي استراتيجية مضادة الفعالية لا يمكن إن تحقق اهدافها الا اذا اتخذت من المعارك التي تخوضها الشعوب الحية ضد الاستراتيجية الامريكية الاجرامية في جميع المحاور لتحركها، وهنا يطرح السؤال التالي ما قيمة أي خطاب عن الفقر وحقوق الانسان اذا كان الموجود على جدول الاعمال سيناريوهات مرعبة مفروضة بالقوة العسكرية، وهذه الحروب الصغيرة رغم التدمير البشري والمادي المرعب الذي تحدثه لدى الضحايا لاتمثل مجرد مشكلة هنا او هناك، بل هي تكشف عن حقيقة ونوايا الخصم الليبرالي، وهذا بالطبع يتطلب تشكيل جبهة عالمية لمواجهة الجبهة التي تساند الارهاب والقتل والدمار الذي تتبناه مركز مراكز الرأسمالية المتوحشة، ولذلك لا بد من تشكيل جبهة تقف ضد هذه المراكزمن خلال المحاور والسناريوهات التالية :

السناريو الاول - اعطاء اولوية لاوروبا لإعادة بناء سياسة مواطنية في القادرة على تجميع مطالب الحركات المفتتة حتى الان، ومن يتابع ردود الافعال يجد إن المجتمع الاوروبي قد تفاعل مع هذه الاحداث خاصة التي جرت في غزة، إن بناء هذه الجبهة السياسية وتجميع الموضوعات التي يمكن إن تكونها هي الشرط الصحيح لنجاح الحركات الشعبية التي تمارس الاحتجاج والمقاومة الجماهيرية، أي اننا مطالبون بخلق حركة مناهضة تتمكن من فرض مطالبها على اوروبا وتتبنى مطالبها، وبذلك يكتسب هذا المشروع بعدا اجتماعيا، وهذا هوالشرط كذلك لكي يتم الكشف عن اين نقف ومن نحن وهل فعلا نقف في الصف الامريكي الامبريالي سواء اطلقنا على انفسنا مسميات اليمين الاسلامي ام اليسار الليبرالي حتى يتم التمييز عن اليمين المؤيد للامبريالية العالمية، وبعبارة اخرى لابد من إن نجري تحولا حقيقا في خطابنا نحوعالم ما بعد الامبريالية، ولذلك نحن مطالبين بالدرجة الاولى بمخاطبة شعوب اوروبا والعمل على اقناعهم من خلال اشعارهم بالسياسات التي ترتكبها امريكا خاصة هشاشة الوضع الاقتصادي العالمي حاليا،واقناعهم بأن النظام الاقتصادي العالمي الان قد وصل إلى طريق مسدود كيف ذلك ؟

من خلال العمل على ايقاف فائض رؤوس الاموال التي تدفعها اليوم لدفع التبرير الامريكي، وتحولها لمشروعات التنمية الاجتماعية الاوروبية فانها ستفرض بذلك على امريكا إن تتخلى عن مشروعاتها الخارجةعن المعقول، وهذا الهدف الاستراتيجي البعيد المدى لا يستبعد بالطبع التأييد الفوري للرجال والنساء الشجعان الذين يقفون في قلب النظام الرأسمالي العالمي لقولوا لا للمجازر، لا للحرب في المناطق الساخنة في العالم وخاصة في العراق وفلسطين وافغانستان .

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا لايتم استغلال القوى المناهضة للحرب في امريكا ؟ الجواب كما يراه امين عام جبهة مناهضة العولمة الدكتور سمير امين هو إن حركة مناهضة العولمة في امريكا هي حركة شكلية لانه ما دامت الامتيازات الطفيلية تصل إلى المؤيدين والمعارضين للحروب، فلا جدوى من هذه الحركات العرجاء، فقد تمكنت الطبقة الحاكمة الامريكية من خلق رأي عام سائد على درجة من الجهل والسذاجة والغباء لا تعطي الفرصة لاحتجاجات الاقلية الواعية لافشال استراتيجية السيطرة للولايات المتحدة الامريكية .

السناريو الثاني - تشجيع التقارب بين الشركاء الاوروبيين وهم " اوروبا، روسيا، الصين، الهند " بصفة اساسية وخاصة روسيا فهي دولة وريثة للامبراطورية الاشتراكية السوفياتية سابقا، وهي تمتلك مخزون هائل من النفط والغاز يمكنها إن تقدم لاوروبا بديلا للخلاص من الشروط الامريكية المذلة في حال سيطرة واشنطن على منطقة الشرق الاوسط خاصة ويلاحظ الان فشل الاستراتيجية الامريكية في تحقيق الاهداف المعلنة لمشروعها في منطقة الشرق الاوسط، وبوزن قوى كالصين وروسيا كلاعبين متميزين، كما إن اغلب المبادلات الخارجية لروسيا ورؤوس الاموال التي تجتذبها تقريبا من اوروبا اكثر من الولايات المتحدة، فان هناك ارضية مناسبة للتقارب ما بين اوروبا وروسيا وتحاول امريكا ما بين الحين وآلاخر تخريب التقارب تارة من خلال التدخل في شكل الديمقراطية في مناطق ما يسمى سابقا بالاتحاد السوفياتي " اوكرانيا، جورجيا "، والتدخل الروسي الاخير في جورجيا، واخيرا تمكنت امريكا من فرض شروطها على واجندتها لاقامة منظومة صواريخ عابرة للقارات تحت مزاعم الخطر الايراني الروسي معا !!!!، او قد تلجاء امريكا من الداخل الروسي لمحاولة تفكيك القيادات الروسية وتحويلها إلى عملاً وكمبرادوريون لها داخل روسيا، ولكن السلوك الوطني المتميز الذي قاده الرئيس فلادميير بوتين اثبت انه رجل دولة قادر على طرد كل جراذين وفئران الرأسمالية التي عشعشت في روسيا، وتمكن من ضرب المصالح الامريكية في جورجيا .

من جهة اخرى يجب إن يستغل التقارب الروسي الصيني فيجد ارضية ممهدة في الخطر الذي تتعرض هذه البلدان الكبيرة اذا ما نجح التغلغل الامريكي في الجمهوريات الاسلامية في آسيا الوسطى، ومع ذلك تحاول امريكا كما اسلفنا وضع الاسافين في قلب هذا التقارب وبشتى الوسائل فتارة تستخدم قضية حقوق الانسان في التبت، وتارة تستخدم التناقضات ما بين هذه المجموعات الدولية، وتارة بتأييد الاجزاء الكمبرادورية من طبقاتها الحاكمة، بالاضافة الصراعات الجيوسياسية بشأن الحدود ما بين الهند والصين، والمشاكل المتعلقة بالتبت وشيخاينج، وتحاول واشنطن إن تتلاعب في العلاقات الهندية الصينية وتارة تدعم وتهيج باكستان وتدعمها ضد الهند من خلال اثارة الصراعات ما بين المسلمين والهندوس، واكبر مثال تفجير " بومباي " الاخير، وفي مواجهة ذلك على القوى الشعبية إن ترسم استراتيجتها التي تتحدد في المرحلة القادمة بالذات بضرورة بناء جبهة مناهضة ضد الكمبرادورية بحيث تأخذ في الاعتبار مرةاخرى وفي اماكن اخرى العلاقات الوثيقة التي تربط ما بين الادارة من جهة والكمبرادورية من جهة اخرى القائمة بين روسيا والهند والمحتملة في الصين وبين ما تفرضه السياسات العالمية الامريكية .

السيناريو الثالث : ينطلق هذا السيناريو من خلال إعادة التضامن ما بين الشعوب الافريقية وآلاسيوية أي إعادة انتاج روح باندونغ " دول عدم الانحياز "أي إعادة التضامن للقارات الثلاث" آسيا، افريقيا، اوروبا "، ويلاحظ إن ما يجري من تضامن شعوب الجنوب أي العالم الثالث في صراعها ضد السياسات الكمبرادورية وهي الناتج للعولمة في صراعها ضد السلطات الكمبرادورية وهي الناتج للعولمة النيوليبرالية ووهنا تلعب الموضوعات التي اشرنا اليها وهي التقدم الاجتماعي والديمقراطية والاستقلال الوطني دورها الكامل، ومما لاشك فيه إن شرعية السلطات الكمبرادورية تتعرض للطعن في كثير من بلدان الجنوب، ولكن استجابة الشعوب للتحديات المترتبة على انخراط الجنوب في النظام الامبريالي الجديد لا تؤدي دائما إلى ظهور بدائل ذات طبيعة ديمقراطية،وتعبر عن التقدم الاجتماعي، وبناء اعتماد متبادل وعادل متفق عليه على النطاق العالمي، وبناء أسباب كثيرة، ومنها تآكل شعارات الوطنية الشعبوية التي ميزت المرحلة السابقة التي تلت مرحلة التحرر الوطني، وكذلك الممارسات الاتوقراطية في الحكم والسياسة والادارة رغم التبجح بالديمقراطية الليبرالية التي ما زالت سائدة في الكثير من البلدان حيث تلجاء الطبقات الشعبية المرتبكة إلى الهروب إلى الحركات الدينية الاصولية او قل بسبب فشل حركات التحرر الوطني في تحقيق برامج الشعوب في التحرير والتحرر وخاصة بعد هزيمة ١٩٦٧ وهزيمة الجيش العراقي حيث لا يوجد على الساحة سوى القوى الاسلاميةفهي التي تقود المقاومة العربية والاسلامية في العراق وفلسطين وافغانستان ولبنان .

ومن هنا فان العوامل التي ساعدت في بروز الظاهرة الدينية في المنطقة السياسات الامبريالية التي تقودها الولايات المتحدة بالذات، وهذا يعني كما يرى المفكر سمير امين بالضبط بروزالقوى اليسارية التقدمية بمفردها، ولكن عندما تبرز القوى الاسلامية فيعتبر ذلك ردة إلى الوراء بل ويعتبرها عقبة إلى الوراء في إعادة البناء للشعوب آلاسيوية والافريقية معا أي إن ما يقوم بتحليله إن تفجر الصراعات الدينية يساهم في تقوية الوجود الامريكي، ويضرب مثالا على ذلك عندما تثار الصراعات الاجرامية ما بين المسلمين والهندوس والهوتو والتوتسي والسنة والشيعة، وتصل الازمة كما يرى سمير امين وتصل ذروتها بين الجماعات المختلفة عندما تتحول شخصيات مريبة من وجهة نظره مثل حركة طالبان وابن لادن وصدام حسين حيث كانت تحصل على الدعم سابقا من " السي أي ايه " تحولت فيما بعد إلى اكبر اعداء امريكا، ويسخر امين كذلك من الجماهير الشعبية التي تصدق هذه الاكذوبة كما يزعم، بالمقابل تظهر هنا وهناك عودة تحالفات وطنية شعبية ديمقراطية مثل تلك التي نجحت في هزيمة الديكتاتوريات كما جرى في مالي او التي انهت نظام " الابارتهيد " في جنوب افريقيا " نظام التمييز العنصري "، او ضمنت فوز " لولا" في الانتخابات البارزيلية ووهذه النجاحات مهما بدت صغيرة في الضروف الحالية حيث العدوان الامبريالي هو المسيطر وهي المبشرة باعادة جبهة شعوب الجنوب بعد حين .

وفي النهاية يجب إن لا يتم الفصل ما بين النضال من اجل العدالة الاجتماعية والديمقراطية ونظام دولي متعدد المراكز، والسلطة الحاكمة في واشنطن توفر ذلك

كلـه، وهـي لهذه الاسباب تحـاول إن تفرض نظامها الـدولي المسيطر مكـان القـانون الدولي، وهي تعرف إن هذا الطريق هو الوحيد لفرض النظام الاجتماعي النيوليبرالي الجائر المتوحش، وبالتالي تقضي على الديمقراطية حيثما وجدت، واذا وجدت تسعى لتدميرها كما يجري في الانتخابات الفلسطنية عندما فازت حماس بالاغلبية، ولكن ماذا جرى لها من حصار وتجويع وابادة الشعب الفلسطيني الذي فكر إن يختار حماس على حركة فتح .

ومن هنا فان المطلوب من حركات المقاومة السلمية والمسلحة ونضالات الشعوب إن تفهم ذلك هي الاخرى إن مشروعاتها وبرامجها واستراتيجتها لن يكتب لها النجاح في تحقيق الاستقرار والتحرير والاستقلال والتوحد والتقدم الاجتماعي والديمقراطي، لن تتحقق الا اذا تم دحر المشروع الامريكي الذي يهدف إلى الهيمنة والسيطرة العسكرية والاقتصادية والثقافية، وهذا بالطبع سيكون عنوان الكتاب القدم للمؤلف باذن الله الذي ساتناوله لماذا لاتقاوم الشعوب المشروع الامريكي وخاصة الشعوب العربية ونترك الدور لفئة قليلة جدا من حركات المقاومة والمنتديات والجمعيات سواء اكانت مقاومة مسلحة اومقاومة ثقافية واعلامية .

ما هو البديل لليبرالية المتوحشة ؟

لا يوجد وصفات جاهزة لمواجهة الحالة الراهنة التي تعاني منها البشرية، وخاصة دول العالم الثالث، لكن لابد من توفر استراتيجيات او خلق استراتيجيات تهيئ الارضية المناسبة لمواجهة هذه الليبرالية المتوحشة، وهذا بالطبع يحتاج إلى تظافر جهود كبيرة وضخمة، ولكن لا بد من العمل من خلال البرنامج التالي، وبالمناسبة فان الخبراء الاقتصاديين الذين قدموا هذه البرامج هم من معسكر اليسار الماركسي ولم يتقدم الصفوف من المعسكر الاسلامي أي باحث لوضع البدائل لمواجهة هذه الازمة وعلى النحو التالي :

اولا ـ التغير الاجتماعي الصاعد تمهيدا لتحقيق التقدم الاجتماعي : إن ما تحتاجه شعوب العالم اليوم كما في الماضي، ولكن في اطار ظروف مختلفة بسبب ثورة الاتصالات وعلوم الحياة والتحولات في اشكال العمل، والعلاقات الاجتماعية التي ترتب عليها مشروعات مجتمعية ووطنية واقليمية مترابطة ومتشابكة في اطار هياكل عولمة مقننة ومتفق عليها بما يضمن تكاملا نسبيا فيما بينها تحقق تقدما متزامنا ومتوازنا في اتجاهات ثلاث:

١ـ التقدم الاجتماعي : أي احداث حالة توازن ما بين تقدم الاقتصاد بما يحتويه على تجديدات تقنية، وارتفاع مستوى الانتاجية، والتوسع المرتقب بالاسواق، وما بين التقدم الاجتماعي يخدم الجميع من خلال ضمان الحق في العمل والاندماج الاجتماعي والتقليل من التفاوت .

٢ـ دمقرطة المجتمع : أي السعي نحو نشر وتجذير الديمقراطية من خلال دمقرطة المجتمع بجميع فئاته على اعتبار إن الديمقراطية هي عملية مستمرة ودائمة، وليست مجرد وصفة او مخطط جاهز فهي ثابته لا تتغيير بحيث تجمد التطور على نسق الاشكال الثابته للديمقراطية كما تمارس في البلاد الغربية، والديمقراطية تتطلب التوسع

في مجالات تطبيقها لتشمل الادارة الاقتصادية والاجتماعية ولا تتوقف عند مجال الادارة السياسية للمجتمع.

٣ـ التأكيد على الطبيعة المتمركزة على الذات للمشروعات المجتمعية في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وبالتالي بناء اشكال من العولمة تسمح بهذا، ومن المعروف إن الطابع المتمركز على الذات للتنمية لا الانفتاح بشرط بقائه تحت السيطرة ولا المشاركة في العولمة او الاعتماد المتبادل، ولكنه يفهم هذه المشاركة في اطار يؤدي إلى التقليل من التفاوت في الثروة والسلطة بين الامم والاقاليم لا زيادتها .

لكن البديل الذي نعرفه بالتقدم في الاتجاهات الثلاث يتطلب السير بالتوازي فتجارب التاريخ الحديث بنيت على اساس اعطاء الاولوية المطلقة للاستقلال الوطني، والتي خصصت التحديث لخدمتها بالكامل سواء اكانت مصحوبة بتقدم اجتماعي اوحتى مع التضحية بهذا التقدم، لكن دائما ومن دون ديمقراطية قد ثبت فشلها في تخطي الحدود التاريخية القريبة، وفي المقابل فالمشروعات الديمقراطيةالمعاصرة التي ارتضت التضحية بالواقع الاجتماعي والاستقلال في اطار الاعتماد المتبادل المعولم لم تنجح في تعزيزالقدرة التحريرية للديمقراطية، وانما في افسادها بل في تحطيم مصداقيتها، وفي النهاية نزع شرعيتها "١٠".

ومن هنا فان الخطاب النيوليبرالي الذي ازعجنا بطنطناته والتي ابواقه اطرمت اذاننا عبر وسائل الاعلام، بانه لا بد من الخضوع للسوق، فحسب بل يؤكد ليلا ونهارا إن هذا الخضوع سيحقق التقدم الاجتماعي، وهذا في الحقيقة هراء وهرطقة، لكن الخطاب الاقتصادي التقليدي يحاول مسايرة الخطاب النيوليبرالي، ولكن من باب المزايدة والنفاق الثقافي .

اذن نحن ما دمنا في صلب الديمقراطية قد يطرح التساؤل التالي ما الفائدة التي تجنيها الشعوب من عملية التصويت والمشاركة في الانتخابات ؟ الجواب بالقطع هو تعبئة الشواغر فقط للنخب السياسية والاعلامية والاقتصادية بل قل من اجل سيطرة رجال الاعمال على منصات القرار السياسي والاجتماعي والاعلامي وخاصة في البرلمانات التي اصبحت صبغتها العامة تحت سيطرة رجال المال والاعمال، وعليه تصبح البرلمانات المنتخبةمجرد هياكل وديكورات تجميلية لا فائدة منها، اللهم تحرير المشاريع التي تريدها الليبرالية الجديدة، وتسهيل عملية تداول السلطة أي تتالي اشخاص مختلفين للقيام بنفس الشئ محل الاختيارات البديلة طبقا لتعريف الديمقراطية،واعادة تأكيد المواقف السياسية والثقافية المرتبطة بالمواطنة ووهي القادرة على خلق امكانية ظهور بديل لتدهور الديمقراطية .

لذلك لا يمكن إن يتحقق التقدم كما اسلفنا الا بتقدم المستويات الثلاثة السابقة للبديل دون الفصل بين أي مستوى عن الاخر، ولذلك لا بد من وضع استراتيجيات مرحلية تسمح بانسياب وتعزيز التقدم مهما كان حجمه، ثم السعي نحو التقدم خطوة اخرى للتقليل من حجم خسائر ومخاطر الانزلاق والتقهقر .

لكن الاستراتيجيات التي نريد تطبيقها لابد وان تاخذ التطور العالمي والتكنولوجي الذي تحقق في الوقت الراهن، والاسراع بدورات التقدم في جميع ابعادها " الثروات الجديدة وقوى التدمير المحتملة لهذه الثورات والتحولات في تنظيم العمل، والهياكل الاجتماعية، والعلاقات

مع تركيز رؤوس اموال القلة المحتكرة وادارتها بالاساليب المالية، ومع ذلك يجب إن لا نركن لسراب الامل بان تلك الثورات لديها عصا سحرية او كما يقولون عصا موسى السحرية القادرة على حل تحديات التقدم الاجتماعي، والديمقراطية من تلقاء ذاتها بل العكس فانه باندماج الدنيامية الاجتماعية المسيطرة عليها يمكن الاستفادة من الامكانيات المحررة لهذا الجديد "١١".

ومن هنا فان تركيزنا على البديل الاجتماعي هو مربط الفرس لأن التوحش الليبرالي انطلق اساسا من سحق التقدم الاجتماعي، او إن يسعى للتضحية بهذا التقدم من اجل عيون الربح اقصد " النهب "، وهذا الخضوع المرعب والمريب تم تسويقه علينا جميعا، ونحن في غفلة بانه سيحقق للانسانية وللعمال وللبشرية عن طريق اقتصاد السوق الدخول إلى الجنة، وان الاخيرة ستكون تحت اقدامنا، وهي جنة ستكون دائمة لرأس المال، لكنها ليست جنة بالنعنى المجازي وهي في حقيقتها نيران جهنم التي حرقت وشوهت من شوهت بعبارة اخرى انها فردوس ضيق الافق بالكثير من المقاييس فلا اسس علمية او اخلاقية لها، وفي الواقع فان التقدم الاجتماعي والديمقراطي في ظلها ليس الا ابشع اشكال الخضوع وهو ما نسميه التقدم التقدم الاجتماعي والديمقراطي المفروغ من مضمونه .

إن نتائج هذا الخضوع المرعب ليس له ايجابيات او نتائج للمجتمع الانساني اللهم الا المزيد من تعميق التفاوت بين المجتمعات والاقاليم، وقبل ذلك كما اشرنا هدفه الربح " النهب " اولا واخيرا، ومن خلال زيادة، كما إن هذا التفاوت اصبح يأخذ اشكالا وهياكل مسايرة لمتطلبات واستحقاقات رأس المال الذي بلغ مرحلةجديدة كيفيا من تطوره أي بمعنى إن الاحتكارات التي يطلق عليها المزايا النسبية التي تتمتع بها الاقلية المحتكرة في المراكز المسيطرة اوما نسميه " بثالوث الدمار امريكا، اليابان، اوروبا"، لا تقتصر على الصناعة كما كان في الماضي، وانما في اشكال جديدة من السيطرة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أي السيطرة على التكنولوجيا بواسطة التشريعات المتعلقة بالملكية الصناعية والفكرية، وحرية الاستحواذ على الموارد الطبيعية على الكوكب، والقدرة في التأثير على الرأي العام بل والسعي نحو تعديله من خلال السيطرة على وسائل الاعلام والتركيز المفرط لوسائل التدخل المالي، والانفراد بملكية اسلحة الدمار الشامل، وعلى ذلك لايمكن التفريق اليوم وفي الماضي ما بين الاقتصاد والسياسة اوبين السوق وسلطة الدولة بما فيها العسكرية، وذلك بالرغم من الخطاب الايدولوجي السائد الذي يحاول انكار ذلك فكيف يمكن اذن مواجهة هذه الوحدة بين استراتيجيات القلةالمحتكرة متعددة الجنسيات والسلطات السياسية التي تخدمها أذناب من خلق استراتيجية مضادة لخدمة الشعوب يمكنها بالاضافة للمقاومة إن تدفع البديل الذي وصفناه هنا هوالتحدي الحقيقي.

بعد هذا العرض عن تشخيص المرض الذي نعاني منه جميعا لابد من توفر الدواء الناجح لوقف تدهور صحة الكوكب الذي نعيش فيه، وهذا بالطبع يتطلب تظافر الجهود والسعي لجمع كل القوى الاجتماعية والدينية التي تناضل من اجل إعادة بناء الانسان على اسس تسعى لتجذير المواطنة، من منطلق إن البشر الذين يتعرضون في هذه المرحلة يتعرضون للابادة الجماعية والتلاعب بمصائرهم هم احياء وليسوا اموات، وما داموا هكذا فلابد من وجود منظمات او حركات اجتماعية سواء اكانت تعمل بصورة علنية اوتحت

الارض، ويجب إن تكون هذه المنظمات لديها استراتيجيات مصاغة بتعبيرات ايدولوجية وسياسية، او قل على الاقل تناهض وتقاوم خطاب الليبرالية المتوحشة سواء اكانت مجتمعة اومشتتة اومفتتة .

واقع المنظمات الاجتماعية : امام هذه الغطرسة العالمية والاجرام الذي تتعرض له الانسانية نجد إن المؤسسات والمنظمات الاجتماعية "مؤسسات المجتمع المدني " ما هي الاديكورات وموضات في حقيقتها منظمات مفتتة لا تشعر بالثقة في السياسة او الصياغة الايدولوجية، وهذا هو سر ضعف القوى الاجتماعية،وهو النتيجة لتآكل اشكال الصراع الاجتماعي السياسي للمرحلة السابقة، وهي التي انتهت من التاريخ المعاصر مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وما نتج عنه من انهيار وفقدان فاعليتها وفقدان مصداقيتها وشرعيتها، وادي هذا التآكل إلى فقدان جوهري للتوازن، الامر الذي سمح لرأس المال المسيطر باحتلال المشهد وفرض منطقه المهيمن، وفرض شرطه المنفرد على الشعوب، ومكنه ذلك من إن يعلن ابدية سيطرته بل والادعاء بعقلانيتها، وحتى تحقيقها للخير "نظرية التاريخ "مما يعني العودة إلى جنة الرأسمالية العالميةولو مؤقتا ويجري التعبير عن هذه الاوضاع بشعارات غير منطقية من نوع لا يوجدبديل اوفي تخيل حركة اجتماعية يمكنها تغيير العالم دون التعبير عن مشروعها المجتمعي .

إن الحركات الاجتماعية هي موجودة في الاصل، ولكن لابد من ضخ الروح النضالية في كينونتها، ويجب إن تعمل بكل الاتجاهات، وفي كل مكان فهناك حركات تناضل من اجل الديمقراطية، واخرى من اجل مقاومة الاحتلال والظلم والاستبداد ومحاربة الفساد، ولذلك لابد من الانخراط في هذه المنظمات التي تسعى لتغيير الواقع في بلورة البديل الذي سيغير العالم، لكن هذا التغيير يتطلب ما يلي :

اولا- إن تتعلم هذه الحركات والمنظمات إن ترتقي وتنتقل من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم .

ثانيا - الانتقال من حالة التفتت إلى حالة التجمع في اطار التعددية .

ثالثا - إن تصبح الفاعل الحاسم في مشروعات مجتمعية خلاقة وفاعلة من اجل بناء استراتيجيات سياسية لصالح المواطن .

رابعا - الاعتراف باوجه الضعف في هذه الحركات لا يعني انكار ضروفها المطلقة، ولا للتحسر على ماض ذهب وانما التحرك لدعم امكانياتها الخلاقة والمحررة .

خامسا - إن الخصم الاستراتيجي للشعوب هو رأس مال الاقلية المحتكرة والمعولمة، وهو الامبريالي المجرم المسيطر، والى جانبه مجموعة القوى السياسية التي تقف إلى جانبه، وهذا يعني الثالوث الامبريالي الرأسمالي المتوحش، وخاصة امريكا اضافة إلى حكومات الطبقات الكمبرادورية والتابعة للعالم الثالث، وكلهم جميعا يتحركون بجميع الاتجاهات في اطار استراتيجية عسكرية وسياسية واقتصادية،ولديه مجموعة من الهيئات المجندة لخدمته "كالمنظمة الاوروبية للتعاون والتنمية، منظمة التجارة العالمية، والبنك الدولي، صندوق النقد الدولي، حلف شمال الاطلسي "، ولديه مراكز الفكر واماكن الالتقاء خاصة " دافوس "، والنوادي الليبرالية على طريقة " فون هايك " والجامعات وخاصة اقسام الاقتصاد الكلاسيكي، وهويخترع الموضات ويطرح الشعارات البراقة في الخطاب أي انه يستغل الديمقراطية وحقوق الانسان وحاربةالفقر وتواري الامم في

الوقت الذي يمارس ابشع اشكال الابادة للشعوب تحت غطاء مكافحة الارهاب " اغانستان ...،وتدمير اسلحة الدمار الشامل " العراق " وغزة وقف الصواريخ، ومن هنا فان الاغلبية العظمى من الحركات والمناضلين الذين ينشطون ويتخذون مواقفا ذيلية ويستجيبون بقدر من التأخير وبكفاءة اكثر او اقل لهذه الاجزاء من الاستراتيجية او الخطاب، وعلينا إن نتخلص من اوضاع رد الفعل الدفاعية هذه، وان نرد بالتقدم بخطابنا الخاص واستراتيجيتنا الخاصة واهدافنا ووفي الحقيقة فاننا ما زلنا بعيدين عن السير في هذا الاتجاه .

والسؤال الذي يطرح نفسه كيف يمكن إن نتقدم بهذا الاتجاه ؟، يمكن القيام بتحقيق اهدافنا من خلال العمل وتحليل استراتيجيات الخطاب النيوليبرالي المتوحش بشكل منظم سواء في ابعادها العالمية اوتعبيراتها المحلية والجزئية مع ملاحظة انهذه الاستراتيجيات ابعد ما تكون كتلة واحدة مترابطة فتناقضاتها الخاصة تخترق كل جانب، وعلينا إن ندرس هذه التناقضات ونحللها جيدا، وان نحددها بدقة ووعلينا كذلك إن نضع استراتيجيتنا المضادة كي نستفيد من هذه التناقضات "١٢".

كيف نعمل لمواجهة الحالة الراهنة التي تعاني منها المنظمات الاجتماعية التي تمتاز بالضعف والشرذمة والتفتت؟

من هنا لا بد وان نسعى إلى الارتفاع بالمستوى الذي يسمح ببلورة استراتيجيات القوى الشعبية، سواء على مستوى ادراك عالمية الاعتماد المتبادل بينها او على مستوى التعبير الجزئي والمحلي، وهنا يمكن للمبادئ العامة إن تحدد شكل البديل، تتجسد على شكل برامج وتحركات تكتسب قوتها من تنوعها، وفي الوقت نفسه تجمع آثارها على المجتمعات الحقيقية، وهنا تصبح الحركة القوة المحركة للتاريخ .

ومن هنا يجب إن نتنبه دائما للخصم الليبرالي والذي يسعى بكل الوسائل لاعاقة تقدمنا ليس فقط بالوسائل المتوحشة العنيفة كالعنف البوليسي والامني والتراجع في مجال الحريات الديمقراطية اودعم الحركات الفاشستية الجديدة والحروب، وانما كذلك بتوجهاته لكسب ود الحركة أي ممارسة الاحتواء لكي تحاصر هذه الحركات ويستمر على منع تقدمها بان تبقى تابعة سياسيا من خلال الذيلية، واستخدام اسلوب التليين، وهذا يستدعي هنا إن ننظر بعين فاحصة وناقدة للحركات والاشكال التنظيمية المصاحبة لها، وخاصة المنظمات الغير حكومية التي ركبت الموضة كشكل وحيد للتعبير عن المجتمع المدني، فهي تدخل في اطار بناء البدائل مستقبلا او هل هي تدخل في اطار بناء البدائل مستقبلا او هل هي احدى وسائل النظام لادارة الامور في اتجاهاته العامة او بعبارة اخرى هي اداة ضد البدائل.، ومن هنا لا بد من إعادة بناء سياسة مواطنية، وهي وحده السبيل لاعادة التوازن مع رأس المال واعادة البناء، وهذه فقط هي التي ستسمح بظهور توازنات اجتماعية جديدة تفرض على رأس المال إن يتكيف هو مع مقتضيات ليست نابعة من منطقه الخاص، وهنا فقط يمكن إن يحل مكان الاتجاه السائد حاليا هو تكييف الشعوب مع متطلبات رأس المال الاتجاه المضاد وهو تكيف رأس المال مع متطلبات الشعوب .

هوامش الخاتمة

١ـ قضايا فكرية، الجزء الثاني، د. حسن حنفي، ص ٢٩٨
٢ـ مرجع سابق، ص ٣١٩ .
٣ـ مرجع سابق، ص ٣٢٠ ـ ٣٢٣
٤ـ انظرمرجع، سابق، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٨ .
٥ـ مرجع سابق، ص ٣٢٨ .
٦ـ الليبرالية المتوحشة، مجلة قضايا معاصرة، ص ١٠٥ ـ ١١٢.
٧ـ الانماط المتغيرة للاقتصاد العالمي، توماس سانتوش، ترجمة حازم عبد الرحمن توفيق، الهيئة المصرية العامة لكتاب القاهرة، ١٩٩٢، ص ٥٢ .
٨ـ انهيار الليبرالية الجديدة، عرض وتحليل علي السوادني، ص ٨.
٩ـ مرجع سابق، ص ١٥
١٠ـ البديل للنظام الليبرالي والمعولم والمسلح، د. سمير امين، مجلة قضايا فكرية، ص ٢٩٣ـ ٢٩٤ .
١١ـ مرجع سابق، ص ٢٩٤ .
١٢ـ مرجع سابق، ص ٢٩٦ .
١٣ـ موقع حركة اليسار الاجتماعي الاردني على شبكة الانترنت .
١٤ـ بيان صدر عن الحركة بمناسبة مرور عام على اشهارها .

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم
٢ ـ الكتاب المقدس
٣ ـ المجتمع الشرقي القرسطي " كنمط تاريخي "مجموعة من الباحثين السوفيت، ترجمة حسان ميخائيل اسحق، دار الاهالي، دمشق، ١٩٨٨
٤ ـ الليبرالية المتوحشة، د. رمزي زكي، وزارة الثقافة المصرية، مكتبة الاسرة
٥ ـ التاريخ النقدي للتخلف، د. رمزي زكي، عالم المعرفة
٦ ـ فتح امريكا، مسألة الاخر، تزفيتان تودوروف، ترجمةبشير السباعي .
٧ ـ تجارة الرق والرقيق، هنري كلارك وفينست هاردونج، ترجمة مصطفى الشهابي
٨ ـ الرأسمالية الناشئة، د. احمد جامع .
٩ ـ اوروبا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر، ميشيل دومنير، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة بيروت .
١٠ ـ صناعة الفقر العالمي، تيرزا هاستر، ترجمة مجدي ناصيف .
١١ ـ التصدع العالمي، المجلد الاول، ك.س ستلفريانوس، ترجمة موسى الزعبي وعبد الكريم محفوظ .
١٢ ـ القاموس السياسي، احمد عطية الله، دار الملايين .
١٣ ـ الليبراليون الجدد، د.شاكر النابلسي، دار الجمل .
١٤ ـ تطور الفكر السياسي، مراجعة عبد السلام المزوغي ود. حبيب وراعة، المركز العالمي لدراسات وابحاث الكتاب الاخضر .
١٥ ـ تطور الفكر السياسي، المجلد الثالث، د.احمد الاصبحي، دار البشير للنشر .
١٦ ـ الفيروس الليبرالي، د.سمير امين، مشورات منتدى اليسار الاجتماعي الاردني.
١٧ ـ من التجزئة إلى الوحدة، مركزدراسات الوحدة العربية، د.نديم البيطار .
١٨ ـ التنمية الاقتصادية، د. رمزي سلامه، دار الفكر العربي .
١٩ ـ انهيار الليبرالية الجديدة، د.نيلسون اروو جودي روزا، ترجمة جعفر السوداني، دار الحكمة .
٢٠ ـ التضخم المستورد، دراسة في آثار التضخم بالبلادالرأسمالية واثره على البلاد العربية، د.رمزيزكي .
٢١ ـ النظرية الاقتصادية الماركسية الجزء الثاني، ارنست مندل، ترجمة جورج طرابيشي .
٢٢ ـ رأسالمال الاحتكاري، بول بوران وبول سوزي .
٢٣ ـ الازمة الاقتصادية الراهنة، د.رمزيزكي، وانظر كذلك الصراع الاجتماعي الفكري حول الموازنة العامة للدولة في العالم الثالث رمزي زكي .
٢٤ ـ السيطرة الصامتة، تورينا هيرتس، ترجمة صدقي خطاب، سلسلة عالم المعرفة.
٢٥ ـ التجارة والاعمال، روبرت عاريا .
٢٦ ـ خرافة المالتوسية الجديدة، د.رمزيزكي، عالم المعرفة .
٢٧ ـ الاعلام ومذاهبه، د. عبداللطيف حمزة، دار الفكر العربي .
٢٨ ـ الفكر العربي وصراع الاضداد، د.محمد جابر الانصاري .
٢٩ ـ تحليل الخطاب الاعلامي، د.محمد شومان، الدار اللبنانية المصرية للاعلام .
٣٠ ـ الصراع الاجتماعي السياسي خلال التسعينات في الاردن، ناهض حتر .

٣١ ـ الليبرالية الجديدة والديمقراطية، ناهض حتر .
٣٢ ـ الامبراطورية الامريكية، جون ستيل جوردن، ترجمة مجد الدين باكير، سلسلة عالم المعرفة .
٣٣ ـ الرجل الذي رأى "كارلماركس" منشورات مندى اليسار الاجتماعي الاردني.
٣٤ ـ الاعمال الكاملة للدكتور هشام غصيب، تحرير ناهض حتر، خمسةمجلدات، دار ورد
٣٥ ـ الاسلام والرأسمالية ود. محمود الخالدي .
٣٦ ـ الاسلام والرأسمالية، سيدقطب، دار الشروق .
٣٧ ـ العدالة الاجتماعية في الاسلام، سيدقطب،دار الشروق
٣٨ ـ اليمين واليسار في الفكر الديني، د.حسن حنفي
٣٩ ـ قضايا معاصرة، دحسن حنفي، دار التنوير .
٤٠ ـ من العقيدة إلى الثورة، حسن حنفي، خمسةمجلدات، دار التنوير .
٤١ ـ من الدين إلى الثورة، د. حسن حنفي، ثماني اجزاء، مكتبة مدبولي
٤٢ ـ فكرنا المعاصر، الجزء الثاني، حسن حنفي .
٤٣ ـ الانماط المتغيرة الاقتصاد العالمي، توماس سانتوش، ترجمة حازم عبد الرحمن توفيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة .
٤٤ ـ الصنم، نيل فيرجسون، ترجمة غالي عودة، مكتبة عبيكان ز
٤٥ ـروح الرأسمالية الديمقراطية،ميخائيل نوفاك، دار البشير .
٤٦ ـ امريكا التي تعلمنا الديمقراطيةوالعدل،د.فهد العرابي الحارثي .
٤٧ ـ الدولةوالدين، د. برهان غليون، المركز الثقافي العربي .
٤٨ـالاسلام والسياسة، محمد عمارة، دار السلام .
٤٩ـ المقاومة اللبنانية تقرع ابواب التاريخ، عبد الامير الانباري وناهض حتر، دار ورد .
٥٠ـ الاصنام الاربعة، طارق حجي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية .
٥١ ـ اختيار النهاية الحزينة، غاتلب هلسا، دار الانتشار العربي .
٥٢ ـ الاسلاموالاقتصاد، محمد المبارك، الاقتصاد الاسلامي، د.عبد الهادي النجار .
٥٣ ـ الديمقراطية اولا الديمقراطية اولا، د.عبد الرحمن منيف، المركزالثقافي العربي .
٥٤ ـ بيان من اجل الديمقراطية، د.برهان غليون، المركزالثقافي العربي .

المجلات والصحف

١ـ السياسية الدولية
٢ـ مجلة الوطن العربي
٣ـ مجلة الشورى الصادرة عن مجلس الشورى السعودي
٤ـ صحيفة الرأي العامالكويتية
٥ـ صحيفة الغد
٦ـ صحيفة السبيل
٧ـ صحيفة المجد
٨ـ العرب اليوم
٩ـ مجلة قضايا فكرية
١٠ـ مجلة المجلة

١١ـ برنامج ما وراء الخبر الذي تبثه الجزيرة
١٢ـ شبكة الانترنت
١٣ـ ارشيف مجلس النواب
١٤ـ صحيفة القدس العربي .

فهرس المحتويات